من بلاغة النظم القرآنى

دراسة بلاغية تحليلية
لمسائل المعانى والبيان والبديع
فى آيات الذكر الحكيم

الدكتور بسيونى عبد الفتاح فيود

أستاذ البلاغة والنقد فى كلية اللغة العربية
جامعة الأزهر بالقاهرة

مؤسسة المختار للنشر و التوزيع

من
بلاغة النظم القرآني

اسم الكتاب : بلاغة النظم القرآني

(دراسة بلاغية تطبيقية لمسائل المعاني والبيان والبديع)

اسم المؤلف : د. بسيونى عبد الفتاح فيود

الناشر: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010م

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

رقم الإيداع : 22952 / 2008

الترقيم الدولى : 1-147-382-977

مؤسسة المختار

للنشر والتوزيع

الإدارة : 6 ش عبد الحكيم الرفاعى - مدينة نصر - القاهرة

تليفون : 22713945 فاكس : 22713202

المكتبة : 33 ش محمد عبده - خلف جامع الأزهر - القاهرة

تليفون : 25105891

E-mail:mokhtar_est@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين، سبحانه علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم، خلق الإنسان فسواه فعدله وكرمه تكريما، وفضله على كثير من خلقه تفضيلا، وعلمه البيان "الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان".

نحمده حمدا كثيرا ونستغفره ونتوب إليه ونصلى ونسلم على خير خلقه، سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله الذى أوتى جوامع الكلم، وكان أفصح العرب، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، ومن تمسك بهديه ومضى على شريعته إلى يوم الدين.

وبعد:...

فهذه دراسات بلاغية تقوم على النظر فى القرآن الكريم وتأمل تراكيبه وتدبر تصويره، وضعتها لتكون شعاعا من نور يمضى فى ضوئه الدارس لكتاب الله عز وجل، الباحث عن أسراره ولطائفه..

وما من ريب فى أن تراكيب الكلام، وما لها من دلالات وخصائص، وما يكون بها من تصوير، تحتاج من الدارس إلى تمهل وتأن، وبحث وتنقير ـ كما يقول الزمخشرى ـ آونة وأزمنة.

ويعظم الأمر ويزداد خطرا إذا كانت تلك التراكيب التى ينظر فيها هى تراكيب

القرآن الكريم، ونظمه المبدع، وتصويره المعجز، الأمر إذاً ليس هينا، ولكنه جد خطير، يحتاج إلى مضاعفة الجهد، والتشمير عن السواعد، وطلب العون من العلى القدير.

لقد وجدت فى نفسى الرغبة فى أن أقوم بهذا العمل وأنهض به خدمة لكتاب الله المعجز، فلم أتردد، بل شمرت عن سواعد الجد، وأخذت الأمر مأخذ الحزم، وأقبلت على القرآن، أتأمل تراكيبه وأنظر فى تصويراته، لأكشف عن دلالاتها، وأبرز خصائصها ومزاياها، وأجلى شيئاً مما يكمن وراءها من لطائف وأسرار.

ثم أودعت ما من الله على بإيضاحه وإظهاره، وألهمنى تجليته وبيانه، أودعته هذا الكتاب، وسميته: "من بلاغة النظم القرآنى دراسات بلاغية تحليلية لمسائل المعانى والبيان والبديع فى آيات الذكر الحكيم".

فهو ثمرة عمل جاد، ودراسة متأنية، أسأل الله تبارك وتعالى أن تكون شعاعا من نور، يمضى فى ضوئه طلبة العلم ودارسوه، فينهضون بتجلية المزيد من لطائف الكتاب العزيز والكشف عن أسراره.

كما أضرع إليه جل فى علاه أن يجزينا خير الجزاء، وأن يوفقنا ويلهمنا الرشد والصواب، ويحفظنا من الزلل، إنه خير مسئول وهو نعم المولى ونعم النصير، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المؤلف

بسيونى عبد الفتاح فيود

الأستاذ فى جامعة الأزهر

لكل مقام مقال

قال تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾ . النساء ٨٥.

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴾ الإسراء ٩٠، ٩١.

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ البقرة ٤٩.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ إبراهيم ٦.

﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ الانعام ١٥٣.

﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ يوسف ١٠٨.

﴿ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ مريم ١٢-١٥.

﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ مريم ٣٠-٣٣.

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ يس ١٣-١٧.

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ القمر ١٨/ ٢٠.

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ الحاقة ٦-٧.

عندما نعم النظر فى النظم القرآنى، ونتأمل ألفاظه وتراكيبه، يبدو لنا اختلاف فى استخدام الألفاظ، وفى التراكيب، فهذه جملة مؤكدة، وتلك خالية من التوكيد، هذا اللفظ مفرد فى سياق وجمع فى سياق آخر، وذاك نكرة فى موضع ومعرفة فى موضع آخر، هذه الكلمة قدمت فى آية وأخرت فى آية أخرى، وردت مفردة فى موضع، وجمعا فى موضع آخر، أوثر التعبير فى هذا الموطن بلفظ، وبمرادف له فى موطن آخر، ووردت واو العطف فى تلك الآية ولم ترد فى الأخرى.

هذا الاختلاف وراءه أغراض قد اقتضته، وأسرار دعت إليه، إنه يرجع إلى أن لكل مقام مقالا، ولننظر فى هذه الآيات الكريمة ليتجلى لنا ما وراء اختلاف التعبير فيها من أسرار وأغراض.

ففى قوله تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ﴾ [1] أوثر التعبير بكلمة "نصيب" فى الشفاعة الحسنة، وبكلمة " كفل" فى الشفاعة السيئة، فلماذا؟ أبين النصيب والكفل فرق؟ وما هو؟ وهل أوثر التعبير بكل منهما فى موضعه من أجل هذا الفرق؟

(١) سورة النساء آية ٨٥.

إن الكفل فى اللغة معناه: النصيب، ولكن بينهما فرق دقيق ومن أجل هذا الفرق وجب أن يعبر بالنصيب فى الشفاعة الحسنة، وبالكفل فى الشفاعة السيئة، ويتجلى لنا ذلك فيما يلى:

١ ـ أن الكفل وإن كان بمعنى النصيب إلا أنه غلب فى الشر وندر فى الخير، ومن النادر قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ (١) إذ لم يرد الكفل فى الخير والرحمة فى النظم القرآنى إلا فى هذه الآية الكريمة، أما النصيب فعلى العكس كثر استعماله فى الخير، وندر فى الشر، فلقلة استعمال النصيب فى الشر، وكثرة استعمال الكفل فيه، غوير بينهما فى الآية الكريمة حيث أتى بالكفل مع السيئة، وبالنصيب مع الحسنة(٢).

٢ ـ قال بعض المحققين: الكفل هو المثل المساوى، والنصيب يشمل الزيادة عن المثل، فالتعبير بالنصيب فى جانب الحسنة للإشعار بأن جزاء الحسنة يضاعف، والتعبير بالكفل فى جانب السيئة للدلالة على أن من جاء بالسيئة فلا يجزى إلا بمثلها، ففى الآية إشارة إلى لطف الله تعالى بعباده(٣).

٣ ـ وقيل: الكفل يطلق على النصيب الذى يكون اعتماد الناس عليه، ولذا يقال: كفل البعير أى: حمى ظهره بذلك الكساء الذى يوضع عليه، وحمى الراكب عن الارتماس بظهره فيتأذى، ومنه قيل للضامن: كفيل، قال ﷺ: (أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة) وقال تعالى: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ (٤).

فلما كان الكفل هو النصيب الذى عليه اعتماد الناس، كان التعبير به فى جانب الشفاعة السيئة للدلالة على أن الشفاعة المؤدية إلى ضياع الحق وتقوية الباطل تكون عظيمة العقاب عند الله تعالى، إذ جزاؤها كفل أى: نصيب عليه الاعتماد(٥).

(١) سورة الحديد آية ٢٨.

(٢) انظر الفتوحات الإلهية ١/ ٤٠٧.

(٣) انظر روح المعانى ٥/ ٩٨.

(٤) سورة آل عمران آية ٣٧.

(٥) انظر تفسير الفخر الرازى ١٠/ ٢١٣.

٤ ـ التعبير بالكفل فى جانب الشفاعة السيئة يوحى بأن صاحب هذه الشفاعة متكفل بجرائرها التى نجمت عن شفاعته، فإن الكفل وإن كان بمعنى النصيب فى اللغة إلا أنه يحمل معنى الضمان والكفالة[(١)].

أرأيت كيف كان التعبير بلفظ "نصيب" ملائما للشفاعة الحسنة؟ وكيف كان التعبير بلفظ "كفل" ملائما للشفاعة السيئة؟ إن لكل مقام مقالا، فلفظ "نصيب" يلائم الشفاعة الحسنة، ولا يصلح فى الشفاعة السيئة، وكذا لفظ "كفل" يلائم الشفاعة السيئة، ولا يصلح استعماله فى الشفاعة الحسنة.

يقول ابن عطية: (وكتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظه، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد، ونحن تتبين لنا البراعة فى أكثره، ويخفى علينا وجهها فى مواضع، لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ فى سلامة الذوق وجودة القريحة)[(٢)].

ويتجلى لنا ذلك فى آيتى سورة الإسراء: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا﴾[(٣)] لأن الينبوع وهى العين التى لا ينضب ماؤها تختلف عن الأنهار الجارية، فقد أريد بتفجير الأنهار كثرة المياه، فجاءت الأنهار جمعا، وعبر فى جانبها بلفظ "تفجر" بضم التاء وتشديد الجيم من "فجر" الرباعى، ثم جئ بالمصدر "تفجيرا".

أما الينبوع فلم يرد بفجرها الكثرة، كثرة المياه، ولذا جاءت الينبوع مفردة، وعبر فى جانبها بلفظ "تفجر" بفتح التاء وضم الجيم من "فجر" الثلاثى، ولم يؤت بمصدره.

ولا يستقيم وضع إحدى اللفظتين فى مكان الأخرى، لقلة مياه الينبوع إذا ما قورنت بمياه الأنهار، فالذى يلائم الأنهار التفجير، والملائم للينبوع الفجر، ولذا نرجح قراءة التخفيف فى قوله تعالى: "تفجر لنا من الأرض ينبوعا" على قراءة من قرأ بالتشديد.

ونتأمل آيتى سورة البقرة وسورة إبراهيم، نجد فى سورة البقرة: ﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ

(١) انظر فى ظلال القرآن ٥/ ٧٢٥.
(٢) الإتقان ٤/ ٩.
(٣) سورة الإسراء ٩٠، ٩١.

ﵟٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡﵞ وفى سورة إبراهيم: ﵟيَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡﵞ لقد جاء التعبير بدون الواو فى سورة البقرة، فلم يعطف بها تذبيح الأبناء واستحياء النساء على سومهم سوء العذاب، بل وقع بيانا له وتفسيرا، ومثل ذلك جاء قوله تعالى فى سورة الأعراف: ﵟيَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡﵞ [1] فتقتيل الأبناء واستحياء النساء بيان لسوم سوء العذاب، أما فى سورة إبراهيم فقد جاء قوله تعالى: ﵟيَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡﵞ معطوفا فيه "التذبيح" بالواو على قوله تعالى: ﵟيَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِﵞ

إن العطف بالواو قد جعل التذبيح شيئا آخر سوى سوم سوء العذاب، لأن المقام فى سورة إبراهيم مقام تذكير بأيام الله تعالى، ومثل هذا المقام يقتضى تعداد النعم وتفصيلها، فجعل النجاة من التكاليف الشاقة ﵟيَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِﵞ نعمة تستوجب الشكر، والنجاة من التذبيح نعمة أخرى، والنجاة من استحياء النساء – أى : استبقاء البنات حتى يصرن نساء مشتهيات فيفترشن وينتهك عرضهن – نعمة ثالثة.

أما المقام فى سورة البقرة وسورة الأعراف فمقام تذكير بجنس النعمة، ومثل هذا المقام لا يحتاج إلى تعداد النعم، ولذا تركت الواو ووقع التذبيح والاستحياء بيانا لسوم سوء العذاب.

يقول الفخر الرازى: "إن الفائدة التى يجوز أن تكون هى المقصودة من ذكر حرف العطف فى سورة إبراهيم أن يقال: إنه تعالى قال قبل تلك الآية ﵟوَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِﵞ [2] والتذكير بأيام الله لا يحصل إلا بتعديد نعم الله تعالى فوجب أن يكون المراد من قوله ﵟيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡﵞ نوعا آخر ليكون التخلص منهما نوعين من النعمة، فلهذا وجب ذكر العطف هناك ـ أى فى سورة إبراهيم ـ وأما فى هذه الآية ـ آية سورة البقرة ـ فلم يرد الأمر إلا بتذكير جنس النعمة، وهى قوله تعالى: ﵟٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ

---

(١) سورة سورة الأعراف آية ١٤١.

(٢) سورة إبراهيم آية ٥.

﴿عَلَيْكُمْ﴾ فسواء كان المراد من سوء العذاب هو الذبح أو غيره، كان تذكير جنس النعمة حاصلا فظهر الفرق"[1]

وفى سورة الأنعام جاء التعبير عن ملة الإسلام بإفراد الصراط والسبيل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وجاء التعبير عن طرق أهل الزيغ والضلال بالجمع "ولا تتبعوا السبل" وهذا هو الملائم، لأن الطريق الموصل إلى مرضاة الله واحد لا ثانى له، وهو دينه الحق، ولذا أمر ـ ﷺ ـ فى سورة يوسف أن يقول للناس: إنه ماض على هذا الطريق الواضح الحق، يدعو إلى الله على بصيرة من نور الله وهديه ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾[2]

أفرد السبيل عندما أريد به دين الله وملة الإسلام، لأنها واحدة وواضحة، لا لبس فيها ولا اعوجاج، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[3] وقال عز وجل ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾[4].

وجمع عندما أريد طرق أهل الزيغ والضلال، لأنها متعددة معوجة لا تؤدى إلى خير ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ ومما يلاحظ فى آية سورة الأنبياء، أنه عندما أخبر من الملة بأنها واحدة، كان أهلها حاضرين يخاطبون ﴿أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ فلما تفرقوا وتقطعوا وصاروا شيعا، التفت عنهم، لأنهم غابوا عن سبيل الله، غابوا عن الخير والدين الحق، ولننعم النظر فى الآيتين: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾[5] لقد غيبوا، إذ لم يعودوا أهلا للخطاب عندما تركوا الملة الواحدة، وأزاغهم الشيطان، فتقطعوا أمرهم بينهم..

ولذا أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال: خط رسول

(١) تفسير الفخر الرازى ٣/ ٧٣.
(٢) سورة يوسف آية ١٠٨.
(٣) آل عمران آية ١٩.
(٤) سورة الأنبياء آية ٩٢.
(٥) الأنبياء ٩٢، ٩٣.

الله ﷺ خطا بيده ثم قال: (هذا سبيل الله تعالى مستقيما، ثم خط خطوطا عن يمين ذلك الخط، وعن شماله، ثم قال: وهذه السبل، ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ ﷺ: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ ..)[1].

هذا وقد وردت "السبيل" فى آيات الذكر الحكيم مفردة مرادا بها سبيل الغى والطاغوت، والإفساد والإجرام، كما وردت جمعا مرادا بها سبل الله، وسبل السلام، والهدى والحق، ووراء ذلك أسرار دقيقة ومعان جليلة، على نحو ما سنرى فى الإفراد والتثنية والجمع[2].

وفى الآيات الكريمة المذكورة من سورة مريم نجد أن السلام قد ألقى على كل من يحيى وعيسى ـ عليهما السلام ـ ولكن السلام الملقى على يحيى جاء نكرة ﴿ وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ والملقى على عيسى جاء معرفة ﴿ وَالسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ فهل اقتضى المقام تلك المخالفة؟

بتأمل النظم الكريم فى سياق القصتين يتجلى لنا ما يلى:

١ـ السلام الملقى على يحيى ـ عليه السلام ـ من قبل الله تعالى، والقليل منه تعالى كثير ومغـــن عن كل تحية، ولذا جاء نكرة، وبتتبع آيات الذكر الحكيم نجد أن السلام لم يـــرد من قبل الله تعالى إلا نكرة، لهذا الغرض، قال تعالى: ﴿ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾[3] وقال تعالى: ﴿ قِيلَ يَـٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾[4] وقال تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى الْعَـٰلَمِينَ ... سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ... سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ... سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾"[5].

يقول جار الله الزمخشرى معلقا على الآية الكريمة: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ

(١) روح المعانى ٨/ ٥٧.
(٢) انظر ص ٢٧، ٢٨.
(٣) سورة يس آية ٥٨.
(٤) سورة هود ية ٤٨.
(٥) سورة الصافات: الآيات ٧٩، ١٠٩، ١٢٠، ١٣٠.

وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (١).

يقول معلقا على تنكير لفظة (رضوان): "وشئ من رضوان الله أكبر من ذلك كله، لأن رضاه هو سبب كل فوز وسعادة، ولأنهم ينالون برضاه عنهم تعظيمه وكرامته، والكرامة أكبر أصناف الثواب، ولأن العبد إذا علم أن مولاه راض عنه فهو أكبر فى نفسه مما وراءه من النعم، وإنما تتهنأ له برضاه، كما إذا علم بسخطه تنغصت عليه، ولم يجد لها لذة وإن عظمت، وسمعت بعض أولى الهمة البعيدة، والنفس المرة من مشايخنا، يقول: لا تطمح عينى، ولا تنازع نفسى، إلى شئ مما وعد الله فى دار الكرامة، كما تطمح وتتنازع إلى رضاه عنى، وأن أحشر فى زمرة المهديين المرضيين عنده"(٢).

وأما السلام الملقى على عيسى ـ عليه السلام ـ فهو من قبل نفسه ومن قوله هو "قال إنى عبد الله... والسلام على" أى: وقال السلام على، ولذا جاء معرفا.

٢ ـ أن قصة يحيى قد تقدمت قصة عيسى فى السورة الكريمة، فيصح أن يكون التعريف فى (السلام) للعهد، ويكون المعنى: ذلك السلام الموجه إلى يحيى يوم مولده ويوم مماته ويوم يبعث حيا موجه إلىَّ فى المواطن الثلاثة..

٣ ـ فى سياق قصة عيسى اتهام لمريم ﴿ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ (٣) فيصح أن تكون اللام فى (والسلام) للجنس، والمعنى عندئذ على التعريض باللعنة والعذاب لمن اتهم مريم، وبيانه أن اللام للجنس، فإذا قال: وجنس السلام على خاصة، فقد عرض بأن ضده وهو اللعنة والعذاب عليهم.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ (٤) فهى تعريض بأن العذاب على من كذب وتولى، فلم يتبع هدى الله الذى أرسل به أنبياءه...

---

(١) سورة التوبة: آية ٧٢.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٠٢.

(٣) سورة مريم: ٢٧،٢٨.

(٤) طه: ٤٧

وهكذا يتجلى لنا أن المقام وسياق النظم الكريم قد اقتضى تنكير السلام الملقى على يحيى، وتعريف السلام الملقى على عيسى، عليهما وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وننظر فى الآيات الكريمة المذكورة من سورة يس نجدها تخبر عن أصحاب القرية، وما كان من تكذيبهم وإنكارهم، وما قاله الرسل الذين أرسلوا إليهم، لقد أرسل إليهم اثنان من الرسل (فكذبوهما) فكان التعزيز برسول ثالث، فقال الثلاثة: ﴿ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾، وجاء رد أصحاب القرية: ﴿ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ وفى مواجهة هذا الإنكار قالت الرسل: ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝١٦ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

وقع تكذيب من أصحاب القرية أخبر النظم القرآنى عنه بقوله (فكذبوهما) مجرد إخبار بوقوع التكذيب، والتكذيب يقتضى التوكيد، ولذا كان توكيد الرسل لرسالتهم إليهم ﴿ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ حيث أكد الخبر بإن، وتقديم الجار والمجرور (إليكم) على الخبر، واسمية الجملة.

لم يستجب أصحاب القرية فيقلعوا عن تكذيبهم ويؤمنوا، وإنما ازدادوا إنكارا وطغيانا، واشتد تكذيبهم ﴿ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ وازدياد الإنكار يقتضى زيادة التوكيد ومضاعفة وسائله، ولذا كانت إجابة الرسل: ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝١٦ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ لقد تضاعفت وسائل التوكيد فزيد على ما أكد به الخبر السابق جملة (ربنا يعلم) وهى بمثابة القسم، وزيدت اللام فى (لمرسلون) وزيد أسلوب القصر ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ الذى قصر مهمتهم على البلاغ المبين، لا تتجاوزه إلى إكراههم وقسرهم على الإيمان.

جاء التوكيد – كما نرى – ملائما لحال المخاطب، وما هو عليه من إنكار، وقد قرر البلاغيون أن أضرب الخبر ثلاثة: ابتدائى وطلبى وإنكارى.

فالابتدائى يلقى لخالى الذهن، ويكون بلا توكيد، كما فى قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ... أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ [1] فالمخاطب إزاء هذه الأحكام خالى الذهن، ولذا جاء إعلامه بها بلا توكيد.

---

(١) سورة البقرة: الآيتان ١٨٣، ١٨٧.

والطلبى يلقى للمتردد السائل الذى يشك ويرتاب فى الخبر، ولذا استحسن أن يؤكد له الخبر بمؤكد واحد دفعا لهذا الشك، كما فى قول بشار:

بكرا صاحبى قبل الهجير إن ذاك النجاح فى التبكير

فهو عندما أمر صاحبيه بالتبكير، شغلا بهذا الأمر، وفكرا فيما يمكن أن يكون فى التبكير حتى يؤمر به، فجاء التوكيد (إن ذاك النجاح فى التبكير) مطمئنا وحاسما لهذا التردد.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ (١) حيث شغل الصديق ـ رضى الله عنه ـ وقال لرسول الله ـ ﷺ ـ (لو نظر أحدهم فى موضع قدميه لأبصرنا) فلما فكر فى الأمر وانشغل به، كانت طمأنته بهذا التوكيد: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ ...مَعَنَا.﴾.

وأما الإنكارى فيلقى للمخاطب المنكر الذى يجحد الخبر ويكذب قائله، ويجب أن يؤكد بأكثر من مؤكد دفعا للإنكار، وذلك على نحو ما رأينا فى الآيات الكريمة من سورة يس.

ووسائل التوكيد كثيرة منها: إن وأن، ولام الابتداء، والقسم، ونون التوكيد، وحروف التنبيه نحو ألا وها، والحروف الزائدة، وقد وضمير الفصل والتقديم وطرق القصر، إلى غير ذلك من وسائل التوكيد.

هذا وقد يخاطب المخاطب، ويلقى إليه الخبر على خلاف ما تقتضى حاله لنكتة بلاغية، وعندئذ يكون الكلام قد خرج على خلاف مقتضى الظاهر، من أجل تلك النكتة البلاغية.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ (٢) تجد أن الإخبار

(١) سورة التوبة: آية ٤٠.

(٢) سورة المؤمنون: ١٤-١٦.

بوقوع الموت قد أكد بأكثر من مؤكد بإن واللام واسمية الجملة والتعبير عنه بالاسم (ميتون) ولم يؤكد الإخبار بالبعث إلا بمؤكدين: إن واسمية الجملة، والموت لم ينكر أحد وقوعه، وإنما أنكر البعث، فما سبب زيادة التوكيد فى الأول، وقلته فى الثانى، وقد كان ينبغى العكس؟

لقد نزل المخاطبون لتماديهم فى الغفلة وإعراضهم عن العمل والتفكير فيما بعد الموت، نزلوا منزلة من ينكر وقوعه، كما أن الموت يكره وقوعه، فلكراهة وقوعه كأنهم ينكرونه، وكذا قد فصلت الآيات الكريمة المتقدمة على هاتين الآيتين، فصلت خلق الإنسان، وكيف أبدع الله خلقه وأحسن صنعه، حتى قال فى ختام هذا التفصيل: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ فمن لم يشاهد الموت يستبعد إماتة من خلق بهذا الإبداع وبتلك الصفة العجيبة.

لهذه الأمور الثلاثة، وهى الغفلة، وكراهة النفوس للموت، وما تقدم من بيان الإبداع فى خلق الإنسان، أكد الموت الذى لم ينكر أحد وقوعه..

أما البعث فلكونه حياة بعد الموت، والنفوس محبة للحياة، كارهة للموت، ولكون الأدلة على وقوعه واضحة جلية، فقد نزل المنكرون له منزلة من يتردد فقط ويرتاب فى وقوعه، فهذا أقصى ما يمكن أن يكون فى شأن البعث.

ومما تجدر الإشارة إليه أن حال المخاطب ليست هى المعول عليه دائما فى إلقاء الخبر فقد يعول على غيرها كحال المتكلم نفسه، ومدى امتلائه بالخبر، فإن انفعل به، وامتلأت به نفسه أكده، وإلا ألقاه بلا توكيد..

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ (١) فإنه لا يخفى عليك عدم استقرار الخبر الأول" آمنا" فى نفوسهم، ولذا خلا من التوكيد، أما الخبر الثانى، فأنفسهم به ممتلئة ولذا جاء مؤكدا ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

وقد يؤكد دفعا لغرابته لكونه غريبا، كما فى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن

---

(١) سورة البقرة: ١٤.

﴿ شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (1). وقد يؤكد تحقيقا للوعد أو الوعيد، أو لمجيئه على خلاف ما كان يرجو المتكلم، إلى غير ذلك مما يعول عليه فى إلقاء الأخبار(2).

ونجد فى الآيات الكريمة المذكورة من سورتى القمر والحاقة تشبيهين لمصرع عاد قوم هود، حيث شبهوا فى إهلاكهم والريح تنزعهم بأعجاز النخل المنقعر ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ﴾ وذلك فى سورة القمر، وأما فى سورة الحاقة فقد شبهوا بأعجاز النخل الخاوية ﴿ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ﴾.

وكل تشبيه منهما يلائم السياق الذى ورد فيه، ولا يصلح أحدهما فى مكان الآخر، إن التشبيه فى سورة القمر يصور مصرع القوم فى بداية إرسال الريح ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ﴾ فالريح تنزعهم وهم يقاومون، ويعانون شدتها، وأنى لهم المقاومة، لقد أتت عليهم فصاروا كأعجاز النخل المنقعر، أى: المنقلع عن مغارسه، الساقط على الأرض، فما زالت به قوة وصلابة.

أما التشبيه فى سورة الحاقة، فهو يصور القوم وقد سخرت عليهم الريح سبع ليال وثمانية أيام حسوما، فصاروا عندئذ كأعجاز النخل الخاوية، أى: التى خلت أجوافها فصارت ضعيفة بالية.

لا يتأتى هنا فى سورة الحاقة أن يشبهوا بأعجاز النخل المنقعر، لأن هذا يتنافى مع وصف الريح بالعتو وقوة العصف، ويتعارض مع ذكر مدة التسخير، كما لا يتأتى هناك فى سورة القمر أن يشبهوا بأعجاز النخل الخاوية، لأن هذا يتناقض مع كون الإهلاك فى بداية الإرسال، ومع مقاومة القوم للريح (أرسلنا.. تنزع الناس).

أرأيت كيف ينسجم التشبيه فى موضعه فى كل من السورتين؟ وكيف يتلاءم مع السياق الذى سيق فيه؟ وكيف كان الأمر محالا إن حاولنا وضع أحدهما فى موضع الآخر؟ مع أن كلا التشبيهين فى تصوير مصارع عاد قوم هود... إن لكل مقام مقالا يحسن فيه ولا يصح فى غيره، مهما تشابه المقامان واقتربا، كما رأينا فى التشبيهين.

---

(1) سورة القصص: آية ٣٠.

(2) انظر كتابنا علم المعاني: جـ١ ص٥٠ وما بعدها.

ولذا استقر رأى البلاغيين على أن البلاغة مطابقة الكلام لما يقتضيه المقام، فقد عرفت البلاغة تعريفات شتى، قالوا: هى الإيجاز، وقالوا: هى معرفة الفصل والوصل، وقالوا: هى اختيار الكلام وتصحيح الأقسام، وقالوا: هى إجاعة اللفظ وإشباع المعنى، وقالوا: هى حسن العبارة وصحة الدلالة.

ورأى ابن المقفع أن البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة، فمنها ما يكون فى السكوت، ومنها ما يكون فى الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل، ومنها ما يكون ابتداء.

فعامة ما يكون من هذه الأبواب، الوحى فيها، والإشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة.

فأما الخطب بين السماطين، وفى إصلاح ذات البين، فالإكثار فى غير خطل، والإطالة فى غير إملال، وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك.

قال له سائل: فإن مل السامع الإطالة التى ذكرت إنها حق ذلك الموقف؟ فأجاب: إذا أعطيت كل مقام حقه، وقمت بالذى يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو، فإنهما لا يرضيهما شىء[(١)].

وقد استقر رأى البلاغيين فى تحديد مفهوم البلاغة على أنها: مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته، ولعل هذا التحديد لمفهوم البلاغة مستمد مما ذكره عبد الله بن المقفع.

الإفراد والتثنية والجمع

قال تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ البقرة: ٧.

﴿ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ الشعراء: ١٠٠، ١٠١.

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ٩٦، ١١٥

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ الحجر: ٢٢.

﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾ الذاريات: ٤١، ٤٢.

﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ البقرة: ٢٥٧.

﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٨٠.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ القمر ٥٤، ٥٥.

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ الرحمن: ٤٦.

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ محمد: ١٥.

﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ المزمل: ٨، ٩.

﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ الرحمن: ١٧، ١٨

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ المعارج: ٤٠، ٤١.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ الطلاق: ١٢.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الزمر: ٢١

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ آل عمران: ١٩٠.

﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الشعراء: ١٠٢.

﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ الملك: ٤.

عندما نتدبر آيات النظم الكريم، وننعم النظر فى ألفاظه يتجلى لنا أن هناك ألفاظا لازمت الإفراد، فلم يرد استعمال المثنى منها ولا الجمع وذلك مثل ألفاظ: النور والنار والأرض والسمع والصديق، ونجد ألفاظا أخرى لازمت الجمع كلفظ (الألباب). ولفظ (الظلمات)، وألفاظا استعملت مفردة وجمعا، مثل: الريح والرياح، السماء والسموات، السبيل والسبل، الولى والأولياء، البصر والأبصار، الفؤاد والأفئدة، الشفيع والشفعاء، وألفاظا وردت مفردة ومثناة ومجموعة، مثل: الجنة والمشرق والمغرب، وألفاظا جاءت مفردة ومثناة مثل: كرة وكرتين، بشر وبشرين.

ووراء هذا الاستخدام للألفاظ، أسرار ولطائف، تظهر لمن أنعم النظر، وألقى السمع وهو شهيد، فتعالوا ننظر ونتأمل لنقف على ما يوحى به الإفراد والتثنية والجمع من معان جليلة، فى ضوء الآيات الكريمة التى ذكرناها.

ألفاظ السمع والبصر والفؤاد والقلب، عندما ترد مضافة إلى جمع، كما فى الآية الكريمة ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ يكون السمع مفردا والقلوب والأبصار جمعا وقد عللوا ذلك بأن السمع فى أصله مصدر، والمصادر لا تجمع، فلمح الأصل، وبأن مدركات السمع نوع واحد وهو الأصوات، أما مدركات القلوب والأبصار، فألوان شتى، وأنواع مختلفة، فأشير بالجمع والإفراد إلى متعلق كل[(١)].

ولذا لم يرد لفظ (السمع) فى القرآن الكريم إلا مفردا، إشارة إلى أن متعلقه شىء واحد وهو الأصوات.

هذا شأن هذه الألفاظ عندما تكون مضافة إلى جمع، ولنقرأ الآيات: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم ﴾ .. ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ ﴾... ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ﴾[(٢)].

---

(١) انظر الإتقان ٢/ ٣٠١.

(٢) الآيات بالترتيب: الأنعام: ٤٦، الأحقاف: ٢٦، النحل: ١٠٨

أما إذا كانت مضافة إلى مفرد، أو دل السياق على أن المخاطب أو المتحدث عنه فرد واحد، فإن البصر والفؤاد يردان مفردين، كما فى الآيات: ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾.. ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً ﴾... ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾... ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[(١)].

لأن المراد بصر وفؤاد فرد واحد، فلا يتأتى الجمع عندئذ.

وكذا إذا أريد الدلالة على السرعة، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾[(٢)] فإن الغرض من التشبيه الدلالة على سرعة الوقوع، والذى يناسب ذلك لفظ (البصر) لا الأبصار.

ومما لازم الإفراد فى آيات الذكر الحكيم لفظ (الصديق) قال تعالى: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾[(٣)]. فقد جمع الشفيع وأفرد الصديق لكثرة الشفعاء فى العادة، وقلة الصديق، "ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم نهضت جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته رحمة له وحسبة، وإن لم يسبق له بأكثرهم معرفة، وأما الصديق وهو الصادق فى ودادك، الذى يهمه ما أهمك، فأعز من بيض الأنوق، وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق فقال: اسم لا معنى له"[(٤)].

ولنفس المعنى أفرد الصديق فى قوله تعالى: ﴿ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ

---

(١) الآيات بالترتيب: ق ٢٢، الجاثية ٢٣، النجم ١٧، الإسراء ٣٦

(٢) النحل: ٧٧.

(٣) الشعراء: ١٠٠، ١٠١.

(٤) الكشاف ٣/ ١١٩، و"أعز من بيض الأنوق" مثل يضرب لمن يعز وجوده، والأنوق بفتح الهمزة وضم النون: الرخمة بفتح الراء والخاء جمعها: الرخم، وهو نوع من الطير، موصوف بالغدر، وقد عز بيضها لأنه لا يظفر به، إذ أوكارها فى رءوس الجبال وفى الأماكن الصعبة البعيدة، قال الأخطل:

من الجاريات الحور مطلب سرها ... كبيض الأنوق المستكنة فى الوكر

انظر مجمع الأمثال للميدانى: جـ٢ ص ٣٩٠، ولسان العرب مادة: رخم.

﴿صَدِيقِكُمْ﴾[1] ولم يرد لفظ الصديق فى آيات الذكر الحكيم إلا فى هذين الموضعين، ولعل فى هذا ما يشعر بندرة الصديق الحميم، وقلة وجوده.

ومما ورد مفردا وجمعا لفظ (الريح) فحيث أريد الرحمة جاءت (الرياح) جمعا، وحيث أريد العذاب جاءت (الريح) مفردة، كما فى الآيتين المذكورتين: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ﴾.. ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ وذلك أن رياح الرحمة مختلفة الصفات والمهبات والمنافع، فهى لواقع، وهى بشرى، وهى تقل السحاب الثقال، وتثيره إلى حيث يشاء الله، وإذا هاجت منها ريح، أثير لها من مقابلها ريح أخرى تكسر من حدتها، وتضعف من شدتها، وتثبط من هيجانها، فينشأ من بينهما ريح لطيفة تنفع الحيوان والنبات، ولذا عبر فى الرحمة بالرياح جمعا.

وريح العذاب تهب من مهب واحد، لا معارض لها، ولذا فهى تهلك، وتدمر كل شئ بأمر بها، وما تذر من شئ أتت عليه إلا جعلته كالرميم، وهذا هو سبب إفراد الريح فى العذاب.

وأما قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾[2] فإن الريح الأولى ريح رحمة، وقد وصفت بأنها ريح طيبة، ولكنها أفردت ولم تأت جمعا لسببين:

١- مقابلتها بريح العذاب فى الآية الكريمة "جَاءَتْـهَا رِيحٌ عَاصِفٌ" ورب شئ يجوز فى المقابلة ولا يجوز استقلالا.

٢- أن تمام الرحمة فى الفلك تكون بوحدة الريح لا باختلافها، فإن السفينة لا تسير إلا بريح تهب من جهة واحدة، فإن اختلفت عليها المهاب كان الهلاك، الرحمة فى هذا المقام فى وحدة الريح، ولذا أفردت ووصفت بالطيب "ريح طيبة"[3].

وكذا القول فى الريح المسخرة لسليمان ـ عليه السلام ـ فقد جاءت فى التعبير القرآنى مفردة، قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾[4]

(١) النور: ٦١.

(٢) يونس: ٢٢.

(٣) انظر الإتقان ٢/ ٣٠٠.

(٤) سورة ص: آية ٣٦.

وذلك لأن هبوبها من جهة واحدة هو الذى يحقق الغاية من التسخير، حيث تجرى بأمره رخاء حيث أراد، أما اختلاف المهاب فيناقض ذلك، ولذا أفردت الريح لتتحقق الغاية من تسخيرها لسليمان عليه السلام.

ومن الألفاظ التى وردت مفردة وجمعا: الولى والأولياء، السبيل والسبل، السماء والسموات، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾[2].

فولى المؤمنين واحد، هو الله عز وجل، وأولياء الكفار متعددون متشعبون فى الضلال والإضلال، ولذا وحد ولى المؤمنين، وجمع أولياء الكفار، وكذا سبيل الحق واحدة، وسبل الباطل متعددة، فأفرد سبيل الحق وجمعت سبل الباطل[3].

ولما كانت الظلمات بمثابة طرق الباطل، والنور بمنزلة طريق الحق، فقد جمعت الظلمات، وأفرد النور، ولم يرد النور فى آيات الذكر الحكيم إلا مفردا، وكذا الظلمات لم ترد إلا جمعا، وذلك للإشعار بتعدد طرق الضلال وتشعبها، والدلالة على وضوح طريق الحق وجلائه.

هذا وقد وردت (السبل) جمعا مرادا بها سبل السلام والهدى والحق، قال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[5]، وهذا الجمع يشعر بوضوح طرق الحق وجلائها أمام طرق الباطل المعوجة، فما من سبيل من سبل الباطل والفساد والشر، إلا وترى سبيل الحق أمامها

(١) البقرة: ٢٥٧.

(٢) الأنعام: ١٥٣.

(٣) انظر: ص ١٤.

(٤) المائدة: ١٥، ١٦.

(٥) النعكبوت: ٦٩.

مشرقة واضحة، فهذه السبل – سبل الحق والهداية والسلام الواضحة المنيرة – كلها روافد تصب فى نهر واحد، هو صراط الله المستقيم ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً ﴾[1]. أى: سبيلا من سبل الخير والفلاح التى هدى الله إليها المتقين من عباده.

كما وردت (السبيل) مفردة مرادا بها سبيل الغى والطاغوت والفساد والإجرام، قال تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾[2]، وقال عز وجل: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[3]، وقال جل وعلا: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[4] وقال عز قائلا: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ﴾[5].

وهذا الإفراد وراءه سر دقيق ومغزى جليل، إنه ينبئ بوضوح هذه السبل، سبل الغى والطاغوت، والفساد والإجرام، ويشير إلى جلائها واستبانتها، وأنها لا تخفى على أحد، وعلى الرغم من ذلك فإن الكفار يقاتلون فيها، ويتبعونها، ويتخذونها سبيلا، فحق عليهم غضب الله وعقابه، ووجب على المسلمين مناهضتهم والتصدى لهم: ﴿ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾[6].

أما إفراد السماء وجمعها، فإن الجمع قد ورد فى المقامات الدالة على سعة العظمة، وكمال القدرة، كما فى الآيات الكريمة: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾... ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾... ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[7].

---

(١) المزمل: ١٩.
(٢) الأعراف: ١٤٦.
(٣) الأعراف: ١٤٢.
(٤) الأنعام: ٥٥.
(٥) النساء: ٧٦.
(٦) النساء: ٧٦ .
(٧) الآيات بالترتيب: الحديد ١، النمل ٦٥، يونس ١٠١.

وجاء الإفراد حيث أريد الجهة أو السماء الدنيا، كما في الآيات: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ ﴾ ... ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ ﴾... ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ (١).

ونرى (الأرض) قد لازمت الإفراد في النظم الكريم، فلم تجمع كما جمعت السموات، وعندما أريد الدلالة على العدد قال عز وجل: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ (٢) فلم يقل: وسبع أرضين، كما قيل: (سبع سموات) ولعل ذلك يرجع إلى ثقل جمع الأرض وهو "أرضون"(٣)...

ومما لازم الجمع لفظ "الألباب" فلم ترد في النظم الكريم إلا جمعاً، لثقل مفردها وهو لب، ولذا لما أريد المفرد عبر بالقلب، وبالفؤاد قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (٤) وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (٥).

ومما لازم الإفراد لفظ "النار" لأنها عذاب، فناسب ذلك إفرادها، على نحو ما رأينا في التعبير بالريح مفردة، أما الجنة فلكونها رحمة، ولكونها متعددة الأنهار والثمار والنعيم، مختلفة الأنواع، فقد جاءت مفردة ومثناة وجمعا، أفردت حيث أريد الدلالة على جنس الجنة ونوعها، كما في الآيات: ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ﴾... ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾... ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ (٦) وجمعت حيث أريد الدلالة على كثرة النعيم المعد فيها للمتقين، كما في الآيات الكريمة: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴾... ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾.. ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ (٧).

---

(١) الآيات بالترتيب: الذاريات ٢٢، الملك ١٦، الفرقان ٦١.
(٢) الطلاق ١٢.
(٣) انظر الإتقان ٢/ ٢٩٩.
(٤) ق ٣٧.
(٥) الإسراء ٣٦.
(٦) الآيات بالترتيب: آل عمران ١٣٣، محمد ١٥، مريم ٦٣.
(٧) الآيات بالترتيب: القمر ٥٤، التوبة ٧٢، الذاريات ١٥.

كما جاءت مثناة فى قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾[1] لأن الخطاب فى سورة الرحمن للثقلين، الإنس والجن، فكأنه قيل لكل خائفين منكما جنتان، جنة للخائف من الإنس، وجنة للخائف من الجن، ويجوز أن يقال: جنة لفعل الطاعات، وأخرى لترك المعاصى، أو جنة يثاب بها، وأخرى تضاف إليها على وجه التفضل والزيادة، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[2]..

ومن الألفاظ التى جاءت مفردة ومثناة وجمعاً، لفظ "المشرق" ولفظ" المغرب" فحيث أفردا أريد بهما الجهة، جهة المشرق وجهة المغرب، وحيث ثنيا أريد بهما مشرق الصيف والشتاء ومغربهما، وحيث جمعا أريد بهما تعدد المطالع فى كل فصل من فصول السنة، وفى كل جزء من أجزاء الأرض.

هذا وتثنية المشرق فى سورة الزخرف فى قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ ﴾[3] فمن باب التغليب، كالقمرين للشمس والقمر، إذ المراد بالمشرقين فى الآية: المشرق والمغرب، أما تثنيتهما فى سورة الرحمن، فقد أريد بهما مشرق الصيف والشتاء، ومغربهما ـ كما ذكرنا ـ وقد حسن تثنية المشرق والمغرب فى هذه السورة، لأن سياقها سياق المزدوجين، فإنه عز وجل قد ذكر الخلق والتعليم وهما نوعا الإيجاد، والشمس والقمر وهما سراجا العالم، والنجم والشجر وهما نوعا النبات، والسماء والأرض، والإنس والجن والمشرق والمغرب، والملح والعذب، فالسياق ـ كما قلت ـ سياق المزدوجين، ولذا حسن تثنية المشرق والمغرب فى هذه السورة الكريمة[4].

وجمع المشرق والمغرب فى سورة الأعراف ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾[5] وفى سورة الصافات ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴾[6] وفى سورة المعارج ﴿ فَلَآ

---

(١) الرحمن ٤٦ .
(٢) يونس ٢٦ وانظر الكشاف ٤/ ٤٩ .
(٣) الزخرف ٣٨ .
(٤) انظر الإتقان ٢/ ٣٠٢ .
(٥) الأعراف ١٣٧ .
(٦) الصفات ٥ .

﴿أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾[1] هذا الجمع للمشرق وللمغرب يؤذن بسعة القدرة الإلهية، ويشعر بكمال العظمة والسلطان.

ومن الألفاظ التى جاءت مفردة ومثناة لفظ (الكرة) جاءت مفردة فى مواضع كثيرة ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾... ﴿قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾[2] ولا يخفى عليك أن إفراد الكرة فى الآيات الكريمة يدل على المرة الواحدة، فهم يتمنون الرجوع إلى الدنيا رجعة واحدة، كى يغيروا نهجهم، ويستقيموا على الطريقة.

أما تثنيتها فقد جاءت فى موضع واحد من آيات الذكر الحكيم، وذلك فى قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[3] والمراد بالتثنية فى الآية الكريمة التكرير والتكثير والتتابع، كما قالوا فى "لبيك اللهم لبيك" إن المراد تلبية إثر تلبية.

فليس المراد بتثنية الكرة رجوع البصر كرتين اثنتين، وإنما المراد التكثير وتكرير الرجوع مرات عديدة، وقد أوثر التعبير بالمثنى "كرتين" للدلالة على التتابع، والمعنى: ثم ارجع البصر رجعة بعد رجعة، ارجعه رجعات كثيرة بعضها فى أثر بعض، فلن ترى خللا بعد هذا الرجوع، بل سينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير.

التعريف والتنكير

قال تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ الحجر ٩

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ سبأ : ٥١

﴿فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ الاعراف ٨٧

---

(١) المعارج ٤٠.

(٢) الآيات بالترتيب: الشعراء ١٠٢، البقرة ١٦٧، النازعات ١٢.

(٣) الملك ٣، ٤.

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ الإخلاص ١، ٢

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ الفتح ٢٩

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ المسد ١، ٢

﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ يوسف ٢٣

﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۝٧٨ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ طه ٧٨، ٧٩

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ البقرة ١، ٢

﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ النور ٤٤

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ المؤمنون ١٠، ١١

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ البقرة ١٣

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ آل عمران ٣٧

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ إبراهيم ٣٥

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ البقرة ٦١

﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ طه ١٢٣

﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ الجن ١٩

﴿ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ﴾ البقرة ٢٣٣.

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ البقرة ٩٦

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ مريم ٤٥

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ البقرة ٢٧٩.

﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ الجاثية ٣٢

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ آل عمران ١١٢

وراء كل من التعريف والتنكير أسرار ومزايا بلاغية، تتجلى لمن أنعم النظر فى سياقات الكلام، ووقف على مواقع أجزائه، لأن النكرة لها دلالات وإيحاءات لا تكون للمعرفة، وكذلك المعرفة لها دلالاتها وإيحاءاتها. ونحن نعلم أن أنواع المعارف ستة: الضمائر والعلم وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة والمعرف بالألف واللام والمعرف بالإضافة، وللتعريف بكل نوع من هذه الأنواع مزايا ولطائف ستتجلى لنا من خلال النظر فى الآيات الكريمة، وتأمل سياقاتها، والوقوف على قرائن أحوالها.

إن التعريف بضمير التكلم فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[1] فيه تأكيد لحفظ الذكر الحكيم وبث للطمأنينة فى نفوس المؤمنين، الذين تطلعوا إلى حفظ القرآن من التغيير والتبديل الذى لحق بالكتب الأخرى كالتوراة والإنجيل، إذ امتدت إليها يد البشر بالتغيير والتحريف، وهذا ما أقلق المؤمنين، وأزعج نفوسهم، وجعلهم يتطلعون إلى حفظ القرآن الكريم، فكان التعريف بضمير التكلم، وإسناد الحفظ إلى "نا" العظمة ليطمئن المؤمن ويقر عينا بحفظ الله تعالى للذكر الحكيم.

وخذ قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2] تجد أن التعريف بضمير التكلم "إنى أنا الله" قد أفاد من التلطف والإيناس ما لا يفيده غيره، خاصة وأن المقام يحتاج إلى هذا التلطف وذاك الإيناس، كى يتبدد ما حل بموسى ـ عليه السلام ـ من قلق وخوف.

---

(١) الحجر ٩.

(٢) القصص ٣٠.

ويكثر التعريف بضمير التكلم فى مقامات الفخر والاعتداد بالنفس، على نحو ما نرى فى قول المتنبى:

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ... وأسمعت كلماتى من به صمم

وقول بشار:

أنا المرعث لا أخفى على أحد ... ذرت بى الشمس للقاصى وللدانى

والأصل فى ضمير الخطاب أن يكون لمعين مشاهد، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾(١) وقد يخاطب غير المشاهد لمعنى لطيف، كما فى قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾(٢) فتوجه المؤمن إلى ربه عز وجل بالخطاب يشعر بمدى القرب، وتعلق فؤاد المؤمن بربه وحضوره فى ذهنه، ومن أجل ذلك كان الخطاب.

كما قد يخاطب غير المعين لداع بلاغى، على نحو ما نرى فى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾(٣) فالخطاب فى قوله تعالى: "ترى" قد أريد به كل من يتأتى خطابه، وهذا يشعر بظهور حال المجرمين لكل راء.

وضمير الغائب لابد له من مرجع يرجع إليه لفظا كما فى قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾(٤) فضمير الغائب "هو" يرجع إلى لفظ الجلالة المتقدم ذكره فى الآية الكريمة.

أو معنى بأن يكون المرجع فى حكم الملفوظ به، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾(٥) فضمير الغائب "هو" يعود إلى الرجوع المفهوم من قوله تعالى "ارجعوا"..

---

(١) الأحزاب ٣٧ .

(٢) الفاتحة ٥، ٦ .

(٣) السجدة ١٢.

(٤) الأعراف ٨٧ .

(٥) النور ٢٨.

وقد لا يوجد له مرجع لا لفظا ولا معنى، وإنما يفهم مرجعه من السياق وقرائن الأحوال، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾[1].

فالضمير المستتر فى قوله "توارت" تقديره "هى" ويرجع إلى الشمس التى لم يسبق لها ذكر، وإنما دلت عليها قرائن الأحوال وسياق الآيات، من فوات وقت الصلاة، وذكر وقت العشى، والتوارى بالحجاب.

وقد يكـون الضمـير للشـأن أو القصـة، فيكون إيضاحه فى الجملة المذكورة بعده، كما فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾[2] وقوله عز وجل: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾[3] فالضمير فى الآية الأولى ضمير الشأن وقد فسر بما بعده، والضمير فى الآية الثانية ضمير القصة وفسر أيضاً بما بعده، ولا يخفى علينا ما فى ذلك من الإيضاح بعد الإبهام، وما له من أثر ووقع فى النفس..

ويأتى التعريف بالعلمية لأغراض شتى، منها إحضاره بعينه فى ذهن السامع ابتداء باسم مختص به، كما فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾[4] فقد اقتضى المقام، مقام الرد على الملحدين، وإيضاح التوحيد، أن يصرح بلفظ الجلالة، منتسبة إليه الوحدانية والصمدية، فلفظ الجلالة أنسب بهذا المقام دون سائر المعارف.

ونحو ذلك أن يصرح بلفظ الجلالة عند ذكر الأمور التى تختص به عز وجل ولا تنسب إلا إليه تبارك وتعالى، كما فى قوله جل وعلا: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[5] وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾[6].

(١) سورة ص ٣٠-٣١.
(٢) المؤمنون ١١٧.
(٣) الحج ٤٦.
(٤) الإخلاص ١، ٢.
(٥) الرعد ٨.
(٦)الانعام ١٢٤.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[1] فقد قصد إلى إحضاره ـ ﷺ بعينه، وأن يصرح بانتساب الرسالة إلى ذاته زجرا للمعاندين، وردعا للكافرين، وإبطالا للمنكرين رسالته ـ ﷺ.

وقد يكون التعريف بالعلمية للتعظيم، أو للإهانة والتحقير كما فى قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ﴾[2] وقوله عز وجل: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾[3] ففى الآية الأولى ذكر يعقوب ـ عليه السلام ـ بلقبه "إسرايل" ومعناه: عبد الله أو صفى الله من خلقه، وقد ذكر يعقوب ـ عليه السلام ـ بلقبه: "إسرائيل" تعظيما له بكونه عبد الله وصفوته من خلقه..

ولم يخاطب اليهود فى القرآن إلا بقوله تعالى: "يا بنى إسرائيل" دون: يا بنى يعقوب، لنكتة لطيفة، وهى أنهم خوطبوا بعبادة الله، وذكروا بدين أسلافهم، موعظة لهم، وتنبيها من غفلتهم، حيث سموا بالاسم الذى فيه تذكرة بالله تعالى، فإن "إسرائيل" اسم مضاف إلى الله تعالى فى التأويل[4]..

وفى الآية الثانية ذكر "عبد العزى" بكنيته "أبى لهب" إهانة له وتحقيرا، وإشارة إلى أنه من أهل جهنم، ومن أصحاب السعير، وقد غلبت عليه هذه الكنية، فلم يكد يعرف إلا بها، ومن ذا الذى يعرف أن اسمه عبد العزى إلا من أخبر بذلك؟

وللتعريف بالأسماء الموصولة مزايا لطيفة، ومعان دقيقة، مردها إلى جملة الصلة، وما يكمن فى أبنيتها مما لا يوجد فى أنواع المعارف الأخرى، فبتأمل جملة الصلة، والإحاطة بمعانيها، يتجلى لنا العديد من المزايا واللطائف.

ولننظر فى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾[5] نجد أن جملة الصلة وما

---

(١) الفتح ٢٩.

(٢) مريم ٥٨.

(٣) المسد ١، ٢.

(٤) انظر الإتقان ٤/ ٧٧ وكلمة "إسرائيل" معناها: عبد الله، فإسرا هو العبد، وإيل هو الله بالعبرانية. انظر تفسير الطبرى ١/ ٥٥٣.

(٥) الأحقاف ١٧.

ذكر بها من الوالدين، وكلمة "أف" التى قيلت لهما، نجد فى ذلك تنفيرا من هذا القول، وإهانة لقائله، وسترا عليه إذ لم يصرح باسمه، وتلك المعانى لا تتأتى إلا بجملة الصلة، وما صرح به فيها.

وخذ قوله تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾[1] تجد أن جملة الصلة "هو فى بيتها".

قد أكدت ثلاثة معان، وزادتها تقريرا وتحقيقا، وتلك المعانى هى:

١- نزاهة يوسف ـ عليه السلام ـ وهى الغرض المسوق له الكلام، إنه فى بيت المرأة، وهى متمكنة منه، وقد غلقت الأبواب وقالت هيت لك، ومع ذلك أعرض ونأى، وقال "معاذ الله" ففى هذا زيادة تقرير وتأكيد لنزاهته ـ عليه السلام.

٢- المراودة "راودته" فإن وجوده فى بيتها، وانفرادها به، مما يدعو إلى تمكنها منه، وإقبالها على مراودته، والتفنن فى تلك المراودة.

٣- تأكيد أن فاعل المراودة امرأة العزيز، ودفع احتمال أن تكون المراودة امرأة أخرى شبيهة بها، ولنتأمل الآية" راودته التى هو فى بيتها" وننظر فى قولنا: راودته امرأة العزيز، أو راودته زليخا، إن الآية أكدت أنها هى المراودة، ومرجع ذلك إلى جملة الصلة، أما القول المذكور ففيه احتمال أن تكون المراودة امرأة عزيز آخر، أو امرأة أخرى شابه اسمها اسم امرأة العزيز.

هذا ووراء التعبير بالاسم الموصول فى الآية الكريمة سر بلاغى آخر، وهو استهجان التصريح باسمها أو بنسبتها إلى العزيز، لأن من تقبل على فعل الفاحشة، تنفر منها النفوس، وتكره الألسن التفوه باسمها، وتأبى الطباع نسبتها إلى زوجها وهو ذو الشأن، إنه العزيز، وهى بما فعلت صارت لا تستحق أن تنتسب إليه.

ومن أغراض التعريف بجملة الصلة تنبيه المخاطب إلى خطئه، كما فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾[2] فجملة الصلة "تدعون من دون الله" نبهت المشركين إلى خطئهم فى عبادتهم غير الله تعالى.

(١) يوسف ٢٣.

(٢) الأعراف ١٩٤.

ومنها الإيماء إلى وجه بناء الخبر كما فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾[1] وقوله عز وجل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[2] فقد أومأت جملة الصلة فى كل آية إلى الخبر المذكور فيها وأشارت إلى وجه بنائه.

ومنها إفادة معنى التفخيم والتهويل، على نحو ما نرى فى قوله تعالى: ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾[3] فالاسم الموصول "ما" فيه إبهام أدى إلى التهويل والتفخيم، ولو قلنا: فغشيهم من اليم أمور عظيمة هائلة، ما أفاد هذا القول التهويل الذى أفاده الاسم الموصول.

ويأتى التعريف بأسماء الإشارة لأغراض شتى، يرجع تحقيقها إلى دلالات أسماء الإشارة، وما بها من قرب وبعد وتميز وتجسيد، فهذه المعانى الكامنة فى دلالة أسماء الإشارة، تستخدم لتحقيق أغراض شتى، ومزايا عديدة..

ففى قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾[4] نجد أن اسم الإشارة "هذا" قد جسد المشار إليه، وهو خلق السموات، وإلقاء الرواسى فى الأرض، وبث الدواب، وإنزال الماء من السماء، وإنبات الأزواج فى الأرض، فهذه المعانى قد تجسدت باسم الإشارة، وتميزت أكمل تميز، وأحضرت فى ذهن السامع محسة مشاهدة..

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾[5] فالتعريف باسم الإشارة قد أبرز التقليب، تقليب الليل والنهار، فى صورة محسة مشاهدة، وميزه أكمل تمييز، وفى إيثار التعبير باسم الإشارة الموضوع للبعيد "ذلك" فى الآية الكريمة معنى لطيف، هو الإشعار ببعد المنال، إذ لا ينال العظة من هذا التقليب إلا النفوس المؤمنة القوية، المهيأة للوعى والإدراك.

(١) فصلت ٣٠.
(٢) غافر ٦٠.
(٣) طه ٧٨.
(٤) لقمان ١٠، ١١.
(٥) النور ٤٤.

ويستخدم القرب والبعد الحسيان اللذان وضعت لهما أسماء الإشارة، لإفادة معانى التعظيم والتحقير، وذلك بتنزيل القرب أو البعد المعنوى منزلة القرب أو البعد الحسى الذى وضعت له أسماء الإشارة.

ويتجلى لنا ذلك فى هذه الآيات الكريمة: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾... ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾.. ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾... ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[1].

فقد أشير إلى النبى - ﷺ - باسم الإشارة الموضوع للقريب "هذا" تحقيرا له - فى اعتقادهم - وإعلانا عن رفضهم رسالته، وأنه غير جدير بالرسالة، لقربه وانحطاط منزلته.

وأشير إلى القرآن باسم الإشارة الموضوع للقريب "إن هذا القرآن" تعظيما له، ودلالة على قرب نفعه لمن أراد أن ينتفع، إذ المقام مقام حديث عن هدايته إلى أقوم طريق، وكلما كان الهادى قريبا كان أنجح لهدايته، وأقطع لعذر من ينصرف عن الانتفاع به والاسترشاد بهديه.

ودلت الإشارة بالبعيد "فذلك الذى يدع اليتيم" على تحقير المكذب بالدين، الذى يدع اليتيم، وبعد منزلته فى الدنو والانحطاط، وحرمانه من القرب وشرف الحضور.

ودلت الإشارة إلى القرآن بالبعيد "ذلك الكتاب" على بعد منزلته، وعلو مكانته، وبلوغه الغاية فى الكمال والهداية.

أرأيت كيف نزل البعد المعنوى أو القرب المعنوى منزلة البعد أو القرب الحسى؟ وكيف استغل هذا المعنى فى أسماء الإشارة للدلالة على التعظيم أو التحقير بمعونة السياق وقرائن الأحوال؟

ومن ألطف مواقع اسم الإشارة فى آيات الذكر الحكيم أن يذكر بعد عدة صفات للمشار إليه فيدل على أن المشار إليه قد استحق الجزاء المذكور بعد من أجل تلك

---

(١) الآيات بالترتيب: الفرقان ٤١، الإسراء ٩، الماعون ١، ٢، البقرة ١، ٢ .

الصفات المتقدمة، وذلك كما فى قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[1] لقد افتتحت السورة الكريمة بذكر فلاح المؤمنين، ثم تتابعت أوصافهم، وجاء بعد هذا التتابع اسم الإشارة "أولئك" فدل على استحقاق المؤمنين إرث الفردوس من أجل تلك الصفات التى وصفوا بها.

ومن مزايا التعريف باسم الاشارة فى آيات الذكر الحكيم، إغناؤه عن إعادة جمل عديدة، كما فى قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾[2] فقد أغنى اسم الإشارة عن إعادة معانى آيات كثيرة تقدمت مشتملة على العديد من الأوامر والنواهى، ولولا اسم الإشارة الذى أشير به إليها، ما حسن طيها والاستغناء عنها.

ووراء التعريف "بأل" مزايا بلاغية عديدة تتجلى لمن تأمل بوعى وأحاط بسياق الآيات الكريمة التى ورد بها التعريف، ففى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ ﴾ نجد أن "أل" فى "الناس" يصح أن تكون للعهد، والمعنى: كما آمن النبى - ﷺ - ومن آمن معه، ويصح أن تكون للجنس، والمعنى: كما آمن جنس الناس، والجنسية هنا - كما يقول الزمخشرى - يتولد منها معنى لطيف، لأنها تشير إلى أنهم هم الناس الكاملون فى الإنسانية، فالذين آمنوا هم جنس الناس، ومعدن الإنسانية، ومن عداهم ليسوا منها فى شئ[3].

وانظر فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ ﴾ إلى قوله تعالى فى ختام الآية: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[4] فقد جاءت كلمة "الحق" هنا معرفة، بينما جاءت نكرة فى سورة آل عمران: ﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾[5]... ﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾[6] ويرجع ذلك إلى أن الآية من سورة البقرة تتحدث عن السلف من بنى إسرائيل الذين قالوا لموسى -

---

(١) المؤمنون ١٠، ١١.
(٢) الإسراء ٣٩ .
(٣) الكشاف ١/ ١٨٢.
(٤) البقرة ٦١ .
(٥) آل عمران ٢١ .
(٦) آل عمران ١١٢ .

عليه السلام ـ "لن نصبر على طعام واحد" وهؤلاء الحق واضح لديهم لقرب عهدهم به، ولذلك عرف بالألف واللام، وعلى الرغم من وضوح الحق لديهم، فقد صنعوا ما صنعوا وارتكبوا ما ارتكبوا من قتل النبيين. أما آيتا سورة آل عمران فتتحدثان عن الخلف من بني إسرائل الذين ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا، وهؤلاء مع طول العهد والزمن ما جدت لهم شبهة واحدة يتعلقون بها في قتلهم أنبياء الله، ولذا جاء الحق هنا نكرة "بغير حق" أي: بغير وجه ـ يكون قد بدا لهم ـ من وجوه الحق..

وخذ قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾[1] وقوله عز وجل ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾[2] فقد جاء في البقرة "بلداً" بالتنكير، وجاء في سورة إبراهيم "البلد" بالتعريف، وذلك لأن ما في سورة البقرة دعا به قبل مصيره بلداً، عندما ترك هاجر وإسماعيل به وهو واد غير ذي زرع، فدعا بأن يصير بلداً آمنا.

وأما في سورة إبراهيم فقد دعا به بعد مصيره بلداً وسكنى جرهم به، ولذا جاء معرفا "هذا البلد"[3].

وكما يكتسب الاسم النكرة التعريف بإضافته إلى إحدى المعارف المذكورة، فإن الإضافة تلقى بظلالها على هذا التعريف، فنجد العديد من المزايا واللطائف البلاغية..

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ﴾[4] تجد أن الولد قد أضيف إلى أمه وإلى أبيه "بولدها.. بولده" استعطافا لهما وحثا على الإشفاق عليه، والكف عن مضرته، وعن المضارة بينهما، فإن عاقبتها ترجع إليه... يقول الزمخشري: "فإن قلت: كيف قيل: بولدها وبولده؟ قلت: لما نهيت المرأة عن المضارة أضيف إليها الولد استعطافا لها عليه، وأنه ليس بأجنبي منها، فمن حقها أن تشفق عليه، وكذلك الوالد"[5].

---

(١) البقرة ١٢٦ .

(٢) إبراهيم ٣٥ .

(٣) انظر الإتقان ٣/ ٣٤٣.

(٤) البقرة ٢٣٣ .

(٥) الكشاف ١/ ٣٧١ .

وتأمل إضافة كلمة "عبد" إلى الله تعالى فى الآيات الكريمة: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾... ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴾... ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾(١) وكيف أفادت تلك الإضافة تعظيم المضاف وتشريفه، ولذا حق للقائل أن يقول:

وممـــا زادنـــى شـــرفا وتـــيها ... وكـــدت بأخمـــصى أطـــأ الثـــريا

دخـــولى تحـــت قـــولك "يـــا عـــباد: ... وأن جعلـــت أحمـــــد لى نبـــــيا

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾(٢) فقد أفادت إضافة كل من الهدى والذكر إلى الذات العلية "هداى.. ذكرى" التعظيم، وإعلاء شأن الهدى والذكر، ونبهت إلى وجوب القبول، وضرورة الاتباع، فإن هدى وذكرا ذاك شأنهما لحريان بوجوب التمسك بهما، وحسن الانقياد لهما، ففى هذا الفلاح كل الفلاح والفوز كل الفوز، وفيما عداه البوار والخسران..

ومما تفيده الإضافة الإغناء عن تفصيل يتعذر، وهذا كثير فى آيات الذكر الحكيم، نحو: قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وأصحاب الأيكة وأصحاب الفيل وأصحاب الأخدود، فقد أغنت هذه الإضافة عن تفصيل يتعذر، إذ يتعذر الإحاطة بالمضاف فى مثل هذه الإضافات ويستحيل ذكره وتفصيله.

ويقع الاسم نكرة للدلالة على أحد أمرين: النوعية، أو أنه فرد غير معين من أفراد جنسه، تقول: جاءنى رجل، تريد بذلك الإفراد، والمعنى: جاءنى رجل واحد لا رجلان، أو تريد النوع، أى: جاءنى رجل لا امرأة، النكرة صالحة للدلالة على أحد هذين الأمرين.

وقد تتمحض بالوصف للدلالة على العدد فقد، أو النوع فقط، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾(٣) وقوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن

(١) الآيات بالترتيب: الجن ١٩، مريم ٣٠، الفرقان ٦٣.
(٢) طه ١٢٣، ١٢٤.
(٣) النحل ٥١.

﴿ دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم ﴾(١) تمحضت النكرة في الآية الأولى بالوصف للدلالة على العدد، وفي الثانية للدلالة على النوع.

هذا وقد يقصد بالنكرة الدلالة على معان كثيرة، منها إرادة النوعية أي: الدلالة على نوع خاص غريب، غير معهود ولا معروف، كما في قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٌ ﴾(٢) أفاد تنكير "غشاوة" الدلالة على أنها نوع غريب من الغشاوة، متميز عن سائر الغشاوات، لا يعرفه الناس، ولا يعهدونه، فهو يغطي ما لا يغطيه شيء من الغشاوات المعهودة.

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾(٣) أي: على نوع من أنواع الحياة يكون زائدا ومميزا عن حياة الناس.

ومنها الدلالة على التكثير، كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴾(٤) فقد دل تنكير الأجر على أنهم يريدون الكثرة ومضاعفة الأجر، إن تحققت لهم الغلبة على موسى ـ عليه السلام ـ.

وأجابهم فرعون بأن لهم ما أرادوا وزيادة ﴿ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾(٥).

ومنها الدلالة على التعظيم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾(٦) فقد دل تنكير الحياة على أن الحياة التي يحققها القصاص حياة عظيمة، ومما دل تنكيره على التكثير والتعظيم معا، قوله تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٌ مِّن قَبۡلِكَ ﴾(٧) إذ المقام مقام تسلية للرسول ﷺ وقد دل تنكير "رسل" على أنهم رسل عظام كثيرو العدد، وهذا ما يلائم مقام التسلية.

ومما أفاد تنكيره التعظيم والتهويل قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٍ مِّنَ

---

(١) الأنعام ٣٨.
(٢) البقرة ٧.
(٣) البقرة ٩٦.
(٤) الأعراف ١١٣.
(٥) الاعراف ١١٤.
(٦) البقرة ١٧٩.
(٧) فاطر ٤.

﴿ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[1] الآية في سياق النهى عن الربا والكف عنه، ومن لم ينته فليأذن بحرب من الله ورسوله، دل تنكير "حرب" على التعظيم والتهويل، ومن ذا الذى يطيق حربا من الله ورسوله؟

ومنها الدلالة على التقليل كما فى قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[2] دل تنكير "رضوان على أن القليل من رضوانه تعالى أكبر من كل نعيم، فالمعنى: وشىء ما من رضوان الله تعالى أكبر من ذلك كله، لأن رضاه سبب كل فلاح وفوز.

ومن ذلك مجيء السلام على يحيى ـ عليه السلام ـ نكرة فى قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾[3] ومجيئه على عيسى عليه السلام معرفا فى قوله ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[4] لأن السلام الملقى على عيسى من قبل نفسه والملقى على يحيى من قبل الله تعالى، والقليل منه تعالى كثير، ولذا لم يرد السلام من جهة الله تعالى فى النظم القرآنى إلا نكرة[5].

ومنها الدلالة على التحقير، كما فى قوله تعالى: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[6] أى: إن نظن إلا ظنا حقيرا لا يعبأ به، ولذا لم يتبعوه، ومثله قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾[7] أى: من شىء حقير مهين، وقد بينه بقوله "من نطفة خلقه".

وانظر فى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾[8] وتأمل ماذا يفيد تنكير كلمة "عذاب"؟ أيفيد التعظيم والتهويل أم يفيد التقليل والتحقير؟

---

(١) البقرة ٢٧٩.
(٢) التوبة ٧٢.
(٣) مريم ١٥.
(٤) مريم ٣٣.
(٥) ارجع إلى ص ١٥، ١٦.
(٦) الجاثية ٣٢.
(٧) عبس ١٧-١٩.
(٨) مريم ٤٥.

رأى البلاغيون أن تنكير "عذاب" يدل على أنه عذاب عظيم هائل، لا يحيط به الوصف، وأن هذا لا يتعارض مع ذكر المس "أن يمسك" ولا مع ذكر الرحمن في الآية الكريمة، لأن المس ذكر مع العذاب العظيم، قال تعالى: ﴿ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1] ولأن عذاب الرحمن يكون أشد، وغضبه أعظم، ومن أجل هذا أمر باتقاء شر الحليم، واستعيذ بالله من غضبته.

ويرى الزمخشري أن تنكير "عذاب" يدل على التقليل، إذ الكلام لم يخل من حسن أدب الابن مع أبيه، فهو لم يصرح بأن العذاب لاحق به ومصيبه، بل جعله خوفا منه "إني أخاف" وذكر أنه مس، والمس أقل تمكنا من الإصابة، ثم نكر العذاب، وذكر الرحمن ولذا فهو يرى أن تنكير "عذاب" للدلالة على التقليل والتحقير، وليس للدلالة على التعظيم والتهويل، كما ذكر البلاغيون[2].

التوابع والقيود

قال تعالى:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ سورة الفاتحة.

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ الأعراف ٧٥.

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾ الفرقان ٦٨، ٦٩.

﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾ المائدة ٩٧.

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ الإسراء ٢٩.

---

(١) النور ١٤.

(٢) انظر الكشاف ٢/ ٥١١

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ الحجر ٣٠، ٣١.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۝ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ القمر ٤١، ٤٢.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ الأنبياء ٩٦.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ لقمان ١٨.

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ الأنعام ٩٤.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ الأنعام ٢٥.

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ الإسراء ٤.

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ الأنعام ١٥١.

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ الإسراء ٣١.

﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ الإسراء ٢٨.

﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴾ القصص ٨.

﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ سبأ ٢٤.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ السجدة ٢٢.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ الكهف ٥٧.

﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ﴾ الروم ٣٦.

﴿ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴾ الكهف ٧٥.

﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ الجاثية ٢٩.

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا ﴾.. ﴿ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ﴾ البقرة ١٣٦ وآل عمران ٨٤.

﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡ ﴾ الإسراء ٦٤.

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡ ﴾ الأحزاب ٤.

تأتى التوابع والقيود فى التراكيب لتحقيق أغراض ومقاصد ومزايا بلاغية يهدف إليها المتكلم، فالجملة عندما تقيد بالحال أو بالصفة أو بالجار والمجرور، يتوجه الحكم المفاد بها إلى ذلك القيد، ويكون وراء تقييد الجملة به مزية يرمى المتكلم إلى دلالة التركيب عليها.

وكذا الشأن عندما يقع فى الجملة الإبدال أو عطف البيان أو النسق أو التوكيد، يكون وراء تلك التوابع مرام يرمى إليها، ومقاصد يهدف إلى تحقيقها ودلالة الكلام عليها.

والتوابع والقيود فى النظم القرآنى الكريم وراءها العديد من اللطائف والمزايا البلاغية التى تتجلى للناظر المتأمل، والمتدبر الواعى، الذى أحسن النظر، وأحكم التدبر، وألقى السمع وهو شهيد.

ولنقرأ سورة الفاتحة وننعم النظر فى نظمها الكريم، فقد بدأت بالحمد والثناء "الحمد لله" ثم أجريت تلك الصفات "رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين" على الله تعالى، للدلالة على أنه الحقيق بالحمد، لا أحد أحق به منه، بل لا يستحقه على الحقيقة سواه، وللإشعار باختصاصه تعالى بالعبادة، فتلك الصفات بمثابة

الدليل على ما أفصحت عنه الآيات الكريمة بعد من اختصاصه تعالى بالعبادة والاستعانة.

جاء فى تفسير البيضاوى: "وإجراء هذه الأوصاف على الله تعالى، من كونه موجدا للعالمين، ربا لهم، منعما عليهم بالنعم كلها ظاهرها وباطنها، عاجلها وآجلها، مالكا لأمورهم يوم الثواب والعقاب، للدلالة على أنه الحقيق بالحمد لا أحد أحق به منه، بل لا يستحقه على الحقيقة سواه، فإن ترتب الحكم على الوصف يشعر بعليته له، وللإشعار من طريق المفهوم على أن من لم يتصف بتلك الصفات، لا يستأهل لأن يحمد فضلا عن أن يعبد، فيكون دليلا على ما بعده، فالوصف الأول ـ رب العالمين ـ لبيان ما هو الموجب للحمد، وهو الإيجاد والتربية، والثانى والثالث ـ الرحمن الرحيم ـ للدلالة على أنه متفضل بذلك، مختار فيه، والرابع ـ مالك يوم الدين ـ لتحقيق الاختصاص فإنه مما لا يقبل الشركة فيه بوجه ما، وتضمين الوعد للحامدين، والوعيد للمعرضين"(١).

ونمضى مع سياق السورة الكريمة، فنجد الترقى من البرهان إلى العيان، والانتقال من الغيبة إلى الحضور فى قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وكأن المعلوم صار عيانا، والمعقول مشاهدا، والغيبة حضورا ويرجع ذلك إلى تلك الصفات الجليلة التى وصف بها عز وجل، والتى هيأت النفس لذلك الترقى، فأقبلت إلى ربها عز وجل، تناجيه عن قرب: يا من هذه شئون ذاته وصفاته، نخصك بالعبادة والاستعانة، فإن ما سواك كائنا ما كان لا يستحق الوجود فضلا عن أن يستحق أن يعبد أو يستعان، ولعل هذا هو السر فى اختصاص هذه السورة الكريمة بوجوب القراءة فى كل ركعة من الصلاة التى هى مناجاة العبد لمولاه تبارك وتعالى(٢).

ويأتى قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ بيانا للمعونة المطلوبة، وإفرادا لما هو المقصود الأعظم، ووصف الصراط بالاستقامة يؤكد وصول العبد إلى غايته ومبتغاه من إرضاء ربه، حيث سار على المنهج الحق، فالطريق المستقيم لا يشتبه على سالكه فيضل، والطريق المستقيم هو أقرب الطرق إلى مرضاة الله، إذ الخط المستقيم

---

(١) أنوار التنزيل ١/ ٩.

(٢) انظر تفسير أبى السعود ١/ ١٦.

أقصر خط يصل بين نقطتين، والعبد بعجزه وضعفه يحتاج إلى سلوك هذا الطريق المستقيم ليصل إلى بر الأمان، أرأيت كيف كان وصف الصراط بالاستقامة مؤكدا وصول سالكه إلى مرضاة ربه؟

ثم يأتى قوله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ بدلا من الصراط المستقيم بدل الكل، والبدل فى حكم تكرار العامل، فكأنه قيل: اهدنا الصراط المستقيم، اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم، ولذا فإن البدل فى الآية الكريمة يحقق الأغراض الآتية:

١- الإيضاح لما خفى فى المبدل منه، فإن قوله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أوضح للمراد، وأوفى بأداء الغرض، وكأن المبدل منه وهو قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ قد ذكر تمهيدا وتوطئة لذكر البدل.

٢- التوكيد والتنصيص على أن طريق المسلمين المنعم عليهم وهو المشهود له بالاستقامة، لأنه جعل كالتفسير والبيان للمبدل منه، فكأنه من البين الذى لا خفاء فيه أن الطريق المستقيم هو طريق المنعم عليهم بالإيمان.

٣- والقرآن الكريم يفسر بعضه بعضا، وقد فسر المنعم عليهم، أصحاب الصراط المستقيم فى قوله تعالى من سورة النساء: ﴿ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾[١].

وكأن طالب الصراط المستقيم يطلب رفقة يهتدى بهديهم ويستضيئ بنورهم، وقد جاء بيان تلك الرفقة الذين أنعم الله عليهم فى هذه الآية الكريمة، إنهم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون، وأنعم بهم من رفقة يهتدى بها ويستضاء بنورها.

وأما قوله تعالى: ﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ فإنه بدل من الاسم الموصول "الذين" على معنى أن المنعم عليهم هم الذين سلموا من الغضب والضلال، أو صفة مبينة للموصول، أو مقيدة له، والمعنى أنهم قد جمعوا بين النعمة المطلقة، وهى نعمة الإيمان، وبين السلامة من الغضب والضلال[٢].

---

(١) النساء ٦٧-٦٩.

(٢) انظر تفسير أبى السعود ١/ ١٨ وأنوار التنزيل ١/ ١١.

وفى قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ ﴾[1] وقع قوله تعالى: "لمن آمن منهم" بدلا من "الذين استضعفوا" بإعادة العامل، وهو بدل الكل إذا جعل الضمير فى "منهم" عائدا على "قومه" وبدل البعض إن جعل عائداً على الموصول "للذين" على أن من المستضعفين من لم يؤمن.

والغرض البلاغى لهذا الإبدال التصريح بإيمان أولئك المستضعفين وإظهاره والتنصيص عليه، فقد ترسخ الإيمان فى قلوبهم، وتغلغل بداخلهم ، إلى حد جعلهم يواجهون به الطغاة، ويصرحون به للملأ الذين استكبروا، فقد سألوهم عن العلم بإرسال صالح، سؤال سخرية واستهزاء، وتكبر واستعلاء، فجعل المستضعفون المؤمنون إرساله أمرا معلوما مكشوفا مسلما، لا يدخله ريب، كأنهم قالوا: العلم بإرساله وبما أرسل به مما لا كلام فيه، ولا شبهة تدخله لوضوحه وظهوره، وإنما الكلام فى وجوب الإيمان به، فنخبركم أنا به مؤمنون، ولذا كان جواب الكفرة "إنا بالذى آمنتم به كافرون" فوضعوا "آمنتم به" موضع: أرسل به، ردا لما جعله المؤمنون معلوما، وأخذوه مسلما[2].

وانظر فى قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾[3] فقد وقع قوله "يضاعف له العذاب" بدلا من قوله: "يلق أثاما" وفى هذا البدل إيضاح وتجلية للمبدل منه، لأن به نوع خفاء تتطلع النفس لمعرفته والوصول إليه، وقوله "يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا" أوفى بالغرض وأكثر بيانا له من قوله تعالى "يلق أثاما".

والشئ إذا خفى على النفس ثم جاء البيان والإيضاح وقع فى النفس موقعا حسنا، لأنه جاءها وهى عنه تبحث، وله تترقب، وإليه تتطلع.

وخذ قوله تعالى: ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾[4] تجد أن "البيت

---

(١) الأعراف ٧٥.
(٢) انظر الكشاف ٢/ ٩١.
(٣) الفرقان ٦٨، ٦٩.
(٤) المائدة ٩٧.

الحرام" قد وقع عطف بيان للكعبة، والغرض منه المدح والدلالة على عظم شأن الكعبة المكرمة، وليس المراد به إيضاح المعطوف عليه، لأن الكعبة أشهر من نار على علم.

فعطف البيان كما يأتى لبيان المعطوف عليه وإيضاحه وتجليته، فإنه يأتى لأغراض أخرى، كالمدح والتعظيم فى هذه الآية الكريمة، ويرجع المدح والتعظيم إلى ما فى عطف البيان "البيت الحرام" من معنى الحرمة والاحترام، والمنع من كل امتهان وانتهاك، فقد حرمه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة.

ومنها التقبيح والتحقير، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾[1] فقوله "صديد" عطف بيان لـ "ماء" على جهة التحقير والتنفير، لأنه أبهم فى قوله تعالى: "ويسقى من ماء" ثم بين بقوله "صديد" وهو ما يسيل من أجساد أهل النار من دم وقيح، وفى هذا من التقبيح والتحقير ما فيه، ولذا فإن كل جبار عنيد يتجرعه، أى: يتكلف جرعه مرة بعد أخرى لغلبة العطش واستيلاء الحرارة عليه، ولا يسيغه، بل لا يقارب إساغته، وإنما يغص به غصا، إذ كيف تكون الإساغة وهو بهذا الشأن.

ومن التوابع التى ينبغى تدبرها فى النظم الكريم، والوقوف أمامها لإدراك مغزاها، والإحاطة بما وراءها، التوكيد اللفظى، والتوكيد المعنوى بالنفس والعين وبكلا وكلتا، وبألفاظ العموم ككل وجميع وأجمع.

فالتوكيد اللفظى يكون بإعادة اللفظ ذاته، اسما أو فعلا أو حرفا، كما فى الآيات الكريمة: ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾.. ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾... ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾[2] فقد كرر اسم الفعل "هيهات" تأكيدًا لاستبعادهم ما يوعدون، وكرر فعل الأمر "أمهلهم" توكيدا للوعيد، وكرر المصدر "دكا" تأكيدًا لدك الأرض. وتسويتها، فقد كرر عليها الدك حتى عادت هباء منبثا[3].

وأما التوكيد المعنوى، فيكون ـ كما قلنا ـ بالنفس والعين، وكلا وكلتا، وألفاظ العموم ككل وجميع وأجمع، فمن ذلك قوله تعالى ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ

---

(١) إبراهيم ١٥-١٧

(٢) الآيات بالترتيب: المؤمنون ٣٦، الطارق ١٧، الفجر ٢١.

(٣) انظر الكشاف ٤/ ٢٥٣.

أَجْمَعُونَ ﴾ (١) حيث أكد سجود الملائكة بتوكيدين، دل التوكيد الأول "كلهم" على دفع توهم عدم الشمول، ودل التوكيد الثانى "أجمعون" على اجتماعهم على السجود، وأنهم لم يسجدوا متفرقين، بل سجدوا دفعة واحدة.

يقول العلامة الجمل: "وسئل المبرد عن هذه الآية فقال: لو قال "فسجد الملائكة" احتمل أن يكون سجد بعضهم، فلما قال "كلهم" زال هذا الاحتمال، فظهر أنهم بأسرهم سجدوا، ثم عند هذا بقى احتمال، وهو أنهم هل سجدوا دفعة واحدة، أو سجد كل واحد فى وقت؟ فلما قال "أجمعون" ظهر أن الكل سجدوا دفعة واحدة"(٢) وبهذين التوكيدين قد ازداد تقرير المعنى فى الذهن، وتمكن فى النفس فضل تمكن.

ولننعم النظر فى هذه الآيات الكريمة: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ﴾.. ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾.. ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا ﴾.. ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ﴾.. ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا ﴾.. ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ (٣)

الفئة الكافرة ترى المؤمنة مثليها على ما هو الراجح فى تأويل الآية الكريمة، وقد أكدت هذه الرؤية بقوله تعالى: "رأى العين" أى: رؤية ظاهرة واضحة لا لبس فيها، ووراء هذا التوكيد عناية الله وتأييده للمؤمنين بالنصر "والله يؤيد بنصره من يشاء" لقد أرى الكافرين المؤمنين مثليهم رأى العين، تقوية للمؤمنين وتأييدا، وتضعيفا للكفرة وخذلانا(*)

---

(١) الحجر ٣٠.

(٢) الفتوحات الإلهية ٢/ ٥٤٤.

(٣) الآيات بالترتيب: آل عمران ١٣، التوبة ١٢٨، الإسراء ٢٣، الكهف ٣٣، القمر ٤١، ٤٢، الأنبياء ٩٦.

(*) وقيل: إن المعنى على أن الفئة المؤمنة هى التى ترى الكافرة مثليها، وقد كان عدد المؤمنين ثلاثمائة وثلاثة عشر مؤمنا، وعدد المشركين تسعمائة وخمسين مشركا، وقيل: ألفا، ولكن المؤمنين رأوهم مثليهم، أى: رأوهم ستمائة وستة وعشرين مشركا، وذلك ليثبتوا ويطمئنوا بالنصر الموعود فى قوله تعالى: ﴿ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ الأنفال٦٦، وانظر روح المعانى ٣/ ٩٦.

وقوله تعالى: "من أنفسكم" تأكيد لمجئ الرسول ـ ﷺ ـ من بينهم، ووراءه معان كثيرة، ومزايا عديدة، ووراءه حرصه ﷺ على هدايتهم، وخوفه عليهم عذاب يوم عظيم، ووراءه الحث على الإقبال والمبادرة إلى الامتثال والخضوع، ولذا قال عز وجل عقب ذلك ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ﴾[1].

ووراء مجئ "كلا" فى قوله تعالى: "أحدهما أو كلاهما" حث المؤمن على بر والديه والإحسان إليهما، وألا يفزع ويتضجر لوجودهما معا عنده، وقد بلغا من الكبر عتيا، لأن الله ـ عز وجل ـ هو الذى قضى بالإحسان إليهما.

وفى قوله تعالى: ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا ﴾ تأكيد لإثمار الجنتين معا غاية الإثمار، وكان يجب على صاحبهما أن يشكر تلك النعمة، ولكنه نسى ربه وطغى وتكبر على صاحبه، ولم تجد معه المحاورة، فكان جزاؤه أن أحيط بثمره ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾[2].

وقوم فرعون طغوا، وأعرضوا عن آيات الله، وكذبوا بها كلها، التوكيد هنا أفاد الشمول والعموم، فهم لم ينظروا فى آية من آيات الله تعالى، بل أعرضوا عنها جميعا، وكذبوا بها كلها، فماذا ينتظرون بعدئذ؟ إنه الإهلاك وشدة الأخذ، ﴿ فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[3] ويأجوج ومأجوج يصور القرآن كثرتهم حين يخرجون، فتأتى "كل" هنا مضافة إلى النكرة لتؤسس الشمول "وهم من كل حدب ينسلون" إن شروعهم وانبعاثهم يشمل كل حدب، وعليك عندئذ أن تتصور مدى كثرتهم.

هذا وكلمة "كل" تأتى تأكيدا وتأسيسا، فهى تؤكد العموم والشمول عندما تكون مضافة إلى المعرفة، كما فى الآيات: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾.. ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ ﴾ .. ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا ﴾[4] فالشمول مفاد بدونها وهى قد جاءت لتأكيده، ودفع توهم غيره.

---

(١) التوبة ١٢٩.

(٢) الكهف ٤٢.

(٣) القمر ٤٢.

(٤) الآيات بالترتيب: آل عمران ٩٣، الحجر ٣٠، طه ٥٦.

وعندما تكون مضافة إلى نكرة فإنها هى التى تفيد الشمول وتؤسسه، كما فى الآيات: ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾.. ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلاً ﴾.. ﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾[1] فالشمول لا يفاد اصلا عند الإضافة إلى النكرة إلا بها[2].

وقد غاب هذا عن العلامة سعد الدين التفتازانى، فاستدرك على الإمام عبد القاهر قطعه بأن إعمال الفعل المنفى فى "كل" يفيد نفى العموم، كقولك: لم يأت كل القوم، فالمعنى على أنه قد أتى بعضهم، أى أن الفعل المنفى الموجه إلى كل، قد أفاد نفى العموم، لا عموم النفى، الذى يفاد بتقدم "كل" على النفى نحو: كل القوم لم يأتوا.

يستدرك سعد الدين بأن ذلك يتناقض مع ما تدل عليه الآيات الكريمة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾... ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾... ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾[3] إذ لا يقال: إن الله يحب بعض الكفرة والمختالين دون بعض، وأن الرسول ﷺ منهى عن طاعة بعض الحلافين دون بعض[4].

وغاب عن العلامة سعد الدين ـ كما قلت ـ التفريق بين "كل" التى تفيد توكيد العموم بإضافتها إلى المعرفة، و "كل" التى تفيد تأسيسه بإضافتها إلى النكرة، فكلام عبد القاهر عن "كل" المضافة إلى المعرفة الدالة على التوكيد لا على التأسيس، فهى بمثابة قيد قيد به الكلام، والنفى موجه إلى ذلك القيد فقط.

يقول عبد القاهر: "وإذا كان هذا حكم النفى إذا دخل على كلام فيه تقييد، فإن التأكيد ضرب من التقييد، فمتى نفيت كلاما فيه تأكيد، فإن نفيك ذلك يتوجه إلى التأكيد خصوصا ويقع له"[5].

ولمزيد من الإيضاح ننظر إلى توجه النهى إلى "كل" فى الآيتين: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً

---

(١) الآيات بالترتيب: المؤمنون ٥٣، الإسراء ١٢، الأنبياء ٩٦.

(٢) انظر الإيضاح ١/ ١١٢.

(٣) الآيات بالترتيب: لقمان ١٨، البقرة ٢٧٦، القلم ١٠.

(٤) انظر المطول ١٢٥.

(٥) دلائل الإعجاز: ٢٧٥.

إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾[2] نجد أن "كل" فى الآية الأولى مؤكدة، فهى مضافة إلى معرفة، وقد تسلط النهى عليها، فالمراد نفى العموم، أو النهى عن العموم، وهو ما يأمر به المولى عز وجل، أن يتوسط المؤمن، فلا يبذر ولا يقتر، لا يجعل يده مغلولة إلى عنقه، ولا يبسطها كل البسط.

أما "كل" فى الآية الثانية فهى مؤسسة للشمول، إذ هى مضافة إلى نكرة" كل حلاف" فالنهى ليس موجها إلى قيد حتى يقال إن المراد دفعه، أى النهى عن البعض وإثبات البعض، وإنما هو موجه إلى مضمون الجملة، فالمراد عموم النفى وشموله كل الأفراد.

وبهذا يتجلى لنا أنه لا وجه لاستدراك سعد الدين، لأن كلام عبد القاهر فى "كل" المؤكدة لا المؤسسة، و "كل" فى الشواهد التى استدرك بها سعد الدين مؤسسة للشمول، وليست مؤكدة له، لأنها مضافة إلى نكرة.

ووراء تقييد الجملة بالحال أو الصفة أو المفعول أغراض شتى، ومعان جليلة، وقد وقفنا على ما وراء الصفات ـ صفات الجلال ـ فى سورة الفاتحة من معان لطيفة، وانظر فى قوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾[3] تجد أن تقييد الفعل بالمصدر "علوا" قد دل على شدة طغيانهم وإفسادهم وتكبرهم، وقد تضاعف هذا المعنى وازداد تقريرا بتلك الصفة "كبيرا".

وانظر إلى تقييد الجملة بالحال فى الآيات ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ ﴾... ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ ﴾... ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾... ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾[4]، تجد أن الحال (فرادى) أشار إلى تجردهم مما حرصوا عليه وآثروه فى الدنيا من الأموال والأولاد والشركاء، حيث تركوا ذلك كله وراء ظهورهم، وصاروا اليوم فرادى، لا يملكون شيئا، وهذا يشعر بهول الموقف وعظم ذلك اليوم.

(١) الإسراء: ٢٩.

(٢) القلم: ١٠

(٣) الإسراء: ٤.

(٤) الآيات بالترتيب: الأنعام ٩٤، الأنعام ٢٥، الإسراء ١٠٦، الأنعام ١٤٥.

ويدل الحال (يجادلون) على ما طبع عليه أولئك المعاندون، لقد طبعوا على العناد والجدال فى الباطل، فهم يكثرون المجئ إلى النبى - ﷺ - وقد دل على ذلك التعبير بإذا (إذا جاءوك) وليت مجيئهم للعظة وإرادة الخير، إن مجيئهم للعناد والجدال فى الباطل، وهذا ما دل عليه تقييد المجئ بالحال (يجادلونك) ثم جاء جواب إذا "يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين" فأفصح عن نوع الجدال، إنه جدال فى الباطل والضلال.

ويشعر الحال (على مكث) بما يجب عند قراءة القرآن من التثبيت والتؤدة والتأنى، وعدم التعجل والتسرع، ينبغى إقامة الحروف، وتجويد العبارات وترتيله ترتيلا، ينبغى التدبر والتأمل وحسن الفهم لمعانيه وأحكامه، ويرجع ذلك إلى تقييد القراءة بتلك الحال (على مكث).

وقد أباح الله تعالى للمضطر أمورا لا تجوز لغير المضطر، منها أكل الميتة والدم ولحم الخنزير، ولكن على المضطر أن يأخذ من هذه المحرمات بقدر، ولا يتجاوز حد الضرورة، دل على ذلك تقييد الأكل بالحال (غير باغ ولا عاد) وحذف الفعل (أكل) إذ التقدير: فمن اضطر فأكل غير باغ ولا عاد..

وتأمل تقييد الجملة بالمفعول لأجله فى الآيات الكريمة: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ﴾ ... ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ﴾... ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾[(١)].

لقد قيد النهى عن القتل فى الآية الأولى بقوله (من إملاق) ولذا قدم رزقهم على رزق الأولاد، (نحن نرزقكم وإياهم)، وقيد فى الثانية بقوله (خشية إملاق) ولذا قدم رزق أولادهم على رزقهم (نحن نرزقهم وإياكم) فلما كان الباعث على القتل فى سورة الأنعام الإملاق الناجز (من إملاق) قدم رزقهم على رزق أبنائهم، ولما كان الباعث عليه فى سورة الإسراء الإملاق المتوقع (خشية إملاق) قدم رزق الأبناء فكأنه قيل: نحن نرزقهم من غير أن ينتقص من رزقكم شئ فيعتريكم ما تخشونه[(٢)].

---

(١) الآيات بالترتيب: الأنعام ١٥١، الإسراء ٣١، الإسراء ٢٨.

(٢) انظر تفسير أبى السعود ٥/ ١٦٩.

وقيد الإعراض عن ذى القربى واليتامى والمساكين بقوله (ابتغاء رحمة من ربك ترجوها) للإشعار بأن الإعراض عنهم لا يكون إلا لذلك، ابتغاء رحمة الله، وفضلا عن أن الإعراض عنهم لا يكون إلا ابتغاء الرحمة، فينبغى عند الإعراض التحلى بالمعاملة الحسنة، والقول الطيب (فقل لهم قولا ميسورا).

ولا يتسع المقام هنا للإفاضة فى الحديث عما وراء عطف النسق من أغراض بلاغية، ولكن نشير مجرد إشارات يهتدى بها فى تجلية الأسرار البلاغية الكامنة وراء حروف العطف واستخداماتها فى آيات الذكر الحكيم، وينبغى أن يعلم بأن هذا هو صنيعنا مع مختلف القضايا والمسائل التى نتعرض لها، فنحن نعطى أمثلة ونماذج يهتدى بها فى الكشف عن أسرار ولطائف الكتاب العزيز.

تأمل قوله تعالى: ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴾[1] وانظر كيف أوثر ذكر فرعون وهامان معطوفا أحدهما على الآخر، على جهة التفصيل، ثم عطف عليهما جنودهما إجمالا، ولم يقل: إنهم كانوا خاطئين، إن ذلك يرجع إلى كون فرعون وهامان أساس الخطيئة، وأصل الفساد، وأما الجنود فهم تبع لهما ومقتدون بهما.

وانظر إلى العطف بأو فى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[2] وكيف استخدمت (أو) فى الدلالة على الإبهام وعدم مواجهة الضالين بضلالهم، فمعلوم من الضال، ومن المهتدى ولكن فى عدم التصريح بذلك، وتركه مبهما استمالة للمخاطبين، وترغيبا لهم فى الهداية وقبول الحق.

ثم انظر إلى الآيتين الكريمتين: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ﴾ ... ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾[3] لقد عطف الإعراض عن الآيات على التذكير بها، وجاء هذا العطف بثم فى سورة السجدة، وبالفاء فى سورة الكهف، ما سبب ذلك؟ وما السر فى تلك المخالفة؟

---

(١) القصص: ٨.

(٢) سبأ: ٢٤.

(٣) الآيتان بالترتيب: السجدة ٢٢، الكهف ٥٧.

إن السياق فى سورة الكهف يبرز الكفرة معاندين مكابرين، تعرض عليهم الآيات فلا يستجيبون ﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾[1] الحديث عنهم فى الحياة الدنيا وهم ما زالوا أحياء، يعارضون ويكابرون، فهم إذا ذكروا يكون منهم الإعراض فور التذكير دون نظر فيما ذكروا به، ودون فهم له، ولا وعى، وهذا يناسبه العطف بالفاء التى تفيد التعقيب.

أما السياق فى سورة السجدة فيبرز المجرمين وقد وقفوا أمام ربهم للحساب ناكسى رءوسهم، نادمين على ما فرطوا فى جنب الله، ويقال لهم يومئذ ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾[2]. لقد قضوا حياتهم فى كفر وعناد، ثم ماتوا وهم كافرون، امتد وطال تذكيرهم بآيات الله أزمنة تلو أزمنة، ولكنهم أصموا آذانهم وأبوا إلا الرفض والإعراض، حتى ماتوا على الكفر فهذا يناسبه العطف بثم التى تفيد التراخى، وتشعر بامتداد التذكير طوال حياتهم الدنيا.

أرأيت كيف كان عطف الإعراض على التذكير بالآيات منسجما مع السياق فى كل سورة، ومحققا للغرض؟ ولو رمت وضع أحد الحرفين مكان الآخر لوجدت المعنى ينبو عنه، والسياق يرفضه ويأباه، وذاك هو الإعجاز..

ومما ينبغى الالتفات إليه، ودراسته فى آى الذكر الحكيم، تقييد الفعل بأداتى الشرط: (إن وإذا) فإن وراء التقييد بهما معانى لطيفة ترجع إلى دلالة كل منهما، وما بينهما من اختلاف فى الدلالة.

فإذا تستخدم فى الشرط المقطوع بوقوعه، بأن يكون مجزوما بوقوعه فى المستقبل نحو: إذا غربت الشمس حل الظلام، أو يظن ظنا قويا وقوعه فيه نحو: إذا جئتنى أكرمتك، فى خطاب من تعتقد مجيئه، وترجحه على عدم المجئ، ولهذا غلب على الفعل معها أن يكون بلفظ الماضى للإشعار بتحقق الوقوع.

أما (إن) فتستعمل فى الشرط غير المقطوع بوقوعه، وهو ما يتردد فى وقوعه فى المستقبل، أو يظن عدم وقوعه، أو يكون مما لا يقع إلا نادرا، ولذا غلب على الفعل

(١) الكهف: ٥٧.

(٢) السجدة: ٢٠ .

معها أن يكون مضارعا للإشعار بعدم تحقق الوقوع فإن كان الشرط مجزوما بعدم وقوعه فى المستقبل فلا تستعمل فيه (إن) ولا (إذا) إلا لغرض بلاغى.

تأمل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾(1) تجد أن إذاقة الناس قدرا قليلا من الرحمة ـ مرجع القلة إلى تنكير (رحمة) ـ أمر مقطوع بوقوعه، ولذا استعملت (إذا) فى التقييد وعبر بالماضى (أذقنا).

وأما إصابة السيئة فغير مقطوع بحدوثها، لأن الله عز وجل لا يؤاخذ الناس بما كسبوا، بل يعفو عن كثير، ولذا استخدمت (إن) فى الربط، وعبر بالمضارع (تصبهم).

وخذ قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾(2) تجد أن قراءته ـ ﷺ ـ القرآن وذكره ربه فيه، من الأمور المحققة الوقوع، ولذا عبر معهما بإذا الدالة على هذا التحقق.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾(3) تجد أن التقييد بإن قد دل على مدى إعراض الكفرة عن آيات الله التى تملأ الكون، فآيات الله كثيرة، وهم عنها مبعدون، لا يرونها، وإن عنت لهم آية، وبدت لهم، دون نظر منهم، أعرضوا عنها.

التقييد بإن فى الآية الكريمة دل على تعاميهم عن رؤية الآيات الواضحة الجلية، ورفضهم رؤيتها، والنظر فيها نظر متدبر يريد الهداية وقبول الحق.

وانظر إلى استعمال (إن) فى الأمر المقطوع بوقوعه فى قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾(4) فالكفرة فى ريب حقيقة، وقد

---

(1) الروم: ٣٦.
(2) الإسراء: ٤٥، ٤٦.
(3) القمر: ٢.
(4) الحج: ٥.

استعملت (إن) توبيخا لهم، وإشارة إلى أن الأدلة على إمكان البعث واضحة جلية، فلا ينكر وقوعه إلا معاند كافر، ولا يرتاب فيه إلا جاهل، وحق هذا الريب الواقع منهم ألا يوجد إلا على سبيل الفرض، كما يفرض الأمر المحال، لذا عبر بإن دون (إذا).

هذا وقد تستخدم (إن) أو (إذا لمجرد الربط بين الشرط والجزاء كما فى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾[2]، (فإن) فى الآيتين الكريمتين لمجرد الربط بين الشرط وجزائه، ولذا نقرر أن ما ذكره البلاغيون فى التقييد بإن وإذا والتعليق بهما مبنى على الأكثر والغالب، لا على القطع والإطلاق.

ووراء التقييد بالجار والمجرور مزايا وأسرار بلاغية ترجع إلى معانى حروف الجر، وإلى ما دخلت عليه تلك الحروف، فالمزية البلاغية قد تكون راجعة إلى الجار والمجرور معا، وهو القيد الذى تقيد به الجملة القرآنية، ويتضح لنا ذلك عند النظر إلى هذه القيود: (على هدى... على وجوههم... فى رحمة الله ... فى ضلال مبين) فإنا نجد المغزى راجعا إلى الجار ومدخوله معا، وهذا واضح فإن المعنى الناجم عن دخول حرف الجر (على) على لفظ (هدى) يختلف عن المعنى الناجم عن دخوله على (وجوههم) لقد دل فى الأول على التكريم والتعظيم، ودل فى الثانى على الإهانة والتحقير، حرف الجار واحد وهو (على) وقد اختلف المعنى باختلاف المجرور، وهذا ما نعنيه برجوع المزية إلى الجار ومجروره معاً، وكذا القول فى دخول الحرف (فى) على الرحمة ثم على الضلال.

ولننظر فى الآيتين الكريمتين: ﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾.. ﴿ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾[3].

نجد أن الجار والمجرور (على وجوههم) أبرز الكفرة وقد نكسوا على رءوسهم،

---

(١) الأنفال: ٦٥.
(٢) النساء: ١٣٥.
(٣) الآيتان بالترتيب: افسراء: ٦٧، الصافات: ١١٣.

وعلوا وجوههم، إذلالا لهم وإهانة وتحقيرا، فلقد سئل - ﷺ - كيف يمشون على وجوههم فقال: "إن الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم"(١).

ويزداد معنى الإهانة والتحقير بتلك الحال (عميا وبكما وصما) التى بينت أنهم لا يبصرون ما تقر به أعينهم، ولا ينطقون ما يقبل منهم، ولا يسمعون ما تلتذ به مسامعهم، جزاء وفاقا، فقد كانوا فى الدنيا لا يستبصرون بالآيات والعبر، ولا ينطقون بالحق، ولا يستمعون إليه.

أما الجار والمجرور (عليه وعلى إسحاق) فإنه يدل على استعلاء البركة وإحاطتها بهما تكريما وتعظيما، إن الحرف (على) يدل على الاستعلاء، ولكنه استعلاء إذلال وإهانة فى آية الإسراء، واستعلاء تعظيم وتكريم فى آية الصافات.

وقد تكون المزية راجعة إلى حرف الجر نفسه، وإيثار التعبير به دون غيره، لأنه هو الذى يعطى المعنى المراد، ولنقرأ الآيات الكريمة: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ ... ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ ﴾... ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾... ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾... ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(٢).

نجد أن (اللام) قد ذكرت عند سبق النفع وكسب الخير، وأن (على) قد ذكرت عند سبق الضر واكتساب الشر، وذلك لأنا نلحظ فى (اللام) معنى التملك والانتفاع، ونلحظ فى (على) معنى القهر والاستعلاء..

كما استخدمت (على) بدخولها على الهدى فى معنى العزة والرفعة، واستخدمت (فى) بدخولها على الضلال فى معنى الذل والانحطاط، وكأن المؤمن مستعل على جواد يركضه حيث شاء، والكافر منغمس فى ظلام، حائر فيه، لا يدرى إلى أين يتجه.

وانظر فى قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ

(١) انظر تفسير أبى السعود ٥/ ١٩٧.

(٢) الآيات بالترتيب: البقرة ٢٨٦، الأنبياء ١٠١، الصافات ١٧١، هود ٤٠، سبأ ٢٤.

﴿ تَعۡمَلُونَ ﴾[1] وقف متأملا هذا القيد (عليكم) ولماذا أوثر التعبير بعلى؟ ولم اكتفى بها فلم يقل: ينطق لكم وعليكم؟ أرى - والله أعلم - أن مرد ذلك إلى أن الكافر هو الذى يحتاج إلى نطق الكتاب عليه، إذ المؤمن يقرأ كتابه فرحا به ﴿ فَمَنۡ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ ﴾[2] ويظهره للملأ قائلا ﴿ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴾[3] أما الكافر فإنه يخفى كتابه وراء ظهره، ويقول: ﴿ يَٰلَيۡتَنِى لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴾[4] فالذى يحتاج إلى نطق الكتاب هو الكافر، لأن المؤمن يقرأ كتابه فرحا مستبشرا، ولذا اكتفى بالقيد (عليكم) وهو للكافر الذى اكتسب السيئات فالكتاب ينطق عليه بها.

وخذ قوله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا ﴾[5] وتأمل القيد (إلينا) حيث عبر باللام، ثم انظر لم عبر هنا باللام، وعبر بعلى فى قوله تعالى: ﴿ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ﴾[6]؟ إن ذلك يرجع إلى أن الآية الأولى خطاب للمسلمين (قولوا) والثانية خطاب للنبى - ﷺ - و(إلى) ينتهى بها من كل جهة، و(على) لا ينتهى بها إلا من جهة واحدة، وهى العلو، والقرآن يأتى المسلمين من كل جهة يأتيهم مبلغهم به منها، وإنما أتى النبى - ﷺ - من جهة العلو خاصة، فناسب قوله (علينا) ولهذا فإن أكثر ما جاء فى جهة النبى - ﷺ - بعلى، وأكثر ما جاء فى جهة الأمة بإلى[7].

وما جاء فى جهة النبى - ﷺ - بإلى، كقوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾[8] فإن تعدية النزول فيه بإلى، لانتهائه إليه - ﷺ -.

وما جاء فى جهة الأمة بعلى، كقوله تعالى: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ ﴾[9] فمعناه: آمنوا بما أنزل على نبيهم - ﷺ - وجاء إليهم به.

---

(١) الجاثية: ٢٩.
(٢) الإسراء: ٧١.
(٣) الحاقة: ١٩.
(٤) الحاقة: ٢٥.
(٥) البقرة: ١٣٦.
(٦) آل عمران: ٨٤.
(٧) انظر الإتقان ٣/ ٣٤٣.
(٨) البقرة: ٢٨٥.
(٩) آل عمران: ٧٢.

وفى قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع العبد الصالح، وعندما طلب موسى منه أن يتبعه ليتعلم من علمه الذى علمه الله إياه، قال له الخضر: ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾[1]، وبعد خرق السفينة وإنكار موسى هذا الخرق، يذكره العبد الصالح ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾[2] ويعتذر موسى له، وينطلقان فيكون قتل الغلام، وينكر موسى هذا القتل، فيذكره العبد الصالح ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾[3] نلاحظ أن التذكير الثانى قد أكد بالقيد (لك) لأن العبد الصالح قد طلب من موسى ألا يسأله عن شىء حتى يحدث له منه ذكرا، ولكن موسى لم يستطع صبرا، فأنكر خرق السفينة، ولامه العبد الصالح على عدم صبره، ثم أنكر موسى قتل الغلام، فاقتضى المقام بعد أن تكرر سؤال موسى واعتراضه أن يؤكد العبد الصالح اللوم بالجار والمجرور (لك) ففى هذا القيد إبراز وإيضاح للوم، وزيادة تأكيد للعتاب، أو كما يقول الزمخشرى: "فيه زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية، والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية"[4].

وفى قوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾[5] نجد وراء هذه القيود (لرجل .. فى جوفه .. بأفواهكم) معانى دقيقة، إذ القلب لا يكون إلا فى الجوف، والقول لا يكون إلا بالفم، ولكن لما كان المقام مقام إنكار وزجر لمن يظاهر زوجه، قائلا لها: أنت علىّ كظهر أمى، وتقرير عدم التسوية بين الأدعياء والأبناء، وقد كانوا يسوون بينهما، فيجعلون الدعى ابنا، له ما للابن وعليه ما عليه من حقوق وواجبات النسب.

لما كان الأمر كذلك، فقد ذكرت هذه القيود تأكيدا للإنكار والزجر، ومبالغة فى التقرير والتحقيق، ثم انظر إلى هذا القيد (لرجل) وتأمل الفرق بين الآية (ما جعل الله

---

(١) الكهف: ٦٧.

(٢) الكهف: ٧٢.

(٣) الكهف ٧٥.

(٤) الكشاف: ٢/ ٤٩٤.

(٥) الأحزاب: ٤.

لرجل من قلبين فى جوفه) وأن نقول: ما جعل الله من قلبين فى جوف، فستراه دقيقا لطيفا، لأن ذكر هذا القيد (لرجل) وتقييد الجعل به، أبلغ فى الإنكار والزجر، وآكد فى التقرير والتحقيق، إذ المرأة قد يتصور وجود قلبين فى جوفها، قلبها وقلب جنينها، وذلك فى أثناء الحمل، أما الرجل فلا يتصور وجود قلبين فى جوفه بحال من الأحوال.

وكذا القول فى الآية الكريمة: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾[1] التلقى لا يكون إلا بالألسنة، والقول لا يكون إلا بالأفواه، ولكن المقام اقتضى زيادة الإنكار، والمبالغة فى الردع والزجر، إذ الآية فى سياق الحديث عن أولئك الذين خاضوا فى حادثة الإفك، فكان ذكر هذين القيدين (بألسنتكم.. بأفواهكم) للمبالغة فى ردعهم وزيادة فى الإنكار عليهم.

وخذ قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[2] وتأمل كثرة هذه القيود التى يتسلط بها الشيطان (بصوتك... بخيلك ورجلك.. فى الأموال والأولاد..) إنه يستخف من استطاع من بنى آدم بصوته، داعيا لهم إلى الفساد، ويصيح عليهم بخيله ورجله، أى بأعوانه وأنصاره من راكب وراجل، ويشاركهم فى الأموال بحملهم على اكتسابها من الحرام وإنفاقها فى الحرام، وفى الأولاد فيحثهم على التوصل إليهم بالأسباب المحرمة.

ثم هو يعد ويمنى، وليست وعوده وأمانيه إلا غرورا، لأنه يتبرأ ممن اتبعه واستجاب لإغوائه ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾[3].

وأمام كثرة هذه الوسائل التى يتسلط بها الشيطان على بنى آدم فيغويهم، إنه يشبه

---

(١) النور: ١٥.

(٢) الإسراء: ٦٤

(٣) إبراهيم: ٢٢.

فارسا مغوارا أوقع على قوم فصوت بهم صوتا يزعجهم من أماكنهم، ويقلقهم عن مراكزهم، وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة يريد استئصالهم[1].

أقول: أمام كثرة هذه الوسائل ينبغى على الإنسان أن يأخذ حذره، وأن يتسلح بما أمر الله تعالى، لمقاومته ومحاربته، والتصدى لجنده وأعوانه، وعدم الاستجابة لنزغه ووساوسه.

وقد استثنى الله تعالى عباده المخلصين، فبين أنه لا سلطان للشياطين عليهم، واستثناهم الشيطان نفسه فقال: ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[2] وقال: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[3] فنسأل الله السميع العليم أن يجعلنا من عباده المخلصين القليلين، الذين لا سلطان للشيطان عليهم.

التقديم

قال تعالى:

﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ البقرة: ٤٨.

﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ البقرة: ١٢٣.

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ المائدة: ٢٨.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الروم: ٢٧.

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ مريم ٢١

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾ غافر: ٢٨.

(١) فالآية تمثيل لتسلط الشيطان على من يغويه. انظر تفسير أبى السعود ٥/ ١٨٤.
(٢) الإسراء: ٦٢.
(٣) سورة ص: ٨٣.

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ النور: ٤٥

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ الحج: ٢٧

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ الفاتحة: ٥.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ البقرة: ١٧٢.

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ الكافرون: ٦.

﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ القيامة ٢٩، ٣٠

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ الصافات: ٤٥ ـ ٤٧.

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ الأعراف: ٢٤

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ الأنعام: ١٠٠.

﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام ٤٠، ٤١.

﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ الأنبياء: ٣٩، ٤٠.

﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ هود: ٩١، ٩٢.

﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ يس: ٧.

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ الزمر: ٢٣.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴾ النحل : ٢٠.

التقديم من شجاعة العربية ـ كما ذكر ابن جنى فى الخصائص[(١)] ـ لأن تقديم اللفظ وتحويله من مكان إلى مكان آخر، يغير المعنى، وتغيير المعنى بتقديم اللفظ، وتحويله عن مكانه، لا يكون جزافا وعبثا، وإنما يتم وفق أسس وضوابط، وأغراض يقصد إليها المتكلم المتمرس، الخبير بطرق الكلام، البصير بالأساليب والصياغات، فهو لهذا شجاع مغوار، يتصرف فى التراكيب فيقدم ويؤخر عن خبرة وبصيرة، ويعرف ما وراء تقديم هذا اللفظ من مغزى، وما وراء تأخير ذاك من غرض.

وقد أشار ابن الأثير فى كتابه (المثل السائر) إلى أن التقديم ضربان، ضرب يختص بدلالة الألفاظ على المعانى، أى : بدلالة الجملة أو التركيب على معناه، وضرب يختص بدرجة التقدم فى الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك[(٢)].

وقد اهتم معظم البلاغيين بالضرب الأول الذى يختص بدلالة الألفاظ على المعانى، حيث يكون التقديم فى نطاق الجملة المنظومة، فيحدث تغييرا فى نظمها، ويتبع تغيير النظم تغيير المعنى، للدلالة على غرض يقتضيه المقام، ويتطلبه السياق.

ونحن إذ ندرس التقديم فى النظم القرآنى لنعرف أسراره، ونقف على مزاياه، ونحيط بأغراضه، فنحن ندرسه على هذا الأساس الذى أشار إليه ابن الأثير، ندرسه فى نطاق الجملة القرآنية، فنتعرف على تقديم ما قدم فيها ـ مما ليس حقه التقديم ـ لتحقيق غرض بلاغى، كما فى الآية الكريمة: (**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**) حيث قدم المفعول لغرض بلاغى وهو دلالة الجملة على الاختصاص[(٣)].

كما ندرسه فى نطاق الآية الكريمة فنتعرف عندئذ على سبب تقديم هذه اللفظة أو هذه الجملة على تلك، كتقديم الأنعام على الأناسى فى قوله تعالى: ﴿ **وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا** ﴾[(٤)] وتقديم جملة (**إياك نعبد**) على جملة (**إياك نستعين**)

(١) انظر الخصائص: ٢/ ٣٨٢.

(٢) انظر المثل السائر: ٢/ ٢١٠.

(٣) المراد بما ليس حقه التقديم: ما ليست له الصدارة، كأسماء الاستفهام، وأدوات الشرط، فتلك تقدم لأن لها حق صدارة الجملة، وليس وراء تقديمها من غرض بلاغى.

(٤) الفرقان: ٤٩.

وتقديم قوله تعالى: (فمنهم من يمشى على بطنه) على قوله عز وجل: (ومنهم من يمشى على رجلين) وتقديم هذه على قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ﴾ فى سورة النور[1].

وننظر إليه فى النظم القرآنى كله، فنتعرف على سر مجئ الكلمة مقدمة فى الآية من الآيات الكريمة ومؤخرة فى الآية الأخرى، كما فى تقديم الشفاعة على العدل فى الآية (٤٨) من سورة البقرة، وتقديم العدل على الشفاعة فى الآية (١٢٣) من نفس السورة الكريمة، وكما فى قوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ فى سورة الأنعام، وقوله عز وجل: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ فى سورة الإسراء، وسيتجلى لنا ذلك من خلال النظر فى الآيات الكريمة.

نقرأ قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[2] فنجد الشفاعة قد قدمت على العدل، ثم نقرأ قوله عز وجل: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ ﴾[3] فنجد العدل مقدما على الشفاعة، فما السر وراء ذلك؟ وهل لهذا الاختلاف فى نظم الآيتين الكريمتين من مغزى يقصد إلى تحقيقه؟

يرى جلال الدين السيوطى أن الضمير فى (منها) راجع فى الآية الأولى إلى النفس الأولى، وفى الثانية إلى النفس الثانية، فالمعنى فى الآية الأولى أن النفس الجازية عن غيرها لا يقبل منها شفاعة، ولا يؤخذ منها عدل، وقد قدمت الشفاعة، لأن الشافع يقدم الشفاعة، والمعنى فى الآية الثانية أن النفس المطلوبة بجرمها لا يقبل منها عدل عن نفسها، ولا تنفعها شفاعة شافع منها، وقدم العدل، لأن الحاجة إلى الشفاعة إنما تكون عند رده، ولذا قال فى الأولى (ولا يقبل منها شفاعة) وفى الثانية (ولا تنفعها شفاعة) لأن الشفاعة إنما تقبل من الشافع، وتنفع المشفوع له[4].

وهذا الذى يراه السيوطى ليس بقول يقال عن سر التقديم والتأخير فى الآيتين

---

(١) النور: ٤٥.

(٢) البقرة: ٤٨.

(٣) البقرة: ١٢٣.

(٤) انظر الإتقان ٣/ ٣٤٠.

الكريمتين، إذ الضمير فى (منها) فى الآية الأولى يصح رجوعه إلى النفس الثانية المطلوبة بجرمها، والمعنى: ولا يقبل من هذه النفس المطلوبة شفاعة شافع طلبت منه أن يشفع لها، ولا يؤخذ منها عدل، ويصح رجوعه فى قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ﴾ إلى النفس الأولى الشافعة، وفى قوله عز وجل: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ إلى النفس الثانية المطلوبة، على طريقة اللف والنشر(١).

ولذا فإنى أرى ـ والله تعالى أعلم ـ أن سر التقديم والتأخير فى الآيتين الكريمتين يرجع إلى أن الآية الأولى فى تجلية من يبخل ويمسك، فلا يتصدق، ولا يبذل خيرا، ولا يقدم برا، لأن شأنه الإمساك والمنع والبخل، فهؤلاء يطلبون الشفاعة ويقدمونها، فإذا لم تقبل منهم بذلوا العدل، لقد جبلوا على حب المال والحرص عليه، ولذا كان تقديم الشفاعة على العدل ملائما لحالهم التى طبعوا عليها.

أما الآية الثانية فهى فى تجلية من يتعالى ويتكبر، ويحرص على حياة خاصة، تمتاز عن حياة الناس، فهؤلاء لأنفتهم وكبريائهم يقدمون العدل ويبذلونه، فإذا لم يقبل منهم طلبوا الشفاعة، فالملائم لحالهم تقديم العدل على الشفاعة.

يقول الفخر الرازى: "إن من كان ميله إلى حب المال أشد من ميله إلى علو النفس فإنه يقدم التمسك بالشافعين على إعطاء الفدية ومن كان بالعكس يقدم الفدية على الشفاعة، ففائدة تغيير الترتيب. الإشارة إلى هذين الصنفين"(٢).

والسياق القرآنى يوضح ذلك، فإن الآية الأولى جاءت فى سياق قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(٣) ومن يأمر بالبر ولا يفعله هو الشحيح الممسك الذى خالف قوله فعله، فهو يأمر بالزكاة والصلاة ومختلف أنواع البر، ولكنه لا يفعل ما يأمر به، لبخله وإمساكه ومنعه.

أما الآية الثانية فقد جاءت فى سياق آيات تبرز الأنفة والتكبر والحرص على حياة خاصة، ولنقرأ: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾... ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ

(١) انظر روح المعانى ١/ ٢٥٢
(٢) تفسير الفخر الرازى ٣/ ٨.
(٣) البقرة: ٤٤

﴿ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾... ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾.... ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾(١) وبهذا يتبين لنا أن ترتيب الألفاظ فى الآيتين الكريمتين، قد جاء متسقا مع السياق الذى وردت به الآية، ومحققا لغرض يرمى إليه، إذ أشارت كل آية إلى صنف من الناس أظهره السياق وأبرزه.

وخذ قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ﴾(٢)، وقوله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَـٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾(٣)، تجد أن الضمير (نحن) وما عطف عليه (نحن وآباؤنا) قد قدما على اسم الإشارة (هذا) فى الآية الأولى، وقدم اسم الإشار عليهما فى الآية الثانية (وعدنا هذا نحن وآباؤنا) ويرجع ذلك إلى أن سياق الآية الأولى قد أبرز تمسك الكفرة بعقائد الآباء، وحرصهم على محاكاتها وتقليدهم فيها، وترديدهم لمقالتهم: (بل قالوا مثل ما قال الأولون) فاقتضى ذلك تقديم الضمير وما عطف عليه (نحن وآباؤنا) على اسم الإشارة المشار به إلى البعث.

أما الآية الثانية فإن السياق يدل على أن موضع الإنكار وجهته المقصودة هى البعث، وإخراجهم بعد مماتهم وصيرورتهم ترابا هم وآباؤهم، وهذا يقتضى تقديم الاسم المشار به إلى البعث (هذا) على الضمير وما عطف عليه (نحن وآباؤنا).

فلما كان الغرض المقصود والمساق له الكلام فى سورة (المؤمنون) المبعوثين، قدم ما يدل عليهم (نحن وآباؤنا) ولما كان الغرض المقصود والمساق له الكلام فى سورة (النمل) هو البعث، قدم اسم الإشارة الدال عليه(٤).

ووراء التقديم فى الآيتين كذلك المحافظة على النسق القرآنى فعندما فصل بخبر كان بين اسمها وما عطف عليه: "كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا" فى سورة "النمل" فصل باسم

---

(١) الآيات بالترتيب: البقرة٩٦، ١١١، ١١٣، ١٢٠.
(٢) المؤمنون ٨١-٨٣.
(٣) النمل ٦٧، ٦٨.
(٤) انظر الكشاف ٣/ ١٥٨.

الإشارة بين نائب الفاعل ومؤكده: "وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا".. وفى سورة "المؤمنون" تأخر اسم الإشارة فى: "وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا" ليلائم: "كُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا" حيث لم يحدث فصل فى كليهما.. وأيضًا روعى فى التقديم البعد فى الإهلاك ففى سورة "النمل" صاروا ترابا، مرحلة أبعد فى الإهلاك فتقدم المشار به إلى البعث، وفى سورة "المؤمنون" صاروا ترابا وعظاما، مرحلة أقرب مما فى "النمل" فتأخر اسم الإشارة.

وفى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾(1) قدم ضمير المخاطبين على ضمير الأولاد، وجاء العكس فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾(2) لأن المفعول لأجله فى الآية الأولى (من إملاق) دل على أنهم فى فقر وعدم، وهذا يقتضى تقديم الوعد برزقهم على الوعد برزق أولادهم، فجاء التعبير الكريم (نحن نرزقكم وإياهم).

أما المفعول لأجله فى الآية الثانية (خشية إملاق) فقد دل على أنهم فى يسر، لأن الخشية إنما تكون مما لم يقع، وهذا قد اقتضى تقديم الوعد برزق الأولاد على الوعد برزقهم، فكان التعبير القرآنى (نحن نرزقهم وإياكم) إذ رزقهم وقت الخطاب حاصل، وهم إنما يخشون الفقر.

وقد يكون التقديم لدفع توهم غير المراد، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾(3) حيث قدم الجار والمجرور (من قومه) على الموصول (الذين كفروا وكذبوا...) لأنه لو أخر فقيل: وقال الملأ الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا من قومه، لتوهم أن الجار والمجرور من صلة الدنيا، وأن المعنى: وأترفناهم فى الحياة الدنيا من قومه، أى: القريبة منهم، وبذا يكون القائلون ليسوا من قومه، فدفعا لهذا التوهم قدم الجار والمجرور.

وهذا التوهم قد نشأ من طول الصلة، ولذا عندما قصرت الصلة فى قوله تعالى:

---

(1) الأنعام: ١٥١.

(2) الإسراء: ٣١.

(3) المؤمنون ٣٣.

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾[١] تأخر الجار والمجرور "من قومه" إذ ليس فى الآية عندئذ ما يوهم خلاف المراد.

وكذا القول فى الآية الكريمة: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾[٢] فقد وصف الرجل بثلاث صفات، بالإيمان وبكتمانه وبكونه من آل فرعون، وقدم "من آل فرعون" على "يكتم إيمانه" لأنه لو أخر فقيل: يكتم إيمانه من آل فرعون، لتوهم أنه متعلق بالفعل "يكتم" وأن الرجل يكتم إيمانه خوفا من آل فرعون، وأنه ليس منهم، وهذا خلاف المراد، لأن المراد إبراز عناية الله تعالى، ورعايته لموسى ـ عليه السلام ـ وامتنانه عليه، بأن جعل من آل فرعون من يدافع عنه، ويجادلهم فيه، ويناقشهم من أجله، وقد آمن به.

وفى قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[٣] قدم الجار والمجرور "من أقصى المدينة" إذ تقديمه فيه زيادة توبيخ لأصحاب القرية، الذين استمعوا عن قرب وشاهدوا من الرسل ما لم يشاهده ذلك الرجل الذى كان فى أقصى المدينة، ومع ذلك فقد نصح لهم بما لم ينصحوا به أنفسهم.

وعندما لم يتعلق بتقديم الجار والمجرور على الفاعل غرض فى قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾[٤] لم يتقدم، إذ ليس فى تقديمه ذاك الغرض الذى اقتضى التقديم فى سورة يس.

واقرأ قوله تعالى: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[٥] تجد أن الجار والمجرور قد تقدم على المفعول به فى قوله "بسطت إلى يدك" وتأخر عنه فى قوله "بباسط يدى إليك" فتقديمه يشعر بطغيان الباسط إذ يبسط يده إلى أخيه، كما ينبهه إلى خطئه، ويحثه على تأمل ما هو مقبل عليه، لعله يرتدع، إنه يبسط إلى الأخ يده، تقديم "إلى" تذكير له بالأخوة التى تجمعهما، وفى

(١) المؤمنون ٢٤.
(٢) غافر ٢٨ .
(٣) يس ٢٠.
(٤) القصص ٢٠ .
(٥) المائدة ٢٨ .

إيثار التعبير بإن دلالة على أن بسط اليد لقتل الأخ ينبغي أن يكون من الأمور المستبعدة.

وتأخيره في قوله تعالى: "ما أنا بباسط يدى إليك" يدل على أنه ليس حريصا على قتل أخيه، بل ليس ممن يصدر عنه القتل أصلاً، كما يشعر بذلك تقديم المسند إليه "أنا" وإيلاؤه أداة النفى "ما" فقد دل على نفى البسط عنه وإثباته لغيره، وهو الأخ الذى هم بالقتل، وعزم عليه.

ولنتأمل الآيات الكريمة: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ... ﴿ وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾ .. ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ .. ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾[1].

نجد اختلافا فى ترتيب العباد فى الآيات الكريمة، حيث قدم الظالم لنفسه فى سورة فاطر، فالمقتصد فالسابق بالخيرات، وفى الصافات قدم المحسن على الظالم لنفسه، وفى الحديد قدم المهتدى على الفاسق، وفى هود قدم الشقى على السعيد.

ويرجع هذا الترتيب إلى الغرض المسوق له الكلام فى كل سورة ففى سورة فاطر، السياق فى بيان حال من أورثهم الله الكتاب، وامتداح السابقين بالخيرات، وقد اقتضى ذلك تقديم الظالم لنفسه، وتأخير السابق بالخيرات الأمرين:

أولهما: الإيذان والإشعار بكثرة الفاسقين وغلبتهم، وبأن المقتصدين بالنسبة إليهم قليل، والسابقين بالخيرات أقل من القليل[2].

ثانيهما: أن يقرن السابقون بما أعد لهم من النعيم" ذلك هو الفضل الكبير. جنات عدن يدخلونها" لأن السياق فى امتداحهم ـ كما قلت ـ بدليل أنه سكت عن بيان جزاء الفريقين الآخرين، ويقتضى النظم أن يقرنوا بما أعد لهم، ولو قدموا وما أجرى عليهم من أوصاف لطال الفصل بينهم وبين الفريقين الآخرين، وكذا لو قدموا دون ما أجرى عليهم، لاختلت بلاغة النظم الكريم، ولضاع الهدف من امتداحهم وبيان منزلتهم.

(١) الآيات بالترتيب: فاطر ٣٢، الصافات ١١٣، الحديد ٢٦، هود ١٠٥.

(٢) انظر الكشاف ٣/ ٣٠٩.

أما فى سورتى الصافات والحديد، فالسياق فى بيان امتنان الله تعالى على من ذكر من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ومقام الامتنان يلائمه تقديم المحسن والمهتدى على الظالم لنفسه والفاسق.

ولم يعتد بالكثرة التى صرح بها فى سورة الحديد ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ كما اعتد بها فى سورة فاطر لسببين:

أولهما: أن مقام الامتنان قد اقتضى تقديم المهتدى ـ كما قلت ـ ولا يختل النظم الكريم بالتقديم، لعدم وجود صفات يقتصد إجراؤها على المهتدين، كما هو الحال فى سورة فاطر.

ثانيهما: أن السياق فى سورة فاطر فى امتداح السابقين، وبيان حال من أورثهم الله الكتاب وأكثرهم ظالم لنفسه، فاقتضى المقام تقديم الظالم، لأن فى تقديمه مبادرة بالعتاب على تفريط المؤمنين، الذين ظلموا أنفسهم بهذا التفريط، فتقديم الظالم لنفسه فى فاطر أعون على تحقيق الغرض وهو المبادرة بالعتاب..

أما فى سورة الحديد وكذلك الصافات، فالسياق فى بيان الامتنان على الأنبياء، ولا يناسب مقام الامتنان تقديم الظالم أو الفاسق ولو كان كثيرا.

وفى سورة هود الكلام فى سياق التحذير من الظلم والتخويف من عذاب الآخرة وهذا يقتضى تقديم الشقى، لأن تقديمه فى مثل هذا المقام أعون على الزجر، وأبلغ فى التحذير والتخويف.

وأقرأ قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾(١) تجد أن الجار والمجرور "على" قد قدم على الخبر، للدلالة على الاختصاص، حيث اقتضى المقام ذلك، ولم يقدم فى قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾(٢) إذ لا حاجة تدعو للدلالة على اختصاصه تعالى بالإعادة، فهى أهون عليه من البدء.

يقول العلامة الزمخشرى: "فإن قلت: لم أخرت الصلة فى قوله: "وهو أهون عليه"

(١) مريم ٩ .

(٢) الروم ٢٧ .

وقدمت فى قوله: "هو على هين"؟ قلت: هناك قصد الاختصاص، وهو محزه، فقيل: هو على هين وإن كان مستصعبا عندكم أن يولد بين هرم وعاقر، وأما ههنا فلا معنى للاختصاص، كيف والأمر مبنى على ما يعقلون من أن الإعادة أسهل من الابتداء، فلو قدمت الصلة لتغير المعنى"(١).

ونقرأ الآيات الكريمة: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾... ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ ... ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾... ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ ﴾(٢) وننعم النظر فى ترتيب ألفاظها، وما قدم منها وما أخر، ونبحث عما وراء التقديم والتأخير من دواع وأسرار، نجد "رجالا" قد قدم على "على كل ضامر" للدلالة على المشقة التى يقاسيها من يحج راجلاً، ولذا فضل كثير من العلماء الرجالة على الركبان، وقال عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما: "وددت لو حججت راجلا، فإن الله تعالى قدم الرجالة على الركبان فى القرآن"(٣).

وقدم من يمشى على بطنه وهو الزاحف الذى يمشى بغير آلة مشى من أرجل أو قوائم، لأنه أعرق فى الدلالة على القدرة، وسياق الآية فى بيان قدرة الله تعالى، فاقتضى السياق تقديم ما هو أعرق فى الدلالة على القدرة، ثم جاء الماشى على رجلين، ثم الماشى على أربع.

وفى سورة الفرقان ذكر أن أسباب إنزال الماء الطهور: إحياء الأرض، وسقى الأنعام والأناسى، وقدم الإحياء على سقى الأنعام، وسقى الأنعام على سقى الأناسى، وذلك للأسباب الآتية:

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٢٠ .

(٢) الآيات بالترتيب: الحج ٢٧، النور ٤٥، الفرقان ٤٨، ٤٩، يونس ٢٤.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٢١٦ وروح المعاني ١٧/ ١٤٤ .

١- أن حياة الناس بحياة أرضهم، وحياة أنعامهم، فقدم ما هو سبب حياتهم وعيشهم على سقيهم.

٢- أنهم إذا ظفروا بما يكون سقيا أراضيهم ومواشيهم، فلن يعدموا سقياهم.

٣- أن سياق الآيات الكريمة فى بيان ما امتن الله تعالى به على الناس، فقد أفاض عليهم بمقومات وجودهم، متمثلة فى المياه والنبات والأنعام، إذ منافعها تصير إليهم، وهم الغاية من إرسال الرياح، وإنزال الماء وإنبات النبات، ووجود الأنعام، ولهذا أخروا وقدم ما امتن الله تعالى به عليهم.

ولما اختلف السياق فى سورة يونس، وصار المقام مقام تحذير من فتنة الدنيا، ومتاعها وشهواتها، قدم الناس على الأنعام "مما يأكل الناس والأنعام" لأن الناس هم المفتونون بزهرة الحياة الدنيا، وهم المستمتعون بنبات الأرض أصالة.

وهكذا يتجلى لنا أن وراء التقديم والتأخير فى النظم القرآنى أسرارا وأغراضا، وأن تقديم اللفظ فى موضع وتأخيره فى موضع آخر، لا يكون إلا لغاية، ولمعنى يقصد إليه، وتلك الغايات والمعانى لا تظهر إلا لمن أنعم النظر فى النظم الكريم، وتأنى فى الفهم والتدبر، وأحاط بالسياق ومقاماته، ووقف على المراد منه.

وإذا كان هذا هو شأن التقديم عند النظر إليه فى نطاق الآيات الكريمة، وفى ميدان النظم القرآنى كله، فإن التقديم فى نطاق الجملة القرآنية الواحدة يكمن وراءه من الأغراض والأسرار ما يستلزم من الدارس أن يصبر لفهمها، وأن يقف طويلا للإحاطة بها وتجليتها، فإن تغيير بناء الجملة بتقديم كلمة فيها، وتحويلها عن مكانها، لا يكون إلا لتحقيق غرض، والدلالة على معنى.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[1] فإن تقديم الضمير "إياك" فى الموضعين لتحقيق معان جليلة وأغراض عظيمة، إنه يدل على الاختصاص وتعظيم المعبود جل شأنه، لأن تقديم ما هو مقدم فى الوجود تنبيه للعابد إلى أنه ينبغى أن يكون نظره إلى المعبود أولا وبالذات، ومنه إلى العبادة لا من حيث إنها عبادة صدرت عنه، بل

(١) الفاتحة ٥.

من حيث إنها نسبة شريفة إليه وصلة سنية بينه وبين ربه، فإن العارف إنما يحق وصوله إذا استغرق فى ملاحظة جناب ربه، وغاب عما عداه، ومرجع ذلك إلى تقديم الضمير "إياك" والابتداء به، ولهذا فضل ما حكى الله عن حبيبه ـ ﷺ ـ حين قال: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾(١) على ما حكاه عن كليمه ـ عليه السلام ـ حين قال: ﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾(٢) لابتدائه بلفظ الجلالة، وتصديره المعية به(٣).

ومما ينبغى ملاحظته فى الآية الكريمة الالتفات إلى الخطاب، المشعر بالترقى من البرهان، فى إجراء الصفات المتقدمة عليه تعالى، إلى العيان والمناجاة عن قرب، وكأن المعلوم صار عيانا، والمعقول مشاهدا، والغيبة حضورا، حيث تأخذ هذه الصفات بلب القارئ وتدنيه من خالقه، فيتعلق به وجدانه الذى ذاب فى صفات الجلال، ويناجى عن قرب: إياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة.

وفى إيثار صيغة الجمع، أى: المتكلمين، فى الفعلين "نعبد ونستعين" على صيغة الإفراد "أعبد وأستعين" إيذان بقصور العابد المستعين، وعدم لياقته بالوقوف فى مواقف الكبرياء منفردا، وإشعار باشتراك سائر الموجودين له فى حالة الخضوع لله رب العالمين، بناء على تعاضد الأدلة الملجئة إلى ذلك، ولذا شرعت الجماعة، لعل اندماج العبادة والاستعانة يكون سببا فى القبول والإجابة، فقد تقبل عبادة المتقاصر ببركة عبادة الواصل(٤).

---

(١) التوبة ٤٠.

(٢) الشعراء ٦٢.

(٣) انظر أنوار التنزيل ١/ ١٠.. ومما يلاحظ فى التفضيل أيضاً بالإضافة إلى التقديم، التعبير فيما حكاه الله عن حبيبه ـ ﷺ ـ بلفظ الجلالة "الله" فقد أتى بالاسم الجامع لصفات الجلال، وأما ما حكاه عن كليمه ـ عليه السلام ـ فقد عبر فيه بلفظ "الرب" وهو اسم مشعر بصفة واحدة، صفة التربية، وأيضاً: أن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ قيدت فيه المعية بصفة واحدة وزمن واحد، صفة الهداية والزمن المستقبل، وأما قوله تعالى: "إن الله معنا" فقد أطلقت فيه المعية، فلم تقيد بصفة ولا بزمن، فأفادت أن الله معهما فى كل زمان، حافظا ومعينا وهاديا وناصرا، إلى آخر ما يمتن الله به على عبده. انظر روح المعانى ١٩/ ٨٥.

ولا يتوهم من هذا أن القرآن يفضل بعضه بعضا، لأن المراد: المفاضلة بين قولين جريا على لسان نبيين من أنبياء الله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وسبحان من فضل بعض العالمين على بعض ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ البقرة ٢٥٣.

(٤) انظر تفسير أبى السعود ١/ ١٧، والبيضاوى ١/ ١٠.

وقد قرنت الاستعانة بالعبادة ليجمع بين ما يتقرب به العبد إلى ربه، وما يطلبه ويحتاج إليه من جهته، وقدمت العبادة على الاستعانة، لأن تقديم الوسيلة على طلب الحاجة يكون أدعى للإجابة(١).

ومما جاء التقديم فيه للدلالة على الاختصاص قوله تعالى: ﴿ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾.. ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾.... ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾(٢) فقد دل التقديم فى الآيات الكريمة على الاختصاص، اختصاصه تعالى بالعبادة، واختصاص المشركين بدينهم وهو الشرك، وعبادة غير الله، واختصاص النبى ـ ﷺ ـ بدينه الذى هو التوحيد، واختصاص المولى عز وجل بالمساق إليه، فالعباد يومئذ يساقون جميعا إليه ـ تعالى وحده، للحساب والجزاء.

وانظر فى قوله تعالى: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝٤٥ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٤٦ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾(٣) تجد أن تقديم الجار والمجرور فى قوله: "لا فيها غول" دل على نفى الغول عن خمر الجنة وإثباته لخمور الدنيا، فخمور الدنيا تغتال العقول أى: تفسدها، وينزف عنها شاربوها أى: يسكرون وتذهب عقولهم، أما خمر الجنة فمنزهة عن ذلك.

المراد إذا تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا، ولذا قدم الجار والمجرور فى قوله "لا فيها غول" وقوله "عنها ينزفون" للدلالة على الاختصاص، أى: نفى الغول والنزف عنها وإثباتها لغيرها من خمور الدنيا.

ولهذا جاء قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ﴾(٤) بإيلاء الريب حرف النفى وتأخير الجار والمجرور "فيه" لأن المراد: إثبات أنه حق وصدق، دون تعرض لغيره من الكتب الأخرى، ولو قيل: لا فيه ريب، لكان المعنى على نفى الريب عنه، وإثباته لغيره من كتب الله الأخرى، وهو بعيد عن المراد.

يقول الزمخشرى: "فإن قلت: فهلا قدم الظرف على الريب كما قدم على الغول فى

(١) انظر الكشاف ١/ ٦٦.

(٢) الآيات بالترتيب: البقرة ١٢٧، الكافرون ٦، القيامة ٣٠.

(٣) الصافات ٤٥ ـ ٤٧.

(٤) البقرة ١، ٢.

قوله تعالى: "لا فيها غول"؟ قلت: لأن القصد في إيلاء الريب حرف النفي، نفى الريب عنه وإثبات أنه حق وصدق، لا باطل وكذب، كما كان المشركون يدعونه، ولو أولى الظرف لقصد إلى ما يبعد عن المراد وهو أن كتابا آخر فيه الريب لا فيه، كما قصد في قوله: "لا فيها غول" تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هي، كأنه قيل: ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والنقيصة"[1].

وقد يأتي التقديم لغرض الدلالة والتنبيه من أول الأمر على أن المقدم خبر وليس نعتا، ففي قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[2] دل تقديم الجار والمجرور "لكم" على أنه خبر لقوله "مستقر" ولو تأخر فقيل: ومستقر لكم في الأرض، لتوهم متوهم أنه وصف لمستقر، وأن الخبر قوله "في الأرض" إذ تحتاج النكرة إلى الوصف حتى يكون مسوغا للابتداء بها، ولذا جاء التقديم للدلالة والتنبيه من أول الأمر على أن المقدم خبر وليس نعتا.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[3] تقدم الجار والمجرور "لله" على مفعولَي "جعل" على القول بأن "الجن" مفعول أول، و "شركاء" مفعول ثان، وعلى القول بأن "الجن" مفعول فعل محذوف، وأن المعنى: فمن جعلوا شركاء؟ قيل: الجن، على هذا القول يكون الجار والمجرور "لله" مفعولا ثانياً لجعل مقدما على المفعول الأول "شركاء".

وهذا التقديم للدلالة على أن الإنكار متوجه إلى الجعل لله، لا إلى مطلق جعل، لأن الخاطر ملتفت إليه تعالى، والهمة معقودة به، كما يدل تقديم "شركاء" على "الجن" على أن الإنكار متوجه إلى جعلهم لله شركاء على الإطلاق، فيدخل فيه مشركة غير الجن، ولو أخر فقيل: وجعلوا الجن شركاء لله، كانت الشركة مقيدة غير مطلقة[4].

إن هذا التقديم للجار والمجرور أولا، ثم للفظ "شركاء" ثانيا، قد جعل إنكار الشرك أقوى، والتحذير منه أبلغ، والزجر أشد.

---

(١) الكشاف ١/ ١١٤.

(٢) الأعراف ٢٤.

(٣) الأنعام ١٠٠.

(٤) انظر البرهان ٣/ ٢٦٨.

هل يفيد تقديم المعمول والخبر والظرف والجار والمجرور ونحوها الاختصاص دائماً؟..

الذى عليه محققو البلاغيين أن ذلك أمر غالب لا لازم، على نحو ما رأينا فى الآيات الكريمة، وانظر فى قوله تعالى: ﴿ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾[1] تجد أن تقديم "نوحا" لا يفيد اختصاصا، لأن الهداية ليست مقصورة عليه، بل تجاوزته بصريح الآية الكريمة إلى غيره من الأنبياء.

وخذ قوله تعالى: ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝٤٠ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ ﴾[2] تجد أن التقديم فى قوله: "أغير الله تدعون" لا يدل على الاختصاص، وإنما المعنى على إنكار أن يعبد غير الله مع الله، قال تعالى: ﴿ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾[3].

أما التقديم فى قوله "بل إياه تدعون" فهو للدلالة على الاختصاص، إذ المعنى على اختصاصه تعالى بالعبادة، وعندئذ يستجاب لهم، ويكشف عز وجل ما يدعون إليه إن شاء.

فتقديم الخبر والمعمولات المذكورة لا يفيد الاختصاص دائما، بل هذا أمر مبنى على الغالب والأكثر، لا على اللزوم والقطع، وهو ما عليه المحققون من البلاغين، كما قلت[4].

هذا وكثيرا ما يقدم المسند إليه فى الجملة للدلالة على الاختصاص أو للدلالة على التوكيد، ففى قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا ﴾... ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ ﴾... ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾[5] دل تقديم لفظ الجلالة على اختصاصه بهذه الأفعال، ولا يقال إن الاختصاص قائم ولو أخر المسند إليه" لفظ

---

(١) الأنعام ٨٤.

(٢) الأنعام ٤٠، ٤١.

(٣) النمل ٦٠

(٤) انظر البرهان ٣/ ٢٣٧، ٢٣٨.

(٥) الآيات بالترتيب: الزمر ٢٣، الرعد ٨، النور ٤٥.

الجلالة" إذ لا أحد يشاركه فيما ذكر فى الآيات الكريمة، فلو قيل: نزل الله.. يعلم الله... خلق الله، فهو وحده الذى ينزل ويعلم ويخلق.

لا يقال هذا القول، لأن تأخير المسند إليه يجعل المعنى على الإخبار، ولا يكون الاختصاص مقصودا ولا مرادا، فهو إنما قصد وأريد بالتقديم.

وفى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾[1] دل تقديم المسند إليه "هم" على التوكيد فحسب، لا على الاختصاص، لأن الله يخلقهم ويخلق غيرهم، وليس الخلق موقوفا عليهم.

وفى قوله تعالى: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾[2] دل التقديم فى قوله "ولا هم ينصرون" على الاختصاص، فالنصر منفى عنهم آنئذ، مثبت لغيرهم من عصاة المؤمنين الذين لا يخلدون فى النار، أما التقديم فى قوله تعالى: "ولا هم ينظرون" فهو للدلالة على التوكيد فحسب، إذ لا أحد ينظر عند مجئ الساعة وحلول العذاب.

وفى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾[3] وقوله عز وجل: ﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ﴾[4] دل التقديم فى الآية الأولى على الاختصاص، والمعنى: ما أنت علينا بعزيز بل رهطك هم الأعزة، فالعزة منفية عنه ـ عليه السلام ـ مثبتة لرهطه، بدليل قوله تعالى: ﴿ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[5].

أما التقديم فى الآية الثانية فللدلالة على التوكيد فقط، إذ لا أحد يغيثهم يومئذ، لا الشيطان ولا غيره، ولا أحد يغيث الشيطان، لا هم ولا غيرهم.

---

(١) النحل ٢٠

(٢) الأنبياء ٣٩، ٤٠

(٣) هود ٩١.

(٤) إبراهيم ٢٢.

(٥) هود ٩٢.

وبهذا يتجلى لنا أن تقديم المسند إليه يدل إما على الاختصاص، وإما على التوكيد فحسب، سواء أكان تقديمه فى النفى نحو "ولا هم ينصرون" أم فى الإثبات نحو: "وهم يخلقون" وسواء أكان خبره فعلا، كما فى الآيتين، أم غير فعل كما فى الآية: "ما أنا بمصرخكم" والذى يحدد دلالته إنما هو السياق وقرائن الأحوال.

ما سر دلالة تقديم المسند إليه على التوكيد؟

سر ذلك أن تقديم المسند إليه، وتصديره الجملة، فيه تنبيه للمخاطب يجعله يتطلع لما سيسند إليه فعند مجيئه يتأكد لدى النفس، لأنه جاءها وهى متطلعة إليه، مهيأة لتلقيه.

يقول عبد الظاهر: "لا يؤتى بالاسم معرى من العوامل إلا لحديث قد نوى إسناده إليه، وإذا كان كذلك فإذا جئت بالحديث فقلت مثلاً: قام، أو قلت: خرج، أو قلت: قدم، فقد علم ما جئت به، وقد وطأت له، وقدمت الإعلام فيه، فدخل على القلب دخول المأنوس به، وقبله قبول المتهيئ له، المطمئن إليه"[(١)].

هل هناك مقامات تقتضى تقديم المسند إليه للدلالة على التوكيد؟

أجل، وأهم هذه المقامات هى:

١- ما سبق فيه إنكار، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[(٢)] فالكاذب ولاسيما فى أمور الدين لا يقر بأنه كاذب، بل يدفع ذلك وينكره، ومن باب أولى ينكرون ويدفعون علمهم بهذا الكذب، ولذا جاء التوكيد "وهم يعلمون".

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[(٣)] فالنبى ـ ﷺ ـ ينكر ما يزعمونه فى شأن القرآن، ويدفع وصفهم له بكونه أساطير الأولين تملى عليه، ولذا كان التوكيد لما يزعمون "فهى تملى عليه".

(١) دلائل الإعجاز ١٥٩
(٢) آل عمران ٧٥.
(٣) الفرقان ٥ .

٢- ما جرى فيه تكذيب المدعى، وإبطال دعواه، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ﴾[١] فقولهم "آمنا" دعوى بأنهم لم يخرجوا بالكفر، وهم كاذبون فى هذه الدعوى، لأنهم دخلوا بالكفر وخرجوا به، ولذا جاء التوكيد "وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به" تكذيبا لهم وإبطالا لدعواهم.

٣- فيما القياس فى مثله ألا يكون، كقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾[٢] فقد عبد المشركون آلهة مخلوقة، وهذا خلاف القياس، لأن شأن المعبود أن يكون خالقاً لا مخلوقا، ولذا كان التوكيد "وهم يخلقون" ولا يخفى عليك ما وراء ذلك من توبيخ للمشركين وتسفيه لعقولهم.

٤- عند الأخبار الغريبة التى تثير الدهشة والتعجب، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾[٣] فمعنى الإيزاع: أن يوقف أولهم، ويحبس حتى يلحق به آخرهم، وحشر الجن والإنس والطير على هذه الهيئة من الإيزاع والتداخل أمر غريب يثير التعجب والدهشة، ولذا جاء التوكيد "فهم يوزعون" دفعا لهذه الغرابة، وتقريرا للمعنى فى النفس ولو قيل: فحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فيوزعون، لوجدنا أن اللفظ قد نبأ عن المعنى، والمعنى قد زال عن صورته وعن الحال التى ينبغى أن يكون عليها.

ومثله قوله تعالى: ﴿ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾[٤] إذ مما يستغرب ويثير الدهشة أن تقع المراودة ممن تكون فى تلك المنزلة، إنها امرأة العزيز، والنفوس تستبعد وقوع المراودة منها لفتاها، لذا جاء التوكيد "هى روادتنى" تقريرا للمعنى، ودفعا لهذه الغرابة.

قلت إن تقديم المسند إليه يكون إما للدلالة على الاختصاص، وإما للدلالة على

---

(١) المائدة ٦١.

(٢) الفرقان ٣ .

(٣) النمل ١٧.

(٤) يوسف ٢٦.

التوكيد فحسب، وأن السياق وقرائن الأحوال به هى التى تحدد دلالته، وقد قطع الإمام عبد القاهر وجمهور البلاغيين بدلالة تقديم المسند إليه على خبره الفعلى بعد أداة النفى، فى نحو قولنا: ما أنا فعلت، قطعوا بدلالته على الاختصاص، وهذا القطع يتنافى مع ما رأيناه فى الآيات الكريمة، إذ نرى هذا التقديم فى كثير من الآيات، لا يفيد اختصاصا، وإنما يكون لمجرد التوكيد، كما رأينا فى قوله تعالى: ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾[1] فالتقديم فى قوله "ولا هم ينظرون" للتوكيد فحسب، ولا يفيد اختصاصا، إذ لا أحد ينظر عند قيام الساعة وحلول العذاب.

وخذ قوله تعالى: ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾[2] تجد أن تقديم المسند إليه "هم" وإيلاءه أداة النفى لم يفد اختصاصا، وإنما دل على التوكيد فحسب، فالنزف عن خمر الجنة منفى عنهم، ومنفى عن غيرهم، هى لا تسبب نزفا أى: سكرا لمن قدر الله له أن يشربها، وأنعم عليه بدخول الجنة، ولا يتأتى أن يقال: إن النزف عن خمر الجنة منفى عن هؤلاء، مثبت لغيرهم.

ولذا نقرر أن القواعد والضوابط البلاغية ينبغى أن تكون مبنية على الأكثر والغالب، لا على القطع والإطلاق، وأن على الدارس الواعى أن ينعم النظر فى النظم القرآنى، وفى النصوص الجيدة التى نطق بها الخلص، لاسيما الشعر الجاهلى، وأن يدرك مدلولات هذه النصوص، ثم يقوم فى ضوء هذه المدلولات بتصحيح المفاهيم والضوابط البلاغية وتحريرها، وخاصة عندما يبدو له تناقض بين هذه المفاهيم، وما تدل عليه النصوص الجيدة، فهذه المفاهيم وتلك الضوابط، إنما استنبطها العلماء من تأملهم لدلالات التراكيب فى هذه النصوص، ولا عجب إذاً أن تحرر تلك الضوابط والمفاهيم فى ضوء ما يتجلى للناظر من دلالات النظم القرآنى الكريم، ودلالات هذه النصوص الجيدة.

---

(١) الأنبياء ٤٠ .

(٢) الصافات ٤٧ .

الأسمية والفعلية

قال تعالى:

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ الكهف ١٨.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ الملك ١٩.

﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴾ الأعراف ١٩٣.

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ يس ٢٠، ٢١

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ التوبة ٤٣.

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾ الأنبياء ٥٥

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ البقرة ١٤.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ هود ٦٩.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فاطر ٣.

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ الأنبياء ٣٢.

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ الأنبياء ٤٢.

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ يوسف ١٠٥

يختلف الاسم عن الفعل فى الدلالة، فالاسم يدل على الثبوت والدوام، والفعل الماضى يدل على حدث قد وقع فى الزمن الماضى، والفعل المضارع يدل على حدث يقع فى الحال ويستمر وقوعه فى الاستقبال، فهو يدل على الحدوث والتجدد، نقول: زيد انطلق، فتفيد هذه الجملة أن انطلاقا قد وقع من زيد، ونقول: زيد ينطلق، فتدل الجملة على أن انطلاقا يقع من زيد، ويتجدد وقوعه، ونقول: زيد منطلق، فتدل على انطلاق ثابت واقع من زيد، وزيد مستمر فيه.

ومن أجل هذا الاختلاف فى دلالة كل من الاسم والفعل، أوثر التعبير بالاسم عند إرادة الدلالة على الثبوت والدوام، وعبر بالفعل عند إرادة الدلالة على وقوع الحدث، أو الدلالة على الحدوث والتجدد، ويكون وراء ذلك معان يقصد البلاغى إلى تحقيقها، ودلالة التعبير عليها.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾(١) تجد أن التعبير بالأسماء فى قوله: "أيقاظا.. هم رقود.. كلبهم باسط" قد دل على دوام هذه الأفعال، وثبوت تلك الهيئات، واستمرارهم عليها، فالكلب باسط ذراعيه، ثابت ومستمر على تلك الهيئة، وهم مستمرون فى رقودهم، دائمون عليه، ولكنهم أعينهم مفتحة، فإذا ما نظرت إليهم حسبتهم أيقاظا، أى: دائمى اليقظة منتبهين، لا تغمض أعينهم البتة.

إن إيثار التعبير بتلك الأسماء قد كشف عن هيئة أهل الكهف، جلى سكونهم الدائم، وأفصح عن ثباتهم على الهيئات المذكورة، ولما كان التقليب يتجدد، ويقع حينا بعد حين، لئلا تأكل الأرض من أجسادهم فقد عبر عنه بالفعل المضارع "نقلبهم" الدال على التجدد والحدوث.

وفى قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾(٢) عبر عن صف الأجنحة بالاسم "صافات" وعن قبضها بالفعل "ويقبضن" وذلك لأن الأصل فى

(١) الكهف ١٨.

(٢) الملك ١٩.

الطيران صف الأجنحة، أى: بسطها، فعبر عنه بالاسم الدال على الثبوت والدوام، وأما القبض فطارئ على البسط لكى يستعان به على الحركة، ولذا عبر عنه بالفعل الدال على الحدوث والتجدد.

يقول الزمخشرى: "فإن قلت: لم قيل: ويقبضن، ولم يقل: قابضات؟ قلت: لأن الأصل فى الطيران هو صف الأجنحة، لأن الطيران فى الهواء كالسباحة فى الماء، والأصل فى السباحة مد الأطراف وبسطها، وأما القبض فطارئ على البسط، للاستظهار به على التحرك، فجئ بما هو طار غير أصل بلفظ الفعل، على معنى أنهن صافات ويكون منهن القبض تارة بعد تارة، كما يكون من السابح"[(١)].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ ﴾[(٢)] إذ تكشف هذه الآية الكريمة عن عادة المشركين، وعلاقتهم بالأصنام التى عبدوها من دون الله، فقد كانوا إذا مسهم الضر، أو نزلت بهم نازلة، دعوا ربهم منيبين إليه، وصمتوا عن دعاء أصنامهم، تلك عادة متأصلة فيهم وثابتة، ولذا عبر عن صموتهم بالجملة الاسمية "أنتم صامتون" الدالة على الثبوت والدوام، فهذا هو الأصل فيهم، وأما الدعاء فغير معهود عنهم فى هذه الحال، ولذا عبر عنه بالفعل "أدعوتموهم" والمعنى: سواء عليكم أأحدثتم الدعاء على غير عادة، أم بقيتم مستمرين على عادة صمتكم عن دعائهم[(٣)].

وانظر فى قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[(٤)] تجده قد عبر فيه عن اهتداء الرسل بالجملة الاسمية "وهم مهتدون" الدالة على الثبوت والدوام، فهم ثابتون على الهدى، مستمرون فيه، وهذا أدعى لاتباعهم والاقتداء بهم، فإذا ما أضيف إلى ذلك أنهم لا يسألون على تبليغ الرسالة أجرا تأكد وجوب الاتباع والاقتداء.

(١)الكشاف ٤/ ١٣٨.

(٢)الأعراف ١٩٣.

(٣)انظر الكشاف ٢/ ١٣٨.

(٤)يس ٢٠، ٢١.

والفعل المضارع فى قوله: "من لا يسألكم" يفيد التجدد الاستمرارى وهو منفى "بلا" ـ كما ترى ـ فعدم سؤالهم الأجر على تبليغ الرسالة متجدد بتجدد التبليغ، وباق على الدوام، ولو عبر بلم فقيل: من لم يسألكم أجراً، لفتح مجالا أمام المعاندين أن يقول قائلهم: الرسل لا يسألون اليوم أجرا، وغدا قد يسألون، وذلك لأن "لا" النفى بها مستمر، وأما "لم" فإنها حرف نفى وقلب، فالنفى بها ليس مستمرا، ولذا يقال: لم يكن ثم كان[1].

أرأيت مدى دقة التعبير القرآنى؟ إن استبدال حرف بحرف يغير المعنى، ويؤدى إلى الدلالة على غير المراد، وهذا دليل من دلائل إعجازه ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾[2].

وانظر فى قوله تعالى: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾[3] لقد عبر عن المنافقين بالاسم "الكاذبين" الدال على الثبوت والدوام، لينبئ بأن هذه عادتهم، فالكذب خلق ثابت فيهم، وصفة مستمرة دائمة، لا تبارحهم، وأما المؤمنون فقد عبر عنهم بالفعل الماضى "صدقوا" ليدل على أنهم قد حققوا الصدق، وتحلوا به، فلم يعدلوا عنه، وتأمل الفعلين "يتبين لك... وتعلم" وما يدلان عليه من جلاء الصدق ووضوحه، وخفاء الكذب وكتمانه، فصدق المؤمنين يتبين للنبى ـ ﷺ ـ وأما كذب المنافقين فيحتاج إلى علم حتى ينكشف ويظهر.

وفى قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ ﴾[4] عبر عن مجيئة بالحق، بالجملة الفعلية "أجئتنا بالحق" وعن لعبه بالجملة الاسمية "أنت من اللاعبين" وهذا يكشف عما يريده الكفرة، إنهم يريدون أن كون إبراهيم ـ عليه السلام ـ من اللاعبين أمر ثابت، وهو الأصل فيه، وأن مجيئه بالحق أمر طارئ عليه، ولم يعهد عنه.

والمعنى: أحدث منك مجئ بالحق، ولم تكن كذلك، ولا هذه عادتك، أم أنت مستمر فى لعبك الذى عهدناه فيك، وعرفناك به؟ ولا يخفى عليك ما وراء ذلك من العناد والمكابرة، ورفض الإذعان للحق، والانصياع للهدى.

(١) انظر مغنى اللبيب ١/ ٢٧٩.
(٢) النساء ٨٢ .
(٣) التوبة ٤٣ .
(٤) الأنبياء ٥٥ .

وكذا القول فى الآية الكريمة: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾(١) حيث دل التعبير بالفعل "آمنا" على أن المنافقين قد أظهروا الإيمان خوفا ومداراة للمؤمنين، وأن الإيمان لم يثبت فى وجدانهم ولم يترسخ بداخلهم، ولم يقر فى نفوسهم، وما كان كذلك يعبر عنه بالفعل.

ودل التعبير بالجملة الأسمية المؤكدة: "إنا معكم إنما نحن مستهزءون" على ثبوت النفاق، وترسخه بوجدانهم، وثباتهم ودوامهم عليه، فهو متأصل فيهم، قد تمكن من الوجدان، وتغلغل بداخلهم، وامتلأت به نفوسهم، وما هذا شأنه يعبر عنه بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والدوام.

وفى قوله تعالى: ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(٢) دل التعبير بالفعل المضارع "يرزقكم" على أن رزق الله متجدد، يتجدد بتجدد العباد، ويستمر ببقائهم، فلا ينقطع ولا يزول، وفى هذا حث على شكر النعمة، والخضوع والامتثال لله رب العالمين الخالق الرازق.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ﴾ (٣) تجد أن سلام الملائكة قد جاء منصوبا "قالوا سلاما" وسلام إبراهيم جاء مرفوعا "قال سلام" وذلك لأن فى الكلام حذفا، والأصل: قالوا: نسلم سلاما، فقال: سلام عليكم.

فسلام الملائكة قد جاء جملة فعلية "نسلم سلاما" وسلام إبراهيم قد جاء جملة اسمية "سلام عليكم" وهذا يدل على أنه ـ عليه السلام ـ أراد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به، آخذا بآداب التحية فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾(٤).

وانظر فى الآيات الكريمة: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا

(١) البقرة ١٤ .
(٢) فاطر ٣.
(٣) هود ٦٩ .
(٤) النساء ٨٦.

مُعْرِضُونَ ﴾... ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾... ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾[1] تجد أن التعبير عن إعراضهم بالاسم "معرضون" قد دل على دوام الإعراض واتصاله، وأنه لم يتخلله انقطاع يكون فيه نظر إلى الذكر، وإلى آيات الله فى الكون والآفاق، علهم أن يتعظوا ويتدبروا، وهذا يدل على شدة العناد والمكابرة.

ولعلك تدرك أن التعبير بالفعل المضارع فى قوله: "يمرون عليها" قد دل على تجدد مرورهم على تلك الآيات، حتى صارت واضحة أمامهم، وعلى الرغم من هذا فإن الإعراض دائم ومتصل، لقد التزموا به، ووقفوا أنفسهم عليه، عنادا ومكابرة.

وبهذا يكون قد تجلى لنا ما وراء التعبير بالاسمية والفعلية فى النظم الكريم من أغراض ومعان يقصد إلى تحقيقها، وقد وضح لنا أن إفادة هذه الأغراض، والدلالة على تلك المعانى، مرجعها إلى دلالة الاسمية على الثبوت والدوام، ودلالة الفعلية على وقوع الفعل، أو على الحدوث والتجدد.

الحذف

قال تعالى:

﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ الفجر ١ ـ ٤.

﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ الكهف ٦٤.

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ الكهف ٦٦.

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ الإسراء ٦٢.

﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ الزخرف ٧٧.

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ يوسف ٢٩.

---

(١) الآيات بالترتيب: الأنبياء ٣٢، ٤٢، يوسف ١٠٥.

﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾ يوسف ٨٥.

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ المطففين ١ـ٣ .

﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ يوسف ٨٢ .

﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ الذاريات ٢٩.

﴿ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾ يوسف ٤٤.

﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ الأنعام ٩٤.

﴿ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ۝١١٩ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ الأعراف ١١٩، ١٢٠.

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ﴾ الإسراء ١٠٠.

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُواْ خَيْرًا ﴾ النحل ٣٠.

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِ ﴾ النحل ٥٨، ٥٩.

﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴾ الشمس ١٣.

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾ الرعد ٣٣ .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ سبأ ٥١.

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ يوسف ١٨.

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ النور ١.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ ﴾ الأنعام ٢٧.

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ التوبة ١٢٧.

﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ ق١، ٢.

﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ الأعراف ١٤٣.

﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ النحل ٩.

﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ البقرة ٢٥٨ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ الأعراف ١٥٢.

﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ يونس ٩١.

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ البقرة ٩٠.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ۝٤٥ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا ﴾ يوسف: ٤٥، ٤٦.

والحذف أيضاً من شجاعة العربية - كما أشار ابن جنى - لأن وراءه أسرارا ومزايا يدركها الخبير بأساليب الكلام، البصير بطرق القول، فالمتكلم يطوى جزءا من أجزاء الكلام، ولا يختل المعنى بهذا الطى، بل يزداد الكلام حسنا، وتكثر فوائده ومزاياه، والخبير بطرق القول هو الذى يستطيع ممارسة هذا الفن من فنون الكلام، ويعلم مواطنه، ويعرف متى يستجاد، ويدرك أسباب الإجادة.

لذا كان الحذف من شجاعة العربية، وقال عنه الإمام عبد القاهر: "هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد لفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن"(١).

---

(١) دلائل الإعجاز ١٧٠ .

وقد كثر الحذف فى اللغة وتنوع، فنرى حذف الكلمة حرفا وفعلا واسمًا، مضافاً ومضافًا إليه، فاعلاً ومفعولا، صفة وموصوفا، خبرا ومبتدأ، نرى حذف الجملة، وحذف الجمل، وحذف الأجوبة، جواب الشرط، وجواب القسم وجواب الاستفهام، كما نرى حذف جزء من الكلمة وبقاء جزء، ولابد فى كل حذف من دليل يدل على المحذوف، ومن سر بلاغى يقتضى الحذف.

ودراسة الحذف فى النظم القرآنى تتطلب أذنا واعية، وعقلا حاضرا، ونظرا ثاقبا، حتى يستطيع صاحب تلك الحواس النشطة المهيأة للإدراك، أن يدرك من أسرار الحذف فى القرآن ما يشاء الله له أن يدرك.

ولنبدأ دراستنا للحذف فى النظم القرآنى بالنظر فى حذف جزء الكلمة، ونجد ذلك فى آيات كثيرة من آيات الذكر الحكيم، حيث يحذف جزء من الكلمة ويبقى جزء، ولا يكون ذلك إلا لغرض بلاغى يقتضيه النظم الكريم.

ففى قوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾[١] نجد الياء قد أسقطت من كلمة "يسرى" لغرض، وهو المحافظة، على نسق الآيات الكريمة، وبقاء النغم الصوتى للفواصل، واستمرار وقعه، ولو ذكرت الياء فقيل: والشفع والوتر والليل إذا يسرى هل فى ذلك قسم لذى حجر، لضاع هذا النغم الصوتى، وزال أثره.

جاء فى البرهان والإتقان أن الأخفش قد علل هذا الحذف بأن عادة العرب إذا عدلت بالشئ عن معناه نقصت حروفه، والليل لما كان لا يسرى، وإنما يسرى فيه، نقص منه حرف[٢].

ولا يروقنا هذا التعليل، لأنا لا نجد فى الكثير مما عدلت به العرب عن معناه مثل هذا الحذف، وقد جاء ذلك فى القرآن بلا نقص فى حروفه، جاء فى قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[٣] والليل والنهار لا يمكران، بل يمكر فيهما، وجاء فى قوله تعالى:

(١) الفجر ١ ـ ٥ .
(٢) انظر البرهان ٣/ ١٠٧ والإتقان ٣/ ١٧١ .
(٣) سبأ ٣٣.

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾[1] واليوم لا يجعل، وإنما يجعل فيه.

كما نجد هذا الحذف فى كثير مما لم تعدل به العرب عن معناه ـ على نحو ما سنرى ـ ولذا فإن ما ذكرناه فى تعليل هذا الحذف، بالمحافظة على بقاء الأثر الصوتى لفواصل الآيات، هو الأولى بالقبول، ويتجلى لك ذلك عندما تقرأ السورة من سور القرآن، وتقف على فاصلتها، وتلتذ وتستمتع بالنغم الصوتى الذى تحدثه، ثم تجد حذف جزء من الكلمة ليستمر هذا الأثر الصوتى للفواصل، ولتقرأ من سورة الرعد: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾[2] واستمر فى القراءة فستجد الفواصل بعد ذلك: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾... ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾... ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾... ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴾[3] لقد حذفت الياء، أى: الضمير المضاف إليه فى ثلاثة مواضع وهى: إليه متاب، كيف كان عقاب، إليه مآب، والأصل. متابى، عقابى، مآبى، وهذا الحذف لكى يظل الأثر الصوتى للفواصل باقيا كما ترى.

وفى الآيات الكريمة: ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾... ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ ... ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ... ﴿ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾[4]

تجد أن الكلمات: نبغ... تعلمن.. أخرتن.. يا مال، قد حذف جزء من كل منها فى قراءة من قرأ "نبغ" بالحذف، و "مال" بترخيم المنادى، إذ الأصل فى كل منها: نبغى... تعلمنى... آخرتنى .. يا مالك، ووراء هذا الحذف أغراض يقصد إلى تحقيقها.

---

(١) المزمل ١٧ .

(٢) الرعد ٢٩، ٣٠ .

(٣) الآيات بالترتيب: الرعد ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٦ .

(٤) الآيات بالترتيب: الكهف ٦٤، ٦٦، الإسراء ٦٢، الزخرف ٧٧ .

فالسياق فى سورة الكهف أن موسى ـ عليه السلام ـ قد انطلق مع فتاه فى طلب العبد الصالح ليتعلم منه موسى مما علمه الله، وقد جعل الله لهما علامة لوجوده، وهى فقدان الحوت الذى أعداه لغدائهما، فنسياه بجوار صخرة عند مجمع البحرين، ولم يتذكراه إلا بعد إحساسهما بالجوع، حينما طلب موسى الغداء من فتاه، فأخبره بفقدان الحوت عند الصخرة ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾(١) وعندئذ أسرع موسى بالعودة إلى ذلك المكان، فقد خرج من أجل ذلك.

وهنا يصور النظم القرآنى سرعة ارتدادهما "قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا" انظر إلى تلك الفاء "فارتدا" التى تفيد التعقيب وسرعة الارتداد، إن حذف جزء الكلمة هنا فى "نبغ" يصور سرعة موسى فى ارتداده، وكأن الزمن يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف، وإتمام الحديث مع فتاه، لقد انتهت مرحلة البحث، وبدأت مرحلة أخرى، وهى مرحلة الإسراع للوصول إلى الأمل المنشود، وكأن تلك الجملة "ذلك ما كنا نبغ" كانت فاصلا بين المرحلتين.

ولذا يقول صاحب الفتوحات الإلهية: "إنما حذفت ـ أى : الياء من "نبغ" تشبيها بالفواصل، أو لأن الحذف يأنس بالحذف، فإن "ما" موصولة حذف عائدها"(٢).

إن الحذفين يصوران حالة موسى فى سرعة ارتداده كى يظفر بالعبد الصلاح ويتعلم منه، وتلك السرعة هى التى اقتضت حذف الياء من قوله "أن تعلمن" لأن موسى ـ عليه السلام ـ متلهف إلى أن يتعلم رشدا مما تعلمه العبد الصالح، ففى حذف الياء سرعة فى الإفصاح عما يتطلع ويتلهف إليه، وهو قوله تعالى: "مما علمت رشدا".

وكذا القول فى آية الإسراء "لئن أخرتن" حذف الياء هنا يصور تلهف الشيطان إلى ذلك الأمد الذى يريده "إلى يوم القيامة" إنه لا يريد مجرد تأخير، وإنما يريد أمدا طويلا، وحياة ممتدة إلى يوم القيامة، ففى حذف الياء سرعة فى الإفصاح عن تلك الرغبة، وتصوير لتلهف الشيطان، وتطلعه لذلك الأمد(٣).

---

(١) الكهف ٦٣.

(٢) الفتوحات الإلهية ٣/ ٣٤.

(٣) اعتبرنا الحذف فى "تعلمن وأخرتن" حذفا لجزء كلمة، نظرا لرسمهما "تعلمنى وأخرتنى" ولا يخفى عليك أن الياء فى كل منهما ضمير متصل.

ولمزيد من الإيضاح ننظر فى قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ [1] نجد الياء ثابتة فى قوله "نبغى" لأن المقام هنا مقام حث على النظر والتأمل، والتفكر فيما يطلبون منه ـ عليه السلام ـ من إرسال أخيهم معهم، وهذا يحتاج إلى ترو وتأن، فلا مجال هنا للحذف، لقد اختلف السياق ـ كما ترى ـ واختلف المقام، السياق فى الكهف، اقتضى الحذف، لتصوير السرعة والعجلة، والسياق هنا فى يوسف، اقتضى الذكر، لتصوير التأنى والتروى اللذين يحتاج إليهما فى مقام التفكر والتأمل.

وانظر فى قوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ [2]

تجد أيضاً ثبوت الياء فى قوله "أخرتنى" لاختلاف المراد، لأن الشيطان هناك يتطلع إلى الأمد البعيد، فحذف لسرعة الإفصاح عن هذا الأمد، أما الذى أتاه الموت هنا، فيتمنى مجرد التأخير، ولا يتطلع إلى أمد بعيد، ولذا قال "إلى أجل قريب" فليس هنا ما يدعو إلى الحذف فى "أخرتنى" بل أقصى ما يتمنى هو التأخير لأجل قريب.

أما الحذف فى قوله تعالى: "ونادوا يا مال ليقض علينا ربك" فى قراءة من قرأ بالترخيم، فإنه يصور شدة ما يعانيه أهل النار من العذاب، وكأنهم لشدة ما لاقوا قد ضعفت قواهم وذلت أنفسهم فلا يستطيعون إتمام الكلمة، ولقد أفصحوا عما يصوره الحذف فى قولهم "ليقض علينا ربك" فهذا الدعاء يدل على شدة ما لاقوه فى نار جهنم.

وقد جاء فى كتب التفسير أن عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنكر هذه القراءة قائلا: "ما أشغل أهل النار عن الترخيم" يريد أن الترخيم تصرف فى الكلام، وتفنن فيه، وهو يدل على رفاهية المتكلم وترفه، وعلى رقة الحديث والتدلل على المخاطب، وليس هذا من شأن أهل النار، الذين نادوا مالكا[3].

---

(١) يوسف ٦٥.

(٢) المنافقون ١٠

(٣) انظر روح المعانى ٢٥/ ١٠٢

والجواب أن الترخيم كما يأتى للتصرف والتفنن فى الكلام، فإنه يأتى أيضاً للدلالة على ضيق المجال، وشدة الأهوال، التى يعجز معها عن إتمام الكلمات، كما فى هذه الآية الكريمة، ومنه قول الحارث بن وعلة الجرمى:

قومى هم قتلوا أميم أخى ... فإذا رميت يصيبنى سهمى

فقد رخم "أميمة" وهو حزين، ضائق الصدر لقتل أخيه، وعجزه عن الثأر له، لأن القاتل قومه.

هذا ويسمى العلماء هذا اللون من الحذف ـ حذف جزء الكلمة ـ بالاقتطاع، لأنك تقتطع من بنية الكلمة جزءا، وقد وضح لك فيما ذكرناه من الآيات، أن هذا الاقتطاع لا يكون إلا للدلالة على غرض.

ومما حذف فيه الحرف قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾(١) فقد حذف حرف النداء، وتقديره: يا يوسف أعرض عن هذا، ووراء حذف حرف النداء تكمن معان غزيرة، يكمن تقريب يوسف وملاطفته، فقد ثبتت براءته وحقت له تلك الملاطفة، ثم إن الملاطفة وراءها مأرب يشعر به الحذف أيضاً، وهو الإيماء بأن ما حدث يجب أن يضمر فى السرائر فلا ينطق به إنسان ولا يجرى به لسان.

كما ينبئ هذا الحذف بحال العزيز، ويصور آلامه، وضيق صدره، عندما وقف على حقيقة الأمر، وثبت أن امرأته هى التى أرادت السوء، ولذا أجمل الحدث وأشار إليه بكلمة واحدة "هذا" رغبة فى إخفائه وأملا فى كتمانه وعدم إشاعته، ولكن أنى له ذلك؟ إن حدثا كهذا فى مثل هذه المجتمعات، ليسرى كالبرق، وينتشر كلمح البصر، وكأن للجدران آذانا تسمع، وألسنة تذيع، وهذا ما قد كان، لقد ذاع الحدث، وعلمه الجميع، ولذا جاء عقب هذه الآية مباشرة قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾(٢) أما كيف انتشر الحدث، وذاع بين الناس، فقد سكت النظم الكريم عن ذلك ليؤذن بسرعة انتشاره، وليترك العقول تتخيل ما يكون فى مثل هذه المجتمعات، وكيف تسرى فيها الشائعات وتتنقل الأحداث.

---

(١) يوسف ٢٩.
(٢) يوسف ٣٠.

ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴾[1] حيث حذف حرف النفى "لا" وتقديره: تالله لا تفتأ تذكر يوسف، ودليل الحذف خلو جواب القسم من التوكيد، لأن جواب القسم يؤكد إذا كان مثبتا نحو: تالله لأفعلن، وقوله تعالى: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم ﴾[2] ويخلو من التوكيد إذا كان منفيا نحو: تالله لا أفعل، فخلو جواب القسم من التأكيد فى الآية الكريمة دليل على اعتبار النفى[3].

ويذكر ابن أبى الإصبع فى باب ائتلاف اللفظ مع المعنى، أن الله عز وجل أتى فى هذه الآية بأغرب حروف القسم وهو التاء، وبأغرب الأفعال الناسخة وهو "تفتأ" وبأغرب ألفاظ الهلاك وهو الحرض، وهذا يتلاءم مع غرابة المطلب، فليس هنالك أغرب ولا أعجب من أن يطلب من والد أن ينسى فلذة كبده[4].

وحذف الحرف هنا، فى هذا السياق الغريب يشعر برغبة الأبناء، وغرابة مطلبهم، إنهم يطلبون من أب نسيان ابنه، يطلبون من يعقوب أن ينسى يوسف ـ عليهما السلام ـ وأن يبعده من قلبه، ويسقطه من وجدانه، حتى لا يكون حرضا أو يكون من الهالكين.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَيۡلٌ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ﴾[5] فقد حذف حرف الجر "اللام" والتقدير: وإذا كالوا لهم أو وزنوا لهم، وهذا الحذف يصور جشع وطغيان أولئك المطففين، إنه يخيل أن تعديهم قد بلغ مبلغًا كادوا معه أن يكيلوا الناس ويزنوهم، بدل أن يكيلوا لهم أو يزنوا لهم، وهذا غاية الجشع والطغيان.

ويؤيد ذلك إيثار التعبير "بعلى" مكان "من" فى قوله: "اكتالوا على الناس" فهم يكتالون منهم، ولكنه اكتيال ضرر وطغيان واغتصاب، ولذا عبر فيه "بعلى" دون "من" إن التعبير بعلى عند الاكتيال من الناس، ثم إسقاط اللام عند الاكتيال أو الوزن

(١) يوسف ٨٥.
(٢) الأنبياء ٥٧.
(٣) انظر الإتقان ٣/ ١٧٦ .
(٤) انظر تحرير التحبير ١٩٥ .
(٥) المطففين ١ـ٣ .

لهم، يشعر بالتعدى، وإسقاط الحقوق واغتصابها، وأكلها بالباطل، وكأن تغيير الحرف وإسقاط الآخر من اللفظ دليل على انحراف الناس، وانقلاب الأوضاع، وتغيير المعايير، والخروج عن المنهج المستقيم.

ومما حذف فيه المضاف قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾[1] إذ الأصل: واسأل أهل القرية وأصحاب العير، فحذف المضاف فى الموضعين، ويشعر هذا الحذف بذيوع الأمر وشهرته وكأنهم يريدون أن أمر السرقة قد ذاع وفشا بين الناس، وعلمه الجميع، وصار حديث الكل، وبلغ فى الشهرة حدا لو أنك سألت فيه الجمادات لأجابت، ولو سألت الحيوانات التى لا تنطق لنطقت وأخبرت.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾... ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾[2] تجد أن أصل الكلام: على لسان رسلك، وعلى لسان رجل منكم، فحذف المضاف، وينبئ هذا الحذف بأن تبليغ الرسالة والذكر، لا يقف عند حد البلاغ باللسان، بل يتجاوز ذلك إلى كل حياة الرسل، عملا ومنهجا وسلوكا، فيشمل اللسان واليد والعقل والأذن وكل الخواطر والجوارح، والزمان والمكان، والحل والترحال، فالرسول منهج يهتدى به، وأسوة وقدوة، يتأسى به ويقتدى، وليست مهمته موقوفه على التبليغ باللسان فحسب، وهذا ما يشعر به حذف المضاف فى الموضعين، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[3].

وخذ قوله عز وجل: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾[4] فقد حذف المضاف، وتقديره: مثل داعى الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع، والغرض من هذا الحذف صيانة الداعى وحفظه من أن يقرن فى اللفظ بذاك الناعق الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء.

---

(١) يوسف ٨٢.
(٢) الآيتان بالترتيب: آل عمران ١٩٤، الأعراف ٦٣ .
(٣) الأحزاب ٢١ .
(٤) البقرة ١٧١ .

ومما حذف فيه المسند إليه قوله تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾[1] حيث حذف المبتدأ وتقديره: وقالت: أنا عجوز عقيم، ويرجع سر هذا الحذف إلى التعجب والاستبعاد، فقد تعجبت سارة من بشارة الملائكة، واستبعدت أن تلد وهى عجوز عقيم، وقد صار بعلها شيخا كبيرا، واقتضى مقام التعجب والاستبعاد طى المسند إليه.

ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾[2] حيث حذف المبتدأ، والمعنى: ما تقوله أضغاث أحلام، والغرض من هذا الحذف ألا تسند أضغاث الأحلام إلى كلام الملك، تنزيها له، ورفعا من شأنه.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾... ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾[3] لقد طوى الفاعل فى الآيتين، والمعنى: تقطع الأمر بينكم، ثم بدا لهم أمر وهو السجن وينبئ الحذف فى الموضعين بوهن هذا الأمر وضعته، وعدم الاعتداد به، إنها علاقات واهية، وأمور واهمة لم تثبت عند الشدة، بل تقطعت وتبددت، وإنه لأمر ساقط جائر، ذاك الذى بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات، وثبتت براءته، فكيف يسجن عندئذ ؟ إن الحذف فى الآيتين يشير إلى عدم الاعتداد بالمسند إليه، وكأن إسقاطه من العباة ينبئ بأنه لا وجود له ولا اعتداد به عند ذوى العقول السليمة.

وقد يحذف المسند إليه لتعينه للمسند المذكور، أو لظهوره ظهورا بينا لا يتأتى معه الذكر، ففى قوله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾[4] تجد أن المسند المذكور "عالم الغيب والشهادة" متعين لله الواحد القهار، لا ينصرف إلا إليه حقيقة، وهذا سر حذف المسند إليه فى الآية الكريمة.

وفى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾[5] أى: هو ساحر كذاب، فحذف المسند إليه لتعينه ادعاء، أى فى زعمهم، للمسند المذكور.

---

(١) الذاريات ٢٩.
(٢) يوسف ٤٤.
(٣) الآيتان بالترتيب: الأنعام ٩٤، يوسف ٣٥ .
(٤) الرعد ٩ .
(٥) غافر ٢٣، ٢٤ .

وفي قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴾... ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴾(1) حذف المسند إليه لظهوره ظهورا بينا، إذ لا يبلغ التراقي والحلقوم عند الموت إلا الروح، ووراء الحذف في الآيتين سر آخر، وهو الإشعار بما صارت إليه الروح فقد أصبحت على وشك أن تفارق الجسد، وكأن طيها من اللفظ دليل على وشك المفارقة، وقرب صعودها إلى بارئها.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾(2) أي: حتى توارت الشمس، فحذف المسند إليه لظهوره وتعينه للمواراة، وملاءمة الحذف لدلالة الكلام على اختفاء الشمس وتواريها بالحجاب.

ومن حذف المسند إليه عند بناء الفعل للمفعول:

قوله تعالى: ﴿ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾(3) حيث حذف الفاعل وبني الفعل للمفعول في قوله "غلبوا وألقى" وهذا الحذف يشير إلى قدرة الله الخالق، التي حققت الغلبة لموسى، وألقت السحرة سجدا، ويشعر بسرعة تحقيق النصر، وسرعة امتثال السحرة وإيمانهم بالله رب العالمين.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾(4) تجد أن الفعل قد بني للمفعول في قوله: "أشر أريد" لأنه شر، ولا يليق نسبته إلى الله تعالى في اللفظ، وبني للفاعل في قوله: "أم أراد بهم ربهم رشدا" لأنه خير ورشد، ومقام الربوبية يقتضي أن ينسب إليه تعالى الرشد وكل ما هو خير ورحمة، وألا ينسب إليه الشر في اللفظ تأدبا.

ومنه قوله تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾(5) فقد بني الفعل

---

(1) الآيتان بالترتيب: القيامة ٢١، الواقعة ٨٣.

(2) سورة ص٣٢ .

(3) الأعراف ١١٩، ١٢٠.

(4) الجن ١٠ .

(5) الأحزاب ٣٠، ٣١.

للمفعول فى قوله "يضاعف" لأنه عذاب، ولا يليق نسبته إلى الله تعالى فى اللفظ، وبنى للفاعل فى قوله: "نؤتها... وأعتدنا" لأنه رحمة ورزق كريم.

يقول الفخر الرازى: قوله تعالى: "ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا" بيان لزيادة ثوابهن، كما بين زيادة عقابهن، و "نؤتها أجرها مرتين" فى مقابلة قوله تعالى "يضاعف لها العذاب ضعفين" مع لطيفة، وهى أن: عند إيتاء الأجر ذكر المؤتى وهو الله، وعند العذاب لم يصرح بالمعذب، فقال "يضاعف" إشارة إلى كمال الرحمة والكرم، كما أن الكريم الحى عند النفع يظهر نفسه وفعله، وعند الضر لا يذكر نفسه)[(١)].

وبهذا علل العلماء إسناد الفعل للمولى عز وجل فى نحو قوله: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾... ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ ﴾... ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾[(٢)] وبناءه للمفعول فى نحو قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾... ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾... ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾[(٣)] إذ الأفعال فى الآيات الأولى من جنس الخير والرحمة، وفى الثانية من جنس العذاب والمشقة.

أجل، الأفعال كلها مسندة لله تعالى، وهو فاعلها على الحقيقة، ولكن الأدب يقتضى أن يسند إليه الخير والرحمة والثواب، وأن يومأ عند الحديث عن الشر والعذاب والمشقة، وكل ما هو محنة، فيبنى الفعل للمفعول، أو يتصرف فى النظم، حتى لا تنسب مثل هذه الأفعال فى اللفظ إليه تعالى، وهى له على الحقيقة.

ولذا رأينا فى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾[(٤)] أن إبراهيم عليه السلام قد نسب المرض الذى هو نقمة إلى نفسه، والشفاء الذى هو نعمة إلى الله تعالى، مراعاة لحسن الأدب، فالأفعال قبل وبعد مسندة إليه تعالى، والمرض قد أسنده ـ عليه السلام ـ إلى نفسه لهذا الغرض.

(١) تفسير الفخر الرازى ٢٥/ ٢٠٩.
(٢) الآيات بالترتيب : الأنعام ٥٤، المجادلة ٢١، ٢٢.
(٣) الآيات بالترتيب: البقرة ٢١٦، ١٧٨، ١٨٣.
(٤) الشعراء ٧٨ ـ ٨١.

كما وجدنا فى قصة موسى مع العبد الصالح أن ما هو خير ورحمة قد أسند إلى الله تعالى: ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾... ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾(١) وأما ماهو عيب فقد أسند إلى الخضر ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾(٢).

وقد يبنى الفعل للمفعول مراعاة للنسق القرآنى، وتلاؤما مع السياق، كما فى قوله تعالى: ﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾(٣) فقد بني الفعل "طبع" للمفعول ليتلاءم ويتسق مع بناء "أنزل" للمفعول فى الآية قبها ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾(٤) ولنفس السر بنى الفعل "طبع" للفاعل وأسند إلى لفظ الجلالة فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٥) ليتسق ويتلاءم مع ذكره عز وجل عدة مرات فى الآيات قبلها.

ومما حذف فيه الفعل قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ﴾(٦) فالضمير "أنتم" فاعل لفعل محذوف يفسره الفعل المذكور "تملكون" والتقدير: لو تملكون تملكون خزائن رحمة ربى، فأضمر "تملك" الأول إضمارا على شريطة التفسير، وعندما أضمر انفصل الضمير "أنتم"، ودليل الحذف والإضمار "لو" لأنها لاتدخل إلا على الأفعال.

والسر البلاغى لهذا الحذف أن يبرز الكلام فى صورة المبتدأ والخبر، فيكون فيه دلالة على أن الناس هم المختصون بالشح والإمساك.

يقول الزمخشرى "فأما ما يقتضيه علم البيان فهو أن (أنتم تملكون) فيه دلالة على الاختصاص، وأن الناس هم المختصون بالشح المتبالغ، وذلك لأن الفعل الأول لما

---

(١) الكهف ٨١ ـ ٨٢ .

(٢) الكهف ٧٩، وارجع إلى تعليلنا لحذف الشر وذكر الخير فى قوله تعالى "بيدك الخير" فى ص ١٠٩ .

(٣) التوبة ٨٧.

(٤) التوبة ٨٦.

(٥) التوبة ٩٣.

(٦) الاسراء ١٠٠.

أسقط لأجل المفسر برز الكلام في صورة المبتدأ والخبر"[1] ولا يخفى عليك أن الاختصاص الذى يشير إليه الزمخشرى اختصاص معلق بلو، وهى حرف امتناع لامتناع، فالمعنى على امتناع الإمساك لامتناع الاختصاص بالتملك.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾[2].

والتقدير: وإن استجارك أحد من المشركين، "فأحد" فاعل لفعل محذوف يفسره المذكور، ودليل الحذف "إن" الشرطية، فهى لا تدخل إلا على الأفعال شأنها فى ذلك شأن "لو".

والسر البلاغى لهذا الحذف هو الدلالة على سرعة الإجارة، إذ لو قال: وإن استجارك أحد من المشركين فأجره، لفصل بين الاستجارة والأمر بقبولها بفاصل، وهو "أحد من المشركين" فيكون هنالك تباطؤ، والمطلوب أن تكون الإجارة عقب الاستجارة "استجارك فأجره" بلا تباطؤ، كما تنبئ هذه الفاء.

وشيء آخر وراء هذا الحذف وهو الإشعار بأن قبول الاستجارة هو المطلوب، وإن خالف ما أوجب فى شأنهم، من وجوب قتلهم بعد أن قامت الحجة عليهم، كما خولف المعهود فى هذا التعبير، فجاورت "إن" الاسم وكان يجب ألا تجاوره، بل كان ينبغى أن يظل بعيدا عن جوارها، وكأن المخالفة فى التعبير دليل على تحقيق المعنى المراد، وهو المبادرة بإجارة من استجار من المشركين، وإن خالف ذلك ما تقرر فى شأنهم.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُواْ خَيْرًا ﴾[3] تجده قد حذف فيه الفعل، وتقديره: أنزل خيرا، وهذا الحذف ينبئ بسرعة إجابة المتقين، وامتثالهم لأمر الله رب العالمين، ويتضح لنا ذلك عندما ننظر فى إجابة الكفرة على نفس التساؤل فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[4] والتقدير: قالوا ذلك أساطير الأولين.

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٦٨.
(٢) التوبة ٦ .
(٣) النحل ٣٠ .
(٤) النحل ٢٤ .

يقول الـزمخشرى: "فإن قلت: لم نصب هذا ـ أى: خيراً ـ ورفع الأول ـ أى: أساطير ـ؟ قلت: فصلا بين جواب المقر وجواب الجاحد، يعنى أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا، وأطبقوا الجواب على السؤال، بينا مكشوفا، مفعولاً للإنزال، فقالوا: خيرا، أى: أنزل خيرا، وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا: هو أساطير الأولين، وليس من الإنزال فى شئ"[1].

وانظر إلى الحذف فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ﴾[2] إذ التقدير: يتوارى يفكر أو مفكرا: أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب، ويشعر هذا الحذف بما كان عليه القوم، ويجلى شعورهم تجاه إنجاب الإناث، إن أحدهم إذا بشر بالأنثى اسود وجهه، وظل مسودا، وسيطرت عليه الهموم والأحزان، وأخذ يتوارى من القوم خزيا، من سوء ما بشر به، ماذا يصنع؟ يفكر فى نفسه، أيمسك ما بشر به على هوان وذل؟ أم يدسه فى التراب؟

لقد حذف النظم القرآنى كلمة "يفكر" وهذا الحذف ينبئ بشدة الحيطة والحذر، ويدل على المبالغة فى كتمان الأمر وإخفائه، حتى لكأنه يخفى تفكيره، كى لا يرى أحد من القوم على قسمات وجهه ما يثير أو يريب.

وخذ قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴾[3] لقد حذف الفعل تحذيرا وإغراء، والتقدير: ذروا ناقة الله، والزموا سقياها، وسر هذا الحذف: التنبيه على أن الزمن يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف، وأن الاشتغال به يفضى إلى تفويت المهم من التحذير والإغراء، وهذا ينبئ بمدى حرص صالح ـ عليه السلام ـ على هداية قومه، ونجاتهم من الهلاك والعذاب.

ومن أنواع الحذف ما يسمى بالاكتفاء، وهو أن يقتضى المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط، وغالبا ما يكون التلازم بالتضاد، والارتباط بالعطف، فيكتفى بذكر أحدهما، ويحذف الآخر لنكتة بلاغية[4].

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٠٧.
(٢) النحل ٥٨، ٥٩.
(٣) الشمس ١٣
(٤) انظر الإتقان ٣/ ١٨١.

من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾[1]. فالمراد: سرابيل تقيكم الحر والبرد، وقد حذف البرد، واكتفى بذكر الحر، والسر وراء ذلك أن البرد قد تقدم ذكر الامتنان بالوقاية منه في هذه الآية الكريمة، في قوله: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا ﴾ وفي آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ ﴾[2] وقوله عز وجل ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾[3].

ومن هذا النوع قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[4] فقد ذكر الخير وطوى الشر، إذ التقدير بيدك الخير والشر، وإنما خص الخير بالذكر دون الشر، لأنه مطلوب العباد ومرغوبهم، وتأدبا مع المولى عز وجل، لأن إضافة الشر إليه ليس من باب الأدب.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾[5] التقدير: وله ما سكن وما تحرك، فخص السكون بالذكر، لأنه أغلب حالي المخلوقات من الحيوان والجماد، وإشعارا بأن كل متحرك مصيره إلى الانتهاء والسكون.

ومما جاء فيه حذف المسند قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾[6] والتقدير: أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كمن ليس كذلك، والقائم على كل نفس هو الله تعالى، فهو متولي أمر الخلائق، وحافظ كل نفس، ومن ليس كذلك: ما يعبد بالباطل من دون الله، والحذف هنا للدلالة على تعظيم الله الخالق، وتحقير وازدراء هذه الأصنام، وينبئ بأنه لا ينبغي أن تقرن تلك المعبودات

(١) النحل ٨١
(٢) النحل ٥
(٣) النحل ٨٠
(٤) آل عمران ٢٦.
(٥) الأنعام ١٣.
(٦) الرعد ٣٣.

لفظا بالله تعالى، إذ لا وجه للمقارنة بين الخالق القادر، القائم على كل نفس، وبين تلك المعبودات، وهذا ما أنكر بالاستفهام.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾[1] أى: فلا فوت لهم، فحذف المسند لتبقى تلك الكلمة كالطود الشامخ، والحاجز المنيع الذى قضى على كل أمل لهم فى التفلت والتسرب، (فلا فوت) ولك أن تتصور ما وراء حذف جواب الشرط، وبناء الفعل (أخذوا) للمفعول من تفظيع وتهويل.

وكذا القول فى قوله تعالى: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾[2] أى: لا ضير علينا، فحذف المسند لتبقى هذه الكلمة فى مواجهة توعد فرعون كالسهم النافذ الذى بدد كل وعيد، وشتت كل تهديد، وهذا يشعر بقوة الإيمان وصدق اليقين بالله "إنا إلى ربنا منقلبون".

ومما جاء محتملا لكون المحذوف المسند أو المسند إليه، قوله تعالى: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[3]وقوله تعالى: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا ﴾[4] إذ التقدير: فشأنى أو فصبرى صبر جميل على أن المحذوف هو المبتدأ، أو فصبر جميل أولى بى، على أن المحذوف هو الخبر، والتقدير فى سورة النور: هذه سورة، أو فيما أوحينا إليك سورة أنزلناها، فالأول على أن المحذوف المبتدأ، والثانى على أنه الخبر.

والذى يقتضيه المعنى ويتلاءم مع السياق أن يكون المحذوف المبتدأ، لأنه يدل على تحقق الصبر وحصوله، تعظيما ليعقوب ـ عليه السلام ـ إذ التقدير: فصبرى صبر جميل، أو فشأنى صبر جميل، وهذا يتلاءم مع السياق ـ كما قلت ـ لأن الآية الكريمة مسوقة لمدح يعقوب ـ عليه السلام ـ والإشادة بصبره.

وكذا القول فى أول سورة النور، فإن مقتضى المقام بيان شأن السورة الكريمة، لا أن

---

(١) سبأ ٥١ .

(٢) الشعراء ٤٩، ٥٠ .

(٣) يوسف ١٨

(٤) النور ١

فى جملة ما أوحى إليه ـ ﷺ ـ سورة شأنها كذا وكذا، والذى يحقق ذلك أن يقدر المحذوف مبتدأ: هذه سورة أنزلناها وفرضناها[1].

هذا ولا يخفى عليك، أن تقدير المحذوف إنما هو لبيان أصل المعنى، وأن الغرض من الحذف يفتقد بهذا التقدير، يقول عبد القاهر: "ترى النفس كيف تتفادى من إظهار المحذوف، وكيف تأنس إلى إضماره، وترى الملاحة كيف تذهب إن أنت رمت التكلم به"[2].

فالحذف فى الآية الكريمة "فصبر جميل" يبرز حال يعقوب، ويكشف عما أحاط به من أحزان لفقدان يوسف ـ عليهما السلام ـ ويشعر بشدة تماسكه وعظيم صبره، كما أن الحذف فى الآية الكريمة "سورة أنزلناها" يبين عظم السورة، ويبرز كمال شأنها، وتقدير المحذوف مبتدأ فى الموضعين، يلائم المعنى البلاغى الكامن وراء الحذف فيهما، ولكن هذا المعنى يفتقد ويذهب، لو اعتبر هذا التقدير، ونظر إليه، وأثبت فى الكلام.

ومن أنواع الحذف ما يسمى بالاحتباك، وهو مأخوذ من الحبك بمعنى الشد والإحكام، وهو أن يحذف من الأول، ما أثبت نظيره فى الثانى، ومن الثانى ما أثبت نظيره فى الأول، وقد سمى حبكا، لأن الناقد البصير، الخبير بطرق القول، قد أحكم التعبير، بمعرفة مواطن الحذف، وما أضفاه المحذوف على الكلام من حسن ورونق، فلم يطل ويترهل بذكر ما يمكن الاستغناء عنه[3].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾[4] فالمعنى: حتى يطهرن ويتطهرن، فإذا طهرن وتطهرن فأتوهن، فحذف من كل نظيره حتى لا يطول الكلام بما يمكن الاستغناء عنه.. ويعول على فطنه السامع فى إدراك المحذوف، وإحكام العبارة بتقديره فى موطنه.

---

(١) انظر المطول ١٤٢، وتفسير أبى السعود ٦/ ١٥٥

(٢) دلائل الإعجاز ١٧٥

(٣) انظر الاتقان ٣/ ١٨٢، ١٨٣.

(٤) البقرة ٢٢٢ .

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾(*) فالمعنى: ويعذب المنافقين إن شاء فلا يتوب عليهم، أو يتوب عليهم فلا يعذبهم، فحذف من كل نظيره.

ومما حذفت فيه الأجوبة قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ ﴾(*) وقوله عز وجل: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ ﴾(١) وقوله جل وعلا: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾(٢) فقد حذف جواب الشرط فى الآيات الكريمة، وتقديره: لرأيت أمرا عظيما، والغرض من هذا الحذف الدلالة على التهويل والتفخيم، لأن النفس تذهب كل مذهب فى تقدير الجواب المحذوف، وهذا يدل على أنه شئ لا يحيط به الوصف، ولا تتسع له العبارة، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذى تضمنه البيان(٣).

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾(٤) فقد حذف جواب "إذا" وتقديره: أعرضوا. بدليل ما بعده، ويشعر هذا الحذف بما كان ينبغى على أولئك المعرضين، من قبول النصح وتحقيق التقوى، وكأن طيه من اللفظ ينبئ بضرورة ترك العناد، والمسارعة إلى قبول الهدى، والإذعان للحق.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾(٥) حيث حذف جواب "إذا" وتقديره: رأوا مالا عين رأت، وفازوا بالنعيم المقيم الذى لا يحيط به الوصف، فالغرض من الحذف الدلالة على التفخيم والتعظيم، والإشعار بأن نعيم الجنة لا يتناهى، ولا يمكن وصفه ولا الإحاطة به، فعلى النفس أن تتخيل ما تشاء وتقدر، ومهما تخيلت وقدرت فلن تبلغ كنه ما هنالك.

(*) الأحزاب ٢٤ .
(*) الأنعام ٢٧.
(١) سبأ ٥١ .
(٢) السجدة ١٢ .
(٣) انظر النكتب للرمانى ضمن ثلاث رسائل ٧٧ .
(٤) يس ٤٥، ٤٦ .
(٥) الزمر ٧٣ .

وانظر إلى ذكر الواو فى هذه الآية الكريمة، فى قوله "وفتحت" وإلى حذفها فى قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ [1] تجد وراء ذكرها دلالة على تكريم المتقين، وإعظام شأنهم، فقد أعدت الجنة، وجهزت لهم، وفتحت أبوابها لاستقبالهم بالحفاوة والترحيب ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴾[2] وتجد وراء حذفها الدلالة على شدة مواجهة الكفرة بالعذاب، حيث غلقت أبواب جهنم، فهى لا تفتح إلا عند وصول الكفرة إليها، فإذا ما جاءوها فتحت أبوابها لتواجههم بصنوف العذاب وألوان الألم.

وفى قوله تعالى: ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾[3] حذف جواب القسم، وفى حذفه حث على النظر وتدبر القرآن، للوصول إلى الجواب الذى أقسم الله تعالى عليه، فإن النفس تذهب كل مذهب فى تقديره، فقد قالوا: إن المعنى: والقرآن المجيد إنا أنزلناه لتنذر به الناس، وقيل إن المراد: والقرآن المجيد إنك لمنذر، وقيل تقديره: ما ردوا رسالتك بحجة، وقيل تقديره: لتبعثن[4] ولذا كان الغرض من طى جواب القسم فى مثل هذه الآية الكريمة حث النفس - كما قلنا - على تأمل القرآن، وتدبر آياته للوقوف على ما يريده الله تعالى، والإحاطة بما وراء القسم من معان جليلة.

وخذ قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ ﴾[5] تجد فيه حذف جواب الاستفهام، وحذف القول، والتقدير: نظر بعضهم إلى بعض قائلين: هل يراكم من أحد من المؤمنين؟ فأجاب بعضهم بعضا: لا يرانا أحد: ثم انصرفوا.

وهذا الحذف يدل على شدة الحيطة، والمبالغة فى الحذر، وكتمان النفاق، وكأن قولهم كان إيماء وإشارة وإجابتهم كانت همسا فى الآذان، ولم تكن أصواتا مسموعة.

---

(١) الزمر ٧١.

(٢) ص ٥٠.

(٣) ق ١ - ٢.

(٤) انظر روح المعانى ٢٦/ ١٧٢.

(٥) التوبة ١٢٧.

ومما حذف فيه المفعول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾(١) فقد حذف المفعول الثانى وتقديره: إن الذين اتخذوا العجل إلها، وهذا الحذف يشعر بشناعة الاتخاذ وقبحه، وينبه العقول السليمة إلى فظاعة هذه الصورة، صورة اتخاذ العجل إلها، وإلى وجوب عدم تصورها فى الذهن فضلا عن اعتقادها والإيمان بها، فلفظ "إله" ينبغى أن يحفظ ويصان، فلا يذكر فى صحبة المفعول الأول "العجل".

يقول الدكتور دراز: "فلم يقل: اتخذتم العجل إلها، بل طوى هذا المفعول الثانى، استبشاعا للتصريح به فى صحبة الأول، وبيانا لما بينهما من مفارقة، وكم فى هذا الحذف من تعيير وتهويل، فرب صمت هو أنطق بالحكم، وأنكى فى الخصم"(٢).

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾(٣) أى: أرنى ذاتك، فحذف المفعول للدلالة على عظم الذات الإلهية، واستحالة رؤيتها بهذه الأبصار القاصرة، وموسى - عليه السلام - يدرك هذه الاستحالة، ويعلم أن الذات العلية لا تقع عليها الرؤية المحيطة كما تقع على الأشياء، وإنما هى تجليات، ولذا قال "رب أرنى" وأمسك ليفيد قصده بدون لفظ ينص عليه صراحة، إجلالا وتعظيما للذات العلية.

وقد يحذف المفعـول لغـرض الدلالة على إثبات المعنى فى نفسه للفاعل دون نظر إلى مفعول معيـن، وهـذا كثير فى النظم القـرآنى، كما فى الآيات الكريمة: ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾... ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ... ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾... ﴿ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾... ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾(٤).

حذف المفعول فى هذه الآيات الكريمة للدلالة على أن المراد إثبات معنى الفعل

(١) الأعراف ١٥٢ .
(٢) النبأ العظيم ١١٩ .
(٣) الأعراف ١٤٣ .
(٤) الآيات بالترتيب: البقرة ٢٥٨، الزمر ٩، النجم ٤٣، البقرة ١٧، القصص ٢٣ .

للفاعل دون التفات إلى مفعول معين يقع عليه الفعل، إذ المراد: هو الذى يكون منه الإحياء والإماتة دون نظر إلى من أحيا ولا إلى من أمات، وهو الذى يكون منه الإضحاك والإبكاء، ولا يستوى من له علم ومن لا علم له، وتركهم فى ظلمات لا يتأتى فيها الإبصار، ووجد أمة يقع منهم سقى، وامرأتين يقع منهما ذود..

فالمعنى - كما ترى - على نية طرح المفعول وعدم الاعتداد به، إذ لم يتعلق به غرض الكلام، وإنما تعلق الغرض من الكلام بإثبات الفعل فى نفسه للفاعل.

وقد كثر فى النظم القرآنى أيضاً حذف مفعول المشيئة بعد لو وإن، ونحوهما من أدوات الشرط، لدلالة الجواب عليه، كما فى الآيات الكريمة: ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾... ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾... ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ ﴾ ... ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾[1] والغرض من هذا الحذف القصد إلى البيان بعد الإبهام، لما له من وقع فى النفس، فعند حذف مفعول المشيئة تتطلع النفس إلى معرفته، فإذا ما ذكر الجواب الدال عليه، وقع فى النفس موقعه، لأنها قد تعلقت بشىء أبهم، ثم استبان بالجواب، فيكون لهذه الاستبانة وقع وأثر فى النفس أى أثر.

ولم يذكر مفعول المشيئة أو الإرادة بعد الشرط إلا إذا كان من الأمور الغريبة أو البعيدة، كما فى قوله تعالى: ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾[2] فإن اتخاذ الولد من الأمور الغريبة البعيدة، ولذا ذكر لعدم دلالة جواب الشرط عليه لو حذف، لكونه من الأمور الغريبة المستبعدة.

ومما حذفت فيه الجملة قوله تعالى: ﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[3] أى: الآن تؤمن وقد عصيت قبل؟ فحذفت جملة (تؤمن) وحذفها يؤذن بعدم نفع الإيمان آنئذ، إذ وقع عندما أدركه الغرق، وأيقن أنه هالك.

ومثله قوله تعالى: ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾[4]

---

(١) الآيات بالترتيب: النحل ٩، الأنعام ٣٥، الشورى ٣٣، السجدة ١٣.
(٢) الزمر ٤ .
(٣) يونس ٩١ .
(٤) يونس ٥١ .

أى: أكفرتم ثم إذا ما وقع آمنتم به؟ الآن تؤمنون وقد كنتم به تستعجلون؟ فحذفت الجملتان: (كفرتم، تؤمنون) وحذف الأولى يشير إلى أنه ما كان ينبغى أن يستمر هذا الكفر، ويمتد إلى وقت وقوع العذاب، بل كان ينبغى أن يطوى، وأن يحل محله الإيمان، ويشعر حذف الثانية بعدم نفع الإيمان، لوقوعه فى غير وقته، إذ وقع منهم عند وقوع العذاب بهم، ولات حين إيمان.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾[1] أى: فضرب فانفجرت، ويشعر هذا الحذف بامتثال موسى ـ عليه السلام ـ ومبادرته إلى تنفيذ أمر الله تعالى وتحقيقه، كما ينبئ بسرعة إجابة الله تعالى له، وانفجار العيون بأمره تعالى إثر الضرب، حتى كأن الانفجار مسبب عن الأمر بالضرب.

وقد يقع الحذف فى أكثر من جملة، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا ﴾[2] حيث حذفت عدة جمل، إذ لمعنى: فأرسلون إلى يوسف لأستعبره الرؤيا، فأرسلوه إليه، فأتاه وقال له: يوسف أيها الصديق.

ومثله قوله تعالى: ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴾[3] والتقدير فأخذ الكتاب وذهب به، فألقاه إليهم، فتلقته بلقيس وقرأته ثم قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى.

وقد كثر هذا الحذف فى ميدان القصص القرآنى، حيث يستغنى فيه عن التفصيلات الجزئية، التى يمكن أن تدرك من السياق، وتفهم من قرائن أحواله، فتحذف هذه التفصيلات الجزئية لعدة أغراض منها:

١ - أنه يمكن إدراكها من السياق، وما يمكن إدراكه يعد ذكره عبثا.

---

(١) البقرة ٦٠

(٢) يوسف ٤٥، ٤٦

(٣) النمل ٢٨، ٢٩

٢- فى حذفها ما يمكن من إبراز وتجلية العناصر والمشاهد الأساسية فى القصة.

٣- فى حذفها تنبيه للمخاطب وتحريك لذهنه وإثارة لوجدانه، فيتابع أحداث القصص القرآنى بوعى، ويقف على مواطن العبرة فيه.

التجوز فى الإسناد

قال تعالى:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾ القصص ٤.

﴿ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ طه ١١٧.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ إبراهيم ٢٨.

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ الأنفال ٢.

﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٥٠ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ الشعراء ١٥٠، ١٥١.

﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ الفجر ١ ـ ٤.

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ المزمل ١٧.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ يونس ٦٧.

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ التوبة ٧٢.

﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا ﴾ القصص ٥٧.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ مريم ٤.

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ الزلزلة ١، ٢.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾ سبأ ٣٣ .

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ النساء ٣٥.

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ القمر ١١، ١٢.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ البقرة ١٦.

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ القارعة ٧.

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ الطارق ٥، ٦ .

﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ هود ٤٣ .

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ الإسراء ٤٥ .

﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ الأعراف ٧٧.

﴿ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ البقرة ٢٨٣ .

﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ الحجر ٦٠.

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ البقرة ١٧٧.

الإسناد هو ضم كلمة إلى كلمة لإفادة معنى، وهذا الضم يكون إما على وجه الحقيقة، وإما على وجه المجاز، فمن الأبنية الحقيقية قولك: صام المسلم، سار الرجل، خلق الله، مرض زيد، برد الماء، فالإسناد فى هذه الجمل إسناد حقيقى، حيث أسند الخلق إلى الله تعالى، وهو عز وجل فاعله على الحقيقة وموجده، وأسند الصيام والسير إلى من فعلها حكما، أى: إلى من له كسب واختيار فيهما، وأسند المرض والبرد إلى من اتصف بهما.

هذا هو شأن الإسناد الحقيقى، أن يسند الفعل إلى الموجد المؤثر، وهو الله تعالى، أو إلى من له فيه كسب واختيار، أو إلى من اتصف به، فعندئذ يكون الإسناد حقيقياً، حيث أسند الفعل إلى فاعله الحقيقى، وهو الذى فعله حقيقة أو حكما أو اتصف به، كما فى الأمثلة المذكورة.

ولذا عرف الإسناد الحقيقى بأنه "كل جملة وضعتها على أن الحكم المفاد بها على ما هو عليه فى العقل وواقع موقعه"[(١)].

ومن الأبنية المجازية قولك: صام النهار، وسار الطريق، وجد الجد، حيث أسند الصيام إلى النهار، والنهار زمان يقع فيه، وأسند السير إلى الطريق، والطريق مكان يقع عليه السير، وأسند الجد إلى الجد، والجد مصدر الفعل، فالفعل فى هذه الجمل لم يسند إلى فاعله الحقيقى، وإنما أسند إلى ملابس له.

فالإسناد المجازى: "كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه فى العقل لضرب من التأول"[(٢)].

وواضح فى الأمثلة المذكورة أن التجوز واقع فى الإسناد، ولذا سمى بالمجاز الإسنادى، أو المجاز الحكمى، أو المجاز النسبى، أو المجاز التركيبى، أو المجاز العقلى، وذلك لوقوعه فى الإسناد ـ كما قلنا ـ ولرجوعه إلى حكم العقل وتصرفه.

والفرق بينه وبين المجاز اللغوى، أن هذا واقع فى الإسناد، أما اللغوى فواقع فى المفردات، حيث تنقل من معناها اللغوى إلى المعنى المجازى المراد، فالتصرف فيها قد تم فى نطاق ما دلت عليه اللغة، ولذا سمى التجوز فى المفردات بالمجاز اللغوى.

فى ضوء هذا الفهم ننظر إلى المجاز العقلى فى النظم القرآنى لنتعرف على ملابساته، ولنقف على أسراره ومزاياه البلاغية.

---

(١) أسرار البلاغة ٢/ ٢٥٦

(٢) نفس المصدر ٢/ ٢٥٧ هذا وقد عرف الخطيب الإسناد الحقيقى بأنه "إسناد الفعل أو ما فى معناه إلى ما هو له عند المتكلم فى الظاهر" وعرف الإسناد المجازى بأنه: "إسناد الفعل أو ما فى معناه إلى ملابس له غير ما هو له بتأول" الإيضاح ١/ ٥٤، ٥٦ وتلاحظ أنه قد وقف الإسناد على الفعل وما فى معناه، والإسناد أعم من ذلك ـ كما سنرى ـ ولذا آثرنا تعريف عبد القاهر، فهو يتسع لكل إسناد وكل ملابسة.

ففى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾(١).

أسند التذبيح والاستحياء إلى فرعون، وفرعون لم يباشر الفعلين بنفسه، وإنما أمر بهما، فهو السبب الآمر بتذبيح الأبناء واستحياء النساء، ففى الإسناد تجوز حيث أسند الفعل فى الموضعين إلى سببه.

وهذا التجوز يصور طغيان فرعون وعتوه، واستكباره فى الأرض، فهو يبرزه مباشرا للفعلين بنفسه، وهذا يدل على شدة بطشه وقوة فتكه ببنى إسرائيل، وإذلاله لهم، ولهذا أوثر التعبير بالتذبيح دون القتل، لأن القتل ينبئ بقوة المقتول ونديته للقاتل، أما الذبح فيدل على ضعف المذبوح، وتمكن الذابح منه، ولذا يعبر بالقتل فى جانب الإنسان، فالإنسان ند للإنسان، ويعبر بالذبح والنحر عند تذكية الأنعام والطيور، فإيثار التعبير عن القتل بالتذبيح يصور تمكن فرعون وملئه من بنى إسرائيل، كما يتمكن الإنسان مما يذبحه من الأنعام والطير، وفى هذا من الإذلال والهوان ما ترى، ومما يشعر بقوة البطش وشدة الفتك التعبير "بالتذبيح" دون الذبح(*).

كما أوثر التعبير بالنساء دون البنات، فى قوله: "ويستحيى نساءهم" إذ ما يستبقى هن البنات، فهن المقابلات للأبناء الذين يذبحون، ولكن التعبير عنهن بلفظ "النساء" يشعر بالغرض من الإبقاء عليهن، إنه غرض خبيث، وهو أن يصرن نساء مشتهيات فيفترشن ويمتهن، وينتهك عرضهن، وفى هذا من الهوان والإذلال لبنى إسرائيل ما لا يخفى عليك.

ومما أسند فيه الفعل إلى السبب قوله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾(٢) حيث أسند الإخراج إلى إبليس وهو سببه، ويشعر الإسناد إلى السبب هنا بمدى نزغ الشيطان ووسوسته، وتربصه ببنى

---

(١) القصص ٤ .

(*) أما عن التعبير "بالتقتيل" فى سورة "الأعراف": ﴿ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ الأعراف ١٤١ فلعل التعبير به ينبئ بحيطة فرعون وحذره فكان يذبح من يولد من الأبناء ويقتل من شب عن الطوق منهم ممن يكون قد تفلت من التذبيح.

(٢) طه ١١٧ .

آدم، وقعوده لهم، كما يشعر أيضاً بما ينبغى على بنى آدم تجاه نزغ الشيطان وهمزة ولمزه، قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾[١] فالواجب على المؤمن أن يستعيذ بالله دائما من الشيطان الرجيم، وأن يحذر إغواءه ووساوسه، وألا يغتر بتزيينه، فإنه عدو مبين، ولذا جاء فى أول هذه الآية الكريمة: "إن هذا عدو لك ولزوجك".. وقال تعالى فى سورة يوسف: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[٢]

وكذا القول فى الآيات الكريمة: ﴿ وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ ... ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾... ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴾[٣] فقد أسند الإحلال إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا، وهم سبب هذا الإحلال، لأن الذى يحل صاحبه دار البوار إنما هو عمله الذى قدمه، وينبئ الإسناد إلى السبب هنا بقوة الإغواء، وتفانى الذين بدلوا نعمة الله كفرا فى صد قومهم عن الهدى، ولذا يقول القوم لهم عند رجع بعضهم إلى بعض القول، وقد وقفوا على ربهم: ﴿ لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾[٤] ثم يفصحون عن الإغواء وشدة مكرهم بهم: ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴾[٥] فقد كانوا يمكرون بهم ليل نهار، لا يكفون عن الحيلة والإغواء.

وأسندت الزيادة فى سورة الأنفال إلى الآيات التى تتلى على المؤمنين، والآيات سبب فى زيادة الإيمان، فالإسناد إليها يدل على عظمة هذه الآيات، ويشعر بكمال الخضوع، وحسن تلقى أولئك المؤمنين للآيات، واستجابتهم لها، والتزامهم بمضمونها، فقد وجلت قلوبهم لذكر الله، وكانت هذه حالهم عند تلاوة آياته عليهم.

وفى آية الشعراء وقعت الطاعة المنهى عنها على أمر المسرفين، والأمر لا يطاع، وإنما الذى يطاع هم المسرفون بسبب أمرهم، فالطاعة تقع على صاحب الأمر، لا على الأمر،

---

(١) المؤمنون ٩٧، ٩٨.

(٢) يوسف ٥ .

(٣) الآيات بالترتيب: إبراهيم ٢٨، الأنفال ٢، الشعراء ١٥١ .

(٤) سبأ ٣١ .

(٥) سبأ ٣٣ .

ووقوعها على الأمر الذى هو سببها، يشعر بوجوب الانتهاء، والمبادرة إلى التخلى عن المسرفين، وعدم الاستجابة لهم فيما يأمرون.

هذا والتجوز فى الآية الكريمة إنما هو فى إيقاع الفعل على مفعوله، وليس فى إسناد الفعل أو ما فى معناه ـ كما ذكر الخطيب القزوينى ـ ولذا آثرنا تعريف الإمام عبد القاهر على تعريف الخطيب، لاتساع تعريف عبد القاهر للنسب الإيقاعية، كما فى هذه الآية الكريمة، وكما فى قوله تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾(١) ففى إيقاع التفجير على الأرض مجاز، إذ التفجير للعيون، والأصل: وفجرنا عيون الأرض، وفى هذا التجوز دلالة على كثرة العيون، وكثرة المياه المتدفقة منها، وكأن الأرض جميعها قد صارت عيونا متفجرة.

ويتسع تعريف عبد القاهر أيضاً للنسب الإضافية وللنسبة بين المبتدأ والخبر، كما فى الآيات الكريمة: ﴿ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾... ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ﴾... ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾(٢) فقد أضيف المكر إلى الليل والنهار، وهما زمان يقع فيه المكر، ففى هه الإضافة مجاز عقلى، والإضافة الحقيقية أن يقال: بل مكركم بالليل والنهار.

وترجع بلاغة المجاز فى الآية الكريمة إلى دلالته على المبالغة فى المكر والإغواء، فالإضافة فى الآية تصور المكر واقعا من الليل والنهار، وكأن الزمن ـ لشدة مكرهم، وتناهيهم فى الإغواء ـ صار يشاركهم فيما يصنعون، بل صار هو الماكر، ومما يدل على ذلك عطف (النهار) على (الليل) فهو يدل على أنهم يواصلون المكر ليلا ونهارا، لا يكفون عنه ولا يهنون.

وكذا القول فى آية النساء ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ﴾ ففى إضافة الشقاق إلى البين مجاز، إذ الأصل: شقاق الزوجين فى الحالة التى بينهما، ويدل هذا التجوز على أن الخلاف والشقاق بين الزوجين قد بلغ مداه، وصار لا يجدى فيه إلا بعث الحكمين.

وفى آية البقرة أسند (من آمن) إلى البر إسنادا مجازيا بقصد الدلالة على المبالغة فى جعل (من آمن) هو البر عينه، والإسناد ـ كما ترى ـ إسناد ذات إلى ذات.

---

(١) القمر ١١، ١٢.

(٢) الآيات بالترتيب: سبأ ٣٣، النساء ٣٥، البقرة ١٧٧.

تعريف الإمام عبد القاهر يتسع لكل هذه النسب ولغيرها، لأنه لم يقف الإسناد على الفعل وما فى معناه، بل جعله عاما "كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه فى العقل لضرب من التأول"[١] أما تعريف الخطيب فقد وقفه على إسناد الفعل أو ما فى معناه "إسناد الفعل أو ما فى معناه إلى ملابس له غير ما هو له بتأول"[٢] ولذا ضاق فلم يتسع للتجوز فى النسب المذكورة، واتسع لها تعريف عبد القاهر، فكان جديرا بالإيثار.

ومما أسند فيه الفعل إلى زمانه، قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾[٣] حيث أسند الجعل إلى اليوم، واليوم زمان يجعل فيه، والإسناد إليه ينبئ بالشدائد والأهوال التى تقع فى ذلك اليوم، يقال فى اليوم الشديد، يوم يشيب نواصى الأطفال، والأصل فيه أن الهموم والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان أسرع فيه الشيب.

يقول أبو الطيب:

والهم يخترم الجسيم نحافة ... ويشيب ناصية الصبى ويهرم[٤]

وكذا القول فى الآيات الكريمة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾... ﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾[٥] فقد أسند الإبصار إلى النهار، والنهار زمان يبصر فيه المبصرون، وإسناد الإبصار إليه يجعله قائدًا يقود الناس فيتحركون، ويبصرهم فيبصرون، ويصور شدة الضياء الذى عم الكون، فأبصرت الخلائق جميعا بإبصار النهار، وفى الآية احتباك قد مر بك فى دراسة الحذف، حيث حذف من الأول ما دل عليه الثانى، ومن الثانى ما دل عليه الأول، والأصل: هو الذى جعل لكم الليل مظلما لتسكنوا فيه، والنهار مبصرا لتتحركوا فيه ولتبتغوا من فضله، فحذف من كل نظيره[٦].

---

(١) أسرار البلاغة ٢/ ٢٥٧ .

(٢) الإيضاح ١/ ٥٦ .

(٣) المزمل ١٧ .

(٤) انظر الكشاف ٤/ ١٧٨ .

(٥) الآيات بالترتيب: يونس ٦٧، الفجر ١ ـ ٤ .

(٦) انظر الفتوحات الإلهية ٢/ ٣٦٢ .

وأسند السرى إلى الليل، والليل زمان لوقوعه، إذ السرى هو السير ليلا، والسائر هم الناس، والإسناد إلى الليل يشعر باللطف والإيناس، فالليل يسرى مع السائرين أنسا ولطفا، وهذا ينسجم مع السياق، فقد أقسم عز وجل بالفجر يشع بنوره، فيبدد ظلام الليل ويؤنس بنوره وضوئه، وبليال عشر لها عنده شأن، وبالشفع والوتر حيث يأنس المؤمن بعبادة ربه، ثم يأتى القسم بالليل يسرى وكأنه كائن حى يمضى بالسائرين مؤنسا ومتلطفا، أرأيت كيف ينسجم النظم القرآنى؟ وكيف يتلاءم السياق فى روعة وبراعة؟ إنه الإعجاز.

ومما أسند فيه الفعل إلى مكانه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا﴾[1] حيث أسند الأمن إلى الحرم "حرما آمنا" والحرم مكان يأمن فيه الناس، وإسناد الأمن إليه ينبئ بكمال النعمة، نعمة الأمن التى امتن الله بها على من دخل الحرم ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾[2]

إن إسناد الأمن إلى الحرم دل على كمال المبالغة فى تحقق الأمن لساكنيه، وهذا أبلغ رد لدعواهم التى ادعوها ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ كيف وهم آمنون فى حرم الله الذى مكنه لهم؟

يقول الزمخشرى: فألقمهم الله الحجر بأنه مكن لهم فى الحرم الذى آمنه بحرمة البيت، وآمن قطانه بحرمته، وكانت العرب فى الجاهلية حولهم يتغاورون ويتناحرون، وهم آمنون فى حرمهم لا يخافون، وبحرمة البيت هم قارون بواد غير ذى زرع، والثمرات والأرزاق تجبى إليهم من كل أوب، فإذا خولهم الله ما خولهم، من الأمن والرزق، بحرمة البيت وحدها وهم كفرة، عبدة أصنام، فكيف يستقيم أن يعرضهم للتخوف والتخطف، ويسلبهم الأمن إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام؟"[3].

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ

---

(١) القصص ٥٧ .

(٢) آل عمران ٩٦، ٩٧ .

(٣) الكشاف ٣/ ١٨٥ .

أَثْقَالَهَا ﴾[١] تجد أن الإخراج قد أسند على الأرض، وهى مكان، والذى يخرج منها أثقالها هو الله تعالى: "وفى هذا الإسناد تخييل محرك ومثير، فأنت ترى الأرض فاعلة جاهدة تخرج أثقالها، وهذه الإضافة فى قوله "أثقالها" تشعر بأنها أثقال هائلة جسام، من حيث كانت أثقال هذا الكوكب الهائل الضخم، الذى حمل الجبال والبحار وثقلاء الناس، والمقام مقام ذكر الساعة وما فيها من ذهول وفزع، وتصور الأرض وهى جاهدة تخرج الأثقال فى هذا الوقت الفزع واقع أحسن موقع، ثم فيه إشارة إلى أنها لا تبقى فى باطنها شيئا، لأنها تقذف بنفسها كل ما انطوى فى طياتها"[٢].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾[٣] حيث أسند الاشتعال إلى الرأس، والرأس مكان الشعر ومنبته، والذى يشتعل شيبا إنما هو الشعر، وقد دل إسناد الاشتعال إلى مكانه على إحاطة الشيب وشموله جميع شعر الرأس، ولو قيل: اشتعل الشيب فى الرأس، أو اشتعل شيب الرأس ، لذهب هذا المعنى.

يقال: اشتعل البيت نارا، فيدل ذلك على استيلاء النار عليه، ووقوعها فيه وقوع شمول وإحاطة، فلو قيل: اشتعلت النار فى البيت، فإن ذلك لا يدل على أكثر من وقوع النار فيه، وإصابتها جانبا من جوانبه.

ومن دقائق التعبير القرآنى فى هذه الآية الكريمة تعريف الرأس بالألف واللام، والدلالة على الإضافة من غير إضافة ـ كما يقول عبد القاهر[٤] ـ إذ يدرك المخاطب من السياق أن المراد بالرأس رأس زكريا ـ عليه السلام ـ والتعريف بالألف واللام يؤذن برضا زكريا، ويوحى بتقبله للشيب بالفرح والابتهاج، لأنه يقربه من نعيم ربه.

ولو أضيفت الرأس إليه فقيل: واشتعل رأسى شيبا، لأشعرت تلك الإضافة بشئ من الحزن والأسى يعترى زكريا ـ عليه السلام ـ بسبب الشيب، فإذا ما علمنا أن هذا هو الموضع الفريد الذى عرفت فيه "الرأس" بالألف واللام فى القرآن الكريم، بدا لنا ما وراء استخدام الألفاظ فى النظم القرآنى من إعجاز.

---

(١) الزلزلة ١، ٢ .
(٢) خصائص التراكيب ٩٠ .
(٣) مريم ٤ .
(٤) انظر دلائل الإعجاز ١٣٤ .

ولا يخفى عليك أن الاشتعال فى الآية الكريمة مستعار لانتشار الشيب فى الشعر، وفشوه فيه، وأخذه منه كل مأخذ، وهذه استعارة تبعية فى الفعل، وهنالك استعارة أخرى مكنية فى كلمة "شيبا" حيث شبه الشيب بشواظ النار فى بياضه وإنارته، ثم حذف المشبه به ورمز له بلازم من لوازمه وهو "اشتعل" وانفكاك الاستعارة المكنية عن الاستعارة التخييلية مما عليه المحققون من أهل البيان(١).

وبهذا يكون فى الآية الكريمة ثلاثة مجازات، مجاز عقلى فى إسناد الاشتعال إلى الرأس وهى مكانه، ومجازان لغويان، أولهما: استعارة تبعية فى الفعل "اشتعل" وثانيهما: استعارة مكنية فى كلمة "شيبا"(*).

وقد كثر فى النظم الكريم، عند الحديث عن نعيم الجنات، إسناد الجريان إلى الأنهار، اقرأ قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾(٢) تجد أن الجريان قد أسند إلى الأنهار وهى مكانه، لأن الأنهار اسم للأمكنة والوديان التى تجرى فيها المياه، وإسناد الجريان إلى المكان الذى يجرى فيه الماء، يدل على كثرة المياه وإفاضتها واستمرار جريانها، وكأن محلها هو الذى يجرى، وهذا ينبئ بدوام النعيم، واستمراره.

ومما أسند فيه الفعل المبنى للفاعل إلى مفعوله قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾(٣) حيث أسند الربح منفيا إلى التجارة، وهو إنما يقع عليها، والذى يفعل الربح على الحقيقة أصحاب التجارة، فالأصل: فما ربحوا فى تجارتهم، ويدل التجوز فى الإسناد هنا على المبالغة فى الخسران والبوار، فالذى خسر ولم يربح التجارة ذاتها، وإنها لتجارة غريبة، الثمن المدفوع فيها الهدى، والسلعة المشتراة الضلالة، ولا يرتاب عاقل فى خسران مثل هذه التجارة، إن بوارها محقق، ولذا بولغ فى تأكيد الخسران والبوار بإسناد عدم الربح إلى ذات التجارة.

---

(١) انظر الكشاف ٢/ ٥٠٢

(*) الآية تحتمل بالإضافة إلى المجاز العقلى الاستعارتين المكنية والتبعية، لك أن تعتبر إحداهما والأولى بالاعتبار المكنية.. ارجع إلى كتابنا: "بين المكنية والتبعية والمجاز العقلى".

(٢) التوبة ٧٢

(٣) البقرة ١٦

وكذا القول في الآيات الكريمة: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾... ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾... ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ (١) حيث اسند اسم الفاعل "راضية" على ضمير العيشة، والعيشة مرضية لا راضية، فالأصل: رضى بها صاحبها، وقد أسند الرضا إلى العيشة لتلبسه بها من حيث وقوعه عليها، ويدل هذا التجوز على عظم النعيم الذى أعده الله للمؤمنين فى الجنة، كما يشعر بكمال الرضا والألفة، وبدوام السعادة وبقائها، فالمؤمن يألف عيشته، وهى تألفه، ويحبها وتحبه، وما بنى على الألفة والمحبة والرضا يدوم ويبقى.

وأسند اسم الفاعل "دافق" إلى ضمير الماء، والماء مدفوق وليس دافقا، إذ الدافق صاحبه، ووراء هذا التجوز دلالة على سرعة اندفاع الماء وشدة تدفقه، وكأن صاحبه لم يعد فى وسعه التحكم فيه، والسيطرة عليه، بعد ما أخذ فى التدفق، وهذا ينبئ برجوع الخلق لله وحده، ويؤذن بعجز الإنسان وضعفه، وبعده عن أن يكون له دخل فى أمر الخلق، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾(٢) فالله وحده هو الخالق، هو وحده خالق المنى، ومخرجه من الإنسان، ولا شأن للإنسان فى شئ، حتى ذاك المنى الحقير، المتدفق منه لا يملك السيطرة عليه، ولا التحكم فيه، فهل بقى له شئ من أمر الخلق؟ إن الله هو الخالق الوهاب.

وأسند اسم الفاعل "عاصم" إلى ضمير المفعول، إذ المعنى: لا معصوم اليوم من أمر الله إلا من رحمه، ويشعر التجوز فى الإسناد هنا بإبعاد الكافر الذى أعرض وتولى، ويلفت إلى شدة أخذه وإهلاكه، إذ لا ينجيه أحد، ولا يعصمه عاصم من أمر الله، عند حلول العذاب.

ومما أسند فيه الفعل المبنى للمفعول إلى فاعله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾(٣) فقد أسند اسم المفعول "مستورا" إلى ضمير الحجاب، والحجاب ساتر وليس مستورا، ويشعر هذا التجوز بشدة جحودهم، وقسوة قلوبهم، فالمعنى: إذا قرأت القرآن الناطق بالبراهين الدالة على

(١) الآيات بالترتيب: القارعة ٧، الطارق ٦، هود ٤٣.

(٢) الواقعة ٥٨، ٥٩.

(٣) الإسراء ٤٥.

الحق، جعلنا بمقتضى حكمتنا فى الهداية والإضلال بينك وبين الكفرة حجابا يمنعهم عن الحق، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه، وجعلنا فى آذانهم وقرا وعلى أبصارهم غشاوة.

إسناد اسم الفاعل "مستورا" إلى الحجاب يشعر - كما قلنا - بشدة جحودهم وطغيانهم، لقد بلغ جحودهم حدا طغى فيه على الحجاب فصار مستورا بالجحود والطغيان، بدل أن يكون ساترا، وصلوا فى العناد والإعراض إلى حد انقلبت فيه الموازين، وتغيرت المعايير، وتبدلت السنن، فلم تعد تمضى وفق المعهود، بل اختل نظامها.

ومن التجوز فى الإسناد أن يسند الفعل إلى الجنس وهو لأحد أفراده، كما فى قوله تعالى: ﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾[1] حيث أسند العقر إلى جميع القوم، قوم صالح "فعقروا" والعاقر أحدهم بدليل قوله تعالى: ﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾[2] والإسناد إلى الجميع ينبئ بأن العقر قد تم بعلمهم، ووقع برضاهم.

ومنه أن يسند الفعل إلى الجارحة التى هى آلته، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾[3] فالآثم هو صاحب القلب، وقد أسند الإثم إلى القلب، لأن كتمان الشهادة أن يضمرها الشخص ويخفيها، فلا يتكلم بها ولا ينطق، فلما كان الكتمان إثما مقترفا بالقلب أسند إليه، إذ إسناد الفعل إلى آلته يكون أبلغ فى الزجر وأقوى فى النهى.

ومنه أن يسند إلى ماله مزيد اختصاص وقربى بالفاعل الحقيقى، كما فى قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴾[4] حيث أسند التقدير إلى الملائكة والمقدر هو الله وحده، وذلك لأن لهم مزيد اختصاص وقربى من الله عز وجل.

يقول الزمخشرى: "فإن قلت: فلم أسند الملائكة فعل التقدير وهو لله وحده إلى أنفسهم ولم يقولوا قدر الله؟ قلت: لما لهم من القرب والاختصاص بالله الذى ليس

---

(١) الأعراف ٧٧ .

(٢) القمر ٢٩.

(٣) البقرة ٢٨٣.

(٤) الحجر ٦٠.

لأحد غيرهم، كما يقول خاصة الملك: دبرنا كذا، وأمرنا بكذا، والمدبر والآمر هو الملك لاهم، وإنما يظهرون بذلك اختصاصهم"[1].

مما تقدم يتضح لنا أن الفعل قد أسند إلى سببه ، وإلى زمانه ومكانه وأسند المبنى للمفعول إلى الفاعل ، وأسند إلى الجنس وهو لأحد أفراده، وأسند إلى آلته، وإلى ماله قرب واختصاص بالفاعل الحقيقى، ووقع الفعل على سببه، وعلى مكانه، وأضيف المصدر إلى الزمان وإلى المكان، وتلك ملابسات للإسناد، فالفعل أو ما فى معناه، عندما يسند إلى غيرما هو له، أو يقع عليه، والكلمة عندما تضاف إلى غيرما هى له، لابد أن تكون هنالك ملابسة مصححة للإسناد، أو الإيقاع أو الإضافة، بمعنى أن يكون هناك تعلق وارتباط بين الفعل وما أسند إليه تجوزا، أو بين الفاعل الحقيقى والفاعل المجازى، حيث يرتبط الفعل بكل منهما، ويتعلق به .

ولا بد فى كل تجوز من تأول، أى: قرينة تدل على وقوع المجاز، ففى قولك: ليله قائم ونهاره صائم، يستحيل عقلا قيام الليل، وصام النهار لأنهما زمان، فلابد من التأول فى هذا الإسناد.

والجاهل عندما يقول: شفى الطبيب المرض، معتقدا أن الطبيب فاعل للشفاء يكون الإسناد حقيقيا فى اعتقاده، وذات الجملة لو قالها المؤمن الذى يرجع الشفاء إلى الله، ويؤمن بأن الطبيب سبب أجرى الله الشفاء على يديه، يكون الإسناد مجازيا فى اعتقاده، لأنه متأول. وخلاصة القول أن التجوزفي الإسناد لايكون إلا لتحقيق غرض يقتضيه المعنى ـ كما رأيت فى الآيات الكريمة ـ وأن له ملابسات تصحح الإسناد، وقد وقفت على معظمها، ولابد فيه من التأول، وإلا كان الإسناد حقيقيا.

خروج الكلام عن مقتضى الظاهر

قال تعالى :

﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ﴾ الكوثر.

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ۝٩٢ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴾ الأنبياء ٩٢ ، ٩٣.

(١) الكشاف ٢/ ٣٩٤ .

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ فاطر ٩.

﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ الأنعام ١٤.

﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ هود ٩٠ .

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴾ مريم ٨٨ ، ٨٩ .

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ الإخلاص ١ ، ٢ .

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾ الإسراء ١٠٥.

﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ البقرة ٥٩.

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ المؤمنون ١١٧

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ البقرة ١٨٩

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ البقرة ٢١٥

﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴾ الأعراف ٨٣

﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴾ التحريم ١٢

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ فصلت ١١

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ﴾ النور ٤٥

﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴾ الشعراء ٤

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ النحل ١

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾ الأنبياء ٧٨، ٧٩

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ آل عمران ٥٩

﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ هود ٥٤

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ الأعراف ٢٩

﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ البقرة ٨٧

عرفنا أن البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وأن لكل مقام مقالا، ولكل حال كلاما يناسبها ويلائمها، ومجئ الكلام مطابقا لمقتضى الحال هو الأصل، وقد يخالف هذا الأصل فيأتى الكلام خارجا ومخالفا لما يقتضيه ظاهر الحال، وتلك المخالفة لا تكون إلا لأسرار ومقاصد يقصد إليها البلاغى.

وينبغى أن نعلم أن هذه المخالفة إنما هى لظاهر الحال، فالكلام وإن خالف ما يقتضيه الظاهر، فإنه قد وافق ما يقتضيه المعنى ويتطلبه، ولا يظهر ذلك إلا لمن سبر أغوار المعانى، وتغلغل بفكره فى أعماق التراكيب، فهو الذى يتجلى له ما وراء مخالفة الظاهر من أسرار ومزايا، وأهداف يقصد إلى تحقيقها.

وصور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر كثيرة، منها الالتفات، وأسلوب الحكيم، ووضع المضمر موضع المظهر، ووضع المظهر موضع المضمر، والتغليب، والتعبير عن المستقبل بلفظ الماضى، وعن الماضى بلفظ المضارع، إلى غير ذلك من صور المخالفة، التى نأمل أن يقف عليها الدارس، وأن يتجلى له ما وراءها من أسرار ومقاصد، من خلال التأمل والنظر فى آيات الذكر الحكيم التى سنتناولها.

الالتفات

الالتفات مأخوذ من قولهم : التفت الإنسان ، إذا تحرك بعنقه من اليمين، إلى الشمال أو من الشمال إلى اليمين ، وقد عرفه جمهور البلاغيين بأنه التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة، وهى التكلم أو الخطاب أو الغيبة، بعد التعبير عنه بطريق آخر منها[١].

وقالوا : إن فائدته التفنن والانتقال من أسلوب إلى أسلوب آخر ، تطرية واستدرارا للسامع، وتجديدا لنشاطه، وحفظًا لخاطره من الملل والضجر، إذا استمر الأسلوب الواحد على سمعه، فقد قيل :

لايصلح النفس إن كانت مصرفة ... إلا التنقل من حال إلى حال[٢]

وهذه فائدة عامة لكل التفات، ثم هنالك أسرار ومزايا عدة للا لتفاتات، إذ يتجلى لنا فى كل التفات غرض من الأغراض، ومزية من المزايا، بالإضافة إلى تلك الفائدة العامة التى نراها فى كل التفات.

انظر فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾[٣] تجد التفاتا من التكلم فى قوله "إنا أعطيناك" إلى الغيبة فى قوله: "فصل لربك" إذ الأصل: فصل لنا، والغرض من هذا الالتفات إبراز معنى التربية، والتصريح بلفظ "الرب" ففى التصريح به حث على تحقيق الفعل المأمور به، لأن من تكفل بالتربية والرعاية فهو جدير بالعبادة ، مستحق للصلاة المأمور بها .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ

(١) الإيضاح ١/ ١٥٢ ويرى السكاكى أنه التعبير بطريق من هذه الطرق عما عبر عنه بغيره، أو كان مقتضى الظاهر أن يعبر عنه بغيره، فهو يلتقى مع الجمهور فى الجزء الأول من التعريف، ويخالفهم فى الجزء الثانى منه، إذ يرى فى نحو قول ربيعة بن مقروم:

بانت سعاد فأمسى القلب معمودا ... وأخلفتك ابنة الحر المواعيدا

التفاتا، حيث كان مقتضى الظاهر أن يقول: وأخلفتنى، فالتفت إلى الخطاب، ويعد الجمهور مثل هذا تجريدا .

(٢) انظر البرهان ٣/ ٣١٤ .

(٣) الكوثر ١، ٢.

ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[1] حيث التفت من التكلم فى قوله: "إنى رسول الله" إلى الغيبة فى قوله: "فآمنوا بالله ورسوله" وكان مقتضى الظاهر أن يقال: فآمنوا بالله وبى، وترجع بلاغة الالتفات فى الآية الكريمة إلى أمرين :

١- أن الاسم الظاهر"ورسوله" قد مكن من إجراء الأوصاف المذكورة فى الآية وهى: "النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته..." عليه - ﷺ - ووصفه بها.

٢- التنبيه إلى أن الإيمان والتصديق ليس بذات النبى - ﷺ - وإنما برسالته، بكونه رسولا نبيا أميا يؤمن بالله وكلماته، فهذه الصفات بمثابة البرهان على صدق رسالته - ﷺ - ولذا كان الالتفات من أجل إبراز وتجلية تلك الصفات.

ومما جاء فيه الالتفات من التكلم إلى الخطاب قوله تعالى: **﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾**[2] فقد التفت من التكلم فى قوله: "إنى أمرت أن أكون أول من أسلم" إلى الخطاب فى قوله: "ولا تكونن من المشركين" ووراء هذا الالتفات التحذير من الشرك، والوعيد الشديد لمن أشرك بالله، وتأمل: كيف جاء الحديث عن الإسلام خبرا أمر - ﷺ - أن يخبر به "قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم" ثم جاء الحديث عن الشرك نهيا مباشرا من الله لرسوله "ولا تكونن من المشركين" ففى هذا من الوعيد الشديد، والتحذير من الشرك، ما لا يخفى على ذى لب، وقد أخبر عز وجل أنه لا يغفر أن يشرك به **﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾**[3].

ومن ذلك قوله تعالى: **﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾**[4] حيث التفت من التكلم فى قوله: "ومالى لا أعبد الذى فطرنى" إلى الخطاب فى قوله: "وإليه

(١) الأعراف ١٥٨ .

(٢) الأنعام ١٤ .

(٣) النساء ٤٨

(٤) يس ٢٢

ترجعون" والغرض من هذا الالتفات التلطف فى نصيحة قومه ترغيبا لهم فى الحق، واستمالة لهم نحو الهدى، فقد أجرى التعجب من عدم العبادة على نفسه "مالى لا أعبد" ثم التفت إليهم محذرا "وإليه ترجعون".

ويتجلى لك هذا المعنى، معنى الترغيب والاستمالة، عندما تنعم النظر فى سياق الآية الكريمة، ولنقرأ: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[1] فقد خاطبهم ناصحا لهم باتباع الرسل، وبين لهم أن هؤلاء الرسل مهتدون، وأنهم لا يسألون أجرا على تبليغ الرسالة وهذا أدعى للإيمان بهم، ثم هو قد بدأ بإضافتهم إليه "يا قوم" تلطيفا لهم، فلما أراد أن يتعجب من عدم إيمانهم التفت إلى نفسه حتى لا ينفرهم، ثم التفت إليهم مرة أخرى محذرا ومنبها لهم بالمصير المحتوم "وإليه ترجعون".

ومما جاء فيه الالتفات من الخطاب إلى التكلم قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾[2] فقد التفت من الخطاب فى قوله: "استغفروا ربكم ثم توبوا إليه" إلى التكلم فى قوله: "إن ربى" ومثله قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾[3] ولعل الغرض من الالتفات فى الآيتين الكريمتين القصد إلى تنزيه الله تعالى، ودفع توهم انصراف صفات الجلال المذكورة إلى آلهتهم فيما لو قيل: إن ربكم رحيم ودود.... وإن ربكم قريب مجيب[*].

---

(1) يس ٢٠، ٢١

(2) هود ٩٠

(3) هود ٦١

(*) الالتفات فى الآيتين ليس موضع اتفاق، لأن الضمير الذى التفت عنه جمع "استغفروا ربكم... توبوا" والذى التفت إليه مفرد "ربى" فبعضهم يعد مثل هذا التفاتا، وبعضهم يشترط أن يظل الضمير الملتفت عنه والملتفت إليه على حالة واحدة من حيث الإفراد والتثنية والجمع، ولذا لا يعد ما فى الآيتين التفاتا. انظر البرهان ٣/ ٣١٥.
ونحن نرجح الرأى الأول، لوضوح الانتقال والمخالفة فى التعبير، سواء اتحدت الضمائر أى: ظلت على حالة واحدة من حيث الإفراد والتثنية والجمع، أم اختلفت فى ذلك والمخالفة فى التعبير واضحة فى الآيتين الكريمتين، والهدف منها تحقيق الغرض المشار إليه، ومن ذلك قوله تعالى: "ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون" يس٢٢، حيث التفت من التكلم فى "مالى... فطرنى" إلى الخطاب فى "ترجعون" والضمير الملتفت عنه مفرد، والملتفت إليه جمع ـ كما ترى ـ وقد سبق بيان الغرض من الالتفات فى الآية الكريمة، فعد إليه.

وجاء الالتفات من الخطاب إلى الغيبة فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ۝ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴾[1] حيث التفت من الخطاب فى قوله: "أمتكم.... أنا ربكم فاعبدون" إلى الغيبة فى قوله: "وتقطعوا أمرهم بينهم" ويؤذن هذا الالتفات بابتعادهم عن الجادة، وغيابهم عن النهج القويم، فقد كانوا على أمة واحدة يمضون على منهج الله، وعندما كانوا كذلك خوطبوا، فهم أهل للخطاب "إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون" فلما تركوا الملة الواحدة، وتفرقوا شيعا وأحزابا، وحادوا عن المنهج القويم، التفت عنهم، إذ لم يعودوا أهلا للخطاب، بل تخلفوا عن الهدى، وانحدروا فى غيابات الضلال، "وتقطعوا أمرهم بينهم" ولذا ختمت الآية بهذا الوعيد "كل إلينا راجعون".

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾[2] فقد الفت من الخطاب فى قوله "كنتم" إلى الغيبة فى قوله "بهم" وترجع بلاغة الالتفات فى الآية إلى عدة أمور:

١- أنهم لما كانوا فى الفلك، وهى راسية بهم خوطبوا، فلما جرت بهم وابتعدوا إلى داخل البحر، لاءم ذلك أن يلتفت من خطابهم إلى الغيبة.

٢- أنهم وقت الركوب استحضروا الخشوع، وذكروا الله، لأنهم خافوا الهلاك وتقلب الرياح، فخوطبوا عندئذ، ونودوا نداء الحاضرين فلما جرت بهم بما تشتهى أنفسهم "بريح طيبة" وأمنوا الهلاك، لم يبق حضورهم، وتلك عادة الإنسان إنه إذا أمن غاب، ونسى خالقه، فلما غابوا عند جرى الفلك بهم بريح طيبة، التفت عنهم، إذ لم يعودوا أهلا لأن يخاطبوا.

٣- أن الالتفات ينبئ بحال هؤلاء، فهم إذا أصابهم ضر دعوا ربهم، فإذا نجاهم بغوا فى الأرض بغير الحق، فالملاءم أن يلتفت عن خطابهم، وأن تحكى قصتهم تشهيرا بهم، وتعجيبا من شأنهم، وعظة واعتبارا لمن أراد أن يعتبر ويتعظ، ولو استمر على الخطاب لفاتت تلك الفائدة.

---

(١) الأنبياء ٩٢، ٩٣ .

(٢) يونس ٢٢.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾[1] حيث التفت من الخطاب في قوله "جاءوك" إلى الغيبة في قوله "الرسول"، والأصل أن يقال: واستغفرت لهم، وفي هذا الالتفات تفخيم لشأن الرسول - ﷺ - وتعظيم استغفاره، والتنويه بأن شفاعة واستغفار من اسمه "الرسول" من الله تعالى بمكان[2].

ومما جاء الالتفات فيه من الغيبة إلى التكلم قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾[3] فقد التفت من الغيبة في قوله "والله الذى أرسل الرياح" إلى التكلم في قوله: "فسقناه... فأحيينا" ويؤذن هذا الالتفات بالقدرة الباهرة التى تتجلى في سوق السحاب، وإحياء الأرض الموات، فلما كانت هذه الأفعال دالة على القدرة الإلهية، التفت من الغيبة في إرسال الرياح إلى التكلم في سوق السحاب، وإحياء الأرض الميتة بإنزال الماء، وشىء آخر وراء هذا الالتفات، وهو الإشعار بأن منافع العباد إنما هى في سوق السحاب وإنزال مائه، فلما كانت فيهما منفعة العباد، التفت إلى التكلم فيهما "فسقناه ... فأحيينا به" لينبه إلى موطن المنفعة.

وكذا القول في الآيات في الكريمة: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ﴾ ... ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾... ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[4] فإن الالتفات إلى التكلم في هذه الآيات الكريمة يدل على قدرة الله تعالى في إخراج الثمرات، وإنبات الحدائق ذات البهجة، وتزيين السماء الدنيا.

ووراء الالتفات في آية فصلت دلالة على أن السماء الدنيا هى موطن العظة والعبرة، فكأن الالتفات فيها يلفت المؤمن وينبهه إلى موطن العظة، وفيه أيضا دلالة على أنه

---

(١) النساء ٦٤.

(٢) انظر الكشاف ١/ ٥٣٨ .

(٣) فاطر ٩ .

(٤) الآيات بالترتيب: فاطر ٢٧، النمل ٦٠، فصلت ١٢.

ليس المقصود الإخبار عن مدة خلق النجوم، كما أخبرت الآيات عن مدة خلق الأرض والسموات، وإنما المقصود الإخبار بالتزيين، وبيان فائدته[1].

ومنه قوله تعالى: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[2] حيث التفت من الغيبة فى قوله "الذى أسرى" إلى التكلم فى قوله: "باركنا حوله لنريه" ثم عاد إلى الغيبة فى قوله "إنه هو السميع البصير" وينبئ هذا الالتفات بما للمسجد الأقصى من مكانة، ويشير إلى حلول البركة حوله، كما يدل على الغاية من الإسراء، وهى أن يرى النبى - ﷺ - من آيات ربه الكبرى، إن الالتفات إلى التكلم فى الفعلين "باركنا... لنريه" ينبه إلى مكانة المسجد الأقصى وإلى حلول البركة حوله، كما ينبه إلى الغاية من إسراء الله تعالى بعبده - ﷺ - ولذا عاد فالتفت إلى الغيبة فى قوله "إنه هو السميع البصير" ليزداد التنبيه بتكرار المخالفة فى التعبير.

وخذ قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾[3].

وتأمل فستجد عدة التفاتات، حيث التفت من الغيبة فى قوله: "خلق وألقى وبث" إلى التكلم فى قوله "أنزلنا فأنبتنا" ثم عاد إلى الغيبة فى قوله: "هذا خلق الله" ثم عاد إلى التكلم فى قوله "فأرونى" ثم إلى الغيبة فى قوله "من دونه" ثم إلى التكلم فى "آتينا لقمان الحكمة" ثم إلى الغيبة فى قوله "أن اشكر لله" ولا يخفى عليك ما وراء هذه الالتفاتات من تحريك للمخاطب، وإثارة وجدانه ليدرك هذه المعانى الجليلة، انظر إلى ما حققه الالتفات من التصريح باسم الله الأعظم فى "هذا خلق الله، أن اشكر لله" وما وراء ذلك من تربية المهابة واستحضار العظمة، انظر إلى نبرة الوعيد والتهديد فى "أرونى ماذا خلق الذين من دونه" انظر إلى عظمة الإنزال والإنبات والإيتاء فى "أنزلنا فأنبتنا وآتينا" وما وراء الالتفات فى هذه الأفعال من الدلالة على القدرة، والامتنان بالعطاء.

---

(١) انظر البرهان ٣/ ٣٢٢ .

(٢) الإسراء ١ .

(٣) لقمان ١٠ـ ١٢

وفى الآيات التفات آخر من الخطاب فى قوله: "ترونها.. بكم .. فأرونى" إلى الغيبة فى قوله: "بل الظالمون فى ضلال مبين" وكان مقتضى الظاهر أن يقال: بل أنتم فى ضلال مبين، وترجع بلاغة هذا الالتفات إلى أمرين:

١- أن الخطاب فى الآيات الكريمة عام، وليس كل المخاطبين فى ضلال مبين، بل الظالمون منهم، فالالتفات قد مكن من التصريح بالظالمين، وخصهم بالضلال، فأخرج المؤمنين المهتدين.

٢- أن الالتفات قد مكن من التصريح بصفة الظلم - كما قلنا - وأدى إلى وسمهم بها، فتبين بهذا واتضح، أن الظلم هو الذى صيرهم فى ضلال مبين، وعما قليل سيجعلهم فى عذاب أليم.

ومما التفت فيه من الغيبة إلى الخطاب قوله تعالى: ﴿ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ۝٢١ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ﴾[(١)] فقد التفت من الغيبة فى قوله "وسقاهم ربهم" إلى الخطاب فى قوله: "لكم جزاء" وينبئ هذا الالتفات بالتكريم والتعظيم لأصحاب الجنة.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ۝٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴾[(٢)] حيث التفت من الغيبة فى قوله: "قالوا" إلى الخطاب فى قوله "جئتم" ولا يخفى عليك أن الغرض من الالتفات فى هذه الآية الكريمة عكس الغرض منه فى الآية السابقة، إنه التفات الغاضب المتوعد، ففيه توبيخ لهم، وتنبيه إلى عظم الافتراء على الرحمن، وإشعار بالوعيد والعقاب الشديد، لمن تجرأ على الله تعالى، وافترى هذا الافتراء.

واقرأ سورة الفاتحة ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[(٣)] تجد أن السورة الكريمة قد بدأت بأسلوب الغائب، ثم التفت إلى الخطاب فى قوله "إياك نعبد" وفى هذا الالتفات

---

(١) الانسان ٢١، ٢٢.

(٢) مريم ٨٨، ٨٩ .

(٣) سورة الفاتحة.

توجيه للعبد، وحث له على أن يكون حاضر القلب عند قراءته، فإن بدء السورة الكريمة بحمد الله تعالى، ثم إجراء هذه الصفات، صفات الجلال، عليه جل شأنه، تحرك حاضر القلب وتأخذ منه كل مأخذ، فهو عندما يقرأ "الحمد لله" يدرك أن لهذا الكون إلها يستحق الحمد والثناء، فإذا ما قرأ "رب العالمين" أدرك ربوبيته وملكه للخلق أجمعين، فيخضع له ويخشع، ثم يزداد خضوعه وخشوعه، وقربه من الله تعالى، عندما يقرأ "الرحمن الرحيم" إذ يدرك أنه المنعم على الخلق بجلائل النعم ودقائقها، ثم يقرأ "مالك يوم الدين" فيدرك أن الملك فى ذلك اليوم لله الواحد القهار، وعندئذ يكون قد ارتقى فى القرب من الله تعالى مرتقى ينقله من الغيبة إلى الحضور، ومن المعقول والمعلوم إلى العيان والمشاهدة، فيلتفت إلى مخاطبته تعالى "إياك نعبد وإياك نستعين" لقد حركته صفات الجلال، وهيأته وارتقت به خضوعا وخشوعا، حتى أقبل يناجى ربه عن قرب، مخصصا إياه بغاية الخضوع والاستعانة.

وانظر كيف صرح النظم الكريم بذكر المنعم، وإسناد الإنعام إليه ـ تعالى ـ لفظا فى قوله "الذين أنعمت عليهم" وكيف تحاشى نسبة الغضب إليه ـ تعالى ـ فى اللفظ، فبنيت العبارة للمفعول فى قوله: "غير المغضوب عليهم" وذلك تأدبا وتعظيما لشأنه تبارك وتعالى.

أسلوب الحكيم

عرف البلاغيون أسلوب الحكيم بأنه: تلقى المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده، تنبيها على أنه الأولى بالقصد، أو تلقى السائل بغير ما يتطلب سؤاله بتنزيل هذا السؤال منزلة غيره، تنبيها على أنه الأولى بحاله والمهم له(١).

وقد سماه عبد القاهر أسلوب المغالطة، وهى مغالطة أدبية، حكيمة لطيفة، لأنها لم تقم على المكاشفة والمواجهة الصريحة بغير ما يترقب المخاطب، بل قامت على الإخفاء واللطف والطرافة، مراعاة للأدب، وتقديرا للمشاعر.

انظر إلى قول ابن القبعثرى الشيبانى، وكان ممن خرجوا على الحجاج بن يوسف الثقفى، فأمسك به الحجاج، وقال له مهددا: "لأحملنك على الأدهم" فقال ابن

(١) انظر الإيضاح ١/ ١٦٠

القبعثرى: "مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب" فقال الحجاج: "إنه الحديد" فأجاب ابن القبعثرى: "لأن يكون حديدا خير من أن يكون بليدا".

إن الحجاج يتوعده بالقيد، وهذا ما يريده بلفظ "الأدهم" وبالحمل عليه، ولكن الشيبانى يصرف كلام الحجاج إلى غير ما يريد منه، يصرفه إلى الوعد، حيث حمل "الأدهم" على الفرس، وهو الذى يغلب سواده على بياضه، ثم عطف عليه "الأشهب" وهو ما غلب بياضه على سواده، وهو بهذا ينبه إلى ما ينبغى أن يكون منه، إنه الأمير، ومثله يكرم ويعد، لا يهدد ويتوعد، مثله يحمل على الخيل تكريما، لا على القيد إهانة.

ولذا لما قال الحجاج: "إنه الحديد" وأصر على تهديده، أصر الشيبانى على حمل كلامه على الوعد حيث قال: "لأن يكون حديدا خير من أن يكون بليدا" أى: لأن يكون جوادا ذا حدة وقوة ونشاط خير من أن يكون بليدا فاترا، وفى هذا مزيد من التنبيه إلى مكانة الأمير، والتلويح إلى أن مثله يعفو ويكرم ويعد.

واقرأ قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾(١) فقد سئل ـ ﷺ ـ ما بال الهلال يبدو دقيقا ثم يزيد حتى يمتلئ، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ، السؤال عن العلة فى تغيير منازل القمر، وجاء الجواب مبينا الحكمة والفائدة من ذلك التغيير "قل هى مواقيت للناس والحج" فأخرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر بصرف السائل إلى غير ما يتطلب سؤاله، تنبيها على أن ما صرف إليه هو المهم له، والأولى بحاله.

يقول صاحب التحرير والتنوير: "كان المهم لهم أن يسألوه عما ينفعهم فى صلاح دنياهم وأخراهم، وهو معرفة كون الأهلة ترتبت عليها آجال المعاملات والعبادات كالحج والصيام والعدة، ولذلك صرفهم عن بيان مسئولهم إلى بيان فائدة أخرى، لاسيما والرسول ـ ﷺ ـ لم يجئ مبينا لعلل اختلاف أحوال الأجرام السماوية، والسائلون ليس لهم من أصول معرفة الهيئة ما يهيئهم إلى فهم ما أرادوا علمه، بمجرد البيان اللفظى، بل ذلك يستدعى تعليمهم مقدمات لذلك العلم"(٢).

---

(١) البقرة ١٨٩ .

(٢) التحرير والتنوير ٢/ ١٩٥ .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ (١) فقد سألوه ـ ﷺ ـ عن بيان ما ينفقون، فجاء الجواب مبينا المصارف التى ينفق فيها، وذلك للتنبيه على أنها هى المهمة، وهى الجديرة بأن تتجه إليها هممهم وعنايتهم، إذ ليس المهم أن يكون المنفق قليلا أو كثيرا، ذهبا أو فضة، بل الأولى والمهم أن يصرف فيما ينبغى أن يصرف فيه، وأن يقع فى موقعه، وأن يصل إلى أهله ومستحقيه.

وضع المضمر موضع المظهر

الأصل فى ضمير الغائب أن يذكر فى الكلام مرجعه الذى يرجع إليه، وأن يكون هذا المرجع متقدما لفظا ورتبة أو فى اللفظ دون الرتبة، أو فى الرتبة دون اللفظ، فلا يعود ضمير الغائب على متأخر فى اللفظ والرتبة معا.

ولذا عد البلاغيون قول زهير:

إن تلق يوما على علاته هرما ... تلق السماحة منه والندى خلقا

وقول حسان:

فلو أن مجدا أخلد الدهر واحدا ... من الناس أبقى مجده الدهر مطعما

غير فصيح، إذ عاد الضمير فى "علاته" على "هرما" وفى "مجده" على "مطعما" وهما مفعولان، فهما متأخران لفظا ورتبة، وهذا ضعف تأليف يخل بفصاحة الكلام.

وقد يخرج الكلام على خلاف هذا الأصل، فيذكر ضمير الغائب ثم يفسر بمتأخر عنه لغرض بلاغى، ويكون ذلك وضعاً للضمير فى موضع الاسم الظاهر.

انظر إلى قول زهير يمدح هرما:

نعم امرأ هرم لم تعد نائبة ... إلا وكان لمرتاع بها وزرا

فالمخصوص بالمدح "هرم" عند إعرابه خبرا لمبتدأ محذوف، أو مبتدأ لخبر محذوف،

(١) البقرة ٢١٥ .

يكون فاعل "نعم" فى هذا التعبير "نعم امرأ هرم" ضميرا مستترا تقديره "هو" يعود على المخصوص بالمدح "هرم" وهذا خروج عن مقتضى الظاهر، بوضع الضمير موضع المظهر، إذ الأصل أن يقال: نعم هرم امرأ.

أما إذا أعرب المخصوص بالمدح "هرم" مبتدأ والجملة قبله خبرا مقدما، فعندئذ يكون الضمير عائدا على متقدم فى الرتبة، ولا يكون من خروج الكلام عن مقتضى الظاهر.

والسر البلاغى وراء وضع المضمر موضع المظهر، هو الإيضاح بعد الإبهام، أو التفصيل بعد الإجمال، فعندما يأتى الإيضاح بعد إبهام، أو التفصيل بعد إجمال، يتمكن المعنى فى نفس السامع، ويستقر فى وجدانه.

انظر إلى الآيات الكريمة: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾... ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ ... ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾[1] تجد أن الضمائر فى "هو .. إنها .. إنه" لم يتقدم لها مرجع، وإنما فسرت بالجمل التى بعدها، فهى من وضع الضمير موضع الاسم الظاهر، وتسمى هذه الضمائر بضمائر الشأن أو القصة.

ولا يخفى عليك الإبهام فى هذه الضمائر، وأنه قد وضح بالجمل المذكورة بعده، والغاية من ذلك أن تستقر هذه المعانى فى الأنفس، وأن تترسخ فى الوجدان، لأنها معان مهمة، إنها قضية التوحيد "الله أحد" والحث على النظر والتدبر "لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور" والتنبيه إلى خسران الكفرة وعدم فلاحهم "لا يفلح الكافرون".

مثل هذه المعانى هى التى يستعمل فيها ضمير الشأن أو ضمير القصة، لكى يحرك النفس، ويثير انتباهها، فتتطلع إلى إيضاح الإبهام، وتترقب مجئ التفصيل الذى أجمل فى تلك الضمائر، وعندما يأتى الإيضاح والتفصيل تستقر به هذه المعانى فى الأنفس، وتقع فيها ألطف موقع، لأنها جاءت والنفس مهيأة لها، ومتطلعة مترقبة.

(١) الآيات بالترتيب: الإخلاص١، الحج ٤٦، المؤمنون ١١٧ .

وبهذا يتجلى لك أن الإضمار فى موضع الإظهار لا يكون إلا فى الأمور المهمة، والمعانى الجليلة، التى يقصد إلى تمكينها فى النفس، واستقرارها فى الوجدان.

وضع المظهر موضع المضمر

من صور خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر وضع الاسم المظهر موضع الضمير، وذلك عندما يذكر الاسم الظاهر ثم يراد إعادته فى الكلام، فتلك الإعادة ينبغى أن تكون بالضمير، حيث ذكر الاسم أولا، وهذا الذكر يقتضى أن يعبر عنه بعد ذلك بضميره عائدا عليه، فإذا ما عبر عنه عند الإعادة بالاسم الظاهر: أى: أعيد اسما ظاهرا لا ضميرا، يكون الكلام قد خرج عن الأصل، وخالف ما يقتضيه الظاهر لسر من الأسرار(*).

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾[1] تجد أنه قد أعيد ذكر "الذين ظلموا" وكان مقتضى الظاهر أن يقال: فأنزلنا عليهم، لتقدم ذكر "الذين ظلموا" فى أول الآية الكريمة.

والغرض البلاغى من وضع الظاهر موضع الضمير فى الآية الكريمة، الدلالة على أنهم قد استحقوا العذاب النازل عليهم بسبب هذا الظلم، ففيه زيادة فى تقبيح أمرهم، وتسجيل للظلم الواقع منهم، وإيذان بأن إنزال الرجز عليهم كان بسبب ظلمهم ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[2].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ

(*) وقد يكون المقام مقتضيا لأن يبدأ بالضمير، فيعدل عنه إلى الاسم الظاهر، كما فى قوله الخليفة: أمير المؤمنين يأمر بكذا، فالأصل أن يقال: نحن نأمر، ولكنه خالف هذا الأصل، فوضع الظاهر "أمير المؤمنين" مكان الضمير "نحن" تنويها بشأن الأمير وحثا على الامتثال والطاعة.
وقد يبدأ بالضمير ثم يعدل عنه إلى الظاهر، كما فى قول المرءوس لرئيسه متظلما: أنت أهنتنى والرئيس يفعل ما يشاء، فقد بدأ بالضمير "أنت" ثم عدل عنه إلى الاسم الظاهر "الرئيس" تنويها بشأنه ومكانته، وطلبا لعدله.

(١) البقرة ٥٩.

(٢) آل عمران ١١٧ .

أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[1] فقد عدل إلى الاسم الظاهر فى قوله: "وعلى المؤمنين" إذ الأصل: على رسوله وعليكم، وفى هذا العدول إبراز لصفة الإيمان، وإشعار بأن إنزال السكينة لا يكون إلا على الرسول وعلى من آمن معه، واطمأن قلبه بالإيمان، وإشادة بالمؤمنين الذين ثبتوا مع رسول الله ـ ﷺ ـ وحث للجميع على الإيمان بالله والتوكل عليه، وعدم الركون إلى كثرة العدد والعتاد فإن النصر من الله ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾[2].

وفى الآية أيضا عدول إلى الاسم الظاهر فى قوله "وذلك جزاء الكافرين" إذ الأصل: وعذب الذين كفروا وهو جزاؤهم، فعدل عن الضمير إلى اسم الإشارة إبرازا للعذاب، ودلالة على تميزه أكمل تمييز، كما عدل عنه أيضاً إلى الاسم الظاهر "الكافرين" تسجيلا للكفر الذى استحقوا به العذاب، وزيادة فى تقبيح أمر الكفرة وتحقير شأنهم.

وخذ قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ ﴾[3] تجده قد أعيد فيه اسم الرسول ـ ﷺ ـ فى قوله "فآمنوا بالله ورسوله" وكان الأصل: فآمنوا بالله وبى، فعدل عن هذا الأصل إلى ما عليه النظم الكريم، إبرازا لمعنى الرسالة، وإشعارا بأن الإيمان المأمور به، ليس بذات النبى ـ ﷺ ـ ولكن برسالته، فنحن لم نؤمر بالإيمان بذات محمد ـ ﷺ ـ ولكننا مأمورون بأن نؤمن به رسولا نبيا أميا يؤمن بالله وكلماته، فوضع الاسم الظاهر موضع الضمير فى الآية الكريمة، قد أشعر بهذا، ومكن من إجراء الصفات المذكورة على الرسول ـ ﷺ ـ "ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته".

---

(١) التوبة ٢٥، ٢٦ .

(٢) آل عمران ١٦٠ .

(٣) الأعراف ١٥٨ .

ومنه قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾[1] إذا كان مقتضى الظاهر أن يعبر بالضمير فى قوله "الله الصمد" فيقال: هو الصمد، ولكنه عدل إلى الاسم الظاهر "الله" لتقرير المعنى، وزيادة تمكينه فى النفس، لأنه معنى من المعانى الجليلة التى تحتاج إلى زيادة تقرير وتمكين، ليقلع الكفرة عن كفرهم، ويقبلوا على الإيمان والتوحيد.

وانظر فى قوله تعالى ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[2] تجده قد عدل عن الضمير إلى الاسم الظاهر فى قوله: "فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين" إذ الأصل: فتوكل على إنى أحب المتوكلين، ولكنه عدل إلى التصريح بلفظ الجلالة، لما فى التصريح به من تربية المهابة، وتقوية الداعى إلى الامتثال والإجابة.

التغليب

التغليب هو إعطاء أحد المتصاحبين أو المتشابهين حكم الآخر بجعله موافقا له، إجراء للمختلفين مجرى المتفقين، فهو من خروج الكلام عن مقتضى الظاهر، لأن الشئ يعطى حكم غيره، ويجعل موافقا له فى الهيئة أو فى المادة[3].

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾[4] وإلى قوله عز وجل: ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾[5] تجد أن الأصل: كانت من الغابرات، وكانت من القانتات، فعدل عن ذلك إلى ما عليه النظم الكريم، حيث عدت الأنثى من الذكور بحكم التغليب.

والغرض من ذلك الدلالة على أنها قد بلغت الغاية فى هذا الفعل، فقد بلغت امرأة لوط الغاية فى الكفر والضلال، وبلغت مريم ابنة عمران الغاية فى العبادة والقنوت،

---

(١) الإخلاص ١، ٢.

(٢) آل عمران ١٥٩ .

(٣) انظر البرهان ٣/ ٣٠٢ .

(٤) الأعراف ٨٣ .

(٥) التحريم ١٢ .

والخضوع لله رب العالمين، ولذا ألحقت كل منهما بالرجال فيما تفوقت فيه بحكم التغليب، تغليب الذكور على الإناث، وهذا مما جعل فيه الشئ موافقاً لغيره فى الهيئة، إذ تغيرت هيئة الكلمة من القانتات إلى القانتين ومن الغابرات إلى الغابرين.

ومن تغليب أحد المتشابهين على الآخر قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ ﴾[1] إذ المراد: بعد المشرق والمغرب، فغلب المشرق لأنه أشرف الجهتين، ولأن الشرق دال على الوجود والابتداء، والغرب دال على العدم والانتهاء، والنفس متعلقة بالوجود، راغبة فيه، وكارهة للعدم والانتهاء، ولذا غلب المشرق على المغرب فى الآية الكريمة، وواضح أن هذا مما جعل فيه الشيء موافقا لغيره فى مادته، إذ جعل المغرب مشرقا، وأعطيت له مادته، إجراء لهما مجرى المتفقين تغليبا.

وقد تغلب صفة العقلاء للدلالة على معنى، كما فى قوله تعالى: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾[2] والأصل: فظلت أعناقهم لها خاضعة، فعدل إلى وصف العقلاء "خاضعين" للدلالة على عظم الآية، وللإشعار بشدة الخضوع وغاية الاستسلام، ولذا عبر بالماضى "فظلت" فى موضع المضارع، إذ الأصل فتظل أعناقهم، ولكن عدل إلى الماضى للدلالة على تحقق الوقوع، وهذا يؤذن ـ كما قلنا ـ بعظم الآية، التى لو شاء الله لأنزلها عليهم، فيكون لها ذاك الشأن.

وانظر فى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[3] تجد أن الأصل: أتينا طائعين بالتثنية، فعدل عن ذلك إلى "طائعين" جمعا سالما، لأنه أراد: ائتيا بمن فيكما من الخلائق، فخرجت الحال على لفظ الجمع، وغلب من يعقل من الذكور "طائعين" للدلالة على هذا المعنى، وهو إتيان الأرض والسماء بمن فيهما[4].

وقد يغلب غير العاقل كما فى قوله تعالى: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴾[5] فقد عبر بما، لأنها تتناول الأجناس كلها تناولا عاما بأصل الوضع، وأما

(١) الزخرف ٣٨.
(٢) الشعراء ٤.
(٣) فصلت ١١.
(٤) انظر البرهان ٣/ ٣٠٦.
(٥) المائدة ١٢٠.

"من" فإنها لا تتناول غير العقلاء، ولذا أوثر التعبير بها فى الآية الكريمة، لأنها أوفى بالدلالة على الغرض.

وقد يغلب العاقل كما فى قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ﴾[1] فقد غلب العاقل فى قوله "فمنهم من يمشى" لشرفه، ولأن خلقه أدل على قدرة الله تعالى، حيث سواه وعدله، وكرمه بالعقل، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا[2].

وفى قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾[3] أعيد الضمير فى قوله "جزاؤكم" بلفظ الخطاب وإن كان قوله: "فمن تبعك منهم" يقتضى الغيبة، وذلك تغليبا للمخاطب، وجعل الغائب وهم أتباع الشيطان، تبعا له فى العقوبة، كما كانوا تبعا له فى المعصية.

وقد يغلب الأكثر على الأقل، كما فى قوله تعالى: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾[4] إذ كان مقتضى الظاهر أن يقال: أو ليعودن فى ملتنا، فعدل عن هذا الظاهر، وأدخل شعيب – عليه السلام – فى قوله: "أو لتعودن" بحكم التغليب، لأنه – عليه السلام – لم يكن فى ملتهم أصلا حتى يعود إليها.

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾[5] حيث عد إبليس من الملائكة، وهو من الجن، تغليبا لكونه جنيا واحدا فيما بينهم، هذا على جعل الاستثناء متصلا، وحمل الاستثناء على الاتصال هو الأصل، أما على جعله منقطعا، فلا تغليب فى الآية.

وفى قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[6] غلب جانب الإسلام على جانب الكفر، لأن الدرجات للعلو، والدركات للسفل، فاستعملت الدرجات فى القسمين تغليبا.

---

(١) النور ٤٥.

(٢) انظر تفسير الفخر الرازى ٢٤/ ١٧.

(٣) الإسراء ٦٣.

(٤) الأعراف ٨٨.

(٥) ص ٧٣، ٧٤.

(٦) الأحقاف ١٩

يقول الزمخشرى: "فإن قلت: كيف قيل: درجات وقد جاء أن الجنة درجات، والنار دركات؟ قلت: يجوز أن يقال ذلك على وجه التغليب، لاشتمال "كل" على الفريقين"[(١)].

وقد يغلب الجمع على الإفراد، كما فى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾[(٢)] حيث غلب الجمع على الواحد، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: إذا طلقت النساء فطلقهن، فعدل عنه إلى الجمع تغليبا، للدلالة على أن هذا ليس خاصا بالنبى ـ ﷺ ـ بل هو حكم عام، وتشريع للأمة.

وفى قوله تعالى: ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾[(٣)] غلب العقلاء المخاطبون على الأنعام الغائبة، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: يذرؤكم ويذرؤها فيه، فعدل إلى تغليب العقلاء المخاطبين، لأن الغرض إظهار القدرة، وبيان لطفه تعالى بالناس، والمعنى: يبثكم ويكثركم فى هذا التدبير، وهو أن جعل للناس أزواجا، وللأنعام أزواجا، حتى كان بين الذكور والإناث التوالد والتناسل.

وتأمل التعبير بالحرف "فى" فى قوله (يذرؤكم فيه) وإيثار التعبير به دون الباء، فلم يقل: يذرؤكم به، لأن الغرض هو جعل هذا التدبير كالمنبع والأصل للبث والتكثير، ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾[(٤)] حيث دل التعبير "بفى" فى قوله "فى القصاص" على جعل القصاص كالمنبع والمصدر للحياة.

المخالفة فى صيغ الأفعال

الفعل يدل على حدث وزمن، فالماضى يدل على وقوع الحدث فى الزمن الماضى، والمضارع يدل على وقوعه فى الحال والاستقبال، فهو يفيد التجدد والحدوث، والأمر يقصد به: إنشاء الفعل وإيجاده فى المستقبل، هذا هو الأصل، فإن جاءت الأفعال عليه، كان هذا المجئ على وفق ما يقتضيه الظاهر، وإن خرجت عنه كانت خارجة على خلاف ما يقتضيه الظاهر.

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٢٢.

(٢) الطلاق ١.

(٣) الشورى ١١.

(٤) البقرة ١٧٩.

وخروجها على خلاف المقتضى يكون بأن يعبر عن المضارع بلفظ الماضى، أو عن الماضى بلفظ المضارع، أو عن المصدر أو المضارع بلفظ الأمر، أو عن المضارع باسم الفاعل أو المفعول، إلى غير ذلك مما سيتضح لنا فى الآيات الكريمة، ولا يكون هذا الخروج إلا لغرض يقتضيه المقام ويقصد إلى تحقيقه.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾(١) تجد أن النفخ فى الصور لما يقع، وأنه سيقع فى المستقبل، ولكن النظم الكريم آثر التعبير عنه بلفظ الماضى "نفخ" للدلالة على تحقق وقوعه، فهو واقع لا محالة.

وكذا القول فى الآيات الكريمة ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾... ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾... ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا ﴾... ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾(٢) حيث عبر عن الأفعال التى لم تقع بعد، ولكن وقوعها محقق، وهو "فزع.. أتوه.. أتى .. نادى أصحاب الأعراف.. أزلفت الجنة.. برزت الجحيم" عبر عنها بالماضى - كما ترى - للدلالة على تحقق وقوعها.

ومما عبر فيه عن الماضى بلفظ المضارع قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾(٣) إذ الأصل: أرسل الرياح فأثارت سحابا، فعدل عن ذلك إلى لفظ المضارع "تثير" ليصور لك هذا الحدث واقعا مشاهدا، لأنه من الأفعال العجيبة الدالة على القدرة الإلهية.

يقول الزمخشرى: "فإن قلت: لم جاء (فتثير) على المضارعة دون ما قبله وما بعده؟ قلت: ليحكى الحال التى تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وتستحضر تلك الصورة البديعة، الدالة على القدرة الربانية، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تهم المخاطب، أو غير ذلك"(٤).

---

(١) الزمر ٦٨.

(٢) الآيات بالترتيب: النمل ٨٧، النحل ١، الأعراف ٤٨، الشعراء ٩٠، ٩١.

(٣) فاطر ٩.

(٤) الكشاف ٣/ ٣٠١.

وكذا القول فى الآيات الكريمة: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾.. ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾... ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ ﴾... ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾[1] إذ الأصل أن يعبر عن هذه الأحداث بالماضى فيقال: خر من السماء فخطفته الطير أو هوت به الريح، ثم قال له كن فكان، وداود وسليمان إذ حكما فى الحرث، وباسم الفاعل فى قوله "يسبحن" أى: مسبحات.

فعدل عن هذا الأصل إلى ما عليه النظم الكريم، حيث عبر بالمضارع ليبرز هذه الأحداث العجيبة الغريبة واقعة مشاهدة، وكأن المخاطب يراها ويبصرها وهى تقع وتحدث، لقد استحضرها الذهن عندما عبر عنها بالمضارع، وتمثلها واقعة أمامه، وذلك شأن الأفعال العجيبة البديعة، يعبر عنها بالمضارع لتستحضر فى الأذهان صورتها الغريبة العجيبة.

ومما عبر فيه عن اسم الفاعل بالمضارع قوله تعالى: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾[2] فإن الأصل ـ كما رأينا فى آية الأنبياء ـ إنا سخرنا الجبال معه مسبحات لأن التسبيح قد وقع فى زمن داود ـ عليه السلام ـ ولكن لما كان تسبيح الجبال والطير وتأويبهما معه من الأمور الغريبة العجيبة فقد آثر النظم الكريم التعبير عن ذلك بالفعل المضارع (يسبحن) ليستحضر الذهن تسبيح الجبال والطير وتأويبهما مع داود ـ عليه السلام ـ فإن هذا من الأحداث العجيبة الدالة على القدرة الإلهة..

ومثله التعبير عن جريان الريح بأمر سليمان ـ عليه السلام ـ فى قوله تعالى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾[3] وقوله عز وجل: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾[4] فإن الأصل: عاصفة جارية بأمره، فعبر عن اسم الفاعل "جارية"

(١) الآيات بالترتيب: الحج ٣١، آل عمران: ٥٩، الأنبياء ٧٨، ٧٩.
(٢) سورة ص: ١٨.
(٣) ص ٣٦.
(٤) الأنبياء ٨١.

بالمضارع "تجرى بأمره" وذلك لأن تحرك الريح وجريانها بأمره، من الأمور الغريبة العجيبة الدالة على قدرة الله تعالى فى تسخيرها له، فالتعبير عن هذا الحدث بالمضارع لكى يستحضر الذهن صورته العجيبة، ويتمثلها واقعة حادثة مشاهدة.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[1] تجده قد عبر عن المصدر بفعل الأمر فى قوله (أقيموا... وادعوه) إذ الأصل: أمر بالقسط وبإقامة وجوهكم وبدعائه مخلصين، فخولف هذا الأصل، وعدل إلى التعبير عنه بالأمر.

والغرض من تلك المخالفة، التنويه بشأن المأمور به لأن فيها تحريكا للذهن، وإثارة للوجدان، حيث لم يمض النظم الكريم على نسق واحد، بل خالف وغاير "أمر ربى بالقسط وأقيموا" وكأنه بهذه المخالفة يلفت المخاطب، ويحرك وجدانه، وينبه لى عظم هذه الأمور وأهميتها، ووجوب تحقيقها.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[2] إذ كان مقتضى الظاهر أن يقال: إنى أشهد الله وأشهدكم، فعدل عن هذا الظاهر إلى ما عليه النظم الكريم، ويرجع السر البلاغى فى هذا العدول إلى ما يلى:

١- أن فى أمرهم بأن يشهدوا ببراءته من دينهم "واشهدوا أنى برئ مما تشركون" ضربا من التحدى الذى ينبئ بحقارة ما يعبدون من دون الله.

٢- الدلالة على أن إشهاد الله تعالى على براءة هود ـ عليه السلام ـ من شركهم إشهاد صحيح ثابت، حيث جاء خبرا محققا "إنى أشهد الله" وأما إشهادهم فليس إلا تهاونا بدينهم، ودلالة على عدم المبالاة، حيث جاء أمرا "واشهدوا أنى برئ مما تشركون".

٣- الدلالة على تعظيم شهادة الله، وتنزيهه تعالى عن أن يقرن إشهاده عز وجل بإشهادهم، فيما لو جرى الكلام على الأصل، فقيل: إنى أشهد الله وأشهدكم.

---

(١) الأعراف ٢٩.

(٢) هود ٥٣، ٥٤.

يقول الزمخشرى: "فإن قلت: هلا قيل إنى أشهد الله وأشهدكم؟ قلت: لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك، إشهاد صحيح ثابت، فى معنى تثبيت التوحيد، وشد معاقده، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم، ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما، وجئ به على لفظ الأمر بالشهادة، كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه: اشهد على أنى لا أحبك، تهكما به واستهانة بحاله"[١].

وخذ قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[٢] تجد التعبير بالمضارع فى قوله (أم تقولون) وكان مقتضى الظاهر أن يعبر بالماضى فيقال: قل أتخذتم عند الله عهدا أم قلتم على الله ما لا تعلمون، ولكنه عدل إلى المضارع ليكشف عن حقيقة هؤلاء اليهود، ويبين أن افتراءهم على الله الكذب، وقولهم عليه ما لا يعلمون، لم ينته بعد، بل باق يتجدد بتجددهم، فهم مستمرون على هذه الحال الغريبة المنكرة.

وتأمل التعبير بلفظ الجلالة، ووضعه موضع الضمير فى قوله: "فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون" إذ كان مقتضى الظاهر أن يقال: قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف عهده أم قلتم عليه ما لا تعلمون، ولكنه عدل عن الضمير إلى الاسم الظاهر لما فى التعبير بلفظ الجلالة من تربية للمهابة، وفيه حث للمخاطبين وهم اليهود، للإقلاع عن الكذب، والمبادرة إلى امتثال أمر الله تعالى.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾[٣] حيث عبر بالمضارع فى قوله "وفريقا تقتلون" وكان مقتضى الظاهر أن يعبر بالماضى فيقال: ففريقا كذبتم وفريقا قتلتم، ولكنه خالف هذا الظاهر، وخرج عما يقتضيه فعبر بالمضارع "تقتلون".

وترجع بلاغة هذه المخالفة إلى ما يلى:

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٧٦.

(٢) البقرة ٨٠ .

(٣) البقرة ٨٧

١- الدلالة على استمرار المخاطبين وهم اليهود في غدرهم واعتدائهم على أنبياء الله بغير حق، ولقد كانوا يحومون حول قتل محمد - ﷺ - ولكن الله عصمه ونجاه من غدرهم.

٢- الدلالة على فظاعة هذا الأمر وهو القتل، قتل أنبياء الله بغير حق، فعبر عنه بالمضارع لتصويره في القلوب، واستحضاره في النفوس، وإبرازه في الأذهان، وكأنه واقع يشاهد، ولا يخفى علينا ما في ذلك من التشنيع والمبالغة في الزجر.

القصر

قال تعالى:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ الفاتحة ٥.

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ المائدة ١٢٠.

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ الأنعام ٥٩.

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ البقرة ١، ٢.

﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ الإسراء ١٥.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ البقرة ١١، ١٢.

﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ الحشر ٢٠.

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ المائدة ١١٧.

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ الرعد ٧.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ فاطر ٢٨.

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ الرعد ٤٠ .

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ الأحقاف: ٢٢، ٢٣.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ الأنعام ٢٥، ٢٦ .

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ الأنعام ٥٠ .

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ آل عمران ١٤٤.

﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ المائدة ٧٥ .

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ فاطر ٢٢، ٢٣ .

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الأنبياء ٨٧ .

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ الأحزاب ٤٠ .

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ الرعد ١٩.

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ

ذَا قُرْبَىٰٓۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فاطر ١٨ .

القصر - كما عرفه البلاغيون - تخصيص شئ بشئ بطريق مخصوص، فالجملة الدالة على القصر تفيد الإثبات والنفى معا، تفيد إثبات شىء لشىء ونفيه عن غيره، وغالباً ما يكون الإثبات صريحاً منصوصا عليه، والنفى متضمنا، كقولك: إنما نجح محمد، فقد أثبت النجاح لمحمد نصاً، ونفى عن غيره ضمنا، وقد يكون الأمر على عكس ذلك، فيصرح بالنفى، ويكون الإثبات متضمنا، كما فى قولنا: ما أنا فعلت هذا، حيث نفى الفعل عن المسند إليه المقدم نصا، وأثبت لغيره ضمنا، وقد يصرح بالمثبت له والمنفى عنه معا، كما فى القصر بطريق العطف نحو: ما قتل زيد بل عمرو.

وهذا الشئ الذى أثبت ونفى يسمى مقصورا، وهو إما أن يكون صفة، وإما أن يكون موصوفا، والذى أثبت له يسمى مقصورا عليه، وهو أيضاً إما أن يكون صفة أو موصوفا، ومن البداهة أنه إذا كان المقصور صفة كان المقصور عليه موصوفا، وإن كان المقصور موصوفا كان المقصور عليه صفة، فالقصر باعتبار طرفيه: المقصور والمقصور عليه، إما قصر صفة على موصوف، أو قصر موصوف على صفة.

والشئ الذى نفى عنه المقصور قد يكون عاما، كما فى قولنا: لا إله إلا الله، حيث قصرت صفة الألوهية على الله تعالى، ونفيت عن جميع ما عداه، ويعرف هذا القصر بالقصر الحقيقى، وقد يكون المنفى عنه خاصا، كما فى قولنا: زهير شاعر لا زياد، فقد أثبتت صفة الشعر لزهير، ونفيت عن زياد، ويعرف هذا بالقصر الإضافى.

والمنفى العام إذا كان مطابقا للواقع الخارجى كان القصر قصرا تحقيقيا، وإذا كان مخالفا للواقع، قائما على ادعاء المتكلم، وعدم اعتداده بالمذكور، كان قصرا حقيقيا ادعائيا، أو مجازيا أو غير تحقيقى، لبنائه على الادعاء والمبالغة.

والقصر الإضافى وهو ما كان المنفى فيه خاصا، أى: محددا معينا، يحتمل احتمالات ثلاثة، لأن قولك: خالد شجاع لا عمرو، إن وجهته إلى من يعتقد أن عمرا هو الشجاع لا خالدا، كان القصر قصر قلب، لأنك قلبت الحكم الذى كان يعتقده المخاطب، وإن وجهته إلى من يعتقد أن الشجاعة مثبتة لهما معا، كان القصر قصر إفراد، لأنك أفردت

أحدهما بالشجاعة ونفيتها عن الآخر، وإن وجهته إلى من هو متردد وليس جازما بإثبات الشجاعة لأحدهما، كان القصر قصر تعيين.

وللقصر طرق اصطلح عليها البلاغيون، وهى: النفى والاستثناء، وإنما والتقديم والعطف بلا وبل ولكن، هذه أشهر الطرق التى اصطلح جمهور البلاغيين على دلالتها على القصر، وأضاف بعضهم طريقين آخرين، هما: ضمير الفصل، وتعريف ركنى الجملة، بحيث يكون أحدهما معرفا (بأل) التى للجنس، وصرح السيوطى بأن طرق القصر كثيرة وقد بلغ جملة ما ذكره منها أربعة عشر طريقا(١).

ولكن البلاغيين لم يلتفتوا إلا إلى تلك الطرق المشار إليها، لأنها هى الغنية بالملاحظات والاعتبارات، التى تحتاج من الدارس إلى مزيد من العناية، كى يقف عليها، ويكشف عما وراء التعبير بهذه الطرق فى التراكيب الجيدة من معان وأسرار.

ومما تجدر الإشارة إليه، والتنبيه له، تحديد موطن المقصور والمقصور عليه، فى كل طريق من طرق القصر المشهورة، ففى (النفى والاستثناء) المقصور عليه هو الواقع بعد أداة الاستثناء، وفى (إنما) المقصور عليه هو المؤخر، وفى (التقديم) المقصور عليه هو المقدم، وفى العطف (ببل ولكن) المقصور عليه هو الواقع بعد كل منهما، وفى العطف (بلا) المقصور عليه هو المقابل لما بعدها، وفى (ضمير الفصل) المقصور عليه هو المسند إليه، وفى التعريف المقصور هو المقترن (بأل) والمقصور عليه هو الخالى منها.

هذه أسس وضوابط وضعها البلاغيون، أردت أن أشير إليها لتكون فى ذهن الدارس وهو يدرس القصر فى النظم القرآنى، ويريد أن يقف على ما وراءه من معان جليلة وغايات يقصد إلى تحقيقها، وقد يقتضى سياق النظم الكريم مخالفة هذه الضوابط وتلك الأسس ـ على نحو ما سنرى ـ لأنها مبنية على الغالب والأكثر لا على القطع والإطلاق.

لقد كثر القصر فى النظم القرآنى، وتنوعت طرقه، وبين هذه الطرق فروق دقيقة، فدلالة التقديم على القصر تختلف عن دلالة النفى والاستثناء، ودلالة النفى والاستثناء تختلف عن دلالة إنما وهكذا، إن وراء التعبير بكل طريق منها معانى وأغراضا يؤثر

(١) انظر الإتقان ٣/ ١٥٠.

التعبير به للدلالة عليها، وما عبر فيه بهذا الطريق لا يصلح أن يعبر فيه بذاك، ولكى يقف الدارس على تلك الفروق، ويتجلى له ما وراء القصر فى النظم القرآنى من معان وأغراض، يجب عليه أن يستحضر فكره، وأن يهيئ حواسه ويتدبر بوعى، ليحيط بالسياق الذى ورد فيه القصر، فعندئذ يتجلى له ما وراءه.

انظر إلى التقديم فى آية الفاتحة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ لقد دل على القصر، قصر العبادة والاستعانة على الله تعالى قصر صفة على موصوف قصرا حقيقياً، فى قوله (إياك نعبد) وقصرا حقيقيا غير تحقيقى فى قوله (وإياك نستعين) لأنه قد يستعان بغير الله تعالى، وقد أقر الإسلام بعض صور الاستعانة بغير الله بين المسلمين وحث عليها، كاستعانة الجار بجاره، والمسلم بأخيه المسلم، ولكن لم يعتد بتلك الاستعانات فى الآية الكريمة، لأن المؤمن لا يستعين فى عظائم الأمور إلا بالله تعالى، والاستعانة بغير الله كلا استعانة.

أما العبادة فهى مقصورة على الله تعالى قصرا حقيقيا تحقيقيا، ومن أجل ذلك أعيد الضمير (إياك) مع طلب الاستعانة، فلم يقل: إياك نعبد ونستعين، للإشعار بهذا الفرق الذى بين القصرين.

وإيثار التقديم فى الآية الكريمة للدلالة على القصر، دون غيره من الطرق الأخرى، له مغزى، ووراءه معنى، يتجلى لنا عندما نتأمل السياق الكريم الذى وردت به الآية، ونحيط به.

لقد بدأت السورة الكريمة بالحمد والثناء على الله تعالى: (الحمد لله) ثم أجريت عليه تعالى صفات الجلال تلك: (رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين) وهذه الصفات قد أخذت من المؤمن كل مأخذ، ورقت به قربا إلى الله تعالى، وجعلته يذوب وينصهر فى بوتقة الخضوع والخشوع، لقد غاب فى جناب ربه، واستشعر القرب منه تعالى، فالتفت إليه مخصا إياه بالعبادة والاستعانة، مبتدئا بضمير الاسم الكريم (إياك) ففى الابتداء به إشعار بأنه تعالى مقدم فى الوجود، ودلالة على أن المؤمن الذى وقف على صفات الجلال فى السورة، وأدرك ما وراءها، لا يملك إلا أن يبادر إلى الاسم الكريم (إياك) معلنا أن تعلقه وتوجهه أولا وبالذات إلى المعبود، ومنه إلى العبادة التى هى صلة سنية بينه وبين ربه عز وجل[1].

---

(١) ارجع إلى ص ٧٨.

من أجل هذا كان إيثار التعبير بالتقديم للدلالة على القصر، ولا يتأتى فى هذا السياق التعبير بغيره من طرق القصر، لأنه لو عبر مثلا بالنفى والاستثناء فقيل: ما نعبد إلا إياك، لذهبت تلك المعانى التى اقتضى السياق الكريم تقديم ضمير الاسم الجليل للدلالة عليها.

وكذا القول فى الآية الكريمة: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴾[1] حيث قصر ملك السموات والأرض وما فيهن على كونه لله تعالى قصرا حقيقيا تحقيقيا، وجاء القصر بطريق التقديم، تقديم الجار والمجرور (لله) على المسند إليه (ملك السموات والأرض وما فيهن) لأن السياق الكريم قد تناول إبطال مزاعم النصارى، وقولهم إن المسيح ابن الله، واتخاذهم له إلها من دون الله، ولنقرأ: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾[2].

فقد اقتضى هذا السياق إيثار الدلالة على القصر بطريق التقديم، ليتصدر لفظ الجلالة (لله) الجملة إيذانا بأنه الإله الحق، الذى لا إله غيره، فهو الأول المقدم فى الوجود، المستحق للألوهية، الجدير بالعبادة، وكل ما فى السموات والأرض ملك له تبارك وتعالى، وفى هذا دحض لمزاعم النصارى، وإبطال لافترائهم على الله الكذب.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾[3]، حيث قدم ضمير الاسم الجليل فى قوله (بل إياه تدعون) للدلالة على قصر دعواهم عندئذ عليه تعالى، فهم إذ أتاهم العذاب أو مسهم الضر لجأوا إليه تعالى بالدعاء، ولا يدعون غيره، فهو الذى يكشف ما يدعون إليه إن شاء.

---

(١) سورة المائدة: ١٢٠ .

(٢) سورة المائدة: ١١٦، ١١٧ .

(٣) سورة الأنعام: ٤٠، ٤١.

الملائم فى هذا السياق أن يتقدم ضمير الاسم الجليل، وأن تتصدر به الجملة، إبرازا له، وإشعارا بتعلق القلوب به، وتطلعها إليه، فى هذا المقام مقام مس الضر، لذا أوثر طريق التقديم للدلالة على القصر فى الآية الكريمة.

وخذ قوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾[1] تجد طريقين للقصر، التقديم فى قوله: (وعنده مفاتح الغيب) والنفى والاستثناء (لا يعلمها إلا هو) والقصر الثانى تأكيد للأول، وقد اقتضى السياق ذلك، لأنه أبرز تكذيبهم النبى - ﷺ - واستعجالهم العذاب الذى ينذرهم به، وأمر - ﷺ - أن يخبرهم بأن الحكم لله وحده، وأنه - عليه الصلاة والسلام - ليس عنده ما يستعجلون به، ولو كان عنده ما يستعجلون به لقضى الأمر بينه وبينهم، ولنقرأ: ﴿ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾[2].

العندية هنا قد أبرزت، فاقتضى السياق تقديمها فى قوله: (وعنده مفاتح الغيب) للدلالة على قصر (مفاتح الغيب) على كونها عنده تعالى، أوثر طريق التقديم إبرازا للعندية التى أبرزها السياق، ولما كان القوم ينكرون ويجحدون ما جاءهم - ﷺ - به، اقتضى المقام أن يؤكد هذا القصر بقصر آخر يعبر فيه بطريق النفى والاستثناء، الذى يستخدم فيما ينكره المخاطب ويجحده، فجاء قوله تعالى: (لا يعلمها إلا هو) مؤكدا للقصر الأول، حيث دل على قصر علم الغيب على الله تعالى قصرا حقيقيا تحقيقيا.

وبهذا يتجلى لنا أن القصر فى النظم القرآنى خاضع للسياق الذى يكون فيه، فالسياق هو الذى يقتضى استخدام هذا الطريق أو ذاك، وهو الذى يحدد الاكتفاء فى الدلالة على القصر بطريق واحد أو إتباعه بطريق آخر تأكيدا وتقريرا للدلالة على القصر.

ففى الآية الكريمة أبرز السياق وأكد، أن العذاب الذى يستعجلون به، تكذيبا وإنكارا وجحودا، ليس عند النبى - ﷺ -، بل هو عند الله تعالى، إذ الحكم مقصور عليه

---

(١) سورة الأنعام: ٥٩.

(٢) سورة الأنعام: ٥٧، ٥٨.

وحده (إن الحكم إلا الله)، واقتضى ذلك أن يقصر علم الغيب على الله تعالى، فأى الطرق يعبر بها للدلالة على هذا القصر؟

لقد أكد السياق نفى أن يكون عند النبى ـ ﷺ ـ ما يستعجلون به، فأنسب الطرق للدلالة على قصر علم الغيب على الله تعالى فى هذا السياق هو التقديم، أن يقدم الظرف (عند) وهو ما جاء عليه النظم الكريم، حيث قال عز وجل: (وعنده مفاتح الغيب) ثم اقتضى تكذيب الكفار، وجحودهم الرسالة، وإنكارهم ما جاء به النبى ـ ﷺ ـ أن يؤكد هذا القصر بقصر آخر يعبر فيه بالنفى والاستثناء، فجاء قوله تعالى: (لا يعلمها إلا هو) وأوثر فيه التعبير بالنفى والاستثناء، لأنه هو الطريق الذى يستخدم فى الدلالة على القصر فى مقامات التكذيب والإنكار والجحود.

فمن الفروق الدقيقة بين طرق القصر أن طريق (النفى والاستثناء) يعبر به فيما ينكره المخاطب ويجحده، أو فيما ينزل هذه المنزلة لاعتبارات مناسبة، وطريق (إنما) يعبر به فى المعانى الواضحة التى يعلمها المخاطب، وليست موضع إنكار أو جحود، أو فيما ينزل تلك المنزلة لاعتبار بلاغى مناسب.

ويتجلى لنا ذلك فى هذه الآيات الكريمة: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ .. ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾ .. ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾... ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[1]، حيث عبر بالنفى والاستثناء فى المعانى التى ينكرها المخاطب ويجحدها، فالكفار ينكرون اتباعه ـ ﷺ ـ وحيا يوحى إليه، ويزعمون أن ما جاء به أساطير الأولين ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[2]، ولذا أوثر التعبير بالنفى والاستثناء فى قوله: (إن أتبع إلا ما يوحى إلى) للدلالة على قصر اتباعه ـ ﷺ ـ على الذى يوحى إليه من ربه، ردعا لهم، ودفعا لإنكارهم.

---

(١) الآيات بالترتيب: الأنعام ٥٠، ٢٥، ٢٦، الإسراء ١٥، الرعد٧.

(٢) سورة الفرقان: ٥.

والرسول ـ ﷺ ـ ينكر أن يكون ما جاءه من عند الله تعالى أساطير الأولين، ولذا جاء قوله: (إن هذا إلا أساطير الأولين) بالنفى والاستثناء، دالا على قصرهم ما جاء به ـ ﷺ ـ على كونه أساطير الأولين، ردا لإنكاره ـ ﷺ ـ ذلك ودفعا له، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

والكفرة المعاندون، الذين أعرضوا عن الحق، وانغمسوا فى الكفر والضلال يعتقدون أنهم بهذا الصنيع يهلكون الرسالة وصاحبها، وينكرون أنهم يهلكون أنفسهم، فجاء القصر (وإن يهلكون إلا أنفسهم) بالنفى والاستثناء، للدلالة على قصر الإهلاك على أنفسهم، دفعا لإنكارهم وإبطالا لما يعتقدون.

ولما كان من الواضح البين أن من اهتدى ينال ثواب هدايته، وأن من ضل يرجع إليه إثم ضلاله، لا أحد ينكر ذلك ولا يرتاب فيه، فقد جاء القصر بإنما فى قوله: (من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها) لأن هذا من المعانى الواضحة الجلية التى لا يتأتى فيها الإنكار.

وكذا قوله تعالى: (إنما أنت منذر) فالنبى ـ ﷺ ـ يعلم أنه منذر، لا ينكر ذلك، ولا يعتقد غيره، ولذا جاء قصره (بإنما) على صفة الإنذار.

ومن المعانى التنزيلية التى جاء فيها القصر قوله تعالى: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ** ﴾ [1]، فقد جاء النفى والاستثناء فى الآية الكريمة للدلالة على قصر محمد ـ ﷺ ـ على كونه رسولا يخلو كما خلت الرسل من قبله، فهو لا يجمع بين الرسالة والتبرى من الهلاك، والمخاطبون وهم الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لا ينكرون ذلك، ولكن لشدة حبهم للنبى ـ ﷺ ـ وتعلقهم به، واستعظامهم موته، نزلوا منزلة من يعتقد أنه رسول مخلد، لا يخلو كما خلت الرسل من قبله، وينكر أنه رسول يخلو، هم نزلوا ـ لشدة حبهم له ـ منزلة من يعتقد أنه يجمع بين الرسالة والتبرى من الهلاك، فجاء القصر بالنفى والاستثناء دالا على قصره ـ ﷺ ـ على صفة الرسالة، لا يتجاوزها إلى التبرى من الهلاك، فهو قصر إفراد، إذ اعتقد الصحابة تنزيلا أنه يجمع بين الصفتين، فقصر ـ ﷺ ـ على إحداهما.

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٤.

ووراء الدلالة على القصر بالنفى والاستثناء فى الآية الكريمة معان جليلة، حيث تلفت وتنبه إلى بشرية محمد - ﷺ - وكأنهم عندما استعظموا موته قد جهلوا فى دينهم أمرا جللا، إن محمدًا رسول يجرى عليه ما جرى على الرسل من قبله، وينبغى عليهم أن يظلوا بعد مماته على المنهج الذى أقامه لهم، وأن يتمسكوا به، وأن يجتهدوا فى نشر دعوته وتبليغ رسالته، فلا ينقلبوا بعد موته على الأعقاب، ولذا جاء عقب القصر هذا الاستفهام الإنكارى (أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم)؟

لقد زلزلوا زلزالا شديدا، ودب الضعف فى قلوب كثير منهم عندما صاح ابن قميئة الحارثى فى يوم أحد قائلا: قد قتلت محمدا - ﷺ - ورعبت قلوبهم، فولوا مدبرين، وثبت بعضهم كأنس بن النضر الذى قال: يا قوم إن كان قتل محمد، فإن رب محمد حى لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله - ﷺ - فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا كراما على ما مات عليه(١).

نزلت هذه الآية الكريمة تعنف المسلمين لما كان منهم، وتلفتهم إلى بشرية الرسول - ﷺ - وتنبههم إلى وجوب المضى على نهجه، وإقامة شرعه فى حياته ومن بعد مماته، وعلى الرغم مما جاء فى هذه الآية الكريمة من تنبيه وتعنيف، فقد غفل عنه الناس عندما مات رسول الله - ﷺ - فزلزلوا وضجوا، ولم يتنبهوا لما جاء فى الآية، ولم تخطر ببالهم.

يقول عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما -: "فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر، فتلاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشرا من الناس إلا يتلوها"... ويقول عمر - رضى الله عنه: "والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعرفت حتى ما تقلنى رجلاى، وحتى هويت إلى الأرض"(٢).

وهذا يدل - كما قلنا - على شدة حبهم للرسول - ﷺ - وتعلقهم به، واستعظامهم موته، والذى من أجله نزلوا منزلة من ينكر موته، ويعتقد أنه - ﷺ - يجمع بين الرسالة والتبرى من الهلاك، فكان القصر بالنفى والاستثناء وهو قصر إفراد كما أوضحنا، يدل على قصره - ﷺ - على صفة الرسالة لا يتجاوزها إلى التبرى من الهلاك.

---

(١) انظر تفسير أبى السعود ٢/ ٩٣.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ١/ ٤٠٩.

ونقرأ قوله تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [1]، فنجد السياق يقضى بأن القصر فى الآية قصر قلب، لأن المخاطبين وهم النصارى قد أنكروا أن يكون عيسى ـ عليه السلام ـ رسولا، وجعلوه إلها، فقالوا: إن الله ثالث ثلاثة، ولننظر فى سياق الآية الكريمة: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ [2]، إنهم اعتقدوا أن عيسى ـ عليه السلام ـ إله، وهم بهذا قد كفروا، وقد توعدهم الله ـ عز وجل ـ بالعذاب الأليم، إن لم ينتهوا عما يقولون، ويتوبوا إلى الله تعالى ويستغفروه.

ثم يأتى بعد ذلك القصر بالنفى والاستثناء، فيدل على أنه ـ عليه السلام ـ مقصور على كونه رسولا، يخلو كما خلت الرسل من قبله، لا يتجاوز تلك الصفة إلى كونه إلها، كما اعتقدوا، فالقصر قصر قلب، وينبه النظم الكريم على بشريته ـ عليه السلام ـ بتلك الكناية الموحية (كانا يأكلان الطعام).

وبإنعام النظر فى سياق القصرين، قصر محمد ـ ﷺ ـ على كونه رسولا يخلو كما خلت الرسل من قبله، وقصر عيسى ـ عليه السلام ـ على كونه كذلك، يتجلى لنا أن سياق القصر الأول حث للمؤمنين على المضى على المنهج، وتحذيرهم من الارتداد بعد حياة الرسول ـ ﷺ ـ ولذا نرى المولى ـ عز وجل ـ مقبلا عليهم بالخطاب: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ ﴾ .. ﴿ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ ﴾ ﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ ، وأما سياق القصر الثانى فهو وعيد شديد للنصارى الذين جعلوا عيسى ـ عليه السلام ـ إلها، لقد صرح النظم الكريم بكفرهم ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ وتوعدهم بالعذاب الأليم، والتفت عنهم فكانوا غائبين، لأنهم بما صنعوا لم يعودوا أهلا للخطاب.

---

(١) سورة المائدة: ٧٥.

(٢) سورة المائدة: ٧٣ـ٧٥.

ونعود إلى المعانى التنزيلية فننظر فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾[1] حيث قصر ـ ﷺ ـ على صفة الإنذار لا يتجاوزها إلى صفة الهداية، فهو قصر إفراد، وقد جاء بطريق النفى والاستثناء والرسول ـ ﷺ ـ يعلم ذلك، لا ينكره ولا يجهله، تنزيلا له منزلة من يعتقد أنه يجمع بين صفتى الإنذار والهداية، وذلك لشدة حرصه ـ ﷺ ـ على هداية قومه، وإلحاحه فى دعوتهم، وتفانيه فى تبليغ رسالة ربه.

وفى هذا القصر تصوير لحرص النبى ـ ﷺ ـ على هداية القوم، حيث تفانى فى دعوتهم، وألح إلحاحا فى توجيههم وإنذارهم، كما أن فيه تسلية له وتسرية عنه، حيث قوبل هذا الحرص الشديد منه على هدايتهم، بالإعراض عنه، والرفض لدعوته، فهم كالأموات فى قبورهم، وأنى لميت أن يسمع ويستجيب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾، فالقصر قد دل على أنه ـ ﷺ ـ لا يملك إلا الإنذار والتبليغ، فتلك مهمته التى كلف بها، أن يبلغ وينذر، أما الهداية فليست له، لأنها من الله ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[2] فإن أعرضوا عنك وكذبوك فلا تحزن، لأنك لا تملك تحويل قلوبهم.

وانظر فى قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾[3] تجد فى هذا الحوار الذى دار بين الرسل والكفرة قصرين: (إن أنتم إلا بشر مثلنا.. إن نحن إلا بشر مثلكم) وقد أوثر التعبير بالنفى والاستثناء للدلالة على القصر فى الموضعين، مع أن المعنى واضح ليس منكرا، فالرسل يعلمون أنهم بشر، لا ينكرون ذلك ولا يدفعونه، وكذلك الكفار يعلمون بشرية الرسل، وقد أنكروا رسالتهم وجحدوها من أجل ذلك.

---

(١) سورة فاطر: ٢٢، ٢٣.

(٢) سورة القصص: ٥٦.

(٣) سورة إبراهيم: ١٠، ١١.

إن الأمر يرجع إلى اعتقاد الكفرة الفاسد، حيث اعتقدوا أن الرسول لا يكون بشرا، وأن أولئك الرسل بادعائهم الرسالة وهم بشر قد أنكروا بشريتهم، واعتقدوا أنهم رسل، فجاء القصر بالنفى والاستثناء من أجل هذا، وهو قصر قلب، حيث قلب ما اعتقده الرسل، فقد اعتقدوا أنهم رسل والرسالة لا تجتمع والبشرية ـ فى زعم الكفرة ـ ولذا جاء القصر قلبا لاعتقاد الرسل، ودالا على قصرهم على البشرية لا يتجاوزونها إلى الرسالة التى اعتقدوها..

أما قول الرسل لهم: (إن نحن إلا بشر مثلكم) فمن باب مجاراة الخصم، لاستمالته وإلزامه الحجة، لأن من عادة من ادعى عليه خصمه خلافا فى أمر لا يخالف فيه، أن يعيد كلامه على وجهه بلفظه ومعناه استمالة للخصم ودلالة على أن ما ذكره غير ملزم، فكأن الرسل ـ عليهم السلام ـ قالوا: إن ما قلتم نقره ولا ننكره، فنحن بشر مثلكم، ولكن ذلك لا يمنع أن يكون الله قد من علينا بالرسالة، فالله يمن على من يشاء من عباده.

سلم الرسل بتلك المقدمة (إن نحن إلا بشر مثلكم) بألفاظها ومعناها، وفى هذا ما يؤنس الكفرة، ويستميل نفوسهم نحو الهدى، ولكنه لا يستلزم مقصودهم، وهو أن الإنسان لا يرقى إلى أهلية الرسالة، إذ لا منافاة عند العقول السليمة، والاعتقادات الصحيحة، بين الرسالة والبشرية، فليس هنالك ما يمنع من أن يرقى الإنسان ويسمو، فيصير أهلا للرسالة وتلقى الوحى.

وخذ قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمًا تَجۡهَلُونَ ﴾[1] تجد أن القوم يكفرون بالله، ومصرون على عبادة الأصنام، ويستعجلون العذاب الذى أنذرهم به هود ـ عليه السلام ـ ولكن النظم الكريم آثر التعبير (بإنما) للدلالة على قصر العلم بمجيء العذاب على كونه عند الله تعالى، وذلك للإشعار بأن هذا من الأمور المعلومة الواضحة، التى لا ينكرها منكر، ولا يرتاب فيها أحد، فقد نزل الكفرة المنكرون منزلة من يعلم ولا ينكر، لوضوح الأمر وجلائه، وفى هذا من التوبيخ والتبكيت لهم ما لا يخفى، إذ أنكرو أمرا بينا لا يجهل ولا ينكر.

(١) سورة الأحقاف: ٢٢، ٢٣.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[1] حيث قصر المنافقون أنفسهم على صفة الإصلاح المحض الذى لا يشوبه شيء من وجوه الفساد، فهو قصر إفراد، لأنهم لما نهوا عن الإفساد فى الأرض وتوهموا أنهم قد حكم عليهم بخلطهم الإصلاح بالإفساد، أجابوا بأنهم مقصورون على محض الإصلاح الذى لا يشوبه شيء من وجوه الإفساد.

وقد أوثر التعبير (بإنما) للدلالة على القصر، تنزيلا لهذا الخبر المنكر منزلة الأمر المعلوم الظاهر، فهم يدعون أن كونهم مصلحين أمر ظاهر بين، ينبغى ألا يجهله أحد، وألا ينكره منكر، لأنه من الوضوح بمكان.

ولذا جاء الرد عليهم ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ مبطلا دعواهم بأبلغ وجه وآكده، حيث بدأ (بألا) الاستفتاحية التى تفيد التنبيه وتهيئة الأذهان لما يلقى بعدها، فهى لا تستخدم إلا فى الأمور المهمة، التى تحتاج إلى تهيئة وتنبيه، ثم جئ بالقصر (إنهم هم المفسدون) الذى دل على قصرهم على صفة الإفساد قصر قلب لما ادعوه من اختصاصهم بالإصلاح دون الإفساد، وقد أكد هذا القصر (بإن) ثم جاء الاستدراك (ولكن لا يشعرون) فدل على أن خفاء تلك الحقيقة عليهم، مرده إلى فقدانهم الشعور، فهم قوم لا يشعرون، ولو كان عندهم قدر من شعور لأدركوا حقيقة ما هم فيه من إفساد، ولأقلعوا عنه.

والقصر فى قوله (إنهم هم المفسدون) طريقه تعريف الطرفين، وأحدهما معرف (بأل) التى للجنس، وضمير الفصل (هم) مؤكد للدلالة على القصر، وقد اقتضى السياق أن يكون هذا القصر قصرا للموصوف وهم المنافقون، على صفة الإفساد، وما قرره البلاغيون عند الدلالة على القصر بهذا الطريق، أن المقصور عليه هو الخالى من (أل) والمقصور هو المعرف بها ولكن السياق اقتضى مخالفة ما قرره البلاغيون، فالمعول عليه هو السياق وقرائن أحواله.

وفى قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[2] قصر

(١) سورة البقرة: ١١، ١٢.
(٢) سورة البقرة: الآيتان الأولى والثانية.

الكتاب على اسم الإشارة (ذلك) المشار به إلى القرآن قصرا حقيقيا تحقيقا، والمعنى: ذلك هو الكتاب الكامل، فصفة الكمال مقصورة على القرآن لا تتعداه إلى غيره، وهذا لا يقدح فى كتب الله الأخرى، فيقال: إنها لم تبلغ الكمال.. لأن عدم بلوغها إياه إنما هو بالنسبة للقرآن، فما عداه من كتب الله فى مقابلته لم يبلغ ما بلغه.

يقول الزمخشري: "ومعناه أ، ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل، كأن ما عداه من الكتب فى مقابلته ناقص، وأنه الذى يستأهل أن يسمى كتابا، كما تقول هو الرجل، أي: الكامل فى الرجولية، الجامع لما يكون فى الرجال من مرضيات الخصال"[1].

وطريق القصر ـ كما هو واضح ـ تعريف الطرفين، وأحدهما وهو المسند (الكتاب) معرف (بأل) التى للجنس، وهو المقصور، والمسند إليه الخالى من (أل) هو المقصور عليه.

والدلالة على القصر بهذا الطريق تتولد من شىء خفى لطيف، وليست دلالة لغوية، وذلك أن التعريف باللام يفيد الجنسية، فقولنا: الشجاع يفيد جنس الشجاع، ولذا اتسعت الكلمة (بأل) فاستغرقت الأفراد فردا فردا، ولما كانت هذه الأداة (أل) تحمل هذا المعنى، وتفرغ على الكلمة هذا العموم الواسع، كان إسناد ما عرف بها فى نحو: زيد الشجاع دالا على أن زيدا هو كل شجاع، وأن من عداه ليس من الشجاعة فى شيء، وذاك هو معنى القصر[2].

وتأمل الآيات الكريمة: ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ﴾[3] تجد الدلالة على القصر فى كل آية منها، حيث عرف المسند (بأل) التى للجنس، فدل ذلك على قصر الفوز على أصحاب الجنة ونفيه عن أصحاب النار، وهذا بيان لنفى الاستواء المصرح به فى أول الآية الكريمة.

والله عز وجل كان ولم يزل رقيبا عليهم فى جميع الأحوال والأزمان، ولكن بتوفيته

(١) الكشاف ١/ ١١١، ١١٢.

(٢) انظر دلالات التراكيب ٨٥، ٨٦.

(٣) الآيات بالترتيب: الحشر: ٢٠، المائدة: ١١٧، الذاريات: ٥٨.

عيسى - عليه السلام - وقد كان شهيدا عليهم، يراقبهم ويأمرهم بعبادة الله تعالى، لم يبق لهم رقيب إلا الله تعالى، ولذا حسن القصر في قوله: ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾.

كما قصر جنس الرزق على الله تعالى في قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ﴾ وواضح أن طريق القصر في الآيات الكريمة تعريف المسند (بأل) التي للجنس وأن ضمير الفصل مؤكد للدلالة على القصر، وأن المقصور عليه هو الخالي من (أل) والمقصور هو المقترن بها، حيث دل الإسناد على قصر الجنس الذي تحمله (أل) وتفرغه في الكلمة المقترنة بها على الطرف الآخر الخالي من (أل) هذا هو الأصل في دلالة هذا الطريق على القصر.

وقد يخالف هذا الأصل فيكون المقصور عليه هو المقترن (بأل) إذا ما اقتضى السياق ذلك، على نحو ما رأينا في الآية الكريمة: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ ﴾ إذ اقتضى ما جاء في سياق الآية قبل ذلك من قصرهم أنفسهم على صفة الإصلاح قصر إفراد ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ أن يرد هذا الحكم ويقلب، وأن يثبت لهم عكس ما زعموه، فكان قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ ﴾ دالا على قصرهم على صفة الإفساد قصر قلب.

وكذا القول في الآية الكريمة: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾(١) حيث ادعوا أن المؤمنين سفهاء، فرد ذلك عليهم، وجاء قوله تعالى: (ألا إنهم هم السفهاء) دالا على قصرهم على السفاهة.

يقول السيد الشريف مبينا وجه المبالغة في قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ ﴾: (وأما وجه المبالغة في تعريف الخبر وتوسيط الفصل فقد قيل: الأول يفيد حصر المسند إليه على المسند، والثاني يفيد تأكيد هذا الحصر، وهذا وإن كان مناسبا لرد دعواهم الكاذبة، فإنهم لما قصروا أنفسهم على الإصلاح قصر إفراد، ناسب في ردهم أن يقصروا على الإفساد قصر قلب، أي: هم مقصرون على الإفساد لاحظ لهم في الإصلاح، لكن يرد عليه أن تعريف الخبر بلام الجنس يفيد حصره في المبتدأ، كما هو

(١) سورة البقرة آية: ١٣.

المذكور فى المفتاح والمشهور فى الاستعمال، وأن ضمير الفصل يفيد هذا الحصر أيضا أو يؤكده)[١].

إن السيد الشريف الجرجانى يثير هنا قضية تعارض الضوابط البلاغية مع دلالات التراكيب فى النصوص الجيدة، فيشير إلى أن المناسب لرد دعواهم الكاذبة فى الآية الكريمة، أن يقصروا على صفة الإفساد، هذا ما يقتضيه السياق، ولكنه يتعارض مع المذكور فى مفتاح العلوم للسكاكى، ومع المشهور فى الاستعمال، إن التناسب بين معانى السياق فى النظم الكريم يتناقض مع ما ذكر فى المفتاح واشتهر فى الاستعمال، فماذا نصنع؟

الرأى عندي: أن ما يعتد به هو السياق، ومراعاة التناسب بين معانيه، وإن أدى ذلك إلى انخرام الضوابط البلاغية ومخالفة ما ذكر فى المفتاح واشتهر فى الاستعمال، لأن هذه الضوابط مبنية على الأكثر والغالب لا على القطع والإطلاق.

فنحن نعلم أن طريق (النفى والاستثناء) يعبر به فى المعانى التى يجهلها المخاطب وينكرها، أو فيما ينزل تلك المنزلة، وقد تجلى لنا ذلك فى آيات كثيرة، ولكنا نجد هذا الطريق قد يعبر به للدلالة على القصر فيما لا يتصور فيه إنكار مخاطب أو تنزيله منزلة المنكر.

من ذلك قوله تعالى: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾[٢] حيث قصر الذى قاله لهم على ما أمره الله تعالى به، وطريق القصر النفى والاستثناء، ولا يتأتى هنا تصور حال للمخاطب، لأن عيسى ـ عليه السلام ـ يخاطب رب العزة، وقد ألقى الخبر مؤكدا لأنه بصدد الإجابة على أمر عجيب، ودعوى غريبة، وهى اتخاذه وأمه إلهين من دون الله وهل قال ذلك للناس؟ إنها دعوى غريبة تقتضى التوكيد دفعا لتلك الغرابة، ومن أجل ذلك جاء القصر بالنفى والاستثناء، ولا يمكن ـ كما قلت ـ تصور إنكار مخاطب، أو تنزيل منزلة الإنكار.

وكذا نقول فى الآية الكريمة: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٣]

(١) حاشية السيد على الكشاف ١/ ١٨١.

(٢) سورة المائدة آية: ١١٧.

(٣) سورة الأنبياء آية: ٨٧.

حيث قصرت صفة الألوهية على الله تعالى قصرا حقيقيا تحقيقيا بالنفى والاستثناء، ولا يتأتى تصور مخاطب منكر أو منزل منزلة المنكر، كيف ويونس ـ عليه السلام ـ يضرع إلى الله بهذا التهليل؟ إن مرجع التوكيد إلى أن يونس ـ عليه السلام ـ قد امتلأت نفسه بالخبر، واستقر فى وجدانه، ففاض به مؤكدا كما استقر بداخله.

وعندما يلتقى طريقان من طرق القصر، فإن اتحدت دلالتهما كان أحدهما مؤكدا للآخر، كما رأينا فى الآيات الكريمة التى اجتمع فيها ضمير الفصل وتعريف المسند (بأل) التى للجنس، وإن اختلفت دلالتهما وجب إلغاء أحدهما وبقاء الآخر، والذى يبقى دالا على القصر هو ما يقضى به السياق.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾[1] فقد اجتمعت (إنما) والتقديم فى جملة واحدة (إنما عليك البلاغ) وتناقضت دلالتهما على القصر، لأن المقصور عليه (بإنما) هو المؤخر، والمقصور عليه فى التقديم هو المقدم، عندئذ ننظر فى السياق فنجده يقتضى أن يكون المقصور (عليك) والمقصور عليه (البلاغ) إذ المراد قصر مهمته ـ ﷺ ـ على البلاغ لا تتجاوزه إلى غيره، وهذا معناه أن الدال على القصر (إنما) وأن التقديم لمجرد التوكيد وتقوية الحكم.

وقد تلغى (إنما) كما فى قول المتنبى يمدح عضد الدولة، وقد عدد أسماء آبائه:

أسـامـيا لم تـزده معـرفة وإنمـا لـذة ذكـرناها

لقد أدرك المتنبى أن تعداد أسماء الآباء عند المدح لا يكون إلا عند إرادة التعريف بشخص قاصر الذكر، قليل الشهرة، فتدارك بهذا البيت معللا أنه ما ذكر آباء عضد الدولة إلا تلذذا بذكر أسمائهم، فالذكر مقصور على اللذة، و(إنما) ملغاة.

وفى قوله ـ ﷺ ـ: (إنما يأكل آل محمد من هذا المال، ليس لهم فيه إلا المأكل) تتناقض دلالتا (إنما) و(النفى والاستثناء) إذ تدل (إنما) على قصر أكل آل محمد على كونه من هذا المال، ويدل (النفى والاستثناء) على قصر ما لآل محمد فى هذا المال على المأكل، وواضح أن المعنى يرفض دلالة (إنما) ويوجب دلالة (النفى والاستثناء).

(١) سورة الرعد الآية: ٤٠.

وبهذا يتجلى لنا أن السياق هو الذى يعتد به ويعول عليه، وأنه لا ينظر إلى الضوابط البلاغية، ولا يلتفت إليها عند تعارضها مع ما يقتضيه السياق، لأنها مبنية على الأكثر والغالب، لا على القطع والإطلاق.

عرفنا أن القصر الحقيقى التحقيقى هو ما كان المنفى العام فيه مطابقا للواقع الخارجى، وقد مرت بنا شواهد كثيرة له، فعد إليها، وعرفنا أيضا أن القصر الحقيقى غير التحقيقى هو ما كان المنفى العام فيه غير مطابق للواقع الخارجى، فهو قائم على المبالغة والادعاء.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾[1] حيث قصرت خشية الله تعالى على العلماء قصرا حقيقا غير تحقيقى، لأن غير العالم يخشى الله، بل قد يوجد غير عالم يكون أشد خشية لله من العالم، ولكن السياق فى النظم القرآنى قد نوه بشأن العلماء، وأشاد بمنزلتهم، وحث على النظر والتأمل، ولنقرأ سياق الآية الكريمة: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾[2] فخشية غير العالم لا يعتد بها فى مثل هذا السياق الذى يحث على النظر، وتدبر آيات الله، وعظيم صنعه، وبديع خلقه، ولذا قصرت الخشية على العلماء قصرا حقيقيا غير تحقيقى.

ومثله قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ﴾[3] حيث قصرت الملكية على نفسه وأخيه، ونفيت عن كل من عداهما قصرا حقيقيا غير تحقيقى، لأن السياق يدل على أنه كان هناك رجلان أنعم الله عليهما، ولكن موسى ـ عليه السلام ـ لم يعتد بهما نظرا لتقلب قومه، وتغير أحوالهم.

وفى قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ

---

(١) سورة فاطر آية: ٢٨.

(٢) سورة فاطر: الآيتان: ٢٧، ٢٨.

(٣) سورة المائدة آية: ٢٥.

أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾[١].

جاء القصر فى المعانى التى أنكرها المشركون وجحدوها، وفى الأفعال التى ادعوا نسبتها إلى غير الله تعالى، وقد جاء بالتقديم فى قوله: (وأن إلى ربك المنتهى ... وأن عليه النشأة الأخرى) حيث قصرت النشأة الأخرى عليه تعالى، وقصر الانتهاء على كونه إلى ربك، والمشركون قد أنكروا ذلك، أنكروا البعث، وأنكروا الرجوع إليه تبارك وتعالى.

وجاء بضمير الفصل فى قوله: (وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا... وأنه هو أغنى وأقنى وأنه هو رب الشعر) وتلك الأفعال قد ادعى المشركون نسبتها إلى غير الله، وعبد بعضهم الشعرى من دون الله، فجاء قصرها بضمير الفصل عليه تعالى، والقصر فى جميع تلك المواطن قصر حقيقى تحقيقى.

أما الأفعال التى لم يدع نسبتها إلى غير الله تعالى، وهى (خلق الزوجين)... (أهلك عادا الأولى وثمود) فقد جاءت مثبتة له تعالى بلا قصر، لأنه ليس هنالك ما يقتضى قصرها عليه ـ عز وجل ـ حيث لم ينكر إثباتها له أحد، ولم يدع نسبتها إلى غيره ـ تعالى ـ مدع[٢].

ومن طرق القصر العطف (بلا وبل ولكن) وقد جاء منه فى النظم الكريم قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[٣] حيث قصر محمد ـ ﷺ ـ على كونه رسول الله وخاتم النبيين، لا يتجاوز ذلك إلى أبوة أحد من الرجال، وقد جاء القصر بطريق العطف، لأنه أقوى طرق القصر، إذ يصرح فيه بالطرفين المثبت والمنفى معا، والأمر يحتاج إلى هذا التوكيد، لأنه يتعلق بقضية التبنى، وكانت عادة العرب معاملة الابن المتبنى معاملة الابن من الصلب، فحرم الإسلام ذلك، وأمر أن يدعى المتبنى لأبيه، قال تعالى:

---

(١) النجم ٤٢ـ٥١.

(٢) انظر الإتقان ٣/ ١٥٣.

(٣) الأحزاب ٤٠.

﴿ ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾(١).

وقد جاء التحريم ممثلا فى زواج النبى ـ ﷺ ـ من زينب بنت جحش، بعد أن قضى زيد منها وطرا، وزيد هو زيد بن حارثة مولى النبى ـ ﷺ ـ وكان هذا الزواج تشريعا للأمة.

لقد كان ـ ﷺ ـ يدرك مدى تأصل تلك العادة فى نفوس الناس، فكان يقول لزيد (أمسك عليك زوجك واتق الله) وقد عاتبه ربه عز وجل حيث قال: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾(٢).

لما كان الأمر على هذه الدرجة من الأهمية فقد جاء تقرير هذه الحقيقة بطريق العطف الذى هو أقوى طرق القصر ليؤكد فى النفوس أن محمدا ـ ﷺ ـ رسول الله وخاتم النبيين، لا يتجاوز ذلك إلى أبوة أحد من الرجال على جهة الحقيقة، حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح، ولكنه ـ ﷺ ـ أبو أمته جميعا فيما يجب له من التعظيم والتوقير، وأزواجه أمهاتهم، فيما يجب لهن من التقدير والتعظيم، وتحريم نكاحهن من بعده، وهو ـ ﷺ ـ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وحكم زيد بن حارثة حكم الواحد من الأمة فى ذلك، فليس هنالك ما يثير العجب، ويدعو للغرابة، عندما يتزوج ـ ﷺ ـ من زينب بنت جحش مطلقة زيد(٣).

ومنه قوله عز وجل: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾(٤) حيث قصر العذاب النازل بهم (ليظلهم) على ما ارتكبوا، ونفى عن الله عز وجل، فالعذاب الذى أخذهم

(١) الأحزاب ٥.
(٢) الأحزاب ٣٧.
(٣) انظر الكشاف ٣/ ٢٦٤.
(٤) العنكبوت ٤٠.

به الله تعالى، سببه ما ارتكبوا من الذنوب والمعاصى والبغى والطغيان، هم الذين ظلموا أنفسهم، وأوردوها موارد الهلاك، وما ربك بظلام للعبيد.

وقد جاء القصر بطريق العطف تأكيدا لهذه الحقيقة، وكشفا لعاقبة البغى والطغيان، والانغماس فى الكفر والضلال، وحثا على امتثال أمر الله واتباع الصراط المستقيم، والبعد عن سبل الضلال والغواية، ففى ذلك الفوز والنجاة.

ولما كانت (إنما) تستعمل فى المعانى الواضحة الجلية التى لا يجهلها أحد، ولا ينكرها منكر، فقد حسن مجيئها فى التعريض والتلويح[1].

انظر فى قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[2] فالمعنى الظاهر الذى دلت عليه (إنما) هو قصر التذكر على أولى الألباب ونفيه عما عداهم، وليس المراد أن يعلم المخاطب هذا المعنى الواضح، بل القصد من وراء ذلك إلى التعريض بذم الكفار، والإشارة إلى أنهم من فرط العناد وغلبة الأهواء عليهم، قد صاروا فى حكم من ليس بذى عقل، فالذى يطمع فى تذكرهم وتدبرهم كمن يطمع فى تدبر وتذكر غير أولى الألباب.

وقد جاء هذا التعريض بعد تلك المقارنة بين المؤمن الذى يعلم أن ما أنزله الله هو الحق، والأعمى وهو الكافر الذى أعرض عن الحق رغم وضوحه وظهوره، فاستحق بذلك التوبيخ والذم الذى أفاده التعريض.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾... ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[3] فقد دلت (إنما) على قصر الإنذار على من يخشى وأقام الصلاة، ونفيه عما عداه، وفى هذا إيماء إلى أن من لم تكن له هذه الخشية فكأنه ليس له أذن تسمع، ولا قلب يعقل، فالإنذار معه كلا إنذار، ووراء ذلك التعريض بذم الكفار الذين أعرضوا عن رسول الله ـ ﷺ ـ فأصموا آذانهم، وأعموا أبصارهم، عن سماع الذكر ورؤية الحق.

---

(١) التعريض: معنى يفهم من عرض الكلام وجانبه، ويستشف من أطراف المعانى المباشرة، بمعرفة السياق وقرائن أحواله، وليس هنالك ما يحدد أى الأساليب يكون للتعريض، فالمعول عليه فى معرفة ذلك هو السياق وقرائن الأحوال، وما يفيض به التركيب من معان جانبية، وإشارات وتلويحات.

(٢) الرعد ١٩.

(٣) الآيات بالترتيب: النازعات ٤٥، فاطر ١٨.

وقد حسن التعريض (بإنما) لدلالتها على القصر، أي: على الإثبات والنفى معا، واستعمالها فى المعانى المعلومة الواضحة ـ كما بينا ـ ففى الآية الكريمة (إنما يتذكر أولو الألباب) دلت (إنما) على ثبوت التذكر لأولى الألباب، ونفيه عن غير أولى الألباب، ولو أسقطت (إنما) فقيل: يتذكر أولو الألباب، لم يكن فى الكلام تعريض لأنه عندئذ لا يكون فيه نفى للتذكر عن غير أولى الألباب، بل يكون مجرد وصف لأولى الألباب بالتذكر والتدبر، ولا يتأتى أن يقع تعريض بشيء ليس فى الكلام ذكر له، ولا دليل عليه ولا أمارة تلوح به.

الإنشاء

قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ البقرة ٢٨٢.

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ البقرة ٢٣.

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ إبراهيم ٣٠.

﴿ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ الطور ١٦.

﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ المؤمنون: ١٠٥ـ١٠٨.

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾ التوبة ٦٤ـ٦٦.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ آل عمران ١٣٠.

﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ ﴾ البقرة ٢١٤.

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ﴾ النمل ٢٠.

﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴾ الأنبياء ٦٢.

﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ ﴾ الفرقان ٢٧ - ٢٩.

﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴾ مريم ٢٣.

﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴾ يوسف ٨٥.

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ﴿٨﴾ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ﴾ الذاريات ٧ ـ ١٠.

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ الذاريات ٤٧ - ٥١.

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴾ الليل ١ـ٤

ما جرى به اللسان العربى من كلام لا يخرج عن كونه خبرا أو إنشاء، فالخبر ـ كما عرفه البلاغيون. (قول يحتمل الصدق والكذب لذاته) لأن الكلام له نسبتان، نسبة كلامية يفيدها النطق بالخبر، ونسبة خارجية وهى ما عليه الواقع، فإن تطابقت النسبتان كان الخبر صادقا، وإن اختلفتا كان الخبر كاذبا.

وهذا القيد (لذاته) يخرج الأخبار التى لا تحتمل إلا الصدق نظرا لقائلها، كأخبار القرآن الكريم، وأخبار الحديث الشريف، ويخرج الحقائق الثابتة نحو قولنا: الواحد نصف الاثنين، والسماء فوقنا، ويخرج كذلك الأخبار التى لا تحتمل إلا الكذب، كأقوال مسيلمة الكذاب، وأقوال المنافقين، فتلك الأخبار لم ينظر فيها إلى ذات القول، وإنما نظر إلى قائلها أو إلى كونها حقيقة ثابتة، فاحتملت شيئًا واحدًا، الصدق أو الكذب.

وعرفوا الإنشاء بأنه (قول لا يحتمل الصدق والكذب) لأن القصد منه إلى ابتداء المعنى وإنشائه، فالإنشاء أيضا له نسبتان، نسبة كلامية وهى إنشاء المعنى وابتداؤه، ونسبة خارجية وهى قيام المعنى الإنشائى من أمر أو نهى أو استفهام.. فى نفس المتكلم، ولكن ليس المقصود من الجملة الإنشائية الإخبار حتى ينظر إلى مطابقة النسبتين أو عدم مطابقتهما، وإنما المقصود هو إنشاء المعنى وابتداؤه[1].

وبهذا نستطيع القول بأن المقصود بالخبر فى النظم القرآنى، وفى الحديث النبوى الشريف وفى التراكيب الجيدة، حكاية الحدث، والدلالة على تحققه ووقوعه إثباتا أو نفيا، وأن المقصود بالإنشاء: ابتداء المعنى وإنشاؤه وطلب حدوثه، وليس المراد به حكاية حدث، والدلالة على ثبوته أو على انتفائه..

والإنشاء نوعان:

١ـ إنشاء طلبي: وهو ما يستدعى مطلوبا غير حاصل وقت الطلب، ويشمل الأمر والنهى والتمنى والاستفهام والنداء.

٢ـ إنشاء غير طلبي: هو ما لا يستدعى مطلوبا، وله صيغ كثيرة منها: القسم والمدح والذم والترجى والتعجب وألفاظ العقود.

وقد اهتم البلاغيون بدراسة الإنشاء الطلبى مهملين الإنشاء غير الطلبى وذلك للأسباب الآتية:

١ـ أن الإنشاء الطلبى غنى بالاعتبارات والملاحظات البلاغية، وأنواعه وهى الأمر

(١) انظر شروح التلخيص ١/ ١٦٦.

والنهى والتمنى والاستفهام والنداء، يتولد منها بحسب القرائن والسياق معان بلاغية كثيرة.

٢ـ أن الإنشاء غير الطلبى أكثر أنواعه أخبار نقلت إلى الإنشاء.

٣ـ أن تلك الأنواع غير الطلبية لا تدل إلا على معانيها التى وضعت لها، فالقسم لا يدل إلا على القسم، والتعجب لا يرد لغير التعجب، والمدح لا يراد به غير المدح... وهكذا.

وأرى أن تلك الأسباب لا تقعد عن دراسة أنواع الإنشاء غير الطلبى، لأننا عند التأمل والنظر فى التراكيب، نجد أن هذه الأنواع ليست فقيرة فى الملاحظات والاعتبارات البلاغية، كما قالوا، بل نرى وراءها كثيرا من المزايا والدقائق التى يتوهج فيها الإحساس بالمعانى والأشياء، على نحو ما سنرى عند دراسة بعض هذه الأنواع فى النظم الكريم.

الأمر والنهى

للأمر أربع صيغ وهي: فعل الأمر، والمضارع المقرون بلام الأمر، واسم فعل الأمر، والمصدر النائب عن فعل الأمر، وأما النهى فله صيغة واحدة، وهى المضارع المقرون (بلا) الناهية.

انظر فى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗا ﴾[1]، تجد أن أسلوب الأمر قد تكرر فى الآية الكريمة بفعل الأمر وبالمضارع المقرون بلام الأمر: (فاكتبوه وليكتب... فليكتب وليملل.. وليتق الله) كما تكرر النهي: (ولا يأب كاتب .... ولا يبخس منه شيئًا) ووراء هذا التكرار الحث على الالتزام والإجابة، وتنفيذ ما يريده الله عز وجل تجاه الدين، من وجوب كتابته وتسجيله، وعدم التهاون فى شىء من ذلك.

(١) البقرة ٢٨٢.

وفى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾[١] جاء الأمر باسم الفعل (عليكم) والمعنى: الزموا أمر أنفسكم وإصلاحها، ووراء نداء الجماعة، ومجيء الضمير جمعا (عليكم أنفسكم لا يضركم) معنى لطيف، وهو الإشعار بأن أنفس المؤمنين نفس واحدة، والتنبيه إلى ما يجب على الأمة من قيامها بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى تنصلح الأنفس، أنفس المسلمين جميعا، فقد نزلت هذه الآية لما كان المؤمنون يتحسرون على الكفرة، ويتمنون إيمانهم، فالمعنى: عليكم أيها المؤمنون أنفسكم لا يضركم من ضل من الكفار.

وقد توهم البعض أن فى الآية رخصة فى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، حتى قال الصديق ـ رضى الله عنه ـ (أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية وتضعونها فى غير موضعها، ولا تدرون ما هى)[٢].

فهؤلاء الواهمون لم يلتفتوا إلى خطاب الجمع فى الآية، ولو أريد الترخيص كما توهموا لوجه الخطاب إلى المفرد فقيل: يا أيها الإنسان عليك نفسك لا يضرك من ضل إذا اهتديت، ولكن الخطاب فى الآية للجماعة، فهو حث لها على القيام بما جعلها الله به خير أمة أخرجت للناس، وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله.

ومما جاء الأمر فيه بالمصدر النائب عن فعل الأمر قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ ﴾[٣] أصله: فاضربوا الرقاب ضربا، فحذف فعل الأمر، وقدم المصدر وأنيب منابه مضافا إلى المفعول، وفى هذا حث للمؤمنين على سرعة الضرب، والمبادرة عند لقاء الذين كفروا بضرب رقابهم، دون توان ولا إمهال، وفى إيثار التعبير بالضرب عن القتل تصوير له بأشنع صورة، وتهويل لأمره، وإرشاد للغزاة إلى أيسر ما يكون منه، حثا لهم على سرعة المبادرة[٤].

وتأمل هذه الفاءات: (فضرب الرقاب... فشدوا الوثاق... فإما منا...) فهى تدل على التعقيب وتلاحق الأحداث، وهو ما يجب على المسلمين فى مثل هذا المقام.

---

(١) المائدة ١٠٥.
(٢) انظر تفسير أبى السعود ٣/ ٨٨.
(٣) سورة محمد آية: ٤.
(٤) انظر: تفسير أبى السعود ٨/ ٩٢.

وانظر إلى التعبير عن الأسر، وشد وثاق الكفرة بفعل الأمر (فشدوا الوثاق) دون مصدره، فلم يقل: فشد الوثاق، كما قيل: (فضرب الرقاب) ويرجع ذلك إلى أنه لم يعد هنالك ما يدعو إلى السرعة والمبادرة، فقد أثخنوهم ضربا، أي: أثقلوهم بالقتل والجراح، حتى صاروا لا يستطيعون النهوض، إن السرعة كانت مطلوبة عند لقاء الكفرة، ولذا قال عز وجل: (فضرب الرقاب) أما الآن فلم تبق لهم مقاومة، لقد أثخنوا، أي: أثقلوا بالقتل والجراح فلا يستطيعون نهوضا، فليوثقوا إذا على مهل وتؤدة، ولذا قال عز وجل: (فشدوا الوثاق) ذاك هو الفرق بين التعبير بفعل الأمر وبالمصدر النائب عنه فى الموضعين.

هذا والمتبادر إلى الذهن أن صيغ الأمر تستعمل فى طلب حصول الفعل على جهة التكليف والإلزام، وتكون من الأعلى إلى الأدنى، وأن صيغة النهى تستعمل فى طلب الكف عن الفعل على جهة التكليف والإلزام كذلك، وتكون أيضا من الأعلى إلى الأدنى، على نحو ما رأينا فى الآيات الكريمة[(١)].

وقد يستعمل الأمر والنهى فى غير التكليف والإلزام، فيدل كل منهما على معان كثيرة بمعونة السياق وقرائن الأحوال.

انظر فى قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾[(٢)] فقد أمر المنافقون بالاستهزاء، ونهوا عن الاعتذار (قل

(١) اختلف البلاغيون فيما تستعمل فيه صيغ الأمر، فقيل تستعمل فى الوجوب، والمراد بها الإلزام والتكليف، وقيل تستعمل فى الندب، وقيل فى معنى يشمل الوجوب والندب على جهة الاستعلاء، ويرى آخرون أن الأمر من الألفاظ المشتركة بين الوجوب والندب فقط، أو بين الوجوب والندب والإباحة، كاشتراك الشمس والظبى فى لفظ الغزالة، ولذا احتاط القزوينى فى تحديد مفهوم الأمر فقال: والأظهر أنه موضوع لطلب الفعل استعلاء لتبادر الفهم عند سماعه إلى ذلك، وتوقف ما سواه على القرينة. انظر شروح التلخيص ٢/ ٣١٠ والإيضاح ٢/ ٥٣ واختلفوا كذلك فيما تستعمل فيه صيغة النهى، فيرى الجمهور أنها موضوعة لطلب الترك الجازم وهو الحرمة، وقيل إنها موضوعة لطلب الترك غير الجازم وهو الكراهة، وقيل: هى للقدر المشترك بينهما، وهو الترك استعلاء فيشمل التحريم والكراهة. انظر شروح التلخيص ٢/ ٣٢٥.

(٢) سورة التوبة آية: ٦٤ـ٦٦.

استهزءوا... لا تعتذروا) لا ليمتثلوا الأمر والنهى، وإنما تهديدا ووعيدا، فقد كثر استهزاؤهم، وبمن يستهزءون؟ بالله وآياته ورسوله، ولم تجد فيهم نصيحة، ولا إرشاد، فلم يبق إلا الوعيد الشديد الذى حمله الأمر والنهى (استهزءوا... لا تعتذروا) وذلك الالتفات من الغيبة فى أول كل آية، إلى الخطاب فى الأمر والنهى والاستفهام، وكأن هذا الالتفات التفات الغاضب المتوعد.

وكذا القول فى الآيات الكريمة: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾... ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ... ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾(١) فالأمر فى هذه الآيات قد أريد به التهديد والوعيد لأولئك الذين جعلوا لله أندادا، وألحدوا فى آياته، وظلوا فى الكفر والضلال معرضين عن نور الله، وفى كل آية من الآيات الكريمة يلتفت من الغيبة إلى الخطاب عند توجيه ذلك الأمر (تمتعوا فإن مصيركم إلى النار... اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير... تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار) فهذا الالتفات ينبئ بالوعيد والتهديد، ثم انظر إلى ما ختمت به الآيات الكريمة من بيان مصيرهم، والإخبار بأن الله مطلع عليهم، بصير بما يعملون، والغاية من وراء ذلك كله أن يرتدع أولئك المعاندون وينزجروا، فيقلعوا عن الكفر والعناد، ويقبلوا على الإيمان والهدى، وعندئذ يفوزون بالأمن والفلاح، والنجاة يوم القيامة.

وقد يرد الأمر لإظهار العجز كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾(٢) فليس المراد بالأمر فى الآية التكليف والإلزام، وإنما المراد إظهار عجزهم عن الإتيان، فهم إن حاولوا الإتيان بعد سماع صيغة الأمر ولم يمكنهم بدا عجزهم وظهر، فلعل ظهور عجزهم يكون رادعا لهم وزاجرا.

وقد يرد الأمر والنهى للدلالة على التسوية فى عدم النفع، كما فى قوله تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٣) فقد

---

(١) الآيات بالترتيب: إبراهيم: ٣٠، فصلت: ٤٠، الزمر: ٨.

(٢) البقرة: ٢٣.

(٣) الطور: ١٦.

دل الأمر والنهى (فاصبروا أو لا تصبروا) على التسوية بين الصبر وعدمه فى نفى النفع، وذلك دفعا لما قد يتوهم من أن الصبر ينفع الكفار فى العذاب يوم القيامة فيخفف عنهم من عذاب جهنم، كلا إنهم ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾[1].

وقد أكدت دلالة الأمر والنهى بقوله (سواء عليكم) حيث صرح باستواء الصبر وعدمه فى عدم النفع، ولا يخفى عليك ما يفيده الأمر فى أول الآية الكريمة (اصلوها) من الإذلال والإهانة.

وكثر مجيء الأمر والنهى للدلالة على الدعاء والتضرع إلى الله تعالى، كما فى الآيات الكريمة: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾... ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾... ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[2] فالمؤمنون يضرعون إلى الله تعالى بهذا الدعاء، وقد جاء بصيغة الأمر والنهى لإظهار كمال تضرعهم وخضوعهم، ولبيان صدق رغبتهم فى أن يتجلى الله تعالى عليهم بالرحمة والغفران.

ولا يخفى عليك أن التعبير بالأمر أو النهى فى الدعاء يكون صادرا من الأدنى إلى الأعلى، فإن وجه إلى المساوى فى الرتبة والمنزلة كان التماسا كما فى قوله تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾[3].

وانظر فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[4] تجد أن الأمر فى قوله: (أخرجنا منها) يدل على التمنى، فهم يتمنون الخروج من جهنم والعودة للدنيا ليستقيموا على الطريقة، ولات حين خروج، ولذا كانت إجابتهم (اخسأوا فيها ولا تكلمون) فالأمر

---

(١) فاطر ٣٦.

(٢) الآيات بالترتيب: آل عمران ١٩٤، ٨، البقرة ٢٨٦.

(٣) طه ٩٤.

(٤) المؤمنون: ١٠٥-١٠٨.

والنهى المجاب بهما يحملان معنى الإهانة والإذلال والتحقير، يقال: خسأت الكلب فخسأ، أي: زجرته فانزجر، فالمعنى: اسكتوا فى النار سكوت هوان، وذلوا وانزجروا انزجار الكلاب إذا زجرت[1].

وتأمل قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ﴾[2] لقد نهى عن أكل الربا مقيدا بهذا القيد (أضعافا مضاعفة) والمراد النهى عن أكل الربا مضاعفا وغير مضاعف، ولكن جيء بهذا القيد تبشيعا للصورة، وتنفيرا للنفوس، وانظر إلى التعبير بالأكل فى النهى عن التعامل بالربا (لا تأكلوا) إن المراد هو النهى عن التعامل الربوى بأى وجه من وجوه التعامل، ولكن لما كان العربى يتذمم بملء البطن وكثرة الأكل، ويعد ذلك من البهيمية، فقد أوثر التعبير بالأكل تفظيعا وتنفيرا، وكذا القول فى النهى عن أكل أموال الناس بالباطل، وأكل أموال اليتامى.

التمنى

قالوا فى تعريفه: إنه طلب الأمر المحبوب الذى ترغب فيه النفس وتميل إليه، ولكنه لا مطمع فى حصوله، لكونه محالا أو بعيد المنال، وبعد المنال أمر يرجع إلى شعور النفس وإحساسها بالشيء المطلوب، فهذا الشيء قد لا يكون بعيدا بالنسبة للواقع أو العرف أو العقل، ولكن النفس تحسه بعيدا، بل إن شعور النفس وإحساسها ببعد الشيء يختلف من شخص لآخر، فما يراه هذا بعيدا، قد يراه ذاك قريب المنال، فمثلا (طلب المال) قد يرى شخص أن حصوله بعيد غير متوقع، ويشعر بأنه لا مطمع له فى نيله، فيقول متمنيا: ليت لى مالا فأحج منه، وقد يراه آخر قريب المنال متوقعا، ويشعر بالطمع فى وجوده وإمكان نيله، فيقول مترجيا: لعل لى مالا فأحج منه، فالشيء المطلوب واحد وقد اختلف الإحساس به، فرآه الأول بعيدا، ورآه الثانى قريبا.

والأداة الموضوعة للتمنى (ليت) يقال فى تمنى الأمر المحبوب الذى لا مطمع فيه لكونه محالا: ليت الشباب يعود يوما.. ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها عقود مدح..

(١) انظر: تفسير أبى السعود ٦/ ١٥٢.
(٢) سورة آل عمران: ١٣٠.

ولنقرأ الآيات الكريمة: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾... ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾... ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾[١] فالمتمنى فى الآيات أمر محال لا مطمع فى حصوله، فالكفار عند معاينة العذاب يتمنون الرجوع إلى الدنيا ليستقيموا ويؤمنوا، ومريم تتمنى أن تكون قد ماتت قبل هذا، والظالم يعض على يديه ندما ويتمنى أن يكون قد اتخذ مع الرسول سبيلا، وابتعد عن قرناء السوء، وتلك الأمور المتمناة أمور محالة لا مطمع فى حصولها.

وتأمل دخول حرف النداء (يا) على أداة التمنى (ليت) وعلى كلمة (ويلتى) في: (يا ليتنا... يا ليتنى... يا ويلتى ليتنى) تجده ينبئ بالأسى، ويشعر بالحزن والألم، والندم والتحسر، وكأن الكافر والظالم يخرجان ما بداخلهما من آلام وأحزان، ويجدان فى امتداد النطق بحرف النداء (يا) متنفسا يتنفسان من خلاله أحزانهما وآلامهما، وكذا القول بالنسبة لمريم، فهى فى حيرة وأسى، كيف تواجه قومها بعد أن ولدت عيسى ـ عليه السلام ـ إن فى امتداد النطق بالحرف (يا) فى قولها: (يا ليتنى) تفريجا لأحزان قد امتلأت بها نفسها.

وفى قوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[٢] تمنى الذين يريدون الحياة الدنيا، عندما رأوا قارون فى زينته، أن يكون لهم مثل تلك الكنوز التى تنوء مفاتحها بالعصبة أولى القوة، وهذا الذى تمنوه ليس محالا، بل ممكنا، ولكنه بعيد المنال، فهم لا يطمعون فيه لبعد مناله.

وقد يأتى التمنى بغير الأداة الموضوعية له (ليت) لداع بلاغى يقتضيه المقام، فقد يأتى (بلو) و(بلعل) وبأداة استفهام (كهل) وغيرها، انظر فى قوله تعالى: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٣] تجد التمنى

(١) الآيات بالترتيب: الأنعام ٢٧، مريم ٢٣، الفرقان ٢٧، ٢٨.
(٢) القصص ٧٩.
(٣) سورة الشعراء آية ١٠٠ـ١٠٢.

(بلو) حيث نصب المضارع بعد الفاء المسبوقة بها، بأن مضمرة فى قوله (فنكون) وقد عدل عن التمنى (بليت) إلى التمنى (بلو) فى الآية الكريمة إشعارا بزيادة المتمنى بعدا واستحالة، فإن (لو) فى الأصل حرف امتناع لامتناع، ولذا فإن التمنى بها يجعل المتمنى أكثر بعدا، وأشد امتناعا وإباء.

وفى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾(١) جاء التمنى (بلعل) فنصب المضارع بعد الفاء المسبوقة بها (فأطلع) والشىء المتمنى فى الآية الكريمة بلوغ أسباب السموات، وهو من الأمور المحالة التى لا مطمع فى وقوعها، ولكن مجئ التمنى (بعل) أبرزه فى صورة الممكن القريب الحصول.

وهذا يصور طغيان فرعون، وينبئ بمدى عتوه واستكباره فى الأرض، ويشعر بكمال عنايته وشدة حرصه على تحقق المحال، وبلوغه أسباب السموات، لقد بلغ طغيانه مبلغا رأى فيه المحال ممكنا قريب الحصول، سهل المنال.

وفى قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾(٢) وقع التمنى (بهل) ومجيء التمنى بالاستفهام يبرز المتمنى فى صورة الممكن، الذى يسأل عنه، ويمكن وقوعه، إن ما تمناه الكفرة، وهو خروجهم من جهنم، ورجوعهم إلى الحياة الدنيا أمر محال لا يمكن وقوعه، ولكنهم لشدة حيرتهم وتخبطهم، ظنوا أن هذا المحال ممكن، فاستفهموا عنه (فهل إلى خروج من سبيل)؟ وهم يتمنون وقوعه، وأن يخرجوا من جهنم، ويرجعوا إلى الدنيا فيؤمنوا، ويستقيموا على الطريقة، ولات حين رجوع.

الاستفهام

قالوا فى تعريفه: هو طلب العلم بشىء لم يكن معلوما من قبل بأدوات خاصة، وهي: الهمزة وهل ومن وما وكيف وكم وأين وأيان ومتى وأنى وأى.

وكل أداة من هذه الأدوات يسأل بها عن شىء معين، وهى أسماء ما عدا الهمزة

(١) سورة غافر آية ٣٦، ٣٧.
(٢) سورة غافر آية ١١.

وهل، فهما حرفان، ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الأدوات لها حق صدارة الجملة المستفهم عنها.

والاستفهام إما عن النسبة، أي: عن الحكم المفاد من الجملة، ويسمى (تصديقا) وإما عن أحد أجزاء الجملة، ويسمى (تصورا) فالتصديق هو إدراك النسبة بين الشيئين ثبوتا أو نفيا، والتصور هو إدراك أحد أجزاء الجملة: المسند أو المسند إليه أو أحد المتعلقات، ولذا فعند طلب التصديق يأتى الجواب بنعم أو أجل أو لا أو بلى أو إى، تلك هى حروف الجواب التى تحدد النسبة إثباتا أو نفيا، حسب نظام الجملة المستفهم عنها، وعند طلب التصور يأتى الجواب محددا الجزء المستفهم عنه، ومعينا له.

وأدوات الاستفهام بحسب المستفهم عنه ثلاثة أنواع:

١ـ ما هو صالح لطلب التصور والتصديق معا، فيطلب به التصور تارة والتصديق تارة أخرى، وهو الهمزة فقط، فهى أم باب الاستفهام.

٢ـ ما يطلب به التصديق فقط، وهو (هل).

٣ـ ما يطلب به التصور فقط، وهو بقية الأدوات.

ولبناء جملة الاستفهام مع الهمزة و(هل) ضوابط واعتبارات دقيقة، فهمزة التصور يجب أن يليها المستفهم عنه، وقد يليها غيره لغرض بلاغى، ويذكر معها غالبا معادل (بأم) المتصلة)، وهمزة التصديق لا يذكر معها معادل، فإن وجدت بعدها (أم) فهى المنقطعة، وكذلك (هل) إن وجدت بعدها (أم) فهى (أم) المنقطعة، ويجب أن يلى (هل) الفعل إن وجد فى الجملة المستفهم عنها، وقال البلاغيون: إنها تخلص المضارع للاستقبال، ولم يسلم لهم ذلك[1].

وعلينا الآن أن ننظر فى النظم القرآنى لنعرف بعضا من دقائق الاستفهام فيه، ونقف على جملة من مزاياه ومعانيه البلاغية.

قال تعالى: ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُواْ سَمِعْنَا

(١) ارجع إلى تفصيل ذلك فى رسالتنا (أساليب الاستفهام فى القرآن الكريم) وفى كتابنا: علم المعانى الجزء الثانى.

فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾[١]، فى الآيات الكريمة استفهامان، أولهما: (من فعل هذا بآلهتنا)؟ وهو لطلب الفهم، فقد عادوا فوجدوا الأصنام جذاذا إلا كبيرا لهم، فسألوا عن فاعل ذلك، وجاء جوابهم مشيرا إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ حيث سمعوه يذكرهم، فأحضروه على أعين الناس، ووجهوا إليه ثانى الاستفهامين (أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟) والسؤال هنا للتقرير بالفاعل، فقد أشارت أصابع الاتهام، ودلت الهواجس على أنه الفاعل، فأرادوا تقريره على أعين الناس لعلهم يشهدون، وقد جاء جوابه معينا لهم الفاعل على سبيل التهكم والسخرية، لعلهم ينتبهون إلى حقارة ما يعبدون من دون الله (بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون).

وفى الآيات الكريمة: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾... ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ ﴾... ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾[٢]. أفاد الاستفهام إنكار أن يكون غير الله بمثابة أن يتخذ وليا، أو يدعى عند البأساء، أو يبغى ربا، وقد ولى المفعول الهمزة لأن الإنكار موجه إليه، ووليها الفاعل فى سورة الأنبياء، لأن التقرير به.

وفى قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾[٣] أفاد الاستفهام إنكار اطلاع ذلك الكافر على الغيب أو اتخاذه عند الرحمن عهدًا، ولذا ولى الهمزة وعطف على ما وليها "بأم" المتصلة ما توجه إليه الإنكار.

هذا وقد يكون المعنى على إنكار الفعل ويلى الهمزة ويعطف على ما وليها (بأم) المتصلة غيره، وذلك مبالغة فى الإنكار والزجر، كما فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ

---

(١) سورة الأنبياء آية ٥٩-٦٣.

(٢) الآيات بالترتيب الأنعام ١٤، ٤٠، ١٦٤.

(٣) سورة مريم آية ٧٧، ٧٨.

﴿تَفۡتَرُونَ﴾[1] فالمعنى على إنكار الإذن وقد ولى الهمزة وعطف على ما وليها غيره مبالغة فى الإنكار.

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾[2] كان المشركون يحرمون ذكور الأنعام تارة، وإناثها تارة أخرى، وما فى بطونها تارة ثالثة، فأنكر الله ـ عز وجل ـ هذا التحريم فى الآية الكريمة، وقد أخرج النظم الكريم مخرج ما إذا كان قد ثبت تحريم، والمطلوب معرفة جنس المحرم، فولى الهمزة وعطف على ما وليها غير الفعل مبالغة فى الإنكار.

وترجع المبالغة فى هذه الصورة إلى انتفاء الفعل بوجه برهانى، لأنه إذا انتفى الفاعل أو المفعول أو الظرف الذى ليس للفعل غيره، كان ذلك أبلغ فى انتفاء الفعل، وأشد ردعا، وأقوى زجرا لمن ادعى وجوده وثبوته.

وفى قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُم مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾[3] دل الاستفهام فى الآية الكريمة على استبطاء النصر، واستطالة مدة البأساء والضراء، فالخطاب فى الآية للصحابة رضوان الله عليهم، والمعنى: أحسبتم أن تدخلوا الجنة بلا ابتلاء وتمحيص، وقد جرت سنة الله أن يبتلى عباده، فقد ابتلى الأمم قبلكم ابتلاء شديدا، ومستهم البأساء والضراء، حتى قال الرسول وهو أعلم الناس بالله، وأوثقهم بنصره، وقال الذين آمنوا معه وهم صفوة الناس، قالوا لشدة ما نزل بهم: متى نصر الله؟ لقد استطالوا مدة البأساء والضراء، واستبطأوا مجيء النصر، وهم الصفوة الأبرار، فما بالكم بغيرهم.

والسر البلاغى وراء التعبير عن هذا المعنى (معنى الاستبطاء) بأسلوب الاستفهام، إبراز المعاناة وإظهار الشدة التى نزلت بأولئك السائلين، ولا يخفى عليك ما بالسياق من تصوير لحالهم (مستهم البأساء والضراء وزلزلوا) فهذا الذى أصابهم جعلهم يتطلعون إلى نصر الله الذى طال انتظاره.

---

(١) سورة يونس آية ٥٩.

(٢) سورة الأنعام آية ١٤٣.

(٣) سورة البقرة آية ٢١٤.

وفى قوله تعالى: ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾[1] دل الاستفهام على التعجب من عدم رؤية الهدهد، إنه لا يغيب إلا بإذن سليمان، فكيف يتفقد الطير ولا يجده بينها؟ لذا توعده بالعذاب الشديد إذا لم يكن غيابه لسبب قوى وأمر خطير ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾[2].

ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾[3] حيث دل الاستفهام على تعجب سارة من بشارة الملائكة لإبراهيم بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ـ عليهم السلام ـ لقد تعجبت كيف تلد وهى عجوز، وقد عاشت حياتها عقيما لا تلد، وذا بعلها قد صار شيخا كبيرا، كيف تلد إذا والحال هو هذا!..

وقد جاء قوله تعالى: (إن هذا لشيء عجيب) مؤكدا التعجب الذى دل عليه الاستفهام، إن سارة قد قاست الأمر بمقاييس البشر، ونسيت قدرة الله تعالى، ولذا قال الملائكة منكرين تعجبها: (أتعجبين من أمر الله)؟.

وفى قوله تعالى: ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[4] أفاد الاستفهام تنبيه الكفرة إلى خطأ ما يقولون فى شأن رسول الله ﷺ وإلى ضلال ما يعتقدون، وباطل ما يعبدون من دون الله تعالى.

وتتضح دلالة الاستفهام على هذا التنبيه عند النظر فى سياقه الذى ورد به، ولنقرأ: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾[5]؟

---

(١) سورة النمل آية ٢٠.

(٢) سورة النمل آية ٢١.

(٣) سورة هود آية ٧٢، ٧٣.

(٤) سورة التكوير آية ٢٦، ٢٧.

(٥) سورة التكوير آية ١٥ـ٢٦.

لقد أقسم جل وعلا بالنجوم الدالة على قدرته، فى أحوال ظهورها واختفائها (الخنس الجوارى الكنس) ثم أقسم بالليل يقبل بظلامه، وبالصبح يبدد ذاك الظلام، والمقسم عليه بذلك أن القرآن من عند الله، نزل به الروح الأمين، على صاحبكم محمد ﷺ وآثر التعبير بالصاحب لينبه إلى أنه ﷺ صاحبهم الذى يعرفون صدقه وأمانته، فهو صادق فيما يبلغهم عن ربه، أمين عليه، وقد رأى وأبصر من آيات ربه الكبرى، رأى جبريل بالأفق المبين، ثم هو ﷺ حريص على إبلاغ رسالة ربه، لا يضن بها عليكم.

أبعد هذا البيان والوضوح يكون إعراض عن الحق، وتول عن رسول الله ﷺ؟ إن الذى يعرض ويتولى بعد هذا البيان، يكون ذاهبا إلى متاهات، منغمسا فى ضلال مبين، ولذا جاء الاستفهام (فأين تذهبون) عقب هذا البيان لينبه على الضلال الكبير، الذى يهوى إليه وينغمس فيه من يعرض عن الحق والهدى بعد مجيء البينات.

وفى قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾[1] يدل الاستفهام فى الآية الكريمة على النفى، إذ المعنى: لا أحد يملك لكم من الله شيئا، ولكن الدلالة على معنى النفى بالاستفهام وراءها مغزى بلاغى يمكن إيجازه فيما يلي:

١ـ تنبيه المخاطب، وتحريك مشاعره، وإثارة فكره، ليقف على معنى النفى، ويدرك ما يرمى إليه.

٢ـ عدم مواجهة المخاطب بصريح النفى يكون أدعى له للنظر وتدبر ما يراد نفيه، والمبادرة إلى الإجابة، وتحقيق ما يرمى إليه النفى.

وتأمل دلالة الاستفهام على النفى فى الآيات الكريمة: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾.. ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ﴾.. ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[2] فسيتضح لك ما قلناه، ويتبين لك ما أفاده الاستفهام من تنبيه وتحريك، وما أدى إليه من حث المخاطب على الإجابة والامتثال، حيث لم يواجه بصريح النفى، الذى قد يكون مثبطا ومقعدا له عن الإجابة، وتحقيق ما يرمى إليه النفى.

---

(١) سورة الفتح آية ١١.

(٢) الآيات بالترتيب: العنكبوت ٦٨، البقرة ١١٤، الأحقاف ٣٥.

هذا والمعانى البلاغية التى يفيدها الاستفهام كثيرة، ولا يمكن الإحاطة بها، ومنها بالإضافة لما ذكرناه: الدلالة على السخرية والتهكم كما فى قوله تعالى: ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ هود: ٨٧. والدلالة على الاستبعاد كما فى قوله تعالى: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ ق: ٣. والدلالة على الأمر كما فى قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ هود: ١٤. والدلالة على التحسر والندم كما فى قوله تعالى: ﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴾ القيامة: ١٠. والدلالة على التحقير كما فى قوله تعالى: ﴿ أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾ الفرقان: ٤١. إلى غير ذلك من المعانى البلاغية التى يفيدها الاستفهام(١). والذى نود أن ننبه إليه، أن الاستفهام قد أفاد هذه المعانى، ودل عليها بمعونة السياق، وقرائن أحواله ـ كما رأينا فى الآيات الكريمة ـ وأن معنى الاستفهام لا يتولى عند الدلالة على هذه المعانى، بل يظل باقيا، وقد نبه إلى ذلك كثير من العلماء كالفراء وعبد القاهر وغيرهما(٢).

ولذا يخطئ من يجعل هذه المعانى التى يفيدها الاستفهام معانى مجازية، ويجتهد فى أن يلتمس علاقات بين طلب الفهم الذى هو معنى الاستفهام، وبين تلك المعانى، إن الصواب ما أثبتناه، وهو أنها معان بلاغية دل عليها الاستفهام بمعونة السياق وقرائن أحواله.

النداء

النداء هو طلب الإقبال بحرف نائب مناب (أدعو) ليصغى المدعو إلى أمر ذى بال، وله حروف تعرف بحروف النداء، وهى الهمزة وأى لنداء القريب، و(يا .. آ .. آى .. أيا .. هيا .. وا ..) لنداء البعيد، ومما يلاحظ أن الأدوات الموضوعة لنداء البعيد يمتد بها الصوت، ويطول النطق، وذلك حتى يصل إلى المنادى البعيد صوت المنادى، فيسمع ويقبل، أما الحرفان الموضوعان لنداء القريب، فليس فيهما هذا الامتداد، لأن المنادى قريب، لا يحتاج إسماعه إلى طول النطق وامتداد الصوت.

ولم يقف النداء فى اللغة عند نداء الحى العاقل، بل تجاوزه، فنوديت الطيور

(١) ارجع إلى علم المعانى ٢/ ١٢٩.
(٢) انظر معانى القرآن ١/ ٢٣، ودلائل الإعجاز ١٥١.

والحيوانات والجمادات ومشاهد الطبيعة وأحوال النفس، نوديت الناقة والثور والأرض والجبال والسماء والفيافى والقبور والأطلال والديار والشمس والسحاب والبرق، ونوديت الحسرة والويل واللذة والبشرى والتمنى والحب والبغض، وغير ذلك من أحوال النفس، ووراء تلك النداءات التى توجه لغير العاقل الحى أغراض ومقاصد بلاغية، لأنه لا يراد بها طلب الإقبال الذى هو معنى النداء.

ولم يرد من حروف النداء فى النظم القرآنى سوى (يا) خاصة، والغاية من النداء القرآنى أن ينتبه المنادى فيصغى إلى ما يلقى إليه، لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامر ونواه، وعظات وزواجر، ووعد ووعيد، ونحو ذلك مما أنطق به كتابه، أمور عظام، ومعان ينبغى أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها[(١)].

انظر إلى الآيات الكريمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾.. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ ﴾.. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴾.. ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾.. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ ﴾.. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾.. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾[(٢)] تجد أن الذى ولى النداء فى الآيات الكريمة إما أمر أو نهى أو استفهام أو حكم شرعى، وتلك أمور ذات بال، ينبغى أن ينتبه لها المخاطب، ولذا سبقت بالنداء تهيئة وإيقاظا للمخاطب، لكى يصغى إلى تلك الأمور المهمة، فيقف عليها ويدرك المراد منها.

لم عبر فى تلك النداءات بـ (يا) الموضوعة لنداء البعيد، والله عز وجل أقرب إلى عباده من حبل الوريد؟

لعل ذلك يرجع إلى عظم هذه الأمور وأهميتها، فعدل عن نداء القريب إلى نداء البعيد، تنبيها للمخاطب، ولفتا له إلى تلك الأمور المهمة، ليبادر إلى الإجابة والامتثال، فكثيرا ما ينادى القريب نداء البعيد للإشعار بعظم الأمر المنادى له، اقرأ قوله تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾.. ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ

(١) انظر الكشاف ١/ ٢٢٦.

(٢) الآيات بالترتيب: المائدة ١، الحج ١، المدثر ١، الفجر ٢٧-٢٨، الصف ١٠، البقرة ١٨٣، المائدة ٨٧.

بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾[1] فلقمان ينادى ابنه، وهو قريب منه، ولكنه عدل إلى نداء البعيد للدلالة على عظم الشرك، والإشعار بمنزلة الصلاة، وأهمية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر، وهى الأمور المنادى لها، فهى أمور ذات شأن، ينبغى أن يلتفت إليها المخاطب، ليدرك أهميتها، فيبادر إلى الإجابة والامتثال، ومن أجل ذلك عدل عن نداء القريب إلى نداء البعيد.

وقد يكون العدول للدلالة على علو مكانة المنادى، والإشعار ببعد منزلته، تنزيلا للبعد المعنوى منزلة البعد المكانى، كما فى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾[2] حيث نادى إبراهيم ـ عليه السلام ـ أباه، وهو منه قريب، ولكنه آثر التعبير بـ (يا) الموضوعة لنداء البعيد، لينبئ بعظم منزلة الأب وسمو مكانته، وذا أدب الابن تجاه أبيه، ولو كان على غير دينه، هذا فضلا عن الإشعار بعظم الأمور المنادى لها: (قد جاءنى من العلم ما لم يأتك.. إنى أخاف أن يمسك عذاب.. لا تعبد الشيطان) والتى ينبغى أن يهيأ لها المنادى لينتبه ويصغى فيقف على كنه هذه الأمور ويبادر بالامتثال.

وانظر إلى هذه (التاء) فى قوله (يا أبت) إنها عوض عن (الياء) إذ الأصل: يا أبى، وقد عدل عن هذا الأصل إلى ما عليه النظم الكريم للمبالغة، والإشادة بمعنى الأبوة، والإشعار بما يجب لها من تقدير وتعظيم.

وقد يكون العدول للدلالة على انحطاط المنادى والإشارة إلى الرغبة فى إبعاده بغضا له وتحقيرا لشأنه، كما فى قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾[3] فالمنادى فى الموضعين قريب وقد استخدمت فى النداء (يا) الموضوعة لنداء البعيد لتشعر بالبغض والتحقير، وكأن الداعى لا يطيق النظر إلى المدعو، ويريد إبعاده وعدم مواجهته بالنداء.

وعند نداء الرب فى النظم القرآنى نجد أن حرف النداء قد طوى، ولنقرأ: ﴿ رَبَّنَا لَا

(١) سورة لقمان آية ١٣، ١٧.

(٢) سورة مريم آية ٤٤.

(٣) سورة الإسراء آية ١٠١، ١٠٢.

﴿تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ .. ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ .. ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ .. ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[1] وهذا الطى ينبئ بخضوع الداعى، ويشعر بشدة قربه من الله عز وجل.

ولم يرد ذكر حرف النداء (يا) عند دعاء الرب ـ عز وجل ـ فى النظم الكريم إلا فى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾[2] وقوله عز وجل: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[3] ومجيء حرف النداء (يا) فى الموضعين يشعر بشدة أسى الرسول ﷺ لإعراض قومه عن القرآن وفيه ذكرهم، وتخليهم عن الإيمان وفيه نجاتهم، لقد جد ﷺ فى إنذارهم وتبليغهم رسالة ربه، وكلما جد فى التبليغ والإنذار لجوا فى طغيانهم يعمهون، وهذا ما يحزنه، وهجرهم للقرآن يضاعف أحزانه وآلامه، وكأنه ﷺ قد وجد فى امتداد الصوت عند النطق بهذا الحرب (يا) متنفسا لتلك الأحزان والآلام.

ولهذا جاء عقب النداءين قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[4] وقوله عز وجل: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[5] تسلية له ﷺ وتسرية عنه.

وقد نودى غير العاقل الحى فى النظم الكريم، فمن ذلك نداء الجبال والطير، والأرض والسماء، فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾[6] وقوله عز وجل: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾[7] وهذا النداء يؤذن بقدرة الله عز وجل، الذى سخر الأشياء، والذى يقول للشيء كن فيكون، فالأرض والسماء، والطير والجبال، والريح والسحاب، وكل ما فى الكون جنود مسخرة بأمر الله، هو ـ وحده ـ خالقها، وهو القادر جل شأنه على تصريفها وتسخيرها، وندائها وأمرها.

---

(١) الآيات بالترتيب: آل عمران ٨، البقرة ٢٥٠، الأنبياء ١١٢، البقرة ٢٦٠.
(٢) سورة الفرقان آية ٣٠.
(٣) سورة الزخرف آية ٨٨.
(٤) سورة الفرقان آية ٣١.
(٥) سورة الزخرف آية ٨٩.
(٦) سورة سبأ آية ١٠.
(٧) سورة هود آية ٤٤.

وانظر فى قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ﴾[1] وقوله عز وجل: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾[2] إن الظالم يوم القيامة يعض على يديه ندما وتحسرا على تفريطه فى جنب الله، لا تكفيه يد واحدة يعض عليها، بل يعض على كلتا يديه، يداول بين هذه وتلك، وينادى الويل والحسرة، (يا ويلتى.. يا حسرتى) وهذا النداء يشعر بشدة الأسى والندم، وكأنه يقول: يا ويلتى ويا حسرتى، أقبلا فهذا أوانكما، فهو لفرط ما هو فيه، صار يتخيل أن الويل والحسرة يسمعان ويجيبان نداداهما، وهذا ينبئ بالحيرة والتخبط، ويشعر بالتحسر والندم.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ﴾[3] حيث نوديت البشرى للدلالة على الفرح والسرور، وكأنه يريد: يا بشرى أقبلى فهذا أوان حضورك، إن نداء البشرى فى الآية الكريمة يدل على فرط السرور وغاية الاستبشار بالغلام الذى عثر عليه.

وفى قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾[4] نجد فى الآية الكريمة نداءين:

أولهما: فى قوله (اللهم) إذ الأصل: يا الله، فحذف حرف النداء (يا) وعوض عنه الميم المشددة.

ثانيهما: فى قوله (مالك الملك) فهو نداء، وليس وصفا، لأن الميم تمنع جعله وصفا.. وقد حذف منه حرف النداء أيضا[5].

ووراء حذف الحرف (يا) فى الموضعين، والتعويض بالميم المشددة معنى لطيف، وهو أن يتصل لفظ الجلالة (اللهم) بكلمة (مالك) دون أن يحول بينهما حائل فى اللفظ.

(١) سورة الفرقان آية ٢٧، ٢٩.
(٢) سورة الزمر آية ٥٦.
(٣) سورة يوسف آية ١٩.
(٤) سورة آل عمران ٢٦.
(٥) انظر تفسير أبى السعود ٢/ ٢١.

ولننعم النظر عند النطق بالآية الكريمة **"قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْـمُلْكِ"** نجد أن الميم المشددة فى (اللهم) قد تلتها الميم المفتوحة من لفظ (مالك) وعند النطق الشفتان تطبقان عند الميم الساكنة من لفظ (اللهم) وتفتحان عند الميم المتحركة منه، فتصل هذه الميم المتحركة المفتوحة بميم (مالك) وهى أيضا محركة بالفتح، حرفان مثلان وحركتهما واحدة، كيف يكون النطق بهما؟ سهولة ويسر، وسرعة بالغة.

هذا ما أفاده الحذف والتعويض بالميم المشددة، لقد أفاد شدة اتصال (مالك الملك) والتصاقه بالله عز وجل، ووراء هذا الاتصال والالتصاق الشديد بين اللفظين (اللهم ومالك) الدلالة على انفراده تعالى بالملك، وخضوعه التام له، بلا منازع ولا شريك، يؤتيه عز وجل من يشاء، وينزعه ممن يشاء.

القسم

القسم من الإنشاء غير الطلبى، لأنه لا يطلب به مطلوب غير حاصل وقت الطلب، وإنما يأتى لتوكيد الأخبار، وللدلالة على تعظيم المقسم به والمقسم عليه، ونحو ذلك من الأغراض التى يأتى القسم للدلالة عليها.

وهو فى الأصل خبر نقل إلى الإنشاء، انظر إلى الآيات الكريمة: **﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾** ... **﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ ﴾**... **﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ﴾**... **﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ﴾** [(١)] فهذه أخبار دلت على القسم، ولما كان القسم مما يكثر فى الكلام، اختصر بحذف فعل القسم، واكتفى بالباء، فقيل: بالله لأفعلن كذا، والأصل: أقسم بالله، ثم عوض عن الباء الواو فى الأسماء الظاهرة، والتاء فى اسم الله تعالى[(٢)].

فحروف القسم هي: الباء كما رأينا فى الآيات الكريمة، والواو كما فى قوله تعالى: **﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾** [(٣)] والتاء كما فى قوله عز وجل:

---

(١) الآيات بالترتيب: الأنعام ١٠٩، والتوبة ٥٦، ٧٤، والنور ٥٣.

(٢) انظر الإتقان ٤/ ٤٩.

(٣) سورة النجم آية ١، ٢.

﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴾.. ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾[1].

وقد كثر القسم فى النظم القرآنى، حيث أقسم عز وجل بنفسه، قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾[2] فهو عز وجل يقسم بنفسه و(لا) زائدة لتأكيد معنى القسم، وقيل لتظاهر النفى فى جواب القسم (لا يؤمنون).

وأقسم بالنبى ﷺ فى قوله تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[*] وفى هذا القسم تعظيم للنبى ﷺ وإظهار لمكانته عند ربه، قال ابن عباس: "ما خلق الله ولا ذرأ ولا برأ نفسا أكرم عليه من محمد ﷺ وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره" ثم قرأ ـ رضى الله عنه ـ هذه الآية الكريمة[3].

وأقسم عز وجل بكثير مما خلق، أقسم بالقرآن وبالسماء والأرض، وبالنجوم ومواقعها، وبالشمس والقمر والليل والفجر والصبح والضحى والعصر، وأقسم بالمرسلات والصافات والعاديات والنازعات والذاريات، وأقسم بالبلد الأمين، وبالتين والزيتون وطور سينين، وبيوم القيامة، وبما نبصر وما لا نبصر من عجائب خلقه، وبدائع صنعه، وقسمه عز وجل بهذه المخلوقات يدل على أنها من عظائم آياته، ودلائل قدرته.

وجاء القسم على لسان الخلائق فى النظم الكريم، جاء على لسان الأنبياء، قال تعالى: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴾[4] وجاء على لسان إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ فى قوله: ﴿ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾ ... ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾[5] وجاء على لسان

(١) الآيتان بالترتيب الأنبياء ٥٧، ويوسف ٩١.
(٢) سورة النساء آية ٦٥.
(*) سورة الحجر آية ٧٢.
(٣) انظر الإتقان ٤/ ٤٨.
(٤) سورة الأنبياء آية ٥٧.
(٥) سورة يوسف آية ٨٥، ٩١.

إبـليس: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ص: ٨٢، وعلى لسان المنافقين: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ﴾ النور: ٥٣ ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ التوبة: ٦٢، وعلى لسان الكفار يوم القيامة: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾[1].

ومما يلاحظ أن ما جاء فى النظم الكريم من قسم على لسان الخلائق، لم يكن إلا بالله تعالى وصفاته وأفعاله، وهذا يدل على أنه لا يجوز لأحد من الخلق أن يقسم إلا بالله، وقد صرحت السنة بذلك، حيث يقول ﷺ: "من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت" أما قسمه عز وجل، فقد جاء بنفسه وبغيره مما خلق ـ كما رأينا ـ فهو تبارك وتعالى يقسم بما يشاء من خلقه، وينادى من يشاء، ويأمر من يشاء[2].

(١) سورة الأنعام: آية ٣٠.

(٢) ارجع إلى ص ٢٠٠.

ما الذى أقسم عليه القرآن؟

وقفنا إجمالا على ما أقسم به عز وجل، وعرفنا أن هذه الأمور التى أقسم بها تبارك وتعالى، تدل على عظائم قدرته، وعجائب صنعه، وبدائع خلقه، فما الذى أقسم عليه عز وجل بنفسه وبتلك الأمور؟

لقد أقسم تبارك وتعالى على أصول الإيمان التى يجب الوقوف عليها، والإيمان بها، أقسم على أنه إله واحد، ليرتدع الكفار، وينزجر المشركون، قال تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ﴾[1] وأكد عز وجل ما أقسم عليه فى الآية بربوبيته للسموات والأرض وما بينهما، وللمشارق والمغارب، حثا على النظر والتأمل، وزجرا للمعاندين المعرضين.

وأقسم على أن محمدا رسول الله، منزه عما اتهم به، ما ضل وما غوى ، ولا ضن بما أرسل به إليه: ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾.. ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ﴾ ... ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ۝٢٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴾[2].

---

(١) سورة الصافات آية ١ـ٥.

(٢) الآيات بالترتيب يس ١ـ٣، النجم: ١، ٢، التكوير: ١٥ـ٢٥.

وأقسم على أن القرآن حق، وأنه منزل من رب العالمين، قام بتبليغه رسول كريم: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.. ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (١).

وأقسم على تأكيد الوعد والوعيد: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴾(٢) وعلى تأكيد أحوال الإنسان التى فطر عليها: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾.. ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ .. ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ .. ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾.. ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ .. ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾(٣).

وأما القسم الذى جرى على لسان الخلائق، فيختلف باختلاف المقسم، فإبراهيم ـ عليه السلام ـ يقسم بالله على أنه سيكيد الأصنام، ويجعلها جذاذا، وإبليس ـ لعنه الله ـ يقسم بعزة الله على إغوائه الخلق أجمعين إلا عباد الله المخلصين، وعلى أنه سيقعد لهم الصراط المستقيم، وإخوة يوسف يقسمون بالله على أن أباهم ـ عليه السلام ـ لفى ضلاله القديم، أي: خطئه وإفراطه فى حب يوسف ـ عليهما السلام ـ وأنه سيظل يذكره حتى يكون حرضا أو يكون من الهالكين، ولما تبين لهم أن العزيز هو يوسف، أقسموا على أن الله قد آثره عليهم، وأنهم كانوا خاطئين، والكفار يوم القيامة يقسمون بربهم، وهم يتحسرون على ما فرطوا فى جنب الله، يقسمون على أن ما جاءهم حق، وما يصلونه من العذاب حق.

وفى مواقع كثيرة من مواقع القسم فى النظم القرآنى، نجد حذف جواب القسم، أو حذف القسم وبقاء جوابه، وهذا الحذف لا يكون إلا لداع بلاغى يقتضيه المقام.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ

---

(١) الآيات بالترتيب: الواقعة ٧٥ـ٨٠، الحاقة ٣٨ـ٤٣.

(٢) سورة الذاريات آية ٥، ٦.

(٣) الآيات بالترتيب: العاديات ٦، العصر ٢، الليل ٤، الذاريات ٨، التين ٤، البلد ٤.

﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾[1] فقد حذف القسم لوضوحه وظهوره، ودلالة اللام عليها والتقدير: والله لتبلون، ولا يخفى عليك أن القسم فى الآية الكريمة قد أكد هذه المعاني: الابتلاء فى الأموال والأنفس، وسماع الأذى من أهل الكتاب والمشركين، وفى هذا حث على الصبر الذى صرح به فى ختام الآية الكريمة ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

ومنه قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[2]. إذ المعنى: والله لئن أشركت، فحذف القسم لظهوره ودلالة اللام عليه، وفى توجيه هذا الوعيد إلى النبى ـ ﷺ ـ ما يشعر بعظم الشرك، فإذا كان محمد ـ ﷺ ـ وهو من الله بمكان، يقال له هذا فما بالنا بغيره من المتقاصرين.

وشىء آخر وراء هذا الوعيد، وهو الإشارة إلى أن محمدا ـ ﷺ ـ بشر، يؤمر وينهى ويتوعد، شأنه فى ذلك شأن البشر، ويجرى عليه ما يجرى عليهم، إن له منزلة عالية، وهى منزلة النبوة، واصطفاء الله تعالى له، لكن لا يتجاوز ذلك إلى مرتبة الألوهية، فهو بشر رسول ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[3].

ومما حذف فيه جواب القسم قوله تعالى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾[4]. فقد حذف جواب القسم فى الآية الكريمة، وفى حذفه حث على النظر وتدبر القرآن، للوصول إلى الجواب الذى أقسم الله عليه، إنه يقسم بالقرآن المجيد هنا، وفى سورة (ص) يقسم بالقرآن ذى الذكر ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾[5] وفى الموضعين طوى الجواب لتذهب النفس كل مذهب فى تقديره، فقد قالوا إن المعنى: والقرآن المجيد إنك لمنذر، وقيل إن المراد: والقرآن ذى الذكر إنا أنزلناه بالحق لتنذر به الناس، وقيل تقديره: لتبعثن، فالغرض من طى الجواب حث النفس على تأمل القرآن، وتدبر آياته، للوقوف على ما يريده الله تعالى، والإحاطة بما وراء القسم من معان جليلة.

---

(١) آل عمران: ١٨٦.

(٢) الزمر: ٦٥.

(٣) الإسراء: ٩٣.

(٤) ق: ١، ٢.

(٥) سورة ص: الآيتان ١، ٢.

وما من ريب فى أن جواب القسم لا يحذف إلا إذا كان فى القسم دلالة عليه، وإشعار به، ولذا يكون حذفه أبلغ وأوجز، فالقسم فى الآيتين الكريمتين بالقرآن المجيد ذى الذكر، وهذا يدل على أن القرآن وما نطق به حق، وتذهب النفس فى تقدير الجواب المحذوف كل مذهب فى ضوء ما أشعر به القسم.

وانظر فى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾ [(1)] فقد طوى جواب القسم فى الآية لدلالة القسم والتقرير بالاستفهام عليه، والمعنى: قالوا: بلى وربنا إنه لحق، ويشعر طيه بما ينتاب أولئك الكفرة ويعتريهم من أحزان وآلام، وندم وتحسر، وكأن الكلمات ـ لشدة ما هم فيه ـ لا تسعفهم لإتمام الجواب.

هذا وبإنعام النظر فى القسم القرآنى يتجلى لنا التناسب التام بين القسم وجوابه، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا ﴾[(2)] تجد التلاؤم واضحا بين القسم (تالله) وجوابه (تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا) فلما كان القسم بأغرب حروفه وهو التاء، فقد جاء الجواب بأغرب الأفعال الناسخة وهو (تفتأ) وبأغرب ألفاظ الهلاك وهو (الحرض) وهذه الغرابة فى القسم وجوابه تتلاءم مع غرابة المطلب، فليس هنالك أغرب ولا أعجب من أن يطلب من والد أن ينسى فلذة كبده.

وقد حذف الحرف (لا) من جواب القسم، إذ التقدير: تالله لا تفتأ وهذا الحذف يشعر أيضا بغرابة المطلب، ورغبة الأبناء فى طى يوسف ونسيانه، وإبعاده عن خيال أبيهم[(3)].

وفى قوله تعالى: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾[(4)] أقسم عز وجل بآيتين عظيمتين من آياته وهما (الضحى والليل إذا سجى). يقول السيوطى مجليا التلاؤم بين هذا القسم وجوابه: "وتأمل مطابقة هذا القسم، وهو نور

(1) سورة الأنعام: آية ٣٠.
(2) يوسف: ٨٥.
(3) ارجع إلى ص ٩٩.
(4) الضحى: ١ـ٣.

الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه: ودع محمدًا ربه، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل، على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه"[1].

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴾[2] حيث تجلى التقابل فى القسم بين الليل وغشيانه والنهار وتجليه. وبين الذكر والأنثى، ولما تجلى هذا التقابل وبرز فى القسم، جاء الجواب (إن سعيكم لشتى) مبينا التفاوت فى السعى، ثم استمر هذا التقابل فى السورة الكريمة بين (الإعطاء والتقوى والتصديق) و(البخل والاستغناء والتكذيب) وبين التيسير لليسرى والتيسير للعسرى، وبين الأشقى الذى كذب وتولى، والأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى.

وخذ قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمۡ لَفِى قَوۡلٍ مُّخۡتَلِفٍ ﴾[3] تجد تلاؤم جواب القسم (إنكم لفى قول مختلف) مع هذا الوصف الذى وصفت به السماء (ذات الحبك) فالحبك هى الطرائق، ولما كان هذا الوصف مشعرا بالتشعب والاختلاف، جاء الجواب (إنكم لفى قول مختلف) مبرزا اختلافهم وتناقضهم فى وصف النبى - ﷺ - ووصف القرآن، بالسحر والشعر والجنون والكهانة، وكونه أساطير الأولين، وقول الكفرة لا يكون مستويا إنما هو متناقض مختلف[4].

وبهذا يتبين لنا وضوح التناسب بين القسم وجوابه، أي: بين المقسم به والمقسم عليه فى النظم الكريم، وقد يدق هذا التناسب ويخفى عند النظرة العاجلة، ولكنه يتضح ويتجلى بالتأنى وإنعام النظر فى سياق الآيات الكريمة.

وضع الخبر موضع الإنشاء والإنشاء موضع الخبر

قد يقتضى ظاهر السياق والمقام استعمال (الإنشاء) ولكن المتكلم يعدل عنه إلى الخبر لداع بلاغى، وقد يقتضى التعبير بالخبر فيعدل عنه إلى الإنشاء لغرض يقصد إلى تحقيقه.

---

(١) الإتقان ٤/ ٥١.
(٢) سورة الليل: ١-٤.
(٣) سورة الذاريات: ٧، ٨.
(٤) انظر الكشاف ٤/ ١٤.

فمما عدل فيه عن الإنشاء إلى الخبر قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[١] إذ جملة (يغفر الله لكم) جملة دعائية، فهى خبرية لفظا، إنشائية معنى، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: اللهم اغفر لهم، ولكنه عدل إلى الخبر إظهارا لرغبته ـ عليه السلام ـ فى تحقق المغفرة ووقوعها[٢].

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ﴾[٣] فالمراد بقوله: (أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين) الأمر بحفظ المساجد، والتصدى لأولئك المفسدين الذين يسعون فى تخريبها، وتخويفهم ومنعهم من دخولها، والمعنى: احفظوا مساجد الله، وخوفوا أولئك المفسدين، ولا تمكنوهم من دخولها.

وقد عدل عن الأمر إلى الخبر لحث المسلمين على حفظ المساجد، والتصدى للكفار الذين يريدون تخريبها، والإسراع إلى امتثال أمر الله وتنفيذه حتى يصبح خبرا واقعا وأمرا محققا.

ولذا لا يعترض معترض بأن الخبر فى الآية يتناقض مع الواقع حيث يدخل الكفار بيوت الله ولا يخافون، لأن المعنى ـ كما بينا ـ على الإنشاء، وحث المسلمين على تحقيق ذلك.

ونحوه قول المصطفى ـ ﷺ ـ: "لا يجتمع دينان فى جزيرة العرب" إذ المراد النهى عن الاجتماع، أي: لا تجمعوا فى جزيرة العرب دينين، وقد جاء هذا النهى خبرا، لحمل المسلمين على تحقيق ذلك وتحصيله، ولحثهم على الجهاد فى سبيل الله، ورفع راية الإسلام حتى لا تعلوها راية.

ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾[٤] حيث وضع الخبر (تزرعون سبع سنين دأبا) موضع الإنشاء، لأن المراد الأمر بالزراعة بدليل قوله تعالى: (فما حصدتم فذروه فى سنبله) والغرض

---

(١) يوسف: ٩٢.
(٢) انظر الكشاف ٢/ ٣٤٢.
(٣) البقرة: ١١٤.
(٤) يوسف: ٤٧.

من وضع الخبر موضع الإنشاء فى الآية الكريمة: الحث على تحقق الفعل ووقوعه، ورغبة يوسف ـ عليه السلام ـ فى أن يوجد، حتى وكأنه قد وجد وتحقق، وصار خبرا يخبر بوقوعه ويحكى وجوده.

ومثله قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ ﴾[1] المعنى على الأمر بالإيمان والجهاد، وقد عبر بالخبر (تؤمنون.. وتجاهدون) ووضع موضع الإنشاء للحث على تحقق الإيمان والجهاد فى سبيل الله، وكأنهما قد تحققا، وصارا خبرين يخبر عن وجودهما ووقوعهما.

يقول الزمخشري: "وهو خبر فى معنى الأمر، ولهذا أجيب بقوله (يغفر لكم) وتدل عليه قراءة ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ: آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا، فإن قلت: لم جيء به على لفظ الخبر؟ قلت: للإيذان بوجوب الامتثال، وكأنه امتثل فهو يخبر عن إيمان وجهاد موجودين، ونظيره قول الداعي: غفر الله لك، ويغفر الله لك، جعلت المغفرة لقوة الرجاء كأنها كانت ووجدت"[2].

وتأمل الآيات الكريمة: ﴿ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ ﴾.. ﴿ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِ ﴾.. ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾[3] تجد أن المراد بهذه الأخبار (يتربصن.. يرضعن.. لا يمسه) الإنشاء، أي: الأمر بالتربص والإرضاع، والنهى عن مس المصحف إلا على طهارة، وقد عدل عن التعبير بالإنشاء إلى الخبر فى الآيات للحث على تحقق هذه الأفعال، والالتزام بها، وكأنها قد تحققت، وأصبح من الممكن الإخبار عنها.

وكذا القول فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا ﴾[4] فقد عدل عن الإنشاء إلى الخبر فى قوله: (لا تعبدون إلا الله) للحث على تحقيق العبادة ووقوعها والإشعار بأن هذا الأمر ينبغى أن يمتثل، وأن يبادر إلى تحقيقه حتى يصبح خبرا من الممكن أن يخبر عنه ويحكى.

---

(١) الصف: ١٠، ١١.
(٢) الكشاف ٤/ ٩٩، ١٠٠.
(٣) الآيات بالترتيب، البقرة ٢٢٨، ٢٣٣، الواقعة ٧٧ـ٧٩.
(٤) البقرة: ٨٣.

ومما عدل فيه عن الخبر إلى الإنشاء قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ﴾(١) فظاهر السياق يقتضى أن يعبر بالخبر فيقال: أماتهم الله ثم أحياهم، ولكنه عد إلى التعبير بالأمر للدلالة على أنهم قد ماتوا جميعًا دفعة واحدة، لم يتخلف منهم أحد، وتلك ميتة خارجة عن العادة لا تقع إلا بأمر الله، الذى إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون.

يقول الزمخشري: "فإن قلت: ما معنى قوله (فقال لهم الله موتوا) قلت: معناه فأماتهم، وإنما جيء به على هذه العبارة، للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد، بأمر الله ومشيئته، وتلك ميتة خارجة عن العادة كأنهم أمروا بشيء فامتثلوه امتثالا من غير إباء ولا توقف"(٢).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾(٣) وقوله عز وجل: ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ﴾(٤) فالمعنى: أمر ربى بالقسط وبإقامة وجوهكم.. قال: إنى أشهد الله وأشهدكم، فعدل عن الخبر إلى الأمر فى الآيتين لأغراض بلاغية سبق بيانها عند حديثنا عن المخالفة فى صيغ الأفعال، فارجع إليها(٥).

الفصل والوصل

قال تعالى:

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ الواقعة: ١-٣.

﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ﴾ التوبة: ١١٢.

﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ آل عمران: ١٧

---

(١) البقرة: ٢٤٣.
(٢) الكشاف: ١/ ٣٨٧.
(٣) الأعراف: ٢٩.
(٤) هود: ٥٤، ٥٥.
(٥) انظر ص ١٤٩.

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ الكهف: ٢٢.

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ الشعراء: ٢٠٨.

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ الحجر: ٤.

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ البقرة: ٢٤٥.

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ البقرة: ١٤، ١٥.

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ الانفطار: ١٣، ١٤

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ آل عمران: ٢٦.

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ الأعراف: ٣١.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ البقرة: ٨٣.

﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ هود: ٥٤.

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ الغاشية: ١٧/ ٢٠.

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ البقرة ١،٢ .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ لقمان: ٧.

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ الشعراء: ١٣٢-١٣٤.

﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ يس: ٢٠، ٢١.

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ طه: ١٢٠.

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾ البقرة: ٤٩.

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ فصلت: ٣٤

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ طه: ٨، ٩.

﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ الحج: ٥.

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ يوسف: ٣٠.

﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ يوسف: ٣١.

تتكون الجملة من ألفاظ يضم بعضها إلى بعض وفق أسس وضوابط، ويتكون الكلام من جمل يتصل بعضها ببعض، وتتشابك وتتلاحم، هذا التشابك وذاك التلاحم له ضوابط، وله أسس وأصول ينبغى الإحاطة بها والتنبه لها.

فالعلاقات بين الجمل، والترابط بين المفردات، يقوم على أسس وضوابط، وتلك الأسس والضوابط تحتاج إلى وعى من الدارس، لكى يقف عليها ويحيط بها، فهناك حروف تستخدم فى الربط بين الجمل، وفى ربط المفردات، وهى حروف العطف، وهناك جمل يقوى الاتصال بينها ويشتد، فلا تحتاج إلى هذه الحروف، حيث تغنى عنها قوة الاتصال الداخلى بين تلك الجمل، وهناك جمل تتباعد فلا يتأتى فيها الوصل بحروف العطف.

وقد شغل البلاغيون بذلك ودرسوا هذه العلاقات فى باب (الفصل والوصل) ويعد هذا الباب من أهم أبواب البلاغة، لخفائه، ودقة مسالكه، وصعوبة مسائله، ولهذا جعلوه البلاغة، فقالوا فى إجابة السائل عنها: البلاغة معرفة الفصل من الوصل(١).

وعندما ننعم النظر فى مفردات الجملة فى القرآن الكريم، ونتأمل كيف يتم الربط بينها، وننظر بوعى فى العلاقات بين الجمل، ونتأمل كيف تتلاقى، يتجلى لنا العديد من الأسرار والمزايا واللطائف التى تكمن وراء نظم المفردات والجمل فى آيات الذكر الحكيم.

انظر فى قوله تعالى: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾(٢) نجد هذين الوصفين (خافضة رافعة) قد أتيا متصلين بلا عاطف للدلالة على المبالغة فى التهويل والتفظيع، فهذا الاتصال يدل على أنها تخفض وترفع فى آن واحد، وفى سرعة خاطفة، ولو عطف الوصفان فقيل: خافضة ورافعة، لخفت هذا المعنى، وزال أثره.

ومن البين أن الخافض الرافع على الحقيقة هو الله تعالى، يخفض أقواما ويرفع آخرين، يخفض أعداءه فى أسفل الدركات، ويرفع أولياءه إلى أعلى الدرجات، وقد نسب الخفض والرفع إلى الواقعة تجوزا للدلالة على المبالغة فى أهوال ذلك اليوم، كما قدم الخفض على الرفع من أجل ذلك.

لقد بنى الكلام على المبالغة فى التهويل والتفظيع، فقدم الخفض، ونسب هو والرفع إلى الزمان (الواقعة) تجوزا، وأتيا ملتحمين (خافضة رافعة) بلا عطف، فسياق الكلام وما بنى عليه، يرفض مجيء الواو ويأباها، لمناقضتها للغرض المقصود منه.

وانظر فى الآيتين الكريمتين: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ﴾.... ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾(٣) تجد فى آية التوبة أن الصفات قد توالت

---

(١) انظر: البيان والتبين ١/ ٨٨.

(٢) سورة الواقعة: ١ـ٣.

(٣) الآيتان بالترتيب، التوبة: ١١٢، آل عمران: ١٧.

بلا عطف ما عدا الصفات الثلاث الأخيرة فقد جاءت معطوفة، وفى آية آل عمران جاءت الصفات معطوفة، علام يدل ذلك؟ وما الغرض من مجيء الواو وتركها بين هذه الصفات؟

إن مجيء الواو بين الصفات يدل على كمال أولئك الموصوفين فى كل صفة على حدة، وتركها يدل على أنها مجتمعة فيهم، وكأنها صفة واحدة، فمجيء الواو دل على كمال الموصوفين فى كل صفة من الصفات المذكورة، وتركها دل على كمال اجتماع هذه الصفات فى الموصوفين[١].

ففى آية التوبة جاءت الصفات: (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون) بلا عطف، فدل ذلك على اجتماع تلك الصفات فى المؤمنين، وأن اجتماعها فيهم قد بلغ الغاية والكمال، حتى كأنها صفة واحدة، وجاءت الصفات: (الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله) معطوفة بالواو فدل ذلك على أنهم قد بلغوا الغاية والكمال فى كل صفة منها على حدة.

وكذا مجيء الواو فى آية آل عمران: (الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار) دل مجيء هذه الواو على أن الذين اتقوا قد بلغوا الغاية وحد الكمال فى كل صفة من الصفات المذكورة.

وتأتى الواو بين الصفة وموصوفها، أو بين الحال وصاحبها فيكون للكلام معنى يختلف عنه عند عدم مجيئها، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾[٢] مجيء الواو بين الصفة وموصوفها فى قوله: (ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم) يؤذن بصحة هذا القول وصوابه، حيث دلت على تأكيد لصوق الصفة بموصوفها،وكأنهم قد قالوا قولين، قالوا هم سبعة، وقالوا ثامنهم كلبهم، ومرد ذلك إلى ما فى الواو من معنى المغايرة، وهذان القولان يؤكد كل منهما الآخر، وهو ما آذن بصحة هذا القول ودل على صوابه، ولذا جاء عقبه (قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم

(١) انظر الكشاف ١/ ٤١٧.

(٢) سورة الكهف آية ٢٢.

إلا قليل). ولم تأت الواو بين الصفة وموصوفها فى القولين الآخرين: (ثلاثة رابعهم كلبهم... خمسة سادسهم كلبهم) حيث لم يرد هذا التأكيد لعدم صحة القولين، ولذا جاء عقبهما قوله تعالى: (رجما بالغيب).

يقول الزمخشري: "فإن قلت: فما هذه الواو الداخلة على الجملة الثالثة، ولم دخلت عليها دون الأوليين؟ قلت: هى الواو التى تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة، كما تدخل على الواقعة حالا عن المعرفة فى نحو قولك: جاءنى رجل ومعه آخر، ومررت بزيد وفى يده سيف، وفائدتها تأكيد لصوق الصفة بالموصوف، والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت ومستقر، وهذه الواو هى التى آذنت بأن الذين قالوا (سبعة وثامنهم كلبهم) قالوه عن ثبات علم وطمأنينة نفس، ولم يرجموا بالظن كما رجم غيرهم، والدليل عليه أن الله سبحانه أتبع القولين الأولين قوله (رجما بالغيب) وأتبع الثالث قوله (ما يعلمهم إلا قليل)"[1].

فالواو تأتى بين الصفة وموصوفها عندما يقتضى المقام تأكيد المعنى وتثبيته، لأنها تدل على تأكيد لصوق الصفة بموصوفها، وعلى أن اتصافه بها أمر ثابت ومستقر، تأمل الآيتين الكريمتين:

﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴾.. ﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴾[2] تجد أن الواو قد جاءت بين الصفة وموصوفها فى آية الحجر، ولم تأت فى آية الشعراء، ويرجع ذلك إلى أن الكتاب المعلوم مما يتأتى فيه الإنكار والإخفاء، فاقتضى ذلك مجيء الواو تأكيدًا للصوق الصفة بموصوفها، ودفعًا لما قد يقع من إنكار، أما المنـذرون فلا يتأتى إنكارهم، ولذا خلت الآية من الواو، لأن المعنى لا يحتاج إلى توكيد.

وعندما تتلاقى الجمل يدق المسلك، ويكون لواو العطف عندئذ شأن، ويحتاج الدارس إلى مزيد من إنعام النظر فى تلك الجمل المتلاقية، ليدرك ما بينها من صلاة وروابط، وليعرف متى يؤتى بالواو بين هذه الجمل، ومتى يمتنع الإتيان بها.

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٧٩.

(٢) الآيتان بالترتيب: الحجر ٤، والشعراء ٢٠٨.

ففى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[1] تلاقت هذه الجمل: (إنا معكم.. إنما نحن مستهزءون.. الله يستهزئ بهم.. ويمدهم فى طغيانهم) وجاءت الثلاث الأولى بلا عطف، ثم عطفت الرابعة على الثالثة بواو العطف.. ما سبب ذلك؟

إن الجملة الثانية: (إنما نحن مستهزءون) مؤكدة للأولى (إنا معكم) فهى شديدة الاتصال بها، وهذا يمنع مجيء الواو، إذ بين الجملتين من التلاحم والوصل الداخلى ما يمنع الوصل الخارجى بحرف العطف.

وأما الجملة الثالثة: (الله يستهزئ بهم) فلا يتأتى عطفها على الجملتين السابقتين، لأنها ليست من مقول المنافقين، ولا يتأتى عطفها على قولهم، أي: على جملة (قالوا) لأن استهزاء الله بهم ليس مقيدا بوقت خلوهم إلى شياطينهم، وكذلك يمتنع عطفها على الجملة الشرطية (إذا خلوا..) لأنه وإن صح عطفها عليها إلا أن هذا العطف يوهم أنها معطوفة على قول المنافقين أو على مقولهم، ولذا وجب الفصل.

أما مجيء الواو بين جملتي: (الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم) فلأن الغرض هو الإخبار عن الله تعالى بهذين الخبرين، والدلالة على أنه تعالى يفعل بهم أمرين: الاستهزاء والمد فى الطغيان، ولو تركت الواو فقيل: (يستهزئ بهم يمدهم فى طغيانهم) لتغير المعنى، إذ يصبح المفهوم أن الله تعالى يجازيهم بجزاء واحد هو الاستهزاء الذى فسر بالمد فى الطغيان، وهذا غير مراد.

وتأمل قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2] تجد أن الواو قد جاءت بين هذه الجمل: (يقبض.. يبسط.. إليه ترجعون) لأن الغرض الإخبار بها عن الله تعالى، والدلالة على اختصاصه بها، ولا يتأتى ترك الواو بين هذه الجمل لأنه لا سبيل للوصل بينها إلا بها.

والآية مسوقة للحث على الإنفاق فى سبيل الله، حيث بدأت بالاستفهام، ثم جعلت

(١) سورة البقرة: الآيتان ١٤، ١٥.

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٥.

المنفق مقرضا لله تعالى، وعجلت له الجزاء المضاعف، كما تنبئ بذلك هذه الفاء (فيضاعفه) واختتمت بالجملة الحالية (والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون) التى دلت على اختصاصه تعالى بالقبض والبسط وكون الرجوع إليه، لقد تضاعفت وسائل الحث على الإنفاق ـ كما ترى ـ والذى نود أن نلفت إليه وننبه عليه، أن أجزاء الجملة الحالية يجب وصلها بالواو، إذ لا يستقيم نظمها إلا بهذا الوصل.

وكذا القول فى قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[(١)] توالت هذه الجمل التى تكشف عن قدرة الله تعالى وكمال ملكه، ووصل بينها بالواو: (تؤتى الملك.. وتنزع الملك... وتعز... وتذل...) ثم فصلت جملة: (بيدك الخير) عن هذه الجمل، لأنها جملة تعليلية، تبين سبب اختصاصه تعالى بما تقدم، والجمل التى هذا شأنها لا تعطف بالواو، لأن بينها وبين ما تقدم وصلا يمنع هذا العطف.

ثم جاءت جملة: (إنك على كل شىء قدير) مؤكدة لهذه الجملة التعليلية، ملتحمة بها، فامتنعت الواو كذلك، لما بين الجملتين من وصل قوى منع الوصل الخارجى بالواو.

وقد وضع البلاغيون ضابطًا يحدد الجمل التى يجب أن يوصل بينها بالواو، وهو: أن تتفق الجملتان خبرا أو إنشاء لفظا ومعنى أو معنى فقط، وأن توجد بينهما المناسبة المسوغة للعطف، ولا يمنع من العطف مانع.

ففى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[(٢)] اتفقت الجملتان فى الخبرية لفظا ومعنى، وتحقق التناسب بينهما، حيث تقابل طرفا الإسناد فى كل منهما، الأبرار والفجار، والنعيم والجحيم، ولم يمنع من العطف مانع، كما رأينا فى (إنا معكم إنما نحن مستهزءون. الله يستهزئ بهم) وفى (بيدك الخير إنك على كل شىء قدير) حيث منع الوصل الداخلى بين هذه الجمل من الوصل الخارجى بالواو، وسيأتى لهذا مزيد بيان عند تجلية مواضع الفصل.

---

(١) سورة آل عمران آية ٢٦.

(٢) سورة الانفطار: الآيتان ١٣، ١٤.

وفى قوله تعالى: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[1] اتفقت الجمل الإنشائية لفظا ومعنى، وتحقق بينها التناسب ـ كما ترى ـ حيث اتحد المسند إليه فى كل منها وهو واو الجماعة، وتناسبت الأفعال المأمور بها وهى أخذ الزينة والأكل والشرب وعدم الإسراف، ولم يمنع من العطف مانع، وقد فصلت الجملة التى ختمت بها الآية الكريمة: (إنه لا يحب المسرفين) لأنها خبرية وتعليلية، فلا يتأتى وصلها بما تقدم من جمل إنشائية.

وانظر فى الآيتين الكريمتين: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾.. ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[2] حيث وصل بين جمل الآيتين، لاتفاق جمل الأولى فى الإنشائية معنى، لأن جملة (لا تعبدون إلا الله) خبرية لفظا، إنشائية معنى، وقد مر بنا السر البلاغى لوضع الخبر موضع الإنشاء بها.

واتفاق جملتى الآية الثانية فى الخبرية معنى، لأن جملة (واشهدوا) إنشائية لفظا خبرية معنى، فهى مما وضع فيه الإنشاء موضع الخبر لغرض بلاغى، كما مر بنا[3].

والتناسب واضح بين الجمل فى الآيتين، بين الأمر بعبادة الله تعالى، وبالإحسان إلى الوالدين، وإلى ذى القرى واليتامى والمساكين والقول الحسن للناس جميعا، وذلك فى الآية الأولى، وبين الشهادتـين، شـهادة الله تعالى وشهادة القوم على براءته ـ عليه السلام ـ مما يشركون، وذلك فى الآية الثانية.

وقد يخفى التناسب بين الجمل فى بعض الآيات الكريمة عند النظرة العاجلة، ولكن بالتأنى وإنعام النظر يتجلى التناسب ويتضح، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾[4] ما وجه التناسب بين الإبل والسماء والجبال والأرض؟ النظرة العاجلة لا ترى تناسبا بينها، ولكن بإنعام النظر يتجلى لنا أن أهل

(١) سورة الأعراف آية ٣١.

(٢) الآيتان بالترتيب: البقرة ٨٣، وهود ٥٤.

(٣) ارجع إلى ص ٢٠٦، ٢٠٨.

(٤) سورة الغاشية: الآيات ١٧ـ٢٠.

الوبر تكون عنايتهم مصروفة إلى الإبل، ينتفعون بها فى جل معاشهم، والانتفاع بها يتوقف على أن ترعى وترتوى، وذلك يكون بنزول الماء، فيكثر تقلب وجوههم فى السماء، ولابد لهم من مأوى يتحصنون به، ولا شيء لهم فى ذلك كالجبال، وهم دائمو التنقل فى الأرض لتعذر طول إقامتهم فى مكان، أرأيت كيف اتضحت المناسبة وتجلت بين الإبل والسماء والجبال والأرض فى ذهن العربى وخيال أهل الوبر[١]؟.

هذا والتناسب بين الجمل مطلوب سواء وصلت تلك الجمل أم فصلت، فلا يصح أن تتلاقى الجمل وتقرن موصولة أو مفصولة إلا عند تحقق المناسبة بينها، وإلا كان الكلام معيبا، وقد صرح البلاغيون بذلك فى علم البديع عندما تحدثوا عن (مراعاة النظير) ونبهوا إلى ضرورة مراعاة التجانس والتآلف والتآخى بين ألفاظ الكلام وجمله.

فمراد البلاغيين بوجود المناسبة المسوغة للعطف بين الجمل الموصولة، مناسبة خاصة وهي: أن يكون بين طرفى الإسناد فى كل جملة تناسب وتلاق، ولا يريدون بذلك: التجانس والتآلف والتآخى بين أجزاء الكلام، فهذا تناسب عام، والبلاغيون لا يعنون أن الجمل المفصولة لا يراعى فيها هذا التناسب العام، بل الجمل جميعها سواء فى ذلك، لا تلتقى وتكون كلاما إلا وهى متناسبة متآلفة.

وعندما ننظر فى النظم القرآنى، ونتأمل الجمل التى تلتقى بلا عطف، نجد أن هذه الجمل إما أن يكون بينها ترابط قوى، واتصال تام، يمنع العطف بالواو، وهو ما عرف عند البلاغيين بكمال الاتصال وشبه كمال الاتصال، وإما أن تكون فاقدة للمناسبة الخاصة التى تسوغ الوصل، وتجوز العطف بالواو، وهذا ما يعرف بكمال الانقطاع وشبه كمال الانقطاع.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[٢] تجد أن جملة (ذلك الكتاب) قد دلت على قصر الكتاب على القرآن، فهو الكتاب الكامل، وجملة (لا ريب فيه) تفيد نفى الريب عنه، فهى تؤكد كماله، وجملة (هدى للمتقين) أفادت المبالغة فى هدايته، حيث نكر (هدى) وأخبر به عن الكتاب، وفرق

(١) انظر الكشاف ٤/ ٢٤٧.
(٢) سورة البقرة: الآيتان ١، ٢.

بين: هو هدى، وهو هاد، إنه جنس الهدى، وهذا ما يدل على كمال هدايته، لقد التقت هذه الجمل التى تدل على المبالغة في: كمال القرآن، ونفى الريب عنه، وكمال هدايته، فهى جمل متصلة ملتحمة، يؤكد بعضها بعضا، بينها وصل قوى يمنع العطف بالواو.

وخذ قوله تعالى: ﴿ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[1] تجد أن الجملة الثانية (إن هذا إلا ملك كريم) مقررة للأولى (ما هذا بشرا) ومؤكدة لها، فإن نفى البشرية عنه - عليه السلام - يستلزم كونه ملكا، ولذا لا يتأتى الوصل بينهما بالواو، كيف وبينهما وصل أقوى، وارتباط أشد من هذا الوصل الخارجى الذى يتم بالواو.

وكذا القول فى الآية الكريمة: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾[2] حيث وقعت جملة: (كأن فى أذنيه وقرا) مؤكدة ومقررة لجملة (كأن لم يسمعها) فهى وثيقة الصلة بها، ولا يتأتى مجىء الواو بينهما، ولاحظ الترقى فى وصف هذا المعرض المتكبر، حيث شبه فى الجملة الأولى بحال من لم يسمع الآيات، لأنه لا يعرض عن القرآن ويولى عن آياته إلا من لم يسمع، وهذا يشعر بأن من سمع الآيات لا يتصور منه التولى والاستكبار، إذ تأخذه تلك الآيات لما فيها من الإعجاز، وهم أرباب البيان، ولذا جد المشركون فى صد الناس عن سماع القرآن، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[3].

ثم شبه فى الجملة الثانية بحال من فقد السمع كلية، وصار فى أذنيه وقر، فالجملة الأولى تصور المعرض المستكبر غير سامع، وسمعه صحيح يستطيع أن يسمع به، والجملة الثانية تصوره فاقدًا السمع، وهذا أبلغ فى الذم والتقبيح، لأنه صار لا يسمع، فأنى لفاقد السمع أن يسمع.

ومما ينبغى التنبيه إليه، أن نون (كأن) فى التشبيه الثانى جاءت ثقيلة مشددة، ليتلاءم ذلك مع ثقل الوقر، الذى صار حقيقة فى صمم الأذنين، أما فى التشبيه الأول فقد جاءت مخففه، فتخفيفها يتلاءم مع وجود السمع، إذ السمع باق لم يفقد.

---

(١) سورة يوسف: آية ٣١.
(٢) سورة لقمان آية ٧.
(٣) سورة فصلت آية ٢٦.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾[1] نجد أن الأنعام والبنين والجنات والعيون جزء مما أمدهم الله به، فالجملة الثانية (أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون) مرتبطة بالجملة الأولى (أمدكم بما تعلمون) ارتباط البدل بالمبدل منه (بدل البعض) ولهذا لم تعطف عليها لأن الصلة بينهما صلة قوية تمنع العطف بالواو.

وانظر في قوله تعالى: ﴿ بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴾... ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرًا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾[2] تجد أن جملة (قالوا أإذا متنا..) مرتبطة بجملة (قالوا مثل ما قال الأولون) ارتباط البدل بالمبدل منه (بدل الكل) وجملة (اتبعوا من لا يسألكم..) مرتبطة بجملة (اتبعوا المرسلين) ارتباط بدل الاشتمال، وتلك الروابط منعت الوصل بالواو، لأنها روابط قوية لا يتأتى معها العطف.

وعند النظر في جملة (البدل) نراها أوفى بالغرض، وأدل على المراد، من جملة (المبدل منه) فقوله تعالى ﴿ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أوفى بالغرض وهو الحث على التدبر وشكر النعمة من قوله (أمدكم بما تعلمون) حيث فصلت جملة (البدل) بعض النعم وجلتها وأبرزتها أمام الكفرة، دون إحالة إلى علمهم وهم المعاندون، والمعاند لا يقر النعم التي يعلمها، بل يجحد وينكر، لذا كان البدل أوفى بالغرض وأدل عليه.

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا ﴾ أوفى بالدلالة على تمسك الكفرة بمقالة الآباء، لأنها أبرزت تلك المقالة التي تمسك بها الكفار، ورددوها دون تفكير، وهي إنكارهم البعث بعد الموت، وفي هذا ما لا يخفى من الدلالة على ضعف عقولهم.

وقوله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرًا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ أوفى بالغرض وهو الحث على اتباع الرسل والإيمان بهم، لأنها أبرزت صفاتهم، فهم مهتدون، ولا يسألون أجرًا على تبليغ الرسالة، وهذا أدعى لاتباعهم والإيمان برسالتهم.

---

(١) سورة الشعراء: ١٣٢ ـ ١٣٤.

(٢) الآيات بالترتيب: المؤمنون ٨١ ـ ٨٢، ويس ٢٠ ـ ٢١.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾[1] تجد أن جملة (قال يا آدم هل أدلك) قد بينت الجملة الأولى (فوسوس إليه الشيطان) ففى هذه الجملة خفاء وإبهام تتطلع النفس إلى إيضاحه وبيانه، وقد جاءت الجملة الثانية موضحة ومبنية لذلك، فهى مرتبطة بالجملة الأولى ارتباط عطف البيان بالمعطوف عليه، وهذا الارتباط يمنع الوصل بالواو.

وكذا القول فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾[2] حيث وقعت الجملتان: (يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) بيانا لجملة: (يسومونكم سوء العذاب) فلم يعطفا عليها بالواو، لما بين البيان والمبين من صلة قوية تمنع الوصل بالواو.

وقد جاءت هذا الواو فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾[3] فمجىء الواو فى هذه الآية قد جعل التذبيح جنسًا آخر، وليس بيانا لسومهم سوء العذاب، وكأن التذبيح قد أوفى على جنس العذاب، وزاد عليه، وكذا الاستحياء يصير فى هذا السياق جنسًا ثالثًا غير تذبيح الأبناء وسوم سوء العذاب.

ومرد ذلك إلى اختلاف السياق والمقام، فالمقام فى سورة إبراهيم مقام تذكير بأيام الله، وهذا يقتضى تعداد النعم وتفصيلها، أما المقام فى سورة البقرة فمقام تذكير بجنس النعمة، ومثل هذا المقام لا يحتاج إلى تعداد وتفصيل، بل يكفى فيه مجرد التذكير[4].

وانظر فى قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾... ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن

---

(١) سورة طه: ١٢٠.

(٢) سورة البقرة: ٤٩.

(٣) سورة إبراهيم: ٦.

(٤) ارجع إلى ص ١٣.

﴿كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[1] تجد أن الواو قد ذكرت بين جملتى: (إنما أنت من المسحرين.. ما أنت إلا بشر مثلنا) فى مقالة أصحاب الأيكة لشعيب ـ عليه السلام ـ ولم تذكر فى مقالة ثمود لصالح ـ عليه السلام ـ ما سبب ذلك؟ وما مرجعه؟.

يعلل الزمخشرى ذلك بقوله: (فإن قلت: هل اختلف المعنى بإدخال الواو ههنا وتركها فى قصة ثمود؟ قلت: إذا أدخلت فقد قصد معنيان كلاهما مناف للرسالة عندهم، التسحير والبشرية، وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسحرًا، ولا يجوز أن يكون بشرًا، وإذا تركت الواو فلم يقصد إلا معنى واحد، وهو كونه مسحرًا، ثم قرر بكونه بشرًا)[2].

ويرجع ذلك إلى أن أصحاب الأيكة قد أرادوا أن يعددوا فى مقالتهم الأسباب المنافية للرسالة، ولذا أضافوا (وإن نظنك لمن الكاذبين) فصارت الأسباب فى اعتقادهم ثلاثة:

١ ـ كونه مسحرًا (إنما أنت من المسحرين).

٢ ـ كونه بشرًا (وما أنت إلا بشر مثلنا).

٣ ـ كونه كاذبًا (وإن نظنك لمن الكاذبين).

أما ثمود فلم يقصدوا تعداد هذه الأسباب، وإنما قصدوا إلى رد الرسالة ورفضها، ولذا ذكروا سببًا واحدًا لـهذا الرفض، وهو كونه مسحرًا، ثم قرروه بكونه بشرًا مثلهم.

وبهذا يتبين لنا أنه لكى ندرك الارتباط بين الجمل، لابد من الإحاطة بالسياق، والوقوف على قرائن أحواله، فإن بناء الجمل ومعرفة كيفية التلاقى بينها تابع للمقام، ومتوقف على الغرض المسوق له الكلام.

وقد يكون الترابط بين الجملتين والاتصال بينهما بمثابة الترابط بين السؤال وجوابه، فيمتنع وصلها بالواو كما يمتنع عطف الجواب على سؤاله.

---

(١) الآيات بالترتيب: الشعراء ١٥٢ ـ ١٥٣، ١٨٥ ـ ١٨٧.

(٢) الكشاف ٣/ ١٢٧.

انظـر إلى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[(١)] نجد أن الاتصال بين هذه الجمل كالاتصال بين الأسئلة وأجـوبتها، فإن الجمـلة الأولى (امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه) تثير فى النفـس تسـاؤلاً عـن سبـب تلك المراودة، وتأتى إجابة هذا التساؤل فى قوله: (قد شغفها حبًا) وتلك الإجابة تثير تساؤلاً آخر عن رأى النسوة فى هذا الذى حدث لامرأة العزيز، وتغلغل حب يوسف ـ عليه السلام ـ فى شغاف قلبها، وتأتى الإجابة فى قوله:﴿ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ لقد اتصلت هذه الجمل وتداخلت هذا التداخل، الذى لا يتأتى معه الوصل بالواو، لأن ما بينها من الترابط أقوى من الوصل الخارجى.

وقد يكون ترك الواو ومجىء الجمل مفصولة راجعًا إلى فقدان التناسب بينها، أى: التناسب الخاص المسوغ للعطف، وذلك عند اختلاف الجمل خبرًا وإنشاء لفظًا ومعنى أو معنى فقط.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[(٢)] تجد الجملة الأولى خبرية لفظًا ومعنى، والثانية إنشائية لفظًا ومعنى، فلا تناسب بينهما، ولذا فصلتا، حيث لا مسوغ للوصل بينهما بواو العطف.

وفى قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾[(٣)] تجد أن الجملة الأولى (لا تثريب عليكم اليوم) خبرية لفظًا ومعنى، والجملة الثانية (يغفر الله لكم) خبرية لفظًا، إنشائية معنى، لأنها جملة دعائية، ولذا فصل بينهما لاختلافهما إنشاء وخبرًا، معنى لا لفظًا.

وقد تتحد الجملتان خبرًا أو إنشاء، ويفصل بينهما بسبب فقدان التناسب الخاص، كما فى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ

(١) سورة يوسف: ٣٠.
(٢) سورة فصلت: ٣٤.
(٣) سورة يوسف: ٩٢.

عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾(1) حيث فصل بين قوله: (الذين يؤمنون) وقوله: (إن الذين كفروا..) لعدم وجود المناسبة الخاصة التى تسوغ وصلهما، أما المناسبة العامة التى تصحح جمعهما فى سياق واحد، فهى محققة، إنها التضاد بين القصتين، قصة المؤمنين وقصة الكفرة، فهذا التضاد يؤلف بين أجزاء الكلام، ويبعث على التشويق والتطلع، فالمخاطب عندما يقف على قصة المؤمنين يتطلع إلى الوقوف على ما يقابلها، وهو قصة الكفرة.

هذا وقد توجد الواو بين الجمل التى اختلفت إنشاء وخبرًا، كما فى قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾(2) أو بين الجمل الخبرية أو الإنشائية التى فقدت المناسبة الخاصة المسوغة للعطف، كما فى الآيات: ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾... ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾... ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾(3) فتلك الواو ليست واو العطف التى تصل بين الجمل المتناسبة، وإنما هى واو الاستئناف، أو واو القصة ـ كما سماها البلاغيون ـ فهى تعطف مضمون كلام على مضمون كلام آخر، أو تعطف جملة أو عدة جمل مسوقة لغرض على جملة أو عدة جمل مسوقة لغرض آخر.

يقول الزمخشرى موجها العطف فى قوله تعالى: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ۝ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾: (فإن قلت: علام عطف هذا الأمر ولم يسبق أمر ولا نهى يصح عطفه عليه؟ قلت: ليس الذى اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب له مشاكل من أمر أو نهى يعطف عليه، إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين، فهى معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين، كما تقول: زيد يعاقب بالقيد والإرهاق وبشر عمرًا بالعفو والإطلاق)(4).

---

(1) سورة البقرة: ٣ـ ٦.
(2) سورة طه: ٨ ـ ٩.
(3) الآيات بالترتيب: الأعراف: ١٨٦، الحج: ٥، الأنعام: ٥٠ ـ ٥١.
(4) الكشاف ١/ ٢٥٣.

وهكذا يتجلى لنا أن الفصل والوصل بين الجمل باب دقيق المسلك، صعب المأخذ، يحتاج إلى وعى وطول ممارسة لطرق القول، وصياغات الكلام، حتى يقف الدارس على مسائله.

ويزداد الأمر دقة وصعوبة، عندما يكون المطلب هو دراسة الفصل والوصل بين الجمل، فى النظم القرآنى المعجز، إذ يحتاج الدارس عندئذ إلى الإحاطة بسياق الجمل، والوقوف على الغرض المسوقة له، وليس ذلك هينا، بل يحتاج إلى معاناة وصبر، وإنعام نظر، وحسن تدبر لآيات الذكر الحكيم، حتى يتضح للناظر ما تقصد إليه من معان وأغراض.

الإيجاز والإطناب

قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤].

﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧].

﴿ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الزخرف: ٧١].

﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩].

﴿ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴾ [طه: ١٧ ـ ١٨].

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ [الحجر: ٦٦].

﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٩٨].

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [الحجر: ٨٧].

﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم: ٤].

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر: ٣ ـ ٤].

﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٣].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ١١١].

﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ [النساء: ٩٥].

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٧٧].

* * *

لكل من الإيجاز والإطناب مقام يقتضيه، فإذا اقتضى المقام الإيجاز كان الإطناب فيه عيا، وإذا اقتضى الإطناب كان الإيجاز تقصيرًا وإخلالاً. والإيجاز نوعان:

١ ـ إيجاز بالحذف: ويكون بطى جزء من أجزاء الكلام، والسكوت عنه لتحقيق غرض من الأغراض، وقد مر بنا هذا النوع، ووقفنا على كثير من أسرار الحذف ومزاياه فى النظم الكريم.

٢ ـ إيجاز قصر: وهو بناء الكلام ابتداء على الإيجاز بحيث تدل الألفاظ القليلة على معان كثيرة.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[1] تجد أن هذه الجملة من الآية الكريمة قد دلت على استقصاء جميع الخلق والشئون، حيث نبهت الآية إلى خلق السموات والأرض والاستواء على العرش وإغشاء الليل النهار، وتسخير الشمس والقمر والنجوم، ولنقرأ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ ثم تأتى هذه الجملة (ألا له الخلق والأمر) مفتتحة بأداة التنبيه (ألا) التى تدل على أن مدخولها من الأمور المهمة، وإنه لكذلك، إنه جملة قليلة الألفاظ غزيرة المعانى، إذ دلت على اختصاصه تعالى بجميع الخلق والشئون، التى أشارت الآية إلى بعض منها، ولك أن تتصور مدى اتساع الخلق والأمر، الذى دلت عليه تلك الجملة القصيرة، المبنية على الإيجاز.. ذاك هو إيجاز القصر.

ومنه قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[2] فهذه الآية الكريمة مع قلة ألفاظها، جامعة لمكارم الأخلاق، لأن فى (أخذ العفو) التسامح فى الحقوق، واللين والرفق فى الدعاء إلى الدين، والصفح عمن أساء، والرفق فى الأمور كلها، وفى (الأمر بالعرف) صلة الرحم وحفظ اللسان وغض البصر وكف الأذى، والقيام بمتطلبات الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وفى (الإعراض عن الجاهلين) التؤدة فى معالجتهم والترفق بهم والصبر عليهم والحلم وكظم الغيظ.

لقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ فى هذه الآية بجميع مكارم الأخلاق، ولذا قال بعض العلماء: (ليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من تلك الآية الكريمة)[3].

وتأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ تجد أن الآية قد جمعت كل خصال الخير فى (العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى) إذ العدل هو الصراط المستقيم والوسطية التى جعل الله عليها هذه الأمة.

---

(١) سورة الأعراف: ٥٤.

(٢) سورة الأعراف: ١٩٩.

(٣) انظر الكشاف ٢/ ١٣٩.

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[1] فلا إفراط ولا تفريط، بل عدل فى جميع الأمور، اعتقادًا وعبادة وعملاً وخلقًا.

والإحسان هو الإخلاص والمراقبة، كما جاء معناه فى الحديث: (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) وذا يستلزم الإتقان والإخلاص والمراقبة والخضوع والخوف من ذى الجلال والإكرام.

وإيتاء ذى القربى يتسع لكل النوافل التى ينبغى النهوض بها، هذا فيما أمر الله تعالى به فى الآية، أما النهى فعن كل خصال الشر، عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وعن المنكر: كل ما أنكره الشرع وحرمه، وعن البغى: الاستكبار والطغيان ومجاوزة حدود الله التى نهى عن مقاربتها.

فالآية جامعة لكل خصال الخير والشر، ولذا قال عبد الله بن مسعود: (ما فى القرآن آية أجمع للخير والشر من هذه الآية) وقرأها الحسن يومًا ثم وقف فقال: (إن الله جمع لكم الخير كله والشر كله فى آية واحدة، فوالله ما ترك (العدل والإحسان) من طاعة الله شيئًا إلا جمعه، ولا ترك (الفحشاء والمنكر والبغى) من معصية الله شيئًا إلا جمعه)[2].

وانظر فى قوله تعالى: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[3] لقد ظل رسول الله ﷺ يدعو إلى الله تعالى سرًا ثلاث سنوات، ثم أمر ﷺ فى هذه الآية أن يجهر بالدعوة، فيصدع بما أوحى الله به إليه، ويظهره ويبينه للناس جميعًا، ولا يعبأ بما يراه من علامات الإنكار والاستبشاع التى تظهر على وجوه الكفرة المعاندين، فإن (الصدع) هو الشق الذى يظهر فى الشىء المصدوع كالزجاجة، والمراد فى الآية: أن يبلغ ﷺ ما أمر بتبليغه، وإن شق ذلك على قلوب الكفرة فانصدعت، وظهر أثر ذلك الصدع على وجوههم، كما يظهر على ظاهر الزجاجة المصدوعة، فرأى الناظر فى تلك الوجوه: التقبض والإنكار والاستبشاع.

---

(١) سورة البقرة: ١٤٣.

(٢) انظر الإتقان ٣/ ١٦٤.

(٣) سورة الحجر: ٩٤.

عليه ﷺ ألا يعبأ بهؤلاء، وأن يسر بآخرين انصدعت قلوبهم للحق، فاستبشروا به وظهر هذا الاستبشار على وجوههم، وهؤلاء هم المؤمنون، الذين استجابوا لله ولرسوله.

أرأيت المعانى الكثيرة التى انطوت عليها الاستعارة فى الآية الكريمة، إنه الإيجاز والإعجاز، وقد روى أن بعض الأعراب لما سمع هذه الآية سجد، وقال: سجدت لفصاحة هذا الكلام.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾[1] تجده قد أفصح عن كثرة الخيرات فى الجنة، ودل على كثرة نعيمها، وفيها كما قال ﷺ: (مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) هاتان الجملتان من الآية الكريمة قد أحاطتا بكل نعيم يمكن تصوره وتخيله.

ولننعم النظر (وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين) إن الأنفس جميعها، والأعين كلها، لو أطلق لها العنان لتتصور وتتخيل ما يشتهى ويلذ، فإن كل ما تصورت وتخيلت لموجود فى الجنة، وما فى الجنة أكثر وأكثر.

والذى يعنينا الآن: كم يبلغ كنه ومقدار ما تصورت الأعين وتخيلت الأنفس التى أطلق لها العنان لتتصور وتتخيل؟ مهما بلغ كنهه ومقداره فقد انطوت عليه هاتان الجملتان من الآية الكريمة: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾.

وفى قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[2] كثرت المعانى فى الآية الكريمة، حيث اجتمع فيها أمران: (أرضعيه.. فألقيه) ونهيان: (ولا تخافى ولا تحزنى) وخبران وبشارتان: (إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين).

روى أن الأصمعى استفصح امرأة أعرابية أنشدت شعرًا فقال لها متعجبًا: قاتلك الله ما أفصحك! فأجابته: أبعد قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ فصاحة، وقد جمع فى آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين؟[3].

---

(١) سورة الزخرف: ٧١.

(٢) سورة القصص: ٧.

(٣) انظر القرطبى ١٣/ ١٦٧.

ومن المشهور فى هذا الباب قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾[1] إذ لا يكاد يخلو كتاب من كتب البلاغة من الاستشهاد بهذه الجملة من الآية الكريمة لإيجاز القصر، وغزارة المعنى بها واضحة، فإن هذه الألفاظ القليلة يندرج تحتها معان كثيرة، لأن الإنسان إذا علم أنه متى قتل قتل كان ذلك داعيًا له إلى أن يمتنع عن القتل ولا يقدم عليه، فارتفع بالقتل الذى هو القصاص كثير من قتل الناس بعضهم بعضا، وكان ارتفاع القتل حياة لهم.

ومن المشهور فى هذا المعنى قول العرب: (القتل أنفى للقتل) فهو أوجز كلام قالته العرب فى هذا المعنى، ولا وجه للمقارنة بين هذا القول وما عليه النظم الكريم، ولكن العلماء يقدحون أذهانهم فيما يظهر لهم من ذلك، وقد ذكروا وجوها فضلت بها تلك الجملة من الآية الكريمة على القول المذكور فاقت العشرين وجها منها:

١ ـ الجملة القرآنية (فى القصاص حياة) أقل حروفًا من القول المذكور (القتل أنفى للقتل).

٢ ـ فى هذا القول تكرار للفظ (القتل) وهو لفظ يشعر مجرد ذكره بالوحشة، فضلاً عن تكراره، أما الجملة القرآنية فالمذكور فيها لفظ (القصاص) وهو مشعر بالمساواة، منبيء بالعدل، لأنه مأخوذ من قص الأثر أى: تتبعه، كما ذكر فيها أيضًا لفظ (الحياة) والنفس أقبل له من لفظ (القتل).

٣ ـ ليس كل قتل نافيًا للقتل، وإنما ينفى القتل القتل إذا كان على جهة القصاص، حيث يتتبع الجانى فيؤخذ بجنايته، أما القتل ابتداء فإنه لا ينفى القتل، والجملة القرآنية قد صرحت بالقصاص دون القول المأثور.

٤ ـ الجملة القرآنية فيها طباق لطيف حيث جعل أحد الضدين، وهو الفناء محلاً وأصلاً لضده وهو الحياة، وذلك بدخول حرف الجر (فى) على (القصاص) فقد جعله كالمنبع للحياة والمعدن لها، ولا يوجد شيء من ذلك فى القول المأثور.

٥ ـ فى تنكير لفظ (حياة) دلالة على التعظيم والتنويع، إذ يدل على أن فى القصاص

---

(١) سورة البقرة: ١٧٩.

حياة عظيمة ممتدة، لأن من هم بالقتل عندما يعلم أنه سيقتص منه يرتدع وينزجر ويكف عن القتل، فيحيا ويحيا صاحبه، وتلك حياة فريدة عظيمة.

٦ ـ أن الجملة القرآنية رادعة عن القتل والجراح معا لشمول القصاص لهما، وليس كذلك القول المأثور.

٧ ـ القصاص يفهم من الجملة القرآنية من أول وهلة، ولا يفهم من القول المأثور إلا بعد معرفة أن المراد بالقتل الأول ما كان على وجه القصاص.

٨ ـ الجملة القرآنية مبنية على الإثبات، والقول المأثور مبنى على النفى، والإثبات أشرف لتقدمه على النفى، فهو أول والنفى ثان عنه، وتابع له[(١)].

أما الإطناب فهو الزيادة فى ألفاظ الكلام بحيث تحقق تلك الزيادة غرضًا، وتفيد فائدة، فإن كانت الزيادة بلا غرض ولا فائدة كانت حشوا أو تطويلاً.

تأمل قوله تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾[(٢)] كان يكفى فى الجواب أن يقول موسى ـ عليه السلام ـ (عصا) ولكنه أطنب وفصل، فذكر المسند إليه (هى) وأضاف العصا إلى نفسه (عصاى) وذكر وظائفها بعضها مفصلاً (أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى) وبعضها مجملاً (ولى فيها مآرب أخرى) ولعله كان يطمع فى أن يسأل عن تلك المآرب فيجيب عنها، وبذا يمتد الحديث ويطول، وذلك لأنه فى مقام رب العزة، وهو مقام يحسن فيه الإطناب، ويستمتع بإطالة الكلام، فالزيادة فى الجواب قد اقتضاها المقام، ودعا إليها رغبة موسى ـ عليه السلام ـ فى امتداد الحديث مع ربه.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾[(٣)] حيث جاء قوله: ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ بيانًا وإيضاحًا لقوله (ذلك الأمر) والبيان إذا جاء بعد الإبهام كان أوقع فى النفس، لمجيئه وهى متطلعة إليه منشغلة به بسبب الإبهام المتقدم، ولا يأتى ذلك إلا فى الأمور المهمة

---

(١) انظر الإتقان ٣/ ١٦٦.

(٢) سورة طه: ١٧ ـ ١٨.

(٣) سورة الحجر: ٦٦.

التى تحتاج إلى تحقيق وتأكيد، كما فى الآية الكريمة، فقضاء الله تعالى بحلول العذاب أمر يحتاج إلى تنبيه وتأكيد.

وخذ قوله تعالى: ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾(١) تجد أن الصلاة الوسطى قد خصت بالذكر بعد أن ذكرت مدرجة فى الصلوات، فهذا من قبيل ذكر الخاص بعد العام تنبيها إلى مزية الخاص وزيادة فضله.

ومثله قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴾(٢) حيث ذكر (جبريل وميكال) مدرجين فى الملائكة، ثم أعيد ذكرهما لغرض بلاغى، بينه صاحب التحرير والتنوير بقوله: (وخص جبريل بالذكر هنا لزيادة الاهتمام بعقاب معاديه، وليذكر معه ميكائيل، ولعلهم عادوهما معا، أو لأنهم زعموا أن جبريل رسول الخسف والعذاب، وأن ميكائيل رسول الخصب والسلام، وقالوا نحن نحب ميكائيل، فلما أريد إنذارهم بأن عداوتهم الملائكة تجر عليهم عداوة الله، أعيد ذكر جبريل للتنويه به وعطف عليه ميكائيل لئلا يتوهموا أن محبتهم ميكائيل تكسب المؤمنين عداوته)(٣).

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾(٤) فإن المراد بالسبع المثانى: سورة الفاتحة على أظهر الأقوال، وقد سميت (مثانى) لتكرر قراءتها فى الصلاة، أو لأنها تثنى بما يقرأ بعدها، وعلى هذا القول الظاهر، فى بيان المراد بالمثانى، يكون ذكر (القرآن العظيم) بعدها من قبيل ذكر العام بعد الخاص تنويها بشأن الخاص حيث ذكر مرتين، مرة مستقلاً، ومرة مندرجًا فى العام(٥).

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾(٦) حيث ذكر (جبريل) أولاً منفردًا، ثم ذكر ثانيًا مندرجًا فى العام (الملائكة) تعظيمًا له، وتنويها بشأنه..

---

(١) سورة البقرة: ٢٣٨.

(٢) سورة البقرة: ٩٨.

(٣) التحرير والتنوير ١/ ٦٢٣.

(٤) سورة الحجر: ٨٧.

(٥) انظر: تفسير أبى السعود ٥/ ٨٨.

(٦) سورة التحريم: ٤.

وخذ قوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[1] تجد إطنابًا بالتكرار، حيث كررت جملة (كلا سوف تعلمون) وهذا التكرار يؤكد الإنذار والتحذير، ويشعر الحرف (ثم) بالمبالغة فى الردع، إذ يدل على التدرج والارتقاء فى الإنذار والتحذير.

وفى قوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾[2] جاء هذا التشبيه: (مثل ما أنكم تنطقون) مؤكدًا لجواب القسم، حيث شبه الحق الذى يوعدون به فى ظهوره ووضوحه بما ينطقون، لقد تم المعنى من القسم عند قوله تعالى: (إنه لحق) ثم جاء: (مثل ما أنكم تنطقون) زائدًا لغرض وهو تأكيد جواب القسم والدلالة على ظهوره ووضوحه، ويسمى البلاغيون هذه الزيادة التى تأتى بعد تمام المعنى للدلالة على غرض: (الإيغال).

وفى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾[3] إطناب بالتذييل، إذ نجد فيه تذييلين، أولهما قوله تعالى (وعدا عليه حقا) وهو تذييل غير جار مجرى المثل لاحتياجه فى فهم معناه إلى ما قبله، وثانيهما قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾؟ وهو تذييل جار مجرى المثل، لعدم احتياجه فى فهم معناه إلى ما قبله، وجريانه على الألسنة كما تجرى الأمثال السائرة، وكلا التذييلين لتحقيق المعنى وتأكيده.

ونجد فى قوله تعالى: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾[4] إطنابًا بالتكميل أو الاحتراس، وذلك فى قوله: (غير أولى الضرر) فهو احتراس يدفع توهم أن القاعد بعذر داخل فى عدم الاستواء الذى أشارت إليه الآية الكريمة، لأن المتخلف بعذر له أجر المجاهد، كما أخبر بذلك ـ ﷺ ـ حيث قال فى غزوة

(١) سورة التكاثر: ٣ ـ ٤.
(٢) سورة الذاريات: ٢٣.
(٣) سورة التوبة: ١١١.
(٤) سورة النساء: ٩٥.

تبوك: (إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم حبسهم المرض)(*).

وفى قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴾[١] نجد إطنابا بالاعتراض، حيث اعترض بين القسم وجوابه بقوله: (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) وفى داخل هذا الاعتراض اعتراض آخر بين الصفة والموصوف وهو قوله (لو تعلمون) وكلا الاعتراضين لتعظيم القسم، وتفخيم المقسم عليه، وهو القرآن الكريم، والتنويه بشأنه[٢].

ومن الإطناب حروف الزيادة التى تزاد فى النظم للدلالة على معنى وتحقيق غرض، كزيادة (إن) وزيادة (ما) ونحوهما من حروف الزيادة.

تأمل الآيتين الكريمتين: ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗا ﴾... ﴿ فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ ﴾[٣] تجد زيادة (أن) بعد (لما) فى الآيتين، وتلك الزيادة للدلالة على غرض، فقد كانت الشقة بعيدة بين يوسف وأبيه ـ عليهما السلام ـ ولما ذهبوا بقميص يوسف لإلقائه على وجه يعقوب، صاروا به أيامًا حتى وصلوا إلى أبيهم، فزيادة (أن) هنا تدل على أن المجىء لم يكن على الفور، بل كان هناك تراخ وامتداد، لبعد ما كان بينهما من مسافة.

وكذا تدل زيادة (أن) فى الآية الثانية على أن موسى ـ عليه السلام ـ لم يبادر إلى البطش بالثانى، كما بادر إلى وكز الأول ﴿ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ ﴾[٤] الوكز هنا كان سريعًا وعلى الفور، بدليل هذه

(*) رواه مسلم.

(١) سورة الواقعة: ٧٥ ـ ٧٧.

(٢) الاعتراض: هو أن يؤتى فى أثناء الكلام الواحد، أو بين كلامين متصلين فى المعنى، كالتوكيد والمؤكد، والبيان والمبين، والبدل والمبدل منه، والمعطوف والمعطوف عليه بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لنكتة أو لغرض سوى دفع الإيهام، فإن كان الغرض هو دفع الإيهام كان الإطناب احتراسًا أو تكميلاً لا اعتراضًا.

(٣) الآيتان بالترتيب: يوسف: ٩٦، القصص: ١٩.

(٤) سورة القصص: ١٥.

الفاء، أما البطش الذى أراده ـ عليه السلام ـ فى المرة الثانية، عندما استصرخه الذى استنصره بالأمس، فلم يكن على الفور بدليل أنه قال للمستصرخ: (إنك لغوى مبين) فزيادة (أن) فى قوله: (فلما أن أراد أن يبطش) تدل على هذا الغرض، وهو عدم إسراع موسى ـ عليه السلام ـ إلى البطش بالعدو الثانى.

وانظر فى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾[1] تجد أن زيادة (ما) فى قوله: (وإذا ما غضبوا) قد دلت على ندرة وقوع الغضب من هؤلاء الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، فهم لا يغضبون إلا فى القليل النادر، وإذا ما غضبوا يكون منهم العفو والصفح عن أولئك الذين أغضبوهم، ولعل التعبير "بإذا" هنا فى الأمر النادر، دون التعبير (بإن) التى يعبر بها فيه، إنما هو من أجل مناسبة (إذا) فى اللفظ لـ (ما) الزائدة.

التشبيه

قال تعالى:

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٧٤].

﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾ [هود: ٤٢].

﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴾ [الرحمن: ٢٤].

﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن: ٥٨].

﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴾ [المعارج: ٨ ـ ٩].

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ [النبأ: ٦ ـ ٧].

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾ [الأعراف: ١٧١].

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [لقمان: ٣٢].

---

(١) سورة الشورى آية: ٣٧.

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل: ١٠].

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الصافات: ٦٢ ـ ٦٥].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤].

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ [المدثر: ٤٩ ـ ٥١].

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء: ٦٣].

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ [المنافقون: ٤].

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [القمر: ١٩ ـ ٢٠].

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ [القمر: ٣١].

﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ [القارعة: ٤ ـ ٥].

﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ [القمر: ٧].

﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [الصافات: ٤٨].

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ [الجمعة: ٥].

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ [الكهف: ٤٥].

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [النور: ٣٥].

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤١].

شاع التشبيه فى اللغة، وكثر فى النظم القرآنى الكريم، وفى الحديث النبوى الشريف، ومن أجل هذا عنى به الباحثون، واهتمت به الدراسات البلاغية، وجدت فى الكشف عن أسراره وإبراز مزاياه.

ودراستنا للتشبيه فى النظم القرآنى تهدف إلى ما يلى:

١ ـ أن يقف الدارس على العناصر التى تتكون منها الصور التشبيهية فى النظم الكريم، وكيف تتلاءم تلك العناصر وتتسق مع السياق ومع المعنى المراد تصويره.

٢ ـ أن يدرك ما يكمن وراء التشبيهات القرآنية من أسرار ودقائق.

٣ ـ أن يقف على مقاصد التشبيه القرآنى، وعلى أغراضه التى يرمى إلى تحقيقها.

عندما ننعم النظر فى طرفى التشبيه القرآنى يتجلى لنا أنهما قد تنوعا، فقد شبهت الحياة الدنيا، وشبهت الأرض والسماء والشمس والقمر والموج والجبال، والأصنام التى عبدها المشركون، شبهت الجنة والنار وأحوال الكفرة والمنافقين وأعمالهم، ومصارع الأمم المكذبة، وأحوال الأشياء عند قيام الساعة: السماء والأرض والجبال، وأحوال الناس عندئذ، إلى غير ذلك من الأمور التى عرض النظم الكريم لتشبيهها وتصويرها.

أما المشبه به فنجده مستمدًا من عناصر الطبيعة، فهو السراب والحجارة والحمر المستنفرة، والخشب المسندة، والعنكبوت اتخذت بيتا، والحمار يحمل أسفارًا، والكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، والمهاد والأوتاد والسبات والعرجون القديم، والصم البكم العمى، والإنسان الذى يتخبطه الشيطان من المس، والذى يغشى عليه من الموت، والذى استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم، والرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف، وظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، وصفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدًا، وحبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة، واللؤلؤ والياقوت والمرجان، والبنيان المرصوص، وأعجاز النخل، وهشيم المحتظر، والعصف المأكول، والرميم والغثاء، والجراد المنتشر، والفراش المبثوث، والعهن المنفوش، والهباء المنثور، والوردة والدهان والمهل.. إلى غير ذلك مما ذكر فى النظم الكريم.

هذا إجمال يحتاج إلى تفصيل، وتفصيله يتطلب تتبع تلك التشبيهات فى مواطنها وسياقاتها من النظم الكريم، لتجلية أسرارها، والكشف عما وراءها من مقاصد وأهداف.

ففى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [١] تشبيه لقلوب اليهود بالحجارة فى صلابتها وجمودها، وأنها لا ينفذ إليها شىء من الخير والحق، فالتشبيه يصور غفلة اليهود، وتحجر قلوبهم، وشدة إعراضهم عن الهدى والحق.

ويتجلى المغزى من هذا التشبيه عندما ننعم النظر فى سياقه، ولنقرأ: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [٢].

---

(١) سورة البقرة: ٧٤.

(٢) سورة البقرة: ٧٢ ـ ٧٤.

لقد وقفوا على تلك المعجزة، وأمام أعينهم وقعت تلك القصة الخارقة، قصة القتيل الذى قتل، وأمرهم الله أن يذبحوا بقرة وأن يضربوه ببعضها، ففعلوا بعد أن طال سؤالهم فى شأن البقرة ما هى؟ وما لونها؟ وأحيا الله القتيل فأخبرهم بقاتله، وتلك آية كان ينبغى بعدها أن تلين قلوبهم، ولكنها قست، وقسوة القلوب مستبعدة بعد حدوث تلك الآية الخارقة، ولذا عطفت عليها بالحرف (ثم) الدال على استبعاد وقوع القسوة بعد رؤية الآية، تنزيلاً للاستبعاد المعنوى منزلة البعد الزمنى، وقد أشير إلى الآية باسم الإشارة الموضوع للبعيد (ذلك) وضعا له موضع الضمير، للدلالة على عظم الآية وبعد أثرها فى القلوب الحية التى تستجيب وتلين للحق، ولكن قلوب اليهود ليست كذلك، إنها ميتة، فهى كالحجارة أو أشد قسوة.

وانظر إلى قوله تعالى عقب التشبيه: (أو أشد قسوة) وإلى إخباره عن الحجارة بأن منها ما يتفجر منه الأنهار، ومنها من يشقق فيخرج منه الماء، ومنها ما يهبط ويسقط من موضعه استجابة لأمر الله، فالحجارة وإن كانت علما فى القسوة، فإن قلوب اليهود أشد قسوة منها، وصياغة (أفعل التفضيل) من الفعل (قسا) قياسية، ولكن النظم الكريم آثر التعبير بلفظ (أشد) فلم يقل: فهى كالحجارة أو أقسى، للتصريح بالشدة، وللإشعار بجفاء القلوب وغلظها وخلوها خلوًا تامًا من أنواع الخير، ومن النفع المشار إليه فى الحجارة.

وبهذا يتبين لنا أن سياق التشبيه يوضح ويظهر المغزى المراد منه وأنه لا يمكن الإحاطة بمعانى التشبيه، وإدراك أثره، منتزعًا من سياقه الذى ورد فيه..

تأمل قوله تعالى: ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾[1] حيث شبه الموج بالجبال فى ضخامته وجلاله، ويتجلى هذا المعنى فى سياق الآيات الكريمة التى ورد بها التشبيه، فقد أبرز هذا السياق صنع نوح الفلك بأمر الله، وسخرية الملأ منه كلما مروا عليه، ثم أخبر عن الركوب فيها، ونداء نوح ابنه: ﴿ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾[2] إنه موج عظيم

(١) سورة هود: ٤٢.

(٢) سورة هود: ٤٢ ـ ٤٣.

ضخم، ومن ثم شبه بالجبال فى ضخامته وارتفاعه، لأن الجبال توحى بالضخامة والجلال معا، وكأن كل موجة من ذاك الموج كانت كجبل فى ارتفاعها وضخامتها.

وعند تشبيه السفن الجوارى فى البحر أوثر التعبير بلفظ (الأعلام) دون (الجبال) ولنقرأ: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾... ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾[(١)] فالأعلام جمع (علم) وهو الجبل، وقد أوثر التعبير بها دون الجبال لغرض، وهو الدلالة على جمال الفلك الجارية فى البحار، تشق الأمواج ويزدان بها سطح البحر، فضلاً عن الدلالة على ضخامتها وعظمها، ومعنى (الجمال) مأخوذ من لفظ (الأعلام) خاصة، لأن الكلمة المشتركة بين عدة معان تتداعى معانيها عند ذكرها، ولما كان من معانى (العلم) الراية التى تستخدم فى الزينة والتجميل، كان ذكر (الأعلام) موحيًا للنفس بهذا المعنى، فضلاً عن الدلالة على معنى ضخامة الجبال وعظمها[(٢)].

وعندما جاء (الموج) فى سياق يوحى بالفزع والخوف والرهبة أوثر فى تشبيهه التعبير بكلمة (الظلل) وهى كل ما أظلك من جبل أو سحاب أو غيرهما، ولنقرأ: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾[(٣)] المقام - كما نرى - مقام رهبة وخوف، فهؤلاء قوم يذكرون الله عند الشدة، وينسونه عند الرخاء، وهاهم أولاء فى شدة، قد غشيهم الموج، والموج يكون أشد إرهابًا وأقوى تخويفًا إذا ارتفع فظلل الرءوس، هنالك تذهل الرهبة النفوس وتبلغ القلوب الحناجر، إذ ظللهم الموج فلم يبق إلا أن يطبق عليهم، تأمل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾[(٤)] إن مقام الفزع والخوف فى الآيتين يلائمه التشبيه بالظلل والظلة، لأن ذلك يؤذن بالإحاطة والإطباق عليهم، فيشتد خوفهم، ويبلغ الفزع منهم كل مبلغ.

---

(١) الآيتان بالترتيب: الشورى: ٣٢، الرحمن: ٢٤.

(٢) انظر: من بلاغة القرآن ٢٠١.

(٣) سورة لقمان: ٣٢.

(٤) سورة الأعراف: ١٧١.

وفى إيثار التعبير بالباء دون (على) فى قوله (واقع بهم) والجبل إنما يقع عليهم، ما يشعر بشدة الخوف وكمال الفزع، وكأن قلوبهم قد انتزعت منهم وتعلقت بذاك الجبل الذى ظللهم، وعما قليل سيهوى بهم فى مكان سحيق.

ويرجع السبب فى التخويف والترهيب إلى رفض اليهود قبول أحكام التوراة لثقلها وغلظها، وأنهم قد بلغوا فى الرفض والإباء مبلغًا لم يعد يجدى فيه إلا إجبارهم على قبولها، وإلزامهم إياها بالتخويف والترهيب[1].

وفى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝ وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾[2] هذه الآيات من سورة النبأ مسوقة للدلالة على قدرة الله تعالى، وإظهار نعمه التى أنعم بها على عباده، وهى نعم كثيرة لا يمكن إحصاؤها، قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾[3] وقد ذكرت الآيات من هذه النعم: الأرض والجبال والأزواج والنوم والليل والنهار والشمس والماء الذى أخرج به الحب والنبات، وفى تعداد هذه النعم ترد تلك التشبيهات التى توضح النعمة وتجليها، فالأرض مهاد ليتمكن الإنسان من السير عليها، والمشى فى مناكبها مبتغيًا من فضل الله، والجبال أوتاد تثبت الأرض حتى لا تميد بأهلها، والنوم سبات أى: موت ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[4] فالنوم راحة تامة للإنسان، يستأنف بعده نشاطه فى عمارة الكون، والليل لباس، يستر الخلائق بظلامه كما يسترهم اللباس، فيسكنون للراحة، ثم يتحركون لمعاشهم نهارًا، يبتغون من فضل الله، حيث تكون الشمس سراجًا وهاجًا يملأ الكون ضياء.

لقد توالت تلك التشبيهات التى تجلى نعم الله تعالى على الناس، وقد جاءت محذوفة الوجه والأداة، إبرازًا للنعم، لما فى ذلك من دعوى الاتحاد، وحمل المشبه به على المشبه، وهو ما يعرف عند البلاغين بالتشبيه البليغ، فالأرض مهاد وليست كالمهاد، والجبال

(١) انظر الكشاف ٢/ ١٢٩.
(٢) سورة النبأ: ٦ ـ ١٠.
(٣) سورة إبراهيم: ٣٤.
(٤) سورة الزمر: ٤٢.

أوتاد وليست كالأوتاد، والنوم سبات وليس كالسبات.. وهكذا أدى حذف أداة التشبيه إلى تجلية تلك النعم، حيث يحمل المشبه به على المشبه، كما هو الشأن فى التشبيهات البليغة.

وتتجلى قدرة الله تعالى فى تغيير هذه الأشياء وتبديلها يوم ينفخ فى الصور، فالسموات السبع الشدائد تفتح عندئذ فتكون أبوابًا، والجبال التى كانت أوتادًا ورواسى تثبت الأرض وتحفظها أن تميد، يسيرها الله تعالى فتكون سرابًا يلوح ويبدو للعين من بعيد أنه شىء، وهو لا شىء، نقرأ ذلك فى قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾[1].

الجبال هنا شبهت بالسراب، الذى يحسبه الناظر من بعيد شيئًا حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، وفى موضع آخر ـ فى سورة المزمل ـ شبهت بكثبان الرمل المهيلة، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً ﴾[2] وتشبيه الجبال بالكثيب المهيل هنا يتلاءم مع سياق الآيات الكريمة، حيث يبدو فى هذا السياق الثقل والتأنى، ولنقرأ: ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾[3] فالثقل والتأنى والامتداد هو جو السورة الكريمة، وقد جاء وصف الجبال متلائمًا مع هذا، حيث تتحول الجبال الراسيات إلى كثبان تنهال فى تؤدة (وكانت الجبال كثيبًا مهيلاً).

ثم نجد هذه الجبال الثقال تتحول إلى (عهن) فى سورة المعارج ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴾[4] والعهن هو الصوف المصبوغ ألوانًا، وهذا يدل على اختلاف ألوان الجبال ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾[5] ولم يوصف (العهن) هنا (بالمنفوش) كما وصف فى سورة القارعة فى قوله

(١) سورة النبأ: ١٨ ـ ٢٠.
(٢) سورة المزمل: ١٤.
(٣) سورة المزمل: ٤ ـ ٨.
(٤) سورة المعارج: ٨ ـ ٩.
(٥) سورة فاطر: ٢٧.

تعالى: ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾[١] ليتلاءم مع تشبيه السماء بالمهل وهو دردى الزيت، أو ما أذيب من الفلزات كالفضة، حيث تذاب على مهل، وقد شبهت السماء بالمهل فى هذه الآية الكريمة، وشبهت فى سورة الرحمن بالوردة والدهان، قال عز وجل: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾[٢] هذا هو شأن السماء، التى بناها الله فوقنا سبعًا شدادًا، تنتهى شدتها، وتتحول إلى مهل، وتصير وردة كالدهان.

سكت فى سورة المعارج عن ذكر وصف العهن، ليتلاءم التشبيهان، تشبيه السماء بالمهل، وتشبيه الجبال بالعهن، وذكر الوصف (المنفوش) فى سورة القارعة ليتلاءم مع تشبيه الناس بالفراش المبثوث، ومع الوصف الذى وصفت به القيامة، وهو (القارعة) فالقرع هو الضرب بشدة، وهذا يلائمه ما قيد به المشبه به فى كل تشبيه من التشبيهين (المبثوث.. المنفوش).

وفى سورة الواقعة شبهت الجبال بالهباء المنبث ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾[٣]، والهباء هو الشىء الذى تراه فى البيت من ضوء الشمس منبثًا شبيهًا بالغبار، فتلك الذرات التى لا ترى إلا فى الضوء المنبعث من أشعة الشمس هى الهباء، وذاك شىء أضعف وأبعد من العهن المنفوش.

فبإنعام النظر فى تلك التشبيهات التى شبهت بها الجبال عندما تتغير وتتبدل يوم القيامة، يتجلى لنا اتساق كل تشبيه مع السياق الذى ورد فيه، ففى سورة المزمل لم يرد وصف للقيامة، وإنما الذى ذكر هو رجف الأرض والجبال (يوم ترجف الأرض والجبال) وكان الثقل والتأنى، والتمهل والتؤدة، هو جو السورة الكريمة ـ كما ذكرنا ـ ولذا شبهت الجبال بالكثبان المهيلة، ولعلك تشعر فى المشبه به (كثيبا مهيلا) بقوة ما تزال للجبال، ولا توجد تلك القوة فى التشبيهات الأخرى، وفى سورة المعارج، ورد ذكر العذاب الواقع بالكافرين، وسؤال السائل عنه، وكشف عن طول ذلك اليوم ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾[٤] ولذا شبهت الجبال بالعهن، ثم تأتى سورة

(١) سورة القارعة: ٥.
(٢) سورة الرحمن: ٣٧.
(٣) سورة الواقعة: ٤ ـ ٦.
(٤) سورة المعارج: ٤.

القارعة وسورة الواقعة، فتكون الجبال فى القارعة (عهنا منفوشًا) وفى الواقعة (هباء منبثًا) ووصف القيامة فى الواقعة أشد وأقوى، حيث حقق وقوعها، وأخبر بما يكون من خفض ورفع عند هذا الوقوع وأكد رج الأرض وبس الجبال بالمصدر (إذا رجت الأرض رجا. وبست الجبال بسا) وقد لاءم ذلك أن تشبه الجبال بالهباء المنبث، فهو أبعد من العهن المنفوش ـ كما بينا ـ ولاءمه أيضًا ترك أداة التشبيه، فتركها أبلغ، لما فيه من دعوى الاتحاد، وحمل المشبه به على المشبه.

ثم يأتى تشبيه الجبال بالسراب فى سورة النبأ، وهو أبعد من كل ما ذكر من تشبيهات، لأن ما ذكر: (الكثيب المهيل، والعهن المنفوش والهباء المنبث) هو شىء يشاهد ويرى مهما ضعف وبعد، أما السراب فهو لا شىء، يحسبه الناظر شيئًا فإذا جاءه لم يجده شيئًا، وهذا يتلاءم مع سياق السورة الكريمة، حيث صرح بيوم الفصل، وبالنفخة الثانية، وإتيان الناس أفواجًا للحساب ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾[1] ولم يصرح بشىء من ذلك فى سياقات التشبيهات الأخرى، فإن ما صرح به هو القارعة والواقعة ورجف الأرض ورجها وبس الجبال، وبهذا يتبين لنا أن تشبيهات الجبال عندما تتغير وتتبدل يوم القيامة، قد جاءت متلائمة مع سياقاتها، ومتسقة مع المعنى الذى أبرزه السياق.

يقول الفخر الرازى: (اعلم أن الله تعالى ذكر فى مواضع من كتابه أحوال هذه الجبال على وجوه مختلفة، ويمكن الجمع بينها على الوجه الذى نقوله، وهو أن أول أحوالها (الاندكاك) وهو قوله ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴾[2].

والحالة الثانية لها: أن تصير كالعهن المنفوش، وذكر الله تعالى ذلك فى قوله: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾[3] وقوله: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴾[4].

---

(١) سورة النبأ: ١٧ ـ ١٨.

(٢) سورة الحاقة: ١٤، ويدخل فى هذه الحال جعلها كثيبًا مهيلاً، إذ يحولها الدك من الصلابة والقوة إلى تلك الكثبان المهيلة.

(٣) سورة القارعة: ٤ ـ ٥.

(٤) سورة المعارج: ٨ ـ ٩.

والحالة الثالثة: أن تصير كالهباء وذلك أن تتقطع وتتبدد بعد أن كانت كالعهن، وهو قوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾[1].

والحالة الرابعة: أن تنسف لأنها مع الأحوال المتقدمة قارة فى مواضعها، والأرض تحتها غير بارزة، فتنسف عنها بإرسال الرياح عليها، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾[2].

والحالة الخامسة: أن الرياح ترفعها عن وجه الأرض، فتطيرها شعاعا فى الهواء كأنها غبار، فمن نظر إليها من بعد حسبها لتكاثفها أجساما جامدة، وهى فى الحقيقة مارة، إلا أن مرورها بسبب مرور الرياح بها، صيرها مندكة متفتتة، وهى قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾[3] ثم بين أن تلك الحركة حصلت بقهره وتسخيره، فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾[4].

الحالة السادسة: أن تصير سرابا، بمعنى: لا شيء، فمن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئا، كما أن من يرى السراب من بعد إذا جاء الموضع الذى كان يراه فيه لم يجده شيئا، والله أعلم)[5].

وقد وضح لنا انسجام كل تشبيه من التشبيهات التى تناولت تصوير هذه الأحوال فى سياقه، واتساقه مع المعنى الذى يبرزه السياق، من حيث وصف الأحداث الواقعة يوم القيامة.. قوة وضعفا.. إجمالا وتفصيلا.

فإذا ما تركنا الجبال، وانتقلنا إلى الناس، لنبصر أحوالهم فى ذلك اليوم، نجد النظم الكريم يشبههم عند خروجهم من الأجداث بالجراد المنتشر، وذلك فى قوله تعالى:

---

(١) سورة الواقعة آيات: ٤-٦.

(٢) سورة طه آيات: ١٠٥-١٠٧.

(٣) سورة النمل: آية ٨٨.. ويرى بعض العلماء أن هذه الآية الكريمة تخبر عن مرور الجبال فى الدنيا وتحركها بتحرك الأرض، إذ الأرض تدور حول محورها كل يوم، وحول الشمس كل عام، وتدور الجبال بدوران الأرض، لأنها تابعة لها، ولذا فهى تمر مر السحاب.

(٤) سورة الكهف آية: ٤٧.

(٥) تفسير الفخر الرازى ٣١/ ١٢، ١٣.

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝ خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾(١) ويصور سرعة خروجهم فى قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝ خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾(٢) ويصور ضعفهم وتخاذلهم فى قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾(٣) إن كل تشبيه من هذه التشبيهات يبرز جانبا ويكشف عن حال من أحوال الناس فى ذلك اليوم، والجانب الذى يبرزه التشبيه نراه متلائما مع السياق الذى ورد فيه.

ففى سورة المعارج أبرز السياق استعجال الكفرة بالعذاب، وسؤالهم إياه تهكما واستهزاء ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴾(٤) وكشف عما فطر عليه الإنسان من العجلة والتسرع ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾(٥) ولذا جاء التشبيه مصورا هذا الجانب، جانب السرعة، إنهم يخرجون من الأجداث سراعا، كما كانوا يسرعون إلى عبادة الأوثان فى الدنيا (كأنهم إلى نصب يوفضون) ولكن هنالك فرق بين الإسراعين، فهم فى إسراعهم إلى نصبهم يكونون فرحين لاهين، واليوم يسرعون خاشعة أبصارهم ذهولا من هول الموقف، وتغشاهم الذلة والمهانة، ويبدو عليهم الندم والتحسر.

ونلمح فى هذا التشبيه التهكم والسخرية، فلطالما سخر هؤلاء الكفرة فى الدنيا واستهزأوا، واليوم يتهكم بهم ويسخر منهم جزاء وفاقا ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾(٦).

يقول سيد قطب: "وفى مشهدهم وهيئتهم وحركتهم فى ذلك اليوم ما يثير الفزع والتخوف، كما أن فى التعبير من التهكم والخسرية ما يناسب اعتزازهم بأنفسهم واغترارهم بمكانتهم، فهؤلاء الخارجون من القبور يسرعون الخطى، كأنما هم ذاهبون

---

(١) سورة القمر: الآيتان ٦، ٧.

(٢) سورة المعارج: الآيتان ٤٣، ٤٤.

(٣) سورة القارعة: آية ٤.

(٤) سورة المعارج: الآيتان ١، ٢.

(٥) سورة المعارج: الآيات ١٩-٢١.

(٦) سورة المطففين آية ٣٤.

إلى نصب يعبدونه، وفى هذا التهكم تناسق مع حالهم فى الدنيا، لقد كانوا يسارعون إلى الأنصاب فى الأعياد، ويتجمعون حولها، فهاهم أولاء يسارعون اليوم، ولكن شتان بين يوم ويوم"[1].

وفى سورة القمر شبه الناس عند خروجهم من الأجداث بالجراد المنتشر، فى الكثرة والتدافع والتداخل، فهم ينتشرون على غير هدى، ويندفعون على غير نظام، يموج بعضهم فى بعض، وهم فى هذا التدافع والتداخل فى ذهول من هول ما حدث، حيث دعا الداعى إلى شيء نكر، تنكره النفوس لشدته وفظاعته، فأبصارهم خشعا خضوعا واستسلاما.

التشبيه هنا يصور الكثرة وشدة التدافع، وتداخل الناس فى انتشارهم، ونجد فيه قوة لا نجدها فى تشبيه سورة القارعة، حيث شبه الناس هناك بالفراش المبثوث، فى كثرتهم وانتشارهم على غير نظام، ولكن يبدو فى التشبيه بالفراش المبثوث الضعف والتخاذل، ويبدو فى التشبيه بالجراد المنتشر القوة والتماسك، ويرجع ذلك إلى ما يلي؟

١ـ أن الفراش يضرب به المثل فى الوهن والضعف، والخفة والتهافت، والحماقة والطيش، حيث قالوا: (أطيش من فراشة)[2].

٢ـ أن الجراد عند بداية انتشاره يكون قويا متماسكا، ثم يتساقط بعد ذلك متهالكا، ولا توجد تلك القوة فى الفراش.

٣ـ أن الانتشار فيه فضل تماسك لا يوجد فى البث، يضاف لهذا أنه قد عبر عن الانتشار باسم الفاعل (منتشر) وعبر عن البث باسم المفعول (المبثوث) فالانتشار واقع من الجراد، والبث واقع على الفراش.. الناس عند خروجهم من الأجداث كالجراد الذى ينتشر بنفسه، وهم عند القارعة كالفراش الذى يبثه غيره، وكأنه لضعفه ووهنه لا يقوى على الفعل بنفسه.

وبعد وضوح هذا الفرق بين التشبيهين، ننظر فى سياقهما فنجد كل تشبيه منسجما فى سياقه، ومتلائما مع المعنى، ففى سورة القارعة يتلاءم التشبيه مع ما وصفت به القيامة:

(١) فى ظلال القرآن ٦/ ٣٧٠٣.

(٢) انظر مجمع الأمثال ٢/ ٢٩٩.

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾[1] إذ القرع هو الضرب بشدة وقد تكرر هذا الوصف (القارعة) وتكرر الاستفهام عنها (ما القارعة. وما أدراك ما القارعة) مما يدل على شدة التهويل والتفظيع، ومن ثم جاء تشبيه الناس بالفراش المبثوث، وتشبيه الجبال بالعهن المنفوش متلائمين ومتسقين مع ذلك التهويل.

وفى سورة القمر يتلاءم التشبيه مع سياق السورة الكريمة ومع التشبيهات الواردة بها، ولنتأمل تشبيه صرعى عاد بأعجاز النخل المنقعر فى قوله تعالى: ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾[2] إنه يصور مصارعهم عند بداية الإهلاك، حيث أرسلت عليهم الريح الصرر فى يوم نحس مستمر، فالقوم يقاومون الريح، والريح تنزعهم حتى أهلكوا فصاروا كأعجاز النخل المنقعر، أي: المنقلع عن مغارسه، الساقط على الأرض، فما زالت به قوة وصلابة.

ويختلف التصوير هنا عن تصوير هلاكهم فى سورة الحاقة، حيث سخرت عليهم الريح سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوما، فكانوا بعدها صرعى ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾[3] وفرق بين أعجاز النخل المنقعر، وأعجاز النخل الذى تآكلت أجوافه فصارت خاوية، القوم فى تشبيه الحاقة بليت أجسامهم وتآكلت، وهذا يتلاءم مع تسخير الريح عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما، ومع الأوصاف المذكورة فى السورة: (الحاقة.. والقارعة.. والطاغية.. والعاتية.. والأخذة الرابية.. وطغيان الماء) هذا التجاوز فى الصفات يلائمه الإبعاد فى الإهلاك الذى ذكر فى السورة الكريمة.

أما التشبيه فى سورة القمر فليس فيه هذا البعد فى الإهلاك، وذلك ليتلاءم مع ما وصفت به الريح، فهى ريح صرصر، أرسلت عليهم، ولم تسخر زمنا كما هناك، ولذا اكتفى معها باقتلاع النخل وإسقاطه على الأرض تصويرا لإصراعهم، وتمثيلا لصرعاهم.

وانظر إلى تشبيه مصارع ثمود بهشيم المحتظر فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ

(١) سورة القارعة: ١ـ٣.

(٢) سورة القمر آية ٢٠.

(٣) سورة الحاقة آية ٧.

﴿ صَيۡحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴾[1] فالهشيم ما تساقط من يابس الشجر فداسته الدواب وراثت عليه، وهو أقوى من العصف المأكول فى قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ﴾[2] لأن العصف قد أكل وأفنى، وتحول عن جنسه إلى شىء آخر، وذا يتلاءم مع سياق سورة الفيل، وما صرح به فيها من تعجيب وتقرير لما فعله الله تعالى بأولئك الكفرة الذين أرادوا هدم بيته، لقد أرادوا هدم الكعبة، واقتلاع جذور الإسلام، ولذا كان إهلاكهم أشد، إنهم صاروا كالعصف المأكول، تبدلت أجسامهم وتغيرت، وصارت إلى هذا الذى كنى عنه القرآن، ولا يخفى عليك ما فى تلك الكناية من تحقير لهم، أما ثمود فقد صارت أجسامهم بعد الإهلاك كالهشيم الذى داسته الدواب وراثت عليه، وفى هذا من الإهانة لهم ما ترى.

ثم انظر إلى تشبيه الساعة فى ختام السورة الكريمة: ﴿ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴾[3] وإلى تشبيهها فى سورة النحل فى قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ ﴾[4] تجد أن التشبيه هنا لا يصور السرعة التى يصورها تشبيه سورة النحل، لأن (لمح البصر) أسرع من (لمح بالبصر) فهم يقولون: لمحته ببصرى، أي: صوبته إليه، ولمح بصرى، أي: امتد إلى الشيء، وفى التصويب تراخ إذا ما قورن بالامتداد، كما أن إضافة اللمح إلى البصر فى سورة النحل أدل على السرعة، وكأن الباء المتصلة بالفاعل فى سورة القمر، قد أكسبت المعنى تراخيا، ولهذا جاء فى سورة النحل (أو هو أقرب) ولا يتأتى مجيء ذلك فى سورة القمر.

ولا يخفى عليك تلاؤم التشبيه هنا مع افتتاح السورة الكريمة بقوله تعالى: (اقتربت الساعة) وتلاؤم تشبيه سورة النحل مع افتتاحها بقوله تعالى: (أتى أمر الله) فالذى هنا اقتراب، والذى فى النحل إتيان، والإتيان يلائمه (كلمح البصر أو هو أقرب) والاقتراب يلائمه (كلمح بالبصر).

أرأيت كيف يتلاءم التشبيه مع السياق، وينسجم مع المعنى الذى يبرزه، ويتسق مع

(١) سورة القمر آية ٣١.
(٢) سورة الفيل آية ٥.
(٣) سورة القمر آية ٥٠.
(٤) سورة النحل آية ٧٧.

التشبيهات الواردة فيه؟ فالجراد فى بداية انتشاره قوى متماسك، وقوم هود أقوياء، الريح تنزعهم وهو يقاومون، وأنى لهم المقاومة، وثمود قوم صالح صاروا كهشيم المحتظر، وهو أقرب وأقوى من العصف المأكول، والامتداد والتراخى الذى بيناه فى قوله تعالى: (كلمح بالبصر) يقرب هذا التشبيه من تشبيهات السورة الكريمة ويجعله ملائما معها، ومتسقا مع افتتاحها.

وعد إلى التشبيهات المذكورة، وتأمل تلك القيود التى قيد بها المشبه به فيها: (منتشر.. المبثوث.. المنفوش.. منقعر.. خاوية.. المحتظر.. مأكول) تجد أثرها بارزا فى الدلالة على الغرض من التشبيه، وتحديد الفروق التى أشرنا إليها، بل إن بعضها لا يتم التشبيه إلا به، كالوصفين (منقعر وخاوية) إذ لا يتأتى تشبيه الصرعى بأعجاز النخل قائما منغرسا..

وهذا هو شأن التشبيهات المقيدة، حيث يكون للقيد أثره فى إبراز الغرض من التشبيه، وتجلية المعنى المراد، تأمل قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ** ﴾[1] تجد أن هذا القيد (مسندة) قد أبرز حال المنافقين، وجلى ما طبعوا عليه من الخوف والفزع، والغفلة والبلاهة، والخلو من أى نفع، ولو طوى هذا الوصف (مسندة) لضاع هذا المغزى، لأن الخشب قد يستفاد بها، فتوضع فى جدار، أو يصنع منها باب، أو توضع فى سقف، أو يحمل عليها، لذا قيدت بهذا القيد (مسندة) للدلالة على خلو المنافقين من أدنى نفع.

يقول الزمخشري: (فإن قلت: ما معنى قوله (كأنهم خشب مسندة)؟ قلت: شبهوا فى استنادهم وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير بالخشب المسندة إلى الحائط، ولأن الخشب إذا انتفع به، كان فى سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع، وما دام متروكا فارغا غير منتفع به أسند إلى الحائط، فشبهوا به فى عدم الانتفاع، ويجوز أن يراد بالخشب المسندة الأصنام المنحوتة من الخشب المسندة إلى الحيطان، شبهوا بها فى حسن صورهم وقلة جدواهم)[2].

---

(١) سورة المنافقون آية ٤.

(٢) الكشاف ٤/ ١٠٩.

وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴾[1] تجد أن كلا من المشبه والمشبه به قد قيد بقيد، فقد قيد المشبه بالحال (صفا) وقيد المشبه به بالصفة (مرصوص) وهذان القيدان يبرزان الغاية من التشبيه، ويجليان المعنى المراد، وهو أن تستوى نيات المجاهدين، وتجتمع كلمتهم، وينعدم أى خلل بين صفوفهم، ولو طوى القيدان فقيل: إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله كأنهم بنيان، ما وجدت لهذا المعنى سبيلا.

وانظر فى قوله تعالى: ﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾[2] تجد أن هذا القيد (العظيم) قد أبرز ضخامة الجبل، ودل على عظم ارتفاع الماء، فإن الطود هو الجبل المرتفع الثابت فى مقره، ووصفه بالعظم يدل على شدة ارتفاع الماء، وفى هذا إظهار وتجلية للنعمة التى أنعم الله بها على بنى إسرائيل، حيث انحصر الماء بهذه الصورة، فتمكنوا من عبور البحر والنجاة من فرعون وقومه.

ويأتى تقييد العرجون بالقدم فى قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴾[3] مبرزا الغاية من تشبيه القمر به، فالعرجون هو: عود العذق ما بين شماريخه إلى منبته من النخلة، والقديم: المحول، أي: الذى مضى عليه حول، وإذا قدم العرجون دق وانحنى واصفر، فشبه القمر به من هذه الأوجه الثلاثة: الدقة والانحناء والاصفرار[4].

فهذا القيد (القديم) قد أبرز المعنى، وأوضح الغاية من التشبيه (لأن العرجون القديم) لا يشارك القمر ى الشكل فحسب، وإنما هناك معان أخرى، منها أن العرجون القديم كأنه شىء تائه لا يلتفت إليه، وكذلك القمر فى هذه المرحلة، تراه ضالا فى السماء لا تتعلق به الأبصار، ومنها أن كلا منهما كان موضع العناية ومتعلق الأنظار، فالعرجون كان حامل الثمر والنفع، والقمر كان مرسل النور والهداية، وقوله (حتى عاد) يطوى قصة رحلة طويلة بدأها هلالا ثم مضى فى مسيرة طويلة حتى عاد،

(١) سورة الصف آية ٤.
(٢) سورة الشعراء آية ٦٣.
(٣) سورة يس آية ٣٩.
(٤) انظر الكشاف ٣/ ٣٢٣.

وهذه النهاية متلائمة كل التلاؤم مع النهايات فى آيات السياق، انظر: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾[1].

الآيات الثلاث تفوح بريح العدم، فالنهار بحركته يسلخ من الليل فتبقى الظلمة والجمود، والشمس تجرى أولا ثم تقف عند مستقرها الأبدى، والقمر يبدأ قصة مسيرته حتى ينتهى نوره ويعود كأنه موات)[2].

وفى قوله تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾[3] قيد المشبه به (حمر) بقيدين، أولهما (مستنفرة) وثانيهما (فرت من قسورة) فلم يكتف باستنفارها حتى ذكر ما استنفرها وفرت منه، إنه أسد هصور يطاردها ويريد الفتك بها، ولك أن تتصور ما وراء ذلك من شدة إعراض الكفرة عن التذكرة، وما يوحى به التشبيه من السخرية والاستخفاف بهم.

وقد جاء تشبيه إعراض الكفرة عن الآيات والذكر دالا على تحقيرهم، ومشعرا بشدة الإعراض والنفور فى مواطن كثيرة من آيات الذكر الحكيم، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[4] تجد مدى التحقير والإهانة فى تمثيلهم وقد أعرضوا عمن يدعوهم إلى الحق بالأنعام التى لا تسمع إلا دعاء ونداء، ثم وصفهم بهذه الصفات التى التحمت وصارت كأنها شيء واحد قد تمكن منهم وأحاط بهم (صم بكم عمى) فهم فى إعراضهم عن الهدى ليسوا إلا كذلك، لأنه لا يعرض عن الحق والهداية إلا فاقد وسائل الإدراك تلك.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾[5] تجد أن التدرج فى بيان حال ذلك الكافر، الذى ولى مستكبرا عند تلاوة الآيات عليه، وتشبيهه بمن لم يسمع، ثم بمن فقد السمع كلية، يشعر بعظمة القرآن،

---

(١) سورة يس آيات ٣٧-٣٩.

(٢) التصوير البيانى ص٢٦.

(٣) سورة المدثر آيات ٤٩-٥١.

(٤) سورة البقرة آية ١٧١.

(٥) سورة لقمان آية ٧.

ويدل على إعجازه، وبلوغه الغاية فى الهداية، وإذ لا يعرض عنه إلا من لم تتوفر له سبل سماعه، أما من يسمع ويعقل فلا يتأتى له الإعراض والاستكبار.

وفى وصف القرآن لنساء الجنة يأتى تشبيههن ببيض النعام وباللؤلؤ والياقوت والمرجان، ولنقرأ: ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾... ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾... ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾[1] والغاية من تلك التشبيهات تصوير الصفاء، وإبراز الحسن، وتجلية ما يجب على النساء من الاستتار والحفظ، وما ينبغى على الرجال نحوهن من الحذر والتلطف، فهذه الأشياء المشبه بها، يبدو فيها الصفاء ونقاء اللون، وهى أشياء ثمينة تصان ويحرص عليها، وبيض النعام فضلا عن صفائه ونقاء لونه، ينبغى الرفق والتطلف والحذر والحيطة عند التعامل معه.

ثم يأتى هذا القيد (المكنون) فينبه إلى ما يجب على النساء من الاكتنان والاستتار، ويدل على أنه فى هذا الكن يبقى الجمال، ويبلغ الحسن غايته، فبيض النعام مكنون بريشه، يصان بهذا الكن من الغبار ونحوه، فيبقى نقاؤه، ويظل لونه الأبيض المشوب بصفرة صافيا لا يتغير، واللؤلؤ المكونون هو المصون فى صدفه أو المخزون، وبهذه الصيانة يبقى جماله، ويدوم نقاؤه، فلا يتغير بما يقع عليه ويتراكم، لو لم يكن مكنونا.

ولذا وجدنا (اللؤلؤ) فى تشبيه القرآن للولدان مرة مكنونا ليدل على بقاء الجمال ودوام الحسن، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾[2] ومرة منثورا، أي: قد نثر من سلكه أو من صدفه، ليدل هذا القيد (منثورا) على انتشارهم فى المجالس، وامتلاء تلك المجالس بحسنهم وجمالهم، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾[3] ولعلك تدرك من هذا أن الغلمان لا يجب عليهم ما يجب على النساء من الاستتار والاكتنان.

ويؤكد النظم الكريم كن النساء بجعلهن قاصرات الطرف، ومقصورات فى الخيام

---

(١) الآيات بالترتيب: الرحمن ٥٦ـ٥٨، الواقعة ٢٢، ٢٣، الصافات ٤٨، ٤٩.

(٢) سورة الطور آية ٢٤.

(٣) سورة الإنسان آية ١٩.

(فيهن قاصرات الطرف... حور مقصورات فى الخيام) فهن قد قصرن الطرف على أزواجهن حياء، لا ينظرن إلى غيرهم، وهن مقصورات أي: محبوسات فى الخيام، حفظا لهن وتكريما.

وتأمل التعبير باسم المفعول: (مكنون.. مقصورات) ماذا تجد وراءه؟ إنه يدل على مسئولية الرجال تجاه نسائهم، فالنساء لم يفعلن الكن ولا القصر، ولكنه واقع عليهن، فهن يكنن ويقصرن حفظا لهن وتكريما، والذى يفعل الكن والقصر هم الرجال، تلك مسئوليتهم، أما قصر الطرف حياء، فالنساء فاعلاته، ولذا جاء اسم فاعل (فيهن قاصرات الطرف).. أرأيت روعة القرآن، ودقة تعبيره، ولطف إشاراته، إنه الإعجاز.

وعد إلى ما ذكرناه من تشبيهات، فانظر فى طرفى التشبيه، تجد أنهما فى معظم ما ذكرنا محسوسان، أي: يدركان بالحواس، وقد قرر البلاغيون أن طرفى التشبيه إما محسوسان، ومعظم ما عرضنا له من هذا النوع، وإما معقولان، أي: يدركان بالعقل لا بالحس، كما فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾[1] فكل من النوم والموت أمر عقلى لا تدركه الحواس، وإما مختلفان، أي: أحدهما معقول، والآخر محسوس، كما فى تشبيه أعمال الكفار برماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف، وتشبيه وهن ما يعبد من دون الله بالعنكبوت اتخذت بيتا، وتشبيه أحوال المنافقين وتخبطهم بالذى استوقد نارا، فقد شبهت تلك الأمور المعقولة التى لا تدركها الحواس بما تقع عليه الحاسة، وسيأتى تجلية هذه التشبيهات.

أما تشبيه المحسوس بالمعقول فلم يرد فى النظم الكريم، لأن الغرض من تشبيهاته إيضاح الأمور المعنوية بالصور التى تدركها الحواس، وما جاء فيه من التشبيه بالأمور الخيالية التى لا تقع عليها الحاسة، كالتشبيه بالجن فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾[2] وكالتشبيه برءوس الشياطين فى قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[3] فيرجع إلى شهرة المشبه به، وكثرة تخيله، حتى ارتسمت فى الخيال صورة له تكاد تكون محسوسة، ففى

(١) سورة النبأ آية ٩.
(٢) سورة النمل آية ١٠.
(٣) سورة الصافات الآيتان ٦٤، ٦٥.

الخيال صورة واضحة للجان تمثله سريع الحركة، لا يكاد يهدأ ولا يستقر، وفيه صورة بشعة مرعبة لرءوس الشياطين، وما يكمن بداخلها من إغواء تمثلها قبيحة منفرة[١].

وإذا كان للقيد الذى يقيد به أحد طرفى التشبيه أو كلاهما أثره فى تحقيق الغرض من التشبيه، وتحديد المعنى، وتجلية المغزى، فإن التشبيهات المركبة أدخل فى ذلك، لأن التشبيه المركب تشبيه كثرت قيوده وتعددت، فهو يتكون من عدة أمور اتحدت وتداخلت وكونت هيئة مركبة، ولابد من الإحاطة بكل أمر من هذه الأمور المكونة للهيئة، وإدراك ما ينبئ به ويدل عليه حتى يتضح وجه الشبه، فهو هيئة مركبة منتزعة من تلك الأمور، جامعة بين طرفى التشبيه.

هذه التشبيهات المركبة كثرت فى النظم الكريم، وقد شاع فيها مجيء لفظ (المثل) بالتحريك فى جانب المشبه والمشبه به معا، أو فى جانب أحدهما، وأدخلت الكاف على المشبه به منهما، وقلما شبهت حال مركبة بحال مركبة دون وجود لفظ (المثل) ولهذا سمى التشبيه المركب بالتشبيه التمثيلي[٢].

تأمل قوله تعالى: ﴿ **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ** ﴾[٣] تجد أن حال المنافقين من حيث الحيرة والتخبط والقلق والاضطراب قد مثلت بحال الذى استوقد نارا، وما كاد ضوء النار يبدو ويضيء ما حوله حتى خبا، فعاد الظلام أشد مما كان، حيث ذهب الله بنورهم فصاروا يتخطبون فى ظلماتهم.

ثم يبرز النظم الكريم سبب حيرتهم وتخبطهم، فيصورهم فى صورة (الصم البكم

---

(١) لنا بحث مفرد بعنوان: (استعمالات كلمة (الرأس) فى القرآن الكريم) أفضنا فيه فى تجلية هذه الصورة (طلعها كأنه رءوس الشياطين) فارجع إليه فى مجلة كلية اللغة بالقاهرة ١٩٩٣م.

(٢) انظر التحرير والتنوير ١/ ٣٠٣، ٣٠٤.. هذا وقد اختلف علماء البلاغة فى التفرقة بين التشبيه التمثيلى والتشبيه غير التمثيلى.. ارجع إلى كتابنا (دراسات بلاغية) ص١٧٥ وما بعدها لتقف على آرائهم فى التفرقة بين التشبيه والتمثيل.

(٣) سورة البقرة آيات ١٧ ـ ١٩.

العمى) انظر كيف جاءت هذه الصفات بلا عاطف، فالتحمت وصارت كأنها صفة واحدة، تصور شدة نفورهم وإعراضهم عن الهدى، وتأمل ما وراء حذف أداة التشبيه وطى المشبه ـ على نية تقديره ـ من مبالغة فى وصفهم بتلك الصفات (صم بكم عمى) والدلالة على شدة التصاقها بهم.

ويتلو ذلك تشبيه ثالث، كشفا لحالهم بعد كشف، وإيضاحا لها بعد إيضاح، فيصورهم النظم الكريم بحال من أخذته السماء بصيب فيه ظلمات ورد وبرق، فامتلأ رعبا وفزعا، وأخذ يسد أذنيه بأصابعه خوفا من الصواعق أن تنزل به[1].

ومما يلاحظ أن التمثيل الأول قد ذكر فيه لفظ (المثل) فى جانب المشبه والمشبه به معا، والمراد بالمثل: الحال العجيبة والقصة الغريبة ذات الشأن، على سبيل الاستعارة، فإن المعنى: حالهم العجيبة وصفتهم الغريبة كحال رجل استوقد نارا.. استعير لفظ (المثل) للحال العجيبة والصفة الغريبة ذات الشأن[2].

ومن تلك التشبيهات المركبة قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾[3] مثلت حال الكفرة فى اتخاذهم أولياء يعبدونها من دون الله بحال العنكبوت اتخذت لنفسها بيتا من ذلك النسج الضعيف الذى لا يجير آويا ولا يريح ثاويا، فنسج العنكبوت مثل عند الناس فى الضعف والوهن، وهذا شأن ما يعبد من دون الله ويتخذ وليا ويبغى ربا.

وبإنعام النظر فى هذا التمثيل، نجد أن التعبير بكلمة (بيتا) يوحى بمعان كثيرة، فالبيت له خصائص وله فوائد، إذ يأوى إليه صاحبه، فيسكن فيه، ويتقى به الحر والبرد وعصف الريح وأذى الأمطار، وغير ذلك مما يقام له البيت، ولكن العنكبوت لا يحصل لها من اتخاذها ذلك النسج شىء من معانى البيت وفوائده، كذلك الكفرة لا يحصل لهم باتخاذ الأوثان أولياء من دون الله شىء من معانى الولى.. البيت ينفع

---

(١) تناولنا هذه التشبيهات الثلاثة فى كتابنا (بلاغة تطبيقية) وأفضنا فى تحليلها وتجليتها وإبراز دقائقها، فلم نتعرض لشىء من ذلك هنا تحاشيا للتكرار، ولتراجع التشبيهات فى الكتاب المذكور ص٤٧ وما بعدها.

(٢) انظر الكشاف ١/ ١٩٥.

(٣) سورة العنكبوت آية ٤١.

صاحبه ويمنع عنه الضرر، ولا شىء من ذلك فى نسج العنكبوت، فإن الأذى ينفذ منه إليها، لا يمنع ذلك النسج عنها ضررا ولا يجلب لها نفعا، وهذا شأن ما يعبد من دون الله..

ولا يخفى عليك ما فى التمثيل من تنبيه للكفرة وحث لهم على النظر والتأمل ليقفوا على الخطأ ويتجلى لهم الباطل، فيقلعوا عنه، فإن نسج العنكبوت إذا خيم فى زاوية من مكان وظل مدة، تعقبه صاحب المكان حتى يزيله وينظف المكان منه، ويقتل العنكبوت الذى نسج، أو على الأقل يؤذى فى أثناء عملية التنظيف جسده، وإن نسج فى فضاء فسرعان ما تهب ريح فتجعله هباء منثورا..

وكذا ما يعبد من دون الله، إن استمر العابد فى عبادته له، وداوم على اتخاذه وليا، فلن يكون فى ذلك إلا الضرر للعابد، والأذى الذى يلحقه، فينبغى التنبه والإقلاع عما فيه الأذى والضرر.

ويشعر التعبير بالاتخاذ فى جانب المشبه والمشبه به (اتخذوا.. اتخذت) بما لهذه الأشياء من نفع، فالحجارة والشمس والقمر والنجوم وغير ذلك مما يعبد من دون الله، له نفع، ويستدل به على قدرة الله تعالى، والخطأ إنما هو فى عبادتها من دون الله واتخاذها آلهة، وكذا نسج العنكبوت، لا يخلو من فائدة، كاصطيادها به الذباب ونحوه، والخطأ إنما هو فى اتخاذه بيتا، وليس فيه خصائص البيت[1].

وفى إيثار التعبير بلفظ (أولياء) دون (آلهة) ما يدل على كمال قدرة الله تعالى، وتفرده بالجلال والسلطان، وظهور عجز من سواه، فهم فى الوهن والضعف عندما يلجأ إليهم، ويراد نفعهم، وينظر إلى قدرتهم، كنسج العنكبوت عندما يتخذ بيتا.

وتأمل قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾[2] تجده تمثيلا لحال ما يعبد من دون الله تعالى، وعدم إجابته من يدعوه بحال من بسط كفيه إلى الماء يطلب منه أن يبلغ فاه، وما هو ببالغه، لأن الماء لا يشعر ببسطه كفيه، ولا يحس بعطشه وحاجته إليه، ولا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه كما يريد،

(١) انظر تفسير الفخر الرازى ٢٥/ ٦٩.
(٢) سورة الرعد آية ١٤.

وهذا شأن ما يدعون من دون الله، فهو لا يسمع دعاء من يدعوه، ولا يشعر به، ولا يقدر على إجابته، ولا يستطيع نفعه.

وقيل: إن المعنى على تمثيل حالهم فى عدم إجابة الأصنام لدعائهم بحال من أراد أن يغترف من الماء بكفيه ليروى عطشه، فبسطهما ناشرا أصابعه، فلم تلق كفاه من الماء شيئًا، ولم تصلا إلى فيه بشىء منه، فظل على حاله من الظمأ والعطش، ولم يفده ما فعل من بسط كفيه إلى الماء، وذلك شأن من يدعو آلهة لا تجيب، لأنها لا تسمع دعاء[1].

وقد بدئت الآية الكريمة بقوله تعالى: (له دعوة الحق) أي: الدعوة الثابتة، الواقعة فى محلها، المجابة عند وقوعها، والإضافة للإيذان بملابسة الدعوة للحق، واختصاصها به، وكونها بمعزل من شائبة البطلان والضياع والضلال، كما يقال: تلك كلمة الحق، وقيل: إن الحق هو الله، والمعنى: لله دعوة الله، أي: الدعوى اللائقة بحضرته، كما فى قوله ﷺ: (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله)[2] وعن الحسن ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: (الحق هو الله، وكل دعاء إليه دعوة حق) ثم ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى: (وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال) أي: ضياع وخسران، لأنهم يدعون آلهة لا تستطيع إجابة، ولا يخفى عليك ما فى بدء الآية وختامها من إيضاح وتجلية للمثل[3].

وفى بناء التمثيل على النفى والاستثناء (لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء..) تأكيد للذم بما يشبه المدح، ولا يخفى عليك ما وراء ذلك من تنبيه وإيقاظ.

ومن هذه التشبيهات المركبة قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[4] حيث شبه اليهود فى أنهم كلفوا علم التوراة والعمل بها ثم لم يعملوا بها فى تضاعيفها من الآيات التى من جملتها الآيات الناطقة بنبوة محمد ﷺ شبهوا فى ذلك بالحمار يحمل أسفارا، فاليهود حملة التوراة وقراؤها وحفاظ ما فيها،

(١) انظر الكشاف ٢/ ٣٥٤.
(٢) انظر تفسير أبى السعود ٥/ ١١.
(٣) رواه البخارى ومسلم.
(٤) سورة الجمعة آية ٥.

ولكنهم غير عاملين بها، ولا منتفعين بآياتها، إذ فيها نعت رسول الله ﷺ والتبشير به، وهم يعلمون ذلك ولم يؤمنوا به ﷺ فحالتهم هذه تشبه حال الحمار الذى يحمل كتب العلم القيمة، ويتعب فى حملها، ولا ينتفع بما فيها من علم، لأنه لا يدرى منها إلا ما يمر بجنبيه وظهره من الكد والتعب، وهذا مثل كل من علم ولم يعمل بمقتضى علمه، وبئس المثل مثلا[1].

ولا يخفى عليك تركيب طرفى التشبيه فى الآية الكريمة، فالمشبه هيئة مكونة من اليهود وحفظهم التوراة، وعدم عملهم بمقتضى ما حفظوا، والمشبه به هيئة مكونة من الحمار وحمله وكون المحمول أسفارا، وقد أجاز بعض العلماء كالعلوى صاحب الطراز، وابن أبى الإصبع صاحب بديع القرآن، أن يكون التشبيه فى الآية من قبيل التشبيه المتعدد، حيث شبهت اليهود بالحمار فى الغباوة والجهل والبلاد، وشبهت التوراة بكتب العلم (الأسفار) وشبه حفظهم التوراة بحمل الحمار الأسفار، وهذا ليس بشيء، لأن المراد من التشبيه تصوير العناء بلا منفعة، وهذا لا يتأتى إلا بالتركيب، بأن يتعدى الحمل إلى الأسفار، ويقترن بالحمل جهل الحمار بمضمونها، وقد أفاض الإمام عبد القاهر فى تجلية هذا التشبيه، وبيان الغرض منه، وإيضاح أن هذا الغرض لا يتحقق إلا بتركيب طرفيه[2].

ومن تلك التشبيهات المركبة تصوير النظم القرآنى لإنفاق المال، إذ يرسم لنا صورا للمنفق فى سبيل الله وابتغاء وجهه، وللمنفق منا ورياء، وللكفرة ينفقون ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر.

تأمل قوله تعالى: ﴿ **مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾[3] هذه صورة للمنفق فى سبيل الله، مخلصا فى إنفاقه، مبتغيا به وجه الله تعالى، قد ابتعد بإنفاقه عن المن والأذى والرياء، ومما يلاحظ أن التشبيه قد أوجز فى جانب المشبه: (الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله) ثم جاء التفصيل فى جانب المشبه به، فهو حبة أنبتت سبع

(١) انظر الكشاف ٤/ ١٠٣.
(٢) ارجع إلى أسرار البلاغة ١/ ٢١٠.
(٣) سورة البقرة آية ٢٦١.

سنابل، فى كل سنبلة مائة حبة، لقد ضوعف جزاء الصدقة إلى سبعمائة ضعف، والله يضاعف لمن يشاء، ولم يقل النظم الكريم كمثل حبة أنبتت سبعمائة حبة، بل آثر التفصيل فى بيان الأجر (كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة) ليقف القارئ على أجر الصدقة، كيف ينمى فى نمو الحبة، وتفرعها إلى سبع سنابل، وتكوين الحبات، فى كل سنبلة مائة حبة، حتى صارت الحبة إلى سبعمائة حبة، رآها القارئ وهى تنمو فى الحبة وتتكون فى السنابل، وقد أخبر ﷺ أن الله يربى الصدقة لصاحبها كما يربى الرجل فلوه، أي: مهره الصغير، حتى تكون مثل الجبل.

يقول ﷺ: (من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل)[1].

وليس المراد بالعدد فى قوله: (سبع سنابل) حقيقة العدد، بل المراد: الكثرة، فإن السبعة ومضاعفاتها ترد للدلالة على الكثرة، قال تعالى ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾[2] ولذا أوثر التعبير بجمع الكثرة (سنابل) دون جمع القلة (سنبلات) كما ورد فى سورة يوسف، فى قوله تعالى: ﴿ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ﴾[3] ليشعر ذلك بالكثرة ويؤذن بالمضاعفة (والله يضاعف لمن يشاء).

ما حقيقة الحبة الممثل بها؟ : قد تكون حبة موجودة فى واقع الناس، تنبت هذا الإنبات وتثمر ذلك الإثمار، وقد تكون حبة متخيلة، على سبيل الفرض لتظهر الكثرة ومضاعفة الأجر، يقول الزمخشري:

"فإن قلت: كيف صح هذا التمثيل والممثل به غير موجود؟ قلت: بل هو موجود فى الدخن والذرة وغيرهما، وربما فرخت ساق البرة فى الأراضى القوية المغلة فيبلغ حبها هذا المبلغ، ولو لم يوجد لكان صحيحا على سبيل الفرض والتقدير)[4] وتقضى

(١) رواه البخارى ومسلم .. وعدل التمرة: قيمتها، و(الفلو، بفتح الفاء وضم اللام وتشديد الواو: المهر الصغير.

(٢) سورة التوبة آية ٨٠.

(٣) سورة يوسف آية ٤٣.

(٤) الكشاف ١/ ٣٩٣.

الصياغة أن يقدر مضاف في جانب المشبه به ليناظر ما في المشبه، ويصبح المعنى: مثلهم كمثل باذر حبة .. فطوى هذا المضاف، وفي طيه ثم إسناد الإنبات إلى ضمير الحبة (أنبتت سبع سنابل) إسنادا مجازيا، ما يدل على سرعة النمو، فقد توارى المضاف وهو باذر الحبة حتى لا يحجب الأنظار عن مشاهدة هذا النمو السريع للحبة التي أنبتت سبع سنابل بأمر الله تعالى وأثمرت ذلك الإثمار .. إن طي المضاف قد جعل الأذهان معلقة بأولئك الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، غير مصروفة عنهم بصارف ما وهي تشاهد ثواب إنفاقهم ينمو ويتضاعف من خلال ذلك التصوير المبدع.

ويأتي تمثيل آخر للمنفق ابتغاء وجه الله في قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾[1] حيث يصور النظم الكريم ثواب إنفاقهم، ويبين كيف ينمو ويتضاعف، فيشبهه بجنة، هذه الجنة بربوة، أي: مكان مرتفع، وقد خص الجنة بهذا المكان، لأن الشجر فيها يكون أزكى، وأحسن منظرا وأطيب ثمرا.. تلك الجنة قد أصابها (وابل) وهو المطر الشديد فتضاعف ثمرها، أو أصابها (طل) وهو المطر الصغير القطر، وهذا يكفيها لكي تثمر وتؤتي أكلها ضعفين لكرم منبتها، فهي بربوة.

ويشعر هذا التعبير (فإن لم يصبها وابل فطل) بأن الصدقة كثيرة كانت أو قليلة إذا ما قصد بها وجهه الله تعالى، وبذل فيها الوسع، فهي زاكية عنده، وثوابها يضاعف، كما أن كل واحد من المطرين يضاعف أكل الجنة[2].

وكما أسند الإنبات في التمثيل السابق إلى الحبة، فقد أسند الإيتاء هنا إلى الجنة إسنادا مجازيا، فالجنة تؤتي أكلها بأمر الله، ويتضاعف هذا الإيتاء أضعافا، ذاك هو المراد بالتثنية (ضعفين) فليس المراد بها العدد، بل أريد بها: التكثير ومضاعفة الإيتاء.

ويتخلل التمثيلين السابقين في النظم الكريم تمثيل إنفاق المن والأذى، والإنفاق رئاء الناس، حيث جاء قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ

---

(١) سورة البقرة آية ٢٦٥.

(٢) انظر الكشاف ١/ ٣٩٥.

وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1] مشبها الذى ينفق الصدقات ثم يبطلها بالمن والأذى، بالكافر الذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، فكل منهما قد أحبط عمله، وضيع ثوابه، هذا بالمن والأذى، وذاك بالرياء وعدم الإيمان.

ثم يرسم النظم الكريم صورة الإحباط والضياع: (فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا ..) لقد اتحد إنفاق المؤمن الذى يمن عطاءه بإنفاق الكافر وامتزجا، ورسمت لهما هذه الصورة، صورة حجر أملس تراكم عليه التراب، وما أيسر إزالة تراب تراكم على حجر أملس، إن أقل شىء يزيله، ومع ذلك (أصابه وابل) أي: مطر عظيم القطر، بدد التراب وترك الحجر صلدا، نقيا خاليا مما تراكم عليه.

وانظر إلى تلك الفاءات (فمثله.. فأصابه وابل فتركه..) التى تصور السرعة وتلاحق الأحداث، وتشعر بأن إنفاق الكافر، ومثله المنان عطاءه، لا يثبت وإنما يحبطه الله فيصير هباء منثورًا.

ولا يخفى عليك ما وراء اندماج التمثيلين من قوة الردع وشدة الزجر للمؤمن الذى يبطل صدقته بالمن والأذى، إنه هو والكافر سواء فى الحرمان وضياع الثواب وسوء المصير، ولذا ختمت الآية الكريمة بهذا التعريض (والله لا يهدى القوم الكافرين)، فهو تعريض بأن المن والأذى والرياء من صفات الكافرين، فعلى المؤمن أن يتجنب هذه الصفات وأن يكون عنها بمعزل[2].

ويأتى تمثيل ثان للصدقة التى يبطلها المن والأذى، ويحبطها الرياء، وذلك فى قوله تعالى ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾[3]، إنها صورة

---

(١) البقرة: ٢٦٤.
(٢) انظر روح المعانى ٣/ ٣٥.
(٣) البقرة: ٢٦٦.

تبرز كيفية إبطال العمل وإحباطه، مهما عظم واشتدت حاجة صاحبه إليه، لقد أبطله رياؤه وأحبطه منه.

الصورة التى يرسمها النظم الكريم هنا صورة جنة من نخيل وأعناب، لا تنقطع عنها المياه، فالأنهار من تحتها تجرى، ويا لها من جنة عظيمة، جمعت بالإضافة إلى النخيل والأعناب كل الثمرات (له فيها من كل الثمرات)، وصار صاحبها فى أشد الاحتياج إليها لأمرين: أولها: أنه صار كبيرا (أصابه الكبر)، وثانيهما: أن ذريته فى حاجة إلى رعايته (وله ذرية ضعفاء).

هذه الجنة التى عظم شأنها، واشتدت حاجة صاحبها إليها، تزول فجأة، وتختفى من الوجود، ما الذى أزالها وأخفاها؟.. (أصابها إعصار فيه نار فاحترقت)، والمراد بالإعصار: الريح التى تستدير فى الأرض ثم ترتفع نحو السماء، ويسميها الناس: الزوبعة، ولا يخفى عليك ما وراء الفاءين (فأصابها.. فاحترقت) من تصوير لسرعة الإهلاك، وما وراء (إعصار فيه نار) من تصوير لشدة الإبادة.. الجنة لم يبق بها شىء (احترقت)، لقد أتى الإعصار عليها بناره، فاحترقت أشجارها، واحترق نخيلها.

وتأمل دقة التعبير القرآنى الكريم، حيث عبر هنا فى تصويره إهلاك الجنة بقوله: (فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت) وعبر فى تصويره إهلاك الحرث بقوله: (كمثل ريح فيها صر) ولنقرأ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[1]، الحال الممثلة واحدة، وهى الإنفاق الذى ينفقه الكافر فى الدنيا، فيبطله الله تعالى لكفره وعدم إيمانه، وقد مثلت فى سورة البقرة بجنة احترقت بإعصار فيه نار، ومثلت فى سورة آل عمرا بحرث أهلك بريح فيها صر، اختلف المهلك فى الموضعين، لأن الحرث يكفى فى إهلاكه تلك الريح الشديدة البرودة (فيها صر)، أما الجنة فبها نخيل وأعناب، والريح تهلك الثمار والزروع، وتبقى أصول الأشجار والنخيل فتكون بعد إهلاك ثمارها، مظنة الإثمار فى أعوام مقبلة، ولذا عبر عن

---

(١) سورة آل عمران: ١١٦، ١١٧.

إهلاك الجنة بقوله: (فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت) ليدل على الإفناء التام، وأنه لم يبق شيء من أصول النخيل والأشجار، وعبر عن إهلاك الحرث بقوله: (ريح فيها صر) فتلك الريح كافية لإهلاك حرث القوم الذين ظلموا أنفسهم، بل هى أبلغ فى تصوير الخسران، إذ تهلك الريح الحرث، ويظل ما خلف عن الإهلاك باقيا، فهو لم يحترق، وعلى صاحب الحرث إزالة تلك المخلفات، وتنظيف الأرض منها، وهذا غرم يضاف إلى فقدان الثمار فيزداد الخسران.. أرأيت مدى دقة النظم القرآنى فى اختيار الألفاظ المعبرة التى تتسق مع السياق وتتلاءم مع المعنى، إنه الإعجاز.. وضع (ريح فيها صر) مكان (إعصار فيه نار) ثم انظر أيستقيم لك المعنى أم تراه قد اختل؟

وعد إلى تشبيهات الإنفاق فى سورة البقرة وتأمل تسلسلها، لقد بدأت بتمثيل حال من ينفق فى سبيل الله، وتبع ذلك تمثيل حال المنان عطاءه والمرائى به، ثم تمثيل حال من ينفق ابتغاء مرضاة الله، واختتمت بتمثيل حال المنان والمرائى، التى طويت لوضوحها ودلالة السياق عليها، وهذا التنويع فيه لفت وتنبيه للقارئ وحث على تدبر هذه الصور، والوقوف على بعد ما بينها، فاقتران الصورة بما يقابلها، ثم اختلاف المشبه به فى كل صورة يأخذ بلب القارئ، ويثير فكره، ليقف على هذه الصور، ولذا التفت فى التمثيل الرابع إلى الخطاب (أيو أحدكم أن تكون له جنة ..) وبدىء بهذا الاستفهام الإنكارى الدال على التنبيه والإيقاظ، وطويت حال المشبه لتبقى صورة المشبه به ماثلة أمام القارئ الذى هيىء لتدبرها والإحاطة بها.

كثر فى النظم الكريم التمثيل بالنباتات والزروع، والأشجار والثمار، فقد رأينا تشبيه الإنفاق فى سبيل الله وابتغاء مرضاته بحبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة، وبجنة بربوة أصابها وابل أو طل فآتت أكلها ضعفين، وتشبيه الإنفاق رياء وأذى ومنا بجنة من نخيل وأعناب فيها من كل الثمرات والمياه لا تنقطع عنها، فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت، وتشبيه إنفاق الكفار بحرث قوم ظلموا أنفسهم فأصابته ريح فيها صر فأهلكته.

وترجع كثرة التشبيه بالزرع والنبات والشجر والثمار إلى انتشارها وإلى سرعة نمو النبات والزرع، ومشاهدة الناس لمراحل ازدهاره ونضارته ثم اصفراره وذبوله، وإلى

مشاهدتهم الأشجار ووقوفهم على نفعها وفوائدها، وإلى سهولة إدراكهم ورؤيتهم لما يحدث للزروع والنباتات والثمار والأشجار عندما تصيبها الريح والأعاصير فتحترق أو تصبح هشيما تذروها الرياح إلى أماكن بعيدة.

ومما مثل بالنباتات (الحياة الدنيا) فقد مثلت فى سرعة تغيرها وزوالها بعد إقبالها وبهجتها واطمئنان الناس إليها بالنبات، ينمو ويزين الأرض، وفجأة يأتى أمر الله فينمحى ويصبح كأن لم يكن، ولنقرأ: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[(١)].

التمثيل هنا للحياة الدنيا التى اغتر بها أهلها، وركنوا إليها، واطمأنوا بها، فبغوا فى الأرض بغير حق.. يمثل النظم الكريم هذه الحياة حتى ينتبه هؤلاء إلى حقيقتها، فلا يطمئنوا بها، ولا يغتروا بزخرفها، ويكفوا عن البغى فى الأرض بغير الحق، ويتزودوا فيها بخير زاد وهو التقوى وصالح الأعمال.

(إنما مثل الحياة الدينا كما أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض) الاختلاط معناه: تداخل الأشياء بعضها فى بعض، فالباء فى قوله: (فاختلط به) إما للسببية، والمعنى: أن هذا الماء كان سببا فى إنبات النبات ونموه واختلاط بعضه ببعض وتداخل فروعه وأغصانه، وإما للمصاحبة، والمعنى على ذلك: أن الماء قد اختلط بالنبات وجرى فيه، ويؤذن اختلاط الماء بالنبات وجريانه فيه بحب الناس للدنيا، وتغلغل هذا الحب فى قلوبهم، وسريان فتنتها إلى أحشائهم سريان الماء فى النبات.

وفى قوله: (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها) تصوير لإقبال الدنيا على أهلها ببهجتها وزخرفها حتى اعتقدوا أنهم قادرون عليها، وأنها غير زائلة، فقد بدت أمامهم كالعروس التى تزينت بأنفس أنواع الزينة، ولذا مالوا لها وركنوا إليها واطمأنوا بها .. وعندئذ (أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها

(١) سورة يونس: ٢٤.

حصيدا كأن لم تغن بالأمس) تلك هى المفاجأة التى غفلوا عنها، وهى مجئ أمر الله، وما قدره من الآفات والأوبئة فى أى وقت من أوقات الليل أو النهار، فتأتى على هذه النباتات التى زينت الأرض، فتجعلها حصيدا، أي: كأنها قد حصدت، حيث أصابها الذبول واليبس، وذهبت نضارتها وخضرتها، وأصبحت الأرض صعيدا جرزا كأن لم تغن بالأمس بهذا النبات الذى قد زينها وجملها وجعلها كالعروس.

ويوحى هذا التشبيه (كأن لم تغن بالأمس) بقصر المدة التى تزينت فيها الأرض، فهى ما كادت تأخذ زخرفها وتتزين حتى انمحت عنها تلك الزينة، وكأن لم تكن، وتختتم الآية الكريمة بالحث على التفكير فى شأن هذه الدنـيا، والوقوف على حقيقتها ((كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون)).

وبإنعام النظر فى سياق السورة الكريمة نجد أن التمثيل منسجما مع هذا السياق، ومتسقا مع ما ورد فيه، فقد أبرز السياق تغير الناس وتقلبهم، فهم عند الشدة يضرعون إلى الله، فإذا ما زالت الشدة وصاروا فى أمن ورخاء، بغوا فى الأرض بغير الحق، ولنقرأ: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾... ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ﴾ ... ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[1].

ولعلك تدرك الصلة الوثيقة بين ما ورد فى التمثيل فى الآية الكريمة وبين هذه الأوصاف التى جرى بها السياق، ولننظر: (حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها ... حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها) ... (جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان ... أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا) ... (مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ... كأن لم تغن بالأمس) الأنسجة اللغوية التى جرت فى التمثيل وفى سياقه أنسجة واحدة، بينها من التآلف

(١) يونس، الآيات بالترتيب: ١٢، ٢١، ٢٢، ٢٣.

والترابط ما قد رأيت، وهذا يبين لنا مدى تلاؤم التمثيل وانسجامه فى سياقه الذى ورد فيه.

وجاء تمثيل الحياة الدنيا بالنبات فى سورتين أخريين، فى سورة الكهف فى قوله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾[1]، ثم فى سورة الحديد فى قوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[2].

وكان تمثيل سورة الكهف موجزا حيث أفاض السياق قبله فى تجلية قصة الرجلين، وأظهر الحوار الذى دار بينهما تغير الأحوال، وندم صاحب الجنتين على شركه بربه، وتحسره على ما فرط فى جنب الله، حيث أحيط بثمر جنتيه التى افتخر بهما، وظن أنهما لن تبيدا أبدا، ثم جاء تمثيل الحياة الدنيا فى ختام هذه القصة كالتعقيب عليها، فليس المراد تفصيل أحوال الحياة الدنيا ـ كما كان الحال فى سورة يونس ـ بل المراد تصوير الإقبال منها ثم الإعراض والزوال، وتفصيل ذلك تكفلت به قصة الرجلين التى أفاض السياق فى تجليتها.

أما تمثيل سورة الحديد فقد امتدت ليتلاءم مع السياق الذى أبرز أحوال طوائف من الناس .. الكفار الذين يريدون أن يقتبسوا من نور المؤمنين يوم القيامة، واليهود الذين قست قلوبهم، والمؤمنين الذين تصدقوا وأقرضوا الله قرضا حسنا، وقد بدا فى السياق الحديث عن المال، حيث أمر الذين آمنوا أن ينفقوا مما جعلهم مستخلفين فيه، ثم أمروا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق.

وبعد ذلك يأتى التمثيل ليكشف عن حقيقة الحياة الدنيا، إنها لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر فى الأموال والأولاد، فهى تشبه الغيث الذى يختلط بالنبات فينمو

(١) الكهف: ٤٥.

(٢) الحديد: ٢٠.

الزرع ويتكاثر حتى يعجب الزراع، ثم يذبل وييبس فتراه مصفرا، ثم يكون حطاما، وتأمل كلمة (يهيج) ومدى تلاؤمها فى اللفظ مع اللهو واللعب والتفاخر والتكاثر، وانظر إلى كلمة (غيث) وكيف أفادت ما أفاده قوله تعالى فى التمثيلين الآخرين: (كماء أنزلناه من السماء) إذ الغيث هو الماء النازل من السماء.

هذه التمثيلات الثلاثة، أولها: نزولا تمثيل سورة يونس، ثم الكهف ثم الحديد، وكذا ترتيبها فى المصحف، وقد بدأ أولها نزولا بذكر الحياة الدنيا (إنما مثل الحياة الدنيا) واختتم بذكرها آخرها نزولا (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) وهذا ما يسميه البلاغيون: تشابه الأطراف، فالصور الثلاث تمثل شيئًا واحد هو الحياة الدنيا، وقد جاءت كل صورة منها مختلفة فى أبنيتها عن الأخريين، متلائمة فى سياقها الذى وردت فيه، على نحو ما رأينا.

ومما مثل بالزرع: أصحاب النبى ـ ﷺ ـ وهم يلتفون حوله، يؤازرونه ويناصرونه، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾[1]، فالآية تمثل التفاف الصحابة حول الرسول ـ ﷺ ـ ومؤازرتهم له، حتى انتشر الإسلام وقوى وضرب بجرانه، بالزرع الذى أخرج شطأه، أي: تولدت منه أعواد صغيرة على جانبيه، وتعرف هذه الأعواد بالفراخ (فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه) أي: قوى الزرع فراخه، وساندته تلك الفراخ، وهذا معنى التآزر، حتى صار الزرع بفراخه من القوة بمكان، وصار مستويا على سوقه، يقف فى وجه ما يهب عليه من ريح وعواصف، وصار بقوته وروعة منظره يعجب الزراع .. هذا مثل أصحاب النبى ـ ﷺ ـ، حيث التفوا حوله وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه، فصاروا قوة ونجوما فى الهداية، وذا ما يغيظ كل كفار عنيد.

يقول الزمخشري: (وهذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام، وترقيه فى الزيادة إلى أن قوى واستحكم، لأن النبى ـ ﷺ ـ قام وحده ثم قواه الله بمن آمن معه، كما يقوى الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزراع)[2].

---

(١) الفتح: ٢٩.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٥١.

ويركز النظم القرآني على إيضاح أن الإيمان بالله واليوم الآخر والاستقامة على الطريقة وامتثال شرع الله هو الأساس الذي إذا تحقق نجا صاحبه، وإذا انعدم هلك، مهما كثرت أعماله الصالحة وتعددت، فأعمال البر والخير لا تنفع بدون الإيمان، ويضرب الله الأمثال للناس ليتجلى لهم ذلك ويتضح، ولنقرأ قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[(١)].

فهو يمثل شرع الله حين يشرق في قلب المؤمن، ويسطع في صدره، فيمضي على الهدى، ويستقيم على الطريقة، ممتثلا الحق، مفرقا بينه وبين الباطل، يمثل هذا الإشراق بالمصباح الذي توهج نوره، وازداد ضياؤه، حيث وضع في (مشكاة) وهي كوة ضيقة ليست نافذة وتعرف بالطاقة، وذا المصباح في زجاجة تجمع ضوءه، وتلك الزجاجة كأنها كوكب دري، والمصباح لا يطفأ أبدا، إذ يستمد وقوده (من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية) لقد صفا زيته لأنه من تلك الشجرة المباركة التي لا تحجب عنها الشمس، فهي لا شرقية ولا غربية، أي: ليست في مشرقة أبدا، ولا في مقناة أبدا، بل تصيبها الشمس والظل كل منهما في وقته، ولذا صفا زيتها فهو يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار[(٢)].

انظر كيف تضاعف ضوء المصباح، لقد هيئ له مكان خاص يجمع الضوء ويحكمه، ووضع في زجاجة خاصة (كأنها كوكب دري) فازداد بذلك توهجا وإشراقا، واستمد وقوده من زيت خاص يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار.

هذا مثل شرع الله الذي وضعه لعباده، فهو يشرق هذا الإشراق في قلوب من يشاء منهم، ومهما تشابكت وتداخلت أمور الحياة ومسائلها في دنيا الناس ومعاملاتهم، فإن المنهج شديد الضياء، والنور يشرق أمام كل أمر ويسطع أمام كل مسألة، ويضيء كل

---

(١) سورة النور: ٣٥.

(٢) انظر روح المعاني ١٨/ ١٦٨.

تعامل، إنه (نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ..) ذاك نور الحق يشرق فى قلب المؤمن، فيمضى المؤمن فى هذا الإشراق، ويسير فى نور الله الذى أضاء السموات والأرض، فلا لبس ولا خفاء، بل وضوح وجلاء، ولهذا نرى المؤمن ذاكرا مسبحا (فى بيوت أذن الله أن ترفع) لا تلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقامة شرعة.

أما الكافر فيتخبط فى الظلام، ويلهث وراء السراب، لأنه عاند وكابر، وأعرض عن شرع الله الذى أضاء الكون، ولذا نراه هناك وراء الوهم والسراب وفى الظلمات التى تراكمت، ولنقرأ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾[(١)].

فهذا تمثيل لأعمال الكفرة الصالحة التى يحسبونها تنفعهم وتنجيهم، مثلت أولا بالسراب يبصره الظمآن فى الصحراء الممتدة فيحسبه ماء، فيجد إليه، وعندما يصله لا يجد شيئًا، ويلقى هناك زبانية جهنم، يأخذونه فيعتلونه إليها بعنف وقوة.

ثم مثلت مرة أخرى بظلمات متراكمة من بحر لجى وسحاب قد تكاثف، تجمعت ظلمات الأمواج وظلمات السحاب (يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب) فكانت (ظلمات بعضها فوق بعض) ويرى بعض العلماء أن التمثيل الأول لأعمال الكفار الصالحة التى يحسبونها نافعة لهم، والثانى لكفرهم وأعمالهم القبيحة التى ليس فيها شائبة خير[(٢)].

والذى نراه أن التمثيلين لشيء واحد وهو أعمال الكفرة الصالحة التى يحسبونها تنفعهم فإذا بهم يرونها سرابا يلهث وراءه، وظلاما قد تراكم، أحالها إليه كفرهم وإعراضهم عن نور الله، وإذا كانت هذه الأعمال الصالحة سرابا وظلاما، فغيرها من الكفر والأعمال القبيحة التى عملوها تكون كذلك من باب أولى.

---

(١) سورة النور: ٣٩، ٤٠.

(٢) انظر القرطبى ١٢/ ١٨٧، وأبى السعوند ٦/ ١٨١.

يقول الزمخشري: " شبه ما يعمله من لا يعتقد الإيمان ولا يتبع الحق من الأعمال الصالحة التى يحسبها تنفعه عند الله، وتنجيه من عذابه، ثم تخيب فى العاقبة أمله، ويلقى خلاف ما قدر، بسراب يراه الكافر بالساهرة وقد غلبه عطش يوم القيامة فيحسبه ماء، فيأتيه فلا يجد ما رجاه، ويجد زبانية الله عنده يأخذونه فيعتلونه إلى جهنم فيسقونه الحميم والغساق .. شبه أعمالهم أولا فى فوات نفعها وحضور ضررها بسراب لم يجده من خدعه من بعيد شيئًا، ولم يكفه خيبة وكمدا أن لم يجد شيئًا كغيره من السراب، حتى وجد عنده الزبانية تعتله إلى النار، ولا يقتل ظمأه بالماء، وشبهها ثانيا فى ظلمتها وسوادهالكونها باطلة، وفى خلوها عن نور الحق بظلمات متراكمة من لج البحر والأمواج والسحاب"[1].

وعندما نتأمل هذه التشبيهات الثلاثة، يتضح لنا: التقابل بين تشبيهى أعمال الكفار من حيث العناصر المكونة للصورة فى كل منهما، فالأول سراب فى صحراء ممتدة، والثانى ظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب .. عناصر الصورة فى التشبيه الأول مستمدة من البر، والبر خراب ليس فيه إلا الصحراء وأهوالها، والكافر يلهث وراء الوهم ويركض وراء السراب فى هذا الخراب، وفى التشبيه الثانى مستمدة من البحر والسحاب، حيث أطبقت ظلماتهما، وغاب نفعهما فلا وجود له فى وسط هذا الظلام.

كما يتضح لنا التقابل بين التشبيه الأول والتشبيه الثالث، حيث أبرزت عناصر التشبيه الأول تضاعف النور وشدة الضياء، وأبرزت عناصر التشبيه الثالث تراكم الظلمات وشدة الظلام، فنجد فى التمثيل الأول (نور على نور) يقابله فى الثالث (ظلمات بعضها فوق بعض) وتحتشد العناصر فى الأول لبيان وهج النور وشدة الضياء (كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى)، وفى الثالث لبيان تداخل الظلمات وتكاثفها (يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب) والضياء فى الأول دائم ومستمر، لا ينقطع ولا يزول، لأن المصباح يستمد زيته (من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية) والظلمات فى الثالث كذلك، لأنها ظلمات فى بحر

---

(١) الكشاف ٣/ ٦٩، ٧٠.

لجى، والمبالغة فى الأول (يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار) تقابلها المبالغة فى الثالث (إذا أخرج يده لم يكد يراها)، وكما قال فى الأول (يهدى الله لنوره من يشاء)، قال فى الثالث: (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور).

ونجد التشبيهات متسقة فى سياقها متلائمة مع المعانى التى أبرزتها السورة الكريمة، فقد تناولت السورة حادثة الإفك، وبينت جزاء من خاض فيها، وجزاء من يرمى المحصنات الغافلات، ومن يرمون أزواجهم، وأمرت بالاستئذان وبغض البصر وبأن تستتر المرأه ولا تبدى زينتها، وبأن يستعف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله .. إلى غير ذلك مما شرع الله، وأبرز فى هذه السورة الكريمة، ثم قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(1)، وتأتى بعد ذلك التشبيهات التى تصور شرع الله ومنهج السماء، وتصور حال من أعرض عنه، والتمس الهدى فى غيره، إن شرع الله هو النور الذى يشرق فى قلب المؤمن، ومن أعرض عنه فإن له معيشة ضنكا، حيث يتخبط فى الظلمات، ويعيش فى وهم السراب والضياع ثم يأخذه الله أخذ عزيز مقتدر فيوفيه حسابه.

واقرأ تمثيل أعمال الكفرة فى سورة إبراهيم: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾(2)، لقد مثلت برماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف، فتبددت هذه الأعمال وضاعت، وذهبت هباء منثورا، حيث اشتدت الريح بالرماد، وهذا يؤذن بشدة إثارته وتبدده، لأن الريح اشتدت به لا عليه، التعدية بالباء، ثم إسناد العصف إلى اليوم تجاوزا، قد دلا على قوة العصف واختفاء الرماد وذهابه إلى مكان سحيق، إنه رماد ويكفى لإذهابه أدنى ريح، ومع ذلك كانت هذه الشدة وذلك العصف اللذان لا يتصور بعدهما وجود أى أثر للرماد، كذلك أعمال الكفار تذهب سدى.

والملاحظ هنا أن الكافر لا وجود له، وأن أعماله هى التى برزت فى التمثيل، وهناك

---

(1) سورة النور: ٣٤.

(2) سورة إبراهيم: ١٨.

فى سورة النور برز الكافر يركض وراء السراب الذى يصور أعماله .. فلماذا؟ لأن السـياق فى سورة النور يشرح شرع الله ويوضح حدوده التى مثلها بالنور، فالمؤمن هناك يسعى بنور الله، ويمضى على هديه، والكافر يعرض عن النور، ويأبى إلا التخبط فى الظلمات والركض وراء الوهم والسراب، لهذا أبرزه التمثيل ليتلاءم مع سياق السورة.

أما فى سورة إبراهيم فإن السياق يصور الكافر وقد انتهت حياته، فها هو ذا فى جهنم (يسقى من ماء صديد) الزبانية تسقيه إياه فهو (يتجرعه ولا يكاد يسيغه)، والموت قد أحاط به من كل مكان، وكأنه جيش يهجم عليه من كل ناحية، فلا يستطيع مقاومة (ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ) ذلك هو سياق التمثيل، ولا يتأتى فيه ـ كما نرى ـ أن يبرز الكافر كما برز فى سياق سورة النور.

هذا وعندما نتتبع التشبيهات فى سياقها من النظم الكريم نراها مع السياق نسيجا لغويا واحدا، إذ نجد "كل تشبيه إنما هو امتداد للأنسجة اللغوية التى صاغت السياق كله"[1].

وتتضافر التشبيهات التى تلتقى فى سياق واحد على تجلية أهداف وإبراز معان يقصد إلى تحقيقها .. ارجع إلى تشبيهات سورة البقرة التى تناولت تصوير الإنفاق، وانظر كيف صورت تضاعف الإنفاق فى سبيل الله وابتغاء مرضاته، وصورت ذهاب إنفاق المن والأذى والرياء سدى، وهى بهذا تهدف إلى الحث على الإخلاص فى الإنفاق، والابتعاد عن الرياء والمن والأذى، الذى يبطل الصدقات، وكان النسيج اللغوى للتشبيهات والسياق الذى وردت فيه واحدا إذ رأيناه يبرز مضاعفة الثواب وإرباء الصدقات، ويحث على إنفاق الطيبات، ويحذر من المن والأذى والرياء، ومن إنفاق الخبيث وأكل الربا .. ويستمد عناصره من الزرع والنبات والماء والتراب وما تخرج الأرض (حبة أنبتت سبع سنابل .. صفوان عليه تراب فأصابه وابل .. جنة بربوة أصابها وابل .. جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار .. أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض).

---

(١) انظر أمثال سورة النور: ص ١٢١ ، فى مجلة كلية اللغة بالقاهرة ، العدد الثامن، ١٩٩٠م.

ويبرز المضاعفة والإرباء: (والله يضاعف لمن يشاء ... فآتت أكلها ضعفين .. ويربى الصدقات)، كما يبرز الفقدان والضياع (لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى .. فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت ... يمحق الله الربا).

هذه الأنسجة اللغوية تضافرت على تجلية المعنى الذى يقصد السياق إلى تحقيقه، وهو الحث على إنفاق الطيبات، ابتغاء وجه الله، والبعد عن الخبيث والمن والأذى والرياء والربا، ويأتى تصوير آكلى الربا بأنهم لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس، وسبب ذلك أنهم قالوا: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ ثم يحذر النظم الكريم ويتوعد آكلى الربا وينذرهم بحرب من الله ورسوله، وفى نفس السياق يعد الذين يؤدون الزكاة، وينظرون المعسر إلى ميسرة، وينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية، ويطمئنهم بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون[(١)].

وبهذا يتجلى لنا أن السياق الكريم يضع ضوابط وأسسا تنظم التعامل المالى بين الناس، فيحث على الزكاة وبذل الصدقات ابتغاء وجه الله، ويحذر من الإنفاق منا وأذى ورياء، وينفر من الربا، ويتوعد آكليه، وينذرهم بحرب لا قبل لهم بها، حرب من الله ورسوله، وينهض التشبيه بدوره فى تجلية هذه المعانى.

وعد إلى قوله تعالى فى سورة الرعد: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[(٢)] فالتمثيل ـ كما بينا ـ يصور عجز الأصنام التى تعبد من دون الله، وأنها لا تقدر على شىء، ومن يدعوها ويطلب نفعها، شأنه شأن من بسط كفيه إلى الماء يطلب منه أن يبلغ فاه، أو بسط كفيه ناشرا أصابعه ليغرف من الماء، فالماء لا يجيبه، وكفاه اللتان نشر أصابعها لا يمسكان ماء ليبلغ فاه.

التمثيل يبين أن دعاء الأصنام باطل، وأن الدعاء الحق ما كان لله (له دعوة الحق) وسياق السورة الكريمة قد ركز على تجلية الحق والتفرقة بينه وبين الباطل، فالله هو

(١) اقرأ الآيات: ٢٦١ ـ ٢٨١ من سورة البقرة.

(٢) سورة الرعد: ١٤.

الحق وهو القادر ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ ... ﴿ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾... ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ﴾[1]، فالله هو الحق وهو القادر، والذين يدعون من دونه لا يقدرون على شيء ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾[2].

ويستمر السياق فى تجلية الحق وإحقاقه، وإظهار الباطل وإبطاله، فيبين رسوخ الحق وثبوته ونفعه، وخفة الباطل وانعدام وزنه ونفعه، وأنهما لا يلتقيان ولا يمتزجان، بل يظل الباطل منعدم الفائدة، وإن طغى على الحق يوما، لا يدوم طغيانه، إذ سرعان ما يزول فيظهر الحق ويثبت، مثل ذلك مثل الزبد يعلو السيل الذى يحمله (فاحتمل السيل زبدا رابيا) ومثل خبث المعادن (ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله) هذا الزبد لا ينفع ولا يمكث، بل يزال ويبدد، ويمحى عن الماء والمعادن، فيرمى به بعيدا، (يذهب جفاء) ليظهر ما تحته من الماء الصافى الذى ينفع الناس، والمعادن الخالصة التى يتخذونها حلية أو متاعا ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[3].

فالحق يبقى ويمكث، بل هو باق ثابت، والباطل يضمحل وينمحق وإن علا الحق يوما، وطغى عليه فى بعض الأوقات، واستخفه ضعاف الإيمان، وروجوا له، فسرعان ما يرمى به ويذهب جفاء ليظهر ما ينفع الناس.

وبهذا يتبين لنا كيف تتضافر التشبيهات فى سياقها لتبرز المعنى الذى تناوله السياق،

---

(١) الرعد، الآيات بالترتيب: ٨، ١١، ١٣، ١٤.

(٢) الرعد: ١٦.

(٣) الرعد: ١٧.

ويقصد إلى تحقيقه، فالسياق فى السورة يتناول إحقاق الحق وإبطال الباطل، وقد تضافرت الصور لتجلية هذا المعنى، فأبرزت الكافر أعمى يتخبط فى ظلام، ويدعو أصناما لا تستجيب له، ويمضى وراء باطل سرعان ما يتبدد كما يتبدد الزبد، وأما المؤمن فإنه يبصر الحق، ويمضى فى نوره، ويدرك نفعه، ويعلم أنه ثقيل ثقل الماء والمعادن، ويحتاج إلى صبر وإلى جهاد، فإن أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، كما بين ﷺ، المؤمن يدرك ذلك فيقول الحق ولو كان مرا، وبهذا ينتصر الحق، ويظهر على الباطل، الذى قد يطغى على الحق يوما، ولكنه سرعان ما ينمحق ويتبدد، كما يتبدد الزبد ويرمى به ويذهب جفاء فيبقى ما ينفع الناس.

الاستعارة

قال تعالى:

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ البقرة: ١٦.

﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ البقرة: ٢٧.

﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ﴾ البقرة: ١٩٨.

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ آل عمران: ١٠٣.

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ﴾ آل عمران: ١١٢.

﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ آل عمران: ١٥٤.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ الأنعام: ٦٠.

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ الأعراف: ١٥٤.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ التوبة: ٣٤.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ ﴾ يونس: ٢٤.

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ الحجر: ٢٢.

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ الحجر: ٩٤.

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ النحل: ١١٢.

﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ الإسراء: ٢٤.

﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ الإسراء: ٦٤.

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴾ الكهف: ٩٩.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ مريم: ٤.

﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ طه: ٧١.

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ الأنبياء: ١٨.

﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ الفرقان: ١٢.

﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ سبأ: ٢٤.

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ فاطر: ١٢.

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ فاطر: ١٩ ـ ٢٢.

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ يس: ٣٧.

﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ يس: ٥٢.

﴿ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴾ الملك: ٧.

﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ الملك: ٢٢.

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ التكاثر: ١، ٢.

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ التكوير: ١٥ ـ ١٨.

الاستعارة ميدان وساع للتصوير والإبداع، وهى قائمة على تناسى التشبيه وادعاء أن المشبه صار فردا من أفراد المشبه به، لأنها فى الأصل تشبيه بولغ فيه بطى المشبه وادعاء دخوله فى جنس المشبه به وصيرورته فردا من أفراده، وذلك فى الاستعارة التصريحية، أو بطى المشبه به والدلالة عليه بإثبات لازم من لوازمه للمشبه، وذلك فى الاستعارة المكنية.

وتقوم الاستعارة على نقل الألفاظ من معانيها اللغوية التى وضعت لها إلى معادن أخرى تستعمل فيها استعمالا جديداً يضفى على المستعار له لونا من المبالغة حيث يحيله من جنسه إلى جنس آخر[1].

(١) معظم البلاغيين يرى أن المنقول فى الاستعارة هو اللفظ حيث ينقل من معناه اللغوى إلى المعنى المجازى، ويرى الإمام عبد القاهر أن النقل للمعانى لا للألفاظ، انظر دلائل الإعجاز: ٣٩٣، ولعل الذى أغرى البلاغيين بأن يجعلوا المنقول اللفظ المستعار، لا المعنى المستعار منه، أن الادعاء الذى يصير به المستعار له شيئا آخر، خارجاً عن حقيقته، مقيد بالصفة المشتركة بينه وبين المستعار منه، فالرجل الشجاع يخرج عن طبيعة الرجال فى صفة الشجاعة فحسب، وتبقى له الصفات الأخرى ثابتة مستقرة، ثم هو يدخل فى طبيعة الأسود بهذه الصفة فقط، فلا يدعى له هيئة الأسد وعبالة عنقه ومخالبه وسائر أوصافه ... النقل إذا إنما هو نقل لجزء من مدلول اللفظ، وليس نقلا لكل مدلوله، وهذا ما أغرى البلاغيين على القول بأن المنقول هو لفظ المشبه به (المستعار) الذى أطلق على المشبه (المستعار له) انظر التصوير البياني: ١٨٥.

وهذا الاستعمال الجديد للألفاظ استعمال مجازى، وفى كل مجاز لابد من علاقة بين المعنيين، اللغوى الذى وضع له اللفظ، والمجازى الذى استعمل فيه، ومن قرينة تمنع إرادة المعنى اللغوى.

وعلاقة الاستعارة هى المشابهة بين المعنيين المستعار له والمستعار منه، ففى قولنا: كلمت أسدا، استعير لفظ (الأسد) من (الحيوان المفترس) وهو المعنى الموضوع له اللفظ إلى (الرجل الشجاع) وهو المعنى المجازى الذى استعمل فيه، والعلاقة بين المعنيين المشابهة، وأما القرينة فهى لفظ (كلمت) لأن الأسد بمعنى (الحيوان المفترس) لا يكلم.

هذا وعندما ننظر إلى الاستعارة فى النظم القرآنى نجد لها ميدان خصبا فى الدلالة على المعانى التى يقصد إليها .. تأمل قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾[1]، تجد أن الاشتراء مستعار للاختيار والاستبدال، فمعنى اشتروا الضلالة بالهدى: استبدلوها به، واستحبوها عليه، حيث كانوا متمكنين من الهدى، وكان واضحا أمامهم على يد من جاءهم به وكأنه فى أيديهم، ثم هو فطرة الله التى فطر الناس عليها، فمن تركه إلى الضلالة فقد استبدلها به، وعطل فطرة الله تعالى.

واستعارة الاشتراء للاستبدال تصور شدة إعراض المنافقين، واستحبابهم الضلالة على الهدى، فهم لم يستبدولها بالهدى فحسب، بل عنوا أنفسهم، وتكلفوا مشقة التجارة، لكى يحصلوا على الضلالة ويفوزوا بها، كما يكد التاجر ويتعب ليحصل على ربح فى تجارته، وهذا يدل على شدة حبهم للضلال وتمسكهم به، فإن المرء يحرص على شراء ما أحب.

يقول القرطبي: " (واشتروا) من الشراء، والشراء هنا مستعار، والمعنى: استحبوا الكفر على الإيمان، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ فصلت: ١٧، فعبر عنه بالشراء، لأن الشراء إنما يكون فيما يحبه مشتريه"[2].

---

(١) سورة البقرة: آية ١٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١/ ١٤٧.

فالاستعارة ـ كما نرى ـ تصور شدة حبهم للضلال، وبغضهم للهدى، لأن الإنسان يشترى ما يرغب فيه ويحبه، ويبيع ما يزهد فيه ويرغب عنه، ثم جاء قوله تعالى: (فما ربحت تجارتهم) مقويا للمعنى المجازى، لأن الربح والتجارة من ملائمات الشراء.

يقول الزمخشري: "فإن قلت: هب أن شراء الضلالة بالهدى وقع مجازا فى معنى الاستبدال، فما معنى ذكر الربح والتجارة كأن ثم مبايعة على الحقيقة؟ قلت: هذا من الصنعة البديعة التى تبلغ بالمجاز الذروة العليا، وهو أن تساق كلمة مساقِ المجاز، ثم تقفى بأشكال لها وأخوات، إذا تلاحقن لم تر كلاما أحسن منه ديباجة وأكثر ماء ورونقا، وهو المجاز المرشح .."[(١)].

وقد كثر فى النظم القرآنى استعارة (النور والبصر والحياة) للإيمان والهدى، كما كثر استعارة (الظلمات والعمى والموت) للكفر والضلال، ولنقرأ الآيات الكريمة: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾ ... ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾... ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ﴾[(٢)] وتدل هذه الاستعارات على أن شرع الله الذى شرعه لعباده يضئ ويشرق فى صدر المؤمن، فيبصر الخير والحق، ويحيا حياة طيبة، أما الكافر فإنه يتخبط فى ظلمات الكفر والضلال، ولا يبصر نور الله الذى أنزل لعباده، فكأنه ميت، والميت فاقد الحس لا يرى نورا، ولا يدرك إشراق الإيمان، ويظل الكافر ما عاش يتخبط فى ظلمات الكفر، ويركض وراء الوهم والسراب.

ومما يلاحظ أن هذه الاستعارات نراها فى القرآن مقترنة، فالأعمى بجوار البصير، والظلمات بجانب النور، والموت يقرن بالحياة، والإنسان بفطرته يرغب فى الحياة، ويحب النور والإبصار، ويكره الظلام والعمى والموت، فاقتران هذه المعانى التى تصور

(١) الكشاف ١/ ١٩٣.

(٢) الآيات بالترتيب: الرعد ١٦، فاطر ١٩ ـ ٢٢، البقرة ٢٥٧.

الإيمان والهدى، والكفر والضلال تنبه القارئ وتحثه للإقبال على الحق، والتخلى عن الباطل والضلال، ووراء إفراد النور وولى المؤمنين، وجمع الظلمات وأولياء الذين كفروا معان لطيفة سبق بيانها عند الحديث عن الإفراد والتثنية والجمع[(١)].

وجاء فى النظم الكريم استعارة (الحبل) لعهد الله وميثاقه، لما فى العهد من ثبات الوصلة بين المتعاهدين، كما يستوثق بالحبل وتحكم به الأشياء، قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾[(٢)]، فقد استعير (الحبل) لعهد الله تعالى وميثاقه، ثم رشحت الاستعارة بالاعتصام، لأن الاعتصام من ملائمات الحبل، والمعنى: اجتمعوا على استعانتكم بالله ووثوقكم به، ولا تفرقوا عنه .. أو اجتمعوا على التمسك بعهده تعالى إلى عباده وهو الإيمان والطاعة، أو على التمسك بكتابه فهو حبل الله المتين[(٣)].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾[(٤)] فقد استعير الحبل للعهد، ثم حذف المستعار منه وهو (الحبل) ورمز له بشىء من لوازمه وهو (ينقضون) وأثبت هذا اللازم للمستعار له (العهد) على سبيل الاستعارة المكنية.

يقول الزمخشري: "وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشىء المستعار، ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من روادفه، فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه، ونحوه قولك: شجاع يفترس أقرانه، وعالم يغترف منه الناس، وإذا تزوجت امرأة فاستوثرها، لم تقل هذا إلا وقد نبهت على الشجاع والعالم بأنهما أسد وبحر، وعلى المرأة بأنها فراش"[(٥)].

تلك طريقة الاستعارة بالكناية، المطوى فيها هو المشبه به، حيث يرمز له بلازم من

---

(١) ارجع إلى ص ٢٥، ٢٦.

(٢) سورة آل عمران: آية ١٠٣.

(٣) ويصح أن تكون الاستعارة فى الآية استعارة تمثيلية، وأن المراد تمثيل استظهار المؤمن بربه ووثوقه بحمايته باستمساك المتدلى من مكان مرتفع بحبل وثيق يأمن انقطاعه. انظر الكشاف ١/ ٤٥٠.

(٤) سورة البقرة: آية ٢٧.

(٥) الكشاف ١/ ٢٦٨، والوثير: الفراش الوطىء، يقال: استوثر الفراش أي: وطأه ومهده، انظر لسان العرب مادة (وثر)، شبهت المرأة بالفراش بجامع السكن فى كل، ثم حذف المشبه به، ورمز له بلازمه (استوثر) وأثبت هذا اللازم للمرأة على سبيل الاستعارة المكنية.

لوازمه يثبت للمشبه، وهذا الإثبات تخييل أو استعارة تخييلية، كما سماها البلاغيون، وهي قرينة الاستعارة المكنية.

ومنها قوله تعالى: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ﴾ [1]، فقد شبه كل من الذلة والمسكنة بالقبة أو البيت الذي يضرب على صاحبه، ثم طوى المشبه به ورمز له بلازم من لوازمه (ضربت) وتنبئ هذه الاستعارة بإحاطة الذلة والمسكنة باليهود، وملازمتهما لهم، وتمكنهما منهم، وكأنهم يسكنون فيهما كما يسكن المرء في بيته ويقيم فيه.

الذلة لا تنفك عنهم إلا بحبل من الله وحبل من الناس، أي: لا عز لهم إلا بذمة الله وذمة المسلمين، ولا يخفى علينا الاستعارة التصريحية في قوله: (إلا بحبل من الله وحبل من الناس) حيث استعير الحبل للعهد والذمة.

وتأمل الآيات الكريمة: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ﴾ ... ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ ﴾ ... ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾[2] تجد أن الاستعارة فيها من هذا النوع، استعارة مكنية، فقد شبه الغضب بالآمر الذي يغري موسى - عليه السلام - على ما صدر منه، من إلقاء الألواح وأخذه برأس أخيه يجره إليه .. وشبهت الأرض بعروس تزينت بأنفس أنواع الزينة .. وشبهت الرياح التي تحمل الغيث بالنوق الحوامل بجامع النفع في كل منهما، ثم طوى المشبه به في هذه التشبيهات، ورمز له بلازم من لوازمه وهو السكوت، وأخذ الزينة، واللواقح لأن اللواقح من خصائص النوق..

ولا يخفى علينا ما وراء هذه الاستعارة من تصوير الأمر المعنوي وإبرازه في صورة المشاهد المحس، فالغضب مغر يثير موسى - عليه السلام - ويوغر صدره، ولذا ألقى الألواح وصنع ما صنع، فلما سكت وكف عن إغرائه، عاد موسى إلى حلمه وأخذ الألواح ليبلغ رسالة ربه.. والأرض عروس تأخذ زخرفها وتتزين بأنفس أنواع الزينة، والرياح المحملة بالغيث نياق حوامل تفيض برحمة الله وترسل الخير إلى حيث يشاء

---

(١) آل عمران: ١١٢.

(٢) الآيات بالترتيب: الأعراف ١٥٤، يونس ٢٤، الحجر ٢٢.

فيسقى الله بها حملت أنعاما وأناسى كثيرا، وعكس ذلك الريح العقيم أي: الجافة التى لا تحمل خيرا، فقد استعار القرآن لها (المرأة العقيم) لا يرجى حملها، ولا يطمع فى ولد منها، قال تعالى: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾[1]، فصفة (العقم) تصور جفاف الريح وعدم ترقب خير منها، لأن الأنفس جبلت على حب المال والبنين، ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[2] والمرأة حرث تلد، وقد أمرنا ـ ﷺ ـ أن نتزوج الودود الولود، فإذا انعدمت هذه الصفة فى المرأة وصارت عاقرا عقيما، رغبت عنها الأنفس وعافتها، كذلك الريح التى لا تحمل خيرا، وارجع إلى ما ذكرناه حول إفراد الريح وجمعها فى باب الإفراد والتثنية والجمع لتقف على سر جمع الرياح اللواقح وإفراد الريح العقيم[*].

ومن تلك الاستعارات المكنية ما جاء فى الآيات الكريمة: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾... ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾... ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾... ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾[3] فقد شبه الصبح بإنسان مكروب زال عنه كربه فتنفس محملا أنفاسه تلك الكرب والهموم لتلقى بها بعيدا عنه، وكأن ظلام الليل قد كتم أنفاس النهار وحبس ضياءه وحجب نوره، كما يكتم المكروب أنفاسه فى صدره، وعندما انزاح الليل وولى الظلام، نشر الصبح نوره فملأ الكون ضياء وإشراقا، وكأن الصبح كائن حى كتم الليل أنفاسه، ولما ولى عنه الليل تنفس الضياء والإشراق، وانزاحت عنه همومه وآلامه، تماما كما يتنفس المكروب الذى زال كربه وانزاح همه .. فالاستعارة ـ كما نرى ـ استعارة مكنية حيث شبه الصبح بالمكروب الذى زال كربه، ثم حذف المشبه به ورمز له بلازم من لوازمه وهو التنفس، وأسند التنفس إلى الصبح تخييلا[4].

(١) الذاريات: ٤١، ٤٢.

(٢) الكهف: ٤٦.

(*) انظر ص ٢٥. هذا وعند التحقيق نجد أن الأولى أن يجعل التصوير من قبيل الاستعارة التبعية حيث استعيرت الصفتان "العقم واللقاح" لصفتين فى الريح والرياح ثم اشتق منهما "عقيم ولواقح" على سبيل التبعية هذا أوفق بالمعنى.. ارجع إلى كتابنا: "بين التبعية والمكنية والمجاز العقلى".

(٣) الآيات بالترتيب: التكوير ١٧، ١٨، الإسراء ٢٤، الأنبياء ١٨، مريم: ٤.

(٤) انظر روح المعانى ٣٠/ ٥٩.

وكذا شبه الإنسان بالطائر فى قوله تعالى: (واخفض لهما جناح الذل) فالطائر يبسط جناحيه على صغاره حنوا ورحمة، والإنسان مأمور بأن يكون كذلك مع أبويه، ثم طوى المشبه به ورمز له بلازمه وهو الجناح، وإضافة الجناح إلى الذل تشعر بما ينبغى أن يكون عليه الإنسان من خضوع لأبويه، والتذلل لهما رحمة وإشفاقا وبرا، وهذا التذلل يسمو به، ويرفعه إلى عنان السماء، كما يرتفع الطائر بجناحيه ويحلق بهما فى أجواء الهواء، ولا عجب فى ذلك، فقد رفرف بجناحيه على أبويه وخفضهما لهما تذللا، فوجب له هذا السمو وذاك العلو.

وشبه الباطل بجرم صغير، والحق بجرم قوى ضخم ألقى على الجرم الصغير الذى هو الباطل ففتته وحطمه (فإذا هو زاهق)، لم يبق منه شىء، وقد طوى المشبه به، ورمز له بلازمه وهو القذف على سبيل الاستعارة المكنية، وكذا شبه الشيب بشواظ النار فى إنارته وإشراقه، ثم طوى المشبه به ورمز له بلازمه (اشتعل).

هذا ويرى الزمخشرى ـ رحمه الله ـ أن فى هذه الآية الكريمة استعارتين استعارة مكنية فى كلمة (شيبا) حيث استعير لها شواظ النار، واستعارة تبعية فى لفظ (اشتعل) حيث استعير الاشتعال لانتشار الشيب فى الشعر وفشوه فيه وأخذه منه كل مأخذ(١).

وكذا فى آية الأنبياء (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه) يرى فيها استعارتين، تبعية فى لفظى (نقذف ويدمغ) حيث استعير القذف والدمغ لدحض الباطل بالحق، ومحوه وإزالته، ومكنية فى لفظى (الحق والباطل) حيث شبه كل منهما بجرم كما أوضحنا.

يقول رحمه الله: "شبه الشيب بشواظ النار فى بياضه وإنارته، وانتشاره فى الشعر وفشوه فيه وأخذه منه كل مأخذ باشتعال النار، ثم أخرجه مخرج الاستعارة" .. ويقول عن آية الأنبياء: "واستعار لذلك ـ أى لدحض الباطل بالحق ـ القذف والدمغ تصويرا لإبطاله وإهداره ومحقه، فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه"(٢).

---

(١) ارجع إلى التجوز فى الإسناد ص ١١٧ لتقف على تجليتنا الاستعارة فى هذه الآية الكريمة.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٠٢، ٥٦٥.

وانفكاك الاستعارة المكنية عن الاستعارة التخييلية، وعدم استلزامها إياها، مما عليه المحققون من أهل البيان، فإن قرينة الاستعارة المكنية كما تكون استعارة تخييلية، قد تكون استعارة تصريحية(١).

وفى قوله تعالى: ﴿ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِ ﴾(٢) استعيرت الإفاضة لخروج الحجيج ونزولهم من عرفات إلى المزدلفة، وتشعر هذه الاستعارة بالخشوع والوقار وكثرة عدد الحجيج الذين يخرجون من عرفة كالفيضان، يقول صاحب التحرير والتنوير: "والعرب كانوا يسمون الخروج من عرفة (الدفع) ويسمون الخروج من مزدلفة (إفاضة) وكلا الإطلاقين مجاز، لأن الدفع هو إبعاد الجسم بقوة، ومن بلاغة القرآن إطلاق الإفاضة على الخروجين، لما فى (أفاض) من قرب المشابهة من حيث معنى الكثرة دون الشدة"(٣).

كما تدل هذه الاستعارة على كثرة الفيض الذى يخرج به الحجيج من عرفة فهم قد نزلوا من عرفة بخير كثير ، وفيض عظيم من رحمة الله تعالى وتجليه عليهم بالمغفرة والعتق من النار.

---

(١) انظر روح المعانى ١٦/ ٦٠، وشروح التلخيص ٤/ ١٥٩، وحاشية السيد على المطول ٣٨٤، ولا يخفى علينا أنه لا يتأتى اعتبار الاستعارتين معا فى آن واحد فى الشواهد المذكورة - كما صرح الزمخشرى - رحمه الله - ولكن الذى يتأتى، اعتبار إحداهما فحسب، ففى قوله تعالى: (الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ) إذا جعل (الحبل) مستعارا لعهد الله كان النقض حقيقة، وكان إيقاعه على العهد قَرينة، وإن جعل (ينقضون) استعارة تبعية للإبطال كان العهد حقيقة.

وكذا القول فى الآيات الكريمة: (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ... واشتعل الرأس شيبا ... ولما سكت عن موسى الغضب) إما أن نجعل الاستعارة مكنية فى (الحق والباطل .. والشيب .. والغضب) أو نجعلها تبعية فى (نقذف ويدمغ .. واشتعل .. وسكت) ولا يتأتى اعتبار الاستعارتين معاً فى آن واحد.

والسياق هو الذى يحتكم إليه فيما نعتبره من الاستعارتين، إذ من خلاله ندرك ما المقصود بالتصوير، وما الذى يهتم بتجليته ويركز على بيانه وإيضاحه، فإن كان الاسم كانت الاستعارة مكنية وإن كان الفعل كانت تبعية.

هذا وسنفرد بحثا مستقلا - إن شاء الله - للموازنة بين الاستعارتين المكنية والتبعية، فإن السكاكى رحمه الله قد رد الاستعارة التبعية إلى المكنية، وكذلك فعل بالمجاز العقلى بحجة الضبط وتقليل الأقسام، ونرى أن هذا يحتاج إلى بحث مستقل، يعالج هذه الفنون الثلاثة: المكنية والتبعية والمجاز العقلى .. يوضح آراء العلماء فى تحديد مفهوم كل .. يبرز ما بينها من فروق .. يجلى كيف يتمكن الدارس من خلال النظر فى السياق من تحديد لون المجاز .. ونحن عازمون - إن شاء الله تعالى - على إفراد بحث لهذا، والله المستعان.

(٢) سورة البقرة: آية ١٩٨.

(٣) التحرير والتنوير ٢/ ٢٣٨.

وانظر فى قوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴾(1) فقد استعير (الموج) لحركة الناس واضطرابهم، ثم اشتق منه (يموج) بمعنى يضطرب ويدفع بعضهم بعضا على سبيل الاستعارة التبعية فى الفعل، وكذا الاستعارة فى (أفضتم) ولكن الحركة هنا تختلف عن الحركة هناك، فالإفاضة تصور الحركة فى خشوع ووقار، وهذا شأن الحجيج الذين أفاض الله عليهم رحمته، وتجلى عليهم بمغفرته، فخرجوا من عرفات فى خشوع وخضوع، أما الموج هنا (يموج فى بعض) فيصور الحركة المضطربة التى تكون على غير نظام، وهى حركة الناس عند البعث أو حركة يأجوج ومأجوج عند دك السد، إنها حركة قلق واضطراب وتدافع، وكأنها الموج المتلاطم الذى يدفع بعضه بعضا.

وفى قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾(2) استعيرت (الإذاقة) لمس الضر والشدائد، وقد شاعت هذه الاستعارة حتى جرت مجرى الحقيقة، واستعير (اللباس) لما يغشى الإنسان ويلتبس به من الشدائد والخوف، ولا يخفى علينا أن الإذاقة فى قوله (فأذاقها الله) مما يلائم المستعار له، وهو ما يغشى الإنسان ويلتبس به من الشدائد، ويسمى البلاغيون هذا تجريدا، فاستعارة (اللباس) لما يغشى الناس استعارة مجردة، حيث ذكرت معها (الإذاقة) وهى مما يلائم المستعار له.

يقول الزمخشرى: "فإن قلت: الإذاقة واللباس استعارتان فما وجه صحتهما؟ والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار فما وجه صحة إيقاعها عليه؟ قلت: أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها فى البلايا والشدائد وما يمس الناس منها، فيقولون: ذاق فلان البؤس والضر، وأذاقه العذاب، شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المر والبشع، وأما اللباس فقد شبه به ـ لاشتماله على اللابس ـ ما غشى الإنسان والتبس به من بعض الحوادث، وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف، فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس، فكأنه قيل: فأذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف.

---

(1) الكهف: ٩٩.
(2) النحل: ١١٢.

ولهم فى نحو هذا طريقان لابد من الإحاطة بهما، فإن الاستنكار لا يقع إلا لمن فقدهما، أحدهما أن ينظروا فيه إلى المستعار له، كما نظر إليه ههنا.

ونحوه قول كثير:

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكا   غلقت لضحكته رقاب المال

استعار (الرداء) للمعروف، لأنه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقى عليه، ووصفه بالغمر الذى هو وصف المعروف والنوال، لا صفة الرداء، نظرا إلى المستعار له، والثانى أن ينظروا فيه إلى المستعار، كقوله:

ينازعنى ردائى عبد عمرو   رويدك يا أخا عمرو بن بكر

لى الشطر الذى ملكت يمينى   ودونك فاعتجر منه بشطر

أراد (بردائه): سيفه، ثم قال: (فاعتجر منه بشطر) فنظر إلى المستعار فى لفظ (الاعتجار)، ولو نظر إليه فيما نحن فيه لقيل: فكساهم لباس الجوع والخوف، ولقال كثير: ضافى الرداء إذا تبسم ضاحكا"[1].

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٣١، ٤٣٢ .. وبهذا يتبين لنا أن الاستعارة باعتبار ما يذكر معها من ملائمات ثلاثة أنواع:

١- استعارة مرشحة: وهى التى يذكر معها ما يلائم المستعار فتقوى بذلك الاستعارة وتزداد بعدا، كما فى الآيات: (اشتروا الضلال بالهدى فما ربحت تجارتهم ... وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور ... حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ... واعتصموا بحبل الله جميعا) فإن الربح والتجارة مما يلائم (الاشتراء) المستعار، وقوله (وما أنت بمسمع من فى القبور) مما يلائم (الأموات) المستعار للكفار، وقوله (ازينت) مما يلائم (العروس) المستعارة للأرض، وقوله (اعتصموا) مما يلائم (الحبل) المستعار لعهد الله وميثاقه، وهذه الملائمات قد قويت بها الاستعارة وازدادت بعدا، ولهذا سميت: استعارة مرشحة.

٢- استعارة مجردة: وهى التى يذكر معها ما يلائم المستعار له، كما فى الآية الكريمة، فإن الإذاقة تلائم (ما يغشى الإنسان ويلتبس به) وهو المستعار له، وكما فى بيت كثير (غمر الرداء) فإنه استعار (الرداء) للمعروف، وقوله (غمر) يلائم المعروف المستعار له.

٣- استعارة مطلقة: وهى التى لم تقترن بما يلائم أيا من الطرفين، وتلك كثيرة ويسهل عليك الوقوف عليها فيما ذكرناه من شواهد، أو اقترنت بما يلائم كلا من المستعار والمستعار له، كما فى قول كثير:

رمتنى بسهم ريشه الكحل لم يضر ظواهر جلدى وهو للقلب جارح

فقد استعير (السهم) للنظرة القاتلة بجامع قوة التأثير فى كل، وذكر فى البيت ملائم للمستعار وهو (ريشه) وملائم للمستعار له وهو (الكحل)، وكما فى قول زهير:

لدى أسد شاكى السلاح مقذف   له لبد أظفاره لم تقلم

حيث استعير (الأسد) للشجاع، وذكر ما يلائم الأسد وهو (اللبد) وما يلائم البطل الشجاع وهو (شاكى السلاح). وكما فى البيت:

سقاك وحيا نابك الله إنما   على العيس نَوْرٌ والخدور كمائمه

حيث استعار "النور" وهو الزهر للنساء وذكر "الخدور" ملائمًا للمستعار له و"كمائمه" ملائمًا للمستعار.

ومجئ الاستعارة مجردة فى الآية الكريمة هو الملائم لما يقتضيه المعنى، لأن النظم الكريم يهدف إلى الدلالة على معنيين: شدة الإصابة، وشمولها وإحاطتها بهم جميعا، فتلك قرية كانت آمنة مطمئنة، يأتيها رزقها رغدا من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، ما جزاؤها؟ عقاب شديد يصيب أهلها ويحيط بهم ويأتى عليهم جميعا، وهذا ما يؤديه تجريد الاستعارة (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) إذ لو قيل: فأذاقها الله طعم الجوع والخوف، أو فكساها الله لباس الجوع والخوف، لتكون الاستعارة مرشحة، لدل الأول على شدة الإصابة دون الإحاطة والشمول، والثانى على الإحاطة دون شدة الإصابة، ولذا آثر النظم الكريم التعبير بالإذاقة واللباس للدلالة على الأمرين معا: الشدة والإحاطة..

وفى قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾[1] استعيرت الوفاة للنوم بجامع السكون وفقدان الإدراك فى كل، واستعير البعث للإيقاظ بجامع الإدراك والحركة فى كل، واستعير الجرح للكسب والاكتساب، ثم سرت الاستعارة من المصادر إلى أفعالها على سبيل الاستعارة التبعية، وقد أوثر التعبير بالمضارع (يتوفاكم .. يبعثكم) ليضع أمامنا هذه الصورة وهى تقع، ولكى نبصر فيها وندرك من خلالها نهاية الإنسان ومصيره إلى ربه، ثم بعثه للحساب والجزاء، فإن هذا يتكرر فى نومنا واستيقاظنا ونحن عنه غافلون.

وكما استعيرت الوفاة للنوم، استعير المضجع والمرقد للموت، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾[2] حيث استعير المضجع للمصرع، ليصور لنا أن الإنسان يساق إلى حتفه كما يساق إلى مضجعه، ولا يتأبى أحد على قدرة الله وإرادته، وفى هذا زجر وردع لأولئك الذين قالوا: (لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ..).

وخذ قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ

(١) الأنعام: ٦٠.
(٢) آل عمران: ١٥٤.

يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾[١]، فقد استعير المرقد بمعنى الرقاد أو القبر ـ فهو إما مصدر ميمى أو اسم مكان ـ للموت، وتشعر هذه الاستعارة بسرعة البعث، وقصر المدة التى يقبر فيها الإنسان، وكأنه قد رقد رقدة ثم استيقظ منها، ولذا عبر عنه ـ أى عن الموت ـ بالزيارة فى قوله تعالى: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾[٢] أراد عز وجل: ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن متم وأقبرتم منفقين أعماركم فى طلب الدنيا والاستباق إليها والتهالك عليها إلى أن أتاكم الموت[٣].

فقد استعيرت (زيارة المقابر) للموت، وهذا يؤذن بسرعة البعث وبقصر حياة البرزخ، وكأنها زيارة للقبور يمضى بعدها الزائرون إلى ربهم للحساب والجزاء.

ويصور النظم الكريم صوت جهنم وهى تتأجج وتتلظى لابتلاع الكفرة، فيثبت لها: (التغيظ والزفير والشهيق) ويجعل هذه الصفات لها، ولنقرأ: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾... ﴿ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾[٤]، فإن الغيظ والزفير والشهيق من صفات الإنسان، إذ الغيظ أشد الغضب وهو الحرارة التى يجدها الإنسان من فوران دم قلبه، ويكون هذا الغيظ مصحوبا بصوت الزفير أو الشهيق، وقد أثبت لجهنم الغيظ المصحوب بالزفير، وجعل لها، وذلك عندما ترى الكفرة من مكان بعيد، وكأن الزفير الذى هو إخراج النفس وإرساله أشبه بحال الاستقبال، ثم أثبت لها التغيظ، بل (تكاد تميز من الغيظ) أي: تتقطع، وهذا التغيظ مصحوب بالشهيق، أثبت لها ذلك عندما ألقوا فيها، وكأن الشهيق الذى هو رد النفس وابتلاعه أشبه بحال إلقائهم فى جوفها وابتلاعها إياهم[٥].

والاستعارة فى الآيتين استعارة مكنية، حيث شبهت جهنم بحيوان ضخم يزفر ويشهق من شدة غيظه، ثم طوى المشبه به وأسندت لوازمه وهى التغيظ والزفير

(١) يس: ٥١، ٥٢.

(٢) التكاثر: ١، ٢.

(٣) انظر الكشاف ٤/ ٢٨١.

(٤) الآيات بالترتيب: الفرقان ١٢، الملك ٧، ٨.

(٥) انظر الإعجاز البلاغي: ١٢٤.

والشهيق إلى المشبه وجعلت له على سبيل التخييل، وتأمل ما يوحى به التعبير بالسماع فى قوله: (سمعوا لها) إن التغيظ والزفير والشهيق الذى أثبت لجهنم يسمعه الكفرة إذا ألقوا فيها، ويسمعونه من مكان بعيد، وهذا يؤذن بشدة التأجج والتلهب، ويدل على فظاعة وبشاعة الأهوال التى تنتظرهم.

واستعار النظم الكريم (الصدع) وهو الشق الذى يظهر فى الشيء المصدوع كالزجاجة، للجهر بالدعوة وإظهارها، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[1] وتشعر هذه الاستعارة بما سيحدثه الجهر بالدعوة من أثر فى القلوب، فإن قلوب الكفرة ستنصدع، وسيظهر أثر ذلك الصدع على وجوههم، فيرى فيها التقبض والإنكار والاستبشاع، أما المؤمنون فستنصدع قلوبهم أيضاً ولكن للحق إذ يستبشرون به، ويظهر أثر ذلك الاستبشار على وجوههم.

وقريب من الصدع (السلخ) الذى استعاره النظم الكريم لإزالة الضوء وكشفه عن مكان الليل، كما تسلخ الشاة فيزال عنها جلدها، قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴾[2] وتدل هذه الاستعارة على قدرة الله تعالى، فإن الليل والنهار يتصلان اتصال الجلد بالحيوان، وفى فصلهما وتخليص أحدهما من الآخر حتى لا يبقى أثر لهذا على ذاك ما يدل على قدرة الله الباهرة[3].

وتأمل الآيات الكريمة: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾... ﴿ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ۝٤٨ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾... ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾[4] تجد أن العذاب الأليم لا يبشر به وإنما ينذر، وعذاب الحميم لا يذاق بل يغص ويتجرعه الكافر ولا يكاد يسيغه، والمراد بالعزيز الكريم: الذليل المهان، وأصحاب الأيكة لم يريدوا وصف شعيب ـ عليه السلام ـ بالحلم والرشاد بل أرادوا وصفه بالسفاهة والغى.

---

(١) الحجر: ٩٤.

(٢) يس: ٣٧.

(٣) انظر تلخيص البيان فى مجازات القرآن: ٢٣٠.

(٤) الآيات بالترتيب: التوبة ٣٤، الدخان ٤٨، ٤٩، هود ٨٧.

يقول الزمخشري: "وأرادوا بقولهم (إنك لأنت الحليم الرشيد) نسبته إلى غاية السفه والغى، فعكسوا ليتهكموا به، كما يتهكم بالشحيح الذى لا يبض حجره فيقال له: لو أبصرك حاتم لسجد لك"[(١)].

فالتعبير فى الآيات الكريمة على سبيل الاستعارة، استعارة التبشير للإنذار، والإذاقة للغص والتجرع، والعزة والكرم للذلة والإهانة، والحلم والرشاد للسفاهة والغى، فقد استعير للشيء ضده، وذلك بغرض التهكم والسخرية، وتسمى هذه الاستعارة: الاستعارة العنادية التهكمية.

ولا تخفى علينا الاستعارة المكنية فى قوله تعالى: (ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم) حيث شبه (عذاب الحميم) بما يصب ثم حذف المشبه به ورمز له بلازمه (صبوا) الذى أوقع على (عذاب الحميم) تخييلا.

ومثله قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾[(٢)] حيث شبه (الصبر) بالسائل الذى يفرغ ثم حذف المشبه به ورمز له بلازم من لوزامه (أفرغ) الذى أوقع على (الصبر) على سبيل الاستعارة التخييلية.

لقد أبرزت الاستعارة فى الآيتين الأمر المعنوى (العذاب والصبر) فى صورة الأمر الحسى المشاهد، فالصبر ماء بارد يفرغ على قلوب المؤمنين فيذهب ما يجدون من الشدائد وحر الكرب، والعذاب سائل يصب فوق رءوس الكفار فيصهر به ما فى بطونهم والجلود.

يتضح لنا مما تقدم أن الاستعارة المكنية يطوى فيها المشبه به ويرمز له بلازم من لوازمه، وهذا اللازم يثبت للمشبه ويجعل له على سبيل التخييل، أما الاستعارة التصريحية فيطوى فيها المشبه بعد ادعاء دخوله فى جنس المشبه به وصيرورته فردا من أفراده، وتقع هذه الاستعارة فى المصادر وفى الأسماء الجامدة (اسم الجنس والعلم الذى

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٨٧ .. وقوله: (لا يبض حجره) بفتح الياء وكسر الباء وتشديد الضاد، مثل يضرب للبخيل الذى لا خيرفيه، ولا ينال منه نفع، والبض: أدنى ما يكون من السيلان، والمعنى: ما تندى صفاته، انظر مجمع الأمثال ٣/ ١٨١ ولسان العرب مادة: بضض.

(٢) سورةالأعراف: آية ١٢٦.

اشتهر بصفة معينة) فتكون أصلية، كما تقع فى الأفعال والمشتقات والحروف فتكون استعارة تبعية، لأن جريانها فى الأفعال والمشتقات تابع لجريانها فى مصادرهما، ولأن الحرف لا يدل على معنى مستقل، بل يدل على معنى فى غيره، ولذا لا يصلح للتشبيه ولا للاستعارة، بل يقع كل منهما فى متعلق معناه، فهو الذى يستقل بالدلالة.

وقد وقفنا على شواهد كثيرة للاستعارة التبعية فى المشتقات والأفعال، أما الاستعارة التبعية فى الحروف، فمن شواهدها قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1]، فقد استعير (الاستعلاء) للتمسك بالهدى والثبات عليه بجامع الاستقرار والتمكن، ودل على الاستعارة بالحرف (على) الموضوع للاستعلاء، واستعيرت الظرفية التى هى ارتباط حاصل بين الظرف والمظروف، لانغماس الكفرة فى الضلال بجامع الإحاطة والاحتواء، ودل على الاستعارة بالحرف (فى) الموضوع للظرفية[2].

ويؤذن اختلاف حرفى الجر الداخلين على الهدى والضلال بأن المهتدى كأنه مستعل على جواد يركضه حيث شاء، أو مستعل منارة ينظر إلى الأشياء ويبصر حقائقها .. والضال كأنه منغمس فى ظلام يتخبط فيه لا يرى شيئًا، ولا يدرى أين يتجه، أو كأنه محبوس فى سجن لا يستطيع الخروج منه[3].

فالمهتدى قد تبددت أمامه الحجب، لأنه نظر من علٍ، فأبصر نور الحق والهدى، ومضى فى ضوء هذا النور فعلت منزلته وسمت مكانته، والضال قد انغمس فى ظلامه، وهوى فى ضلاله، فلم يبصر الحق، ولم ير النور، بل ظل يتخبط فى ظلام، ويهبط إلى مهاوى الضلال، لا يعرف له وجهة، ولا يبصر له غاية.

---

(١) سورة سبأ: آية ٢٤.

(٢) رأى الجمهور فى بيان هذه الاستعارة: أن يشبه الارتباط الحاصل بين المهتدين والهدى، أو بين الضالين والضلال، بالارتباط الحاصل بين الحرف ومدخوله، ثم يسرى التشبيه من الكليات إلى الجزئيات، فيستعار الحرف (على) أو الحرف (فى) من المشبه به للمشبه .. ورأى الخطيب: أن يشبه مدخول الحرف وهو (الهدى) أو (الضلال) بالاستعلاء أو بالظرف، أي: يشبه الهدى بالاستعلاء، والضلال بالظرف بجامع مطلق ارتباط وتعلق فى كل، ثم يستعار (الاستعلاء) للهدى و(الظرفية) للضلال ويدل على الاستعارة بالحرف (على) والحرف (فى). ارجع إلى الإيضاح ٣/ ١٣٦، وإلى شروح التلخيص ٤/ ١١٧.

(٣) انظر الكشاف ٣/ ٢٨٩، وأبى السعود ٧/ ١٣٢.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾[1] فقد استعيرت الظرفية المدلول عليها بالحرف (فى) لاستعلاء المصلوب على الجذع، بجامع التمكن والاستقرار فى كل، وتشعر هذه الاستعارة بشدة التصليب، وكأن المصلوبين قد وضعوا فى داخل جذوع النخل، وأحاطت بهم تلك الجذوع واحتوتهم كما يحيط الظرف بمظروفه ويحتويه، ويكمن وراء هذه الشدة تغيظ فرعون الذى كان يأمل أن يتغلب على موسى بسحرهم، فإذا بهم يخذلونه، ويؤمنون بموسى، ويخرون لله سجدا.

هذا وقد تكو الاستعارة مركبة، وذلك بأن تستعار هيئة مركبة لهيئة أخرى، فيكون التركيب كله تمثيلا لهيئة طويت، ولذا سماها البلاغيون: استعارة تمثيلية.

تأمل قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾[2] تجده تمثيلا لإغواء الشيطان وتسلطه على من يغويه وتربصه بهم وقعوده لهم كل مرصد، فقد استعير لهذه الحال التى عليها الشيطان، صورة فارس مغوارهجم على قوم بجنوده فصوت بهم صوتا أفزعهم وأزعجهم، وظل بهم هو وجنوده حتى استأصلوهم.

يقول العلامة أبو السعود: "ويجوز أن يكون استفزازه بصوته، وإجلابه بخيله ورجله تمثيلا لتسلطه على من يغويه، فكأنه مغوار أوقع على قوم فصوت بهم صوتا يزعجهم من أماكنهم ويقلعهم عن مراكزهم، وأجلب عليهم بجنوده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم"[3].

وانظر فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾[4] حيث ضرب البحران العذب والملح مثلين للمؤمن والكافر، فالمؤمن تكثر فوائده ويعم نفعه، فهو لين الجانب، سمح فى جميع أحواله، يفيض على الناس بالخير، ولا يمنع أحدا معروفا فمثله مثل البحر العذب الفرات، يسوغ شرابه

---

(١) طه: ٧١.

(٢) الإسراء: ٦٤.

(٣) تفسير أبى السعود ٥/ ١٨٤.

(٤) فاطر: ١٢.

فيرتوى منه الظمآن وينهل منه الناس جميعا، أما الكافر فهو منعدم النفع، غليظ جاف، فاحش متفحش، لا يقبل عليه أحد، ولا يرجى منه خير، فمثله مثل البحر الملح الأجاج، يحرق المرئ بملوحته، فلا يستساغ شرابه، ولا يقبل أحد على شرب مائه.

وقد جاء بعد المثلين قوله تعالى: ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ على سبيل الاستطراد لبيان صفة البحرين وما علق بهما من نعم الله وعطائه وفضله "ويحتمل غير طريقة الاستطراد وهو أن يشبه الجنسين بالبحرين ثم يفضل البحر الأجاج على الكافر بأنه قد شارك العذب فى منافع من السمك والؤلؤ وجرى الفلك فيه، والكافر خلو من النفع، فهو فى طريقة قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾[1]، ثم قال: ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾[2].

وخذ قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[3] تجد فيه تمثيلين: أولهما لحال الضال الذى انغمس فى ضلاله، وأخذ يتخبط فى ظلمات الكفر، ويهبط فى مهاوى الشرك، فقد مثل بحال رجل يمشى مكبا على وجهه، وهى صورة تثير السخرية والتعجب، فهذا الرجل يستطيع أن ينهض وأن يقوم من انكبابه فيمشى سويا، ولكنه يصر على هذا الوضع المزرى، يمشى منتكسا مكبا على وجهه، وهذا ما يثير التعجب والسخرية فى آن واحد .. تلك صورة الضال، يترك الهدى والنور، ويصر على الضلال والتخبط فى ظلام الوهم والسراب.

وثانى التمثيلين: لحال المهتدى الذى يمضى فى نور الله مبصرا الحق، فقد مثل بحال رجل يمشى سويا على صراط مستقيم، تخير الطريق السوى الذى لا عوج فيه، ومضى

---

(١) البقرة: ٧٤.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٠٤، ومراده بتشبيه الجنسين بالبحرين: استعارة العذب الفرات للمؤمن، واستعارة الملح الأجاج للكافر، فعبر عن ذلك بالتشبيه باعتبار الأصل، لأن الاستعارة مبنية على التشبيه وقائمة عليه.

(٣) الملك: ٢٢.

معتدلا فى سيره، مبصرا غايته، هذا شأن المؤمن أشرق نور الإيمان فى صدره، وسطع ضياء الحق فى قلبه، فمضى على صراط مستقيم.

وقد جاء التمثيلان بصيغة الاستفهام ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وذلك للتنبيه وإيقاظ الفكر، ليتأمل القارئ الصورتين المقترنتين، ويقف على البعد الذى بينهما، فهذا يتخبط فى ظلمات الكفر والجهل والعمى، ويهبط إلى مهاوى الهلاك والضياع، لأنه رفض الانصياع للحق والاهتداء بنوره، وذاك يبصر طريقه، ويدرك غايته، فيمضى فى نور الحق والهداية، حتى يصل إلى بر النجاة، ويتحقق له الفوز والفلاح.

المجاز المرسل

قال تعالى:

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ البقرة: ١٩.

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ﴾ النساء: ٩٢.

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ البقرة: ١٩٤.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ﴾ غافر: ١٣.

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ نوح: ٢٦، ٢٧.

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ آل عمران: ١٠٧.

﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ يوسف ٨٢.

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ نوح: ١٠، ١١.

﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ الشعراء: ٨٤.

* * *

اتضح لنا أن المجاز لابد له من علاقة تجمع بين المعنيين، المعنى الأصلى الذى وضع له اللفظ، والمعنى المجازى الذى استعمل فيه، ولابد له من قرينة تمنع إرادة المعنى الأصلى، وتصرف اللفظ إلى المعنى المجازى الذى استعمل فيه.

والعلاقة فى الاستعارة ـ كما رأينا ـ هى المشابهة، أما المجاز المرسل فليست علاقته المشابهة، بل له علاقات أخرى غيرها، لأن الاستعارة مبنية على دعوى الاتحاد ودخول المشبه فى جنس المشبه به، وصيرورته فردا من أفراده، والمجاز المرسل ليس كذلك، فقد أطلق عن دعوى الاتحاد المعتبرة فى الاستعارة، كما أطلقت علاقاته فلم تقيد بعلاقة واحدة، بل له علاقات كثيرة ليس منها المشابهة، ولذا سمى (مجازا مرسلا) وأهم علاقاته ما يلي:

١ - الكلية: ويراد بها إطلاق الكل وإرادة الجزء، وعندما يطلق الكل على الجزء يكون وراء ذلك غرض يقصد إلى تحقيقه والدلالة عليه، تأمل قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾[١]، فقد عبر عن (الأنامل) بالأصابع، لأن من يسد أذنه يسدها بأنملة الأصبع، ولكن النظم الكريم أراد أن يصور شدة إعراض أولئك الكفار عن دعوة نوح ـ عليه السلام ـ فهم يبالغون فى سد مسامعهم حتى لا يسمعوا شيئا مما يقول، وكأن الأنامل لا تكفى لسد الآذان فجعلوا فيها أصابعهم، وكما بالغوا فى سد الآذان بالغوا فى إخفاء أبصارهم وإخفاء أنفسهم، فاستغشوا ثيابهم، أي: طلبوا أن تغشاهم أو تغشيهم حتى لا يبصروه ـ عليه السلام ـ، كراهة النظر إليه، وحتى لا يراهم فيدعوهم (وأصروا) على الكفر والضلال أي: أكبوا عليهما، مستعار من أصر الحمار على العانة إذا أصر أذنيه وأقبل عليها[٢].

(١) سورة نوح: آيات ٥ ـ ٧.

(٢) انظر تفسير أبى السعود ٩/ ٣٧.

فالسياق - كما نرى - يصور شدة إعراض الكفار، وفرارهم عن دعوة نوح - عليه السلام - ورفضهم السماع والنظر إليه كراهة وبغضا، وجاء التعبير بالمجاز المرسل (أصابعهم) مصورًا لشدة الرفض والإعراض ومتلائما مع المبالغة التى أفادها السياق.

ومما يصور شدة الفرار والإعراض إسناد زيادة الفرار إلى الدعاء فى قوله: (فلم يزدهم دعائى إلا فرارا) حيث أسند الفعل إلى سببه ، فدعاء نوح الذى كان ينبغى أن يكون سببا فى إيمانهم وهدايتهم ، لأنه يدعوهم إلى المغفرة والرحمة كان سببا فى زيادة النفور والإعراض.

ولا يخفى علينا المجاز المرسل فى قوله: (لتغفر لهم) فهو عليه السلام يدعوهم إلى الإيمان والهداية، فإن آمنوا واهتدوا غفر الله لهم، فهذا مجاز مرسل علاقته المسببية، لأن الغفران مسبب عن الإيمان والهداية، مترتب عليهما.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1] فقد دل التعبير عن الأنامل بالأصابع فى قوله: (يجعلون أصابعهم فى آذانهم) على المبالغة فى سد مسامعهم خوفا ورعبا من الصواعق والرعد والبرق الذى أحاط بهم.

ومن البين أن الذى تسد به الأذن أصبع خاصة هى السبابة، ولكن النظم الكريم عدل عنها إلى ذكر الأصابع لغرضين:

الأول: أن السبابة على وزن (فعالة) صيغة مبالغة من السب، فكان اجتنابها أولى بأدب القرآن، ولذا فقد استبشعوها وكنوا عنها بالمسبحة والسباحة والمهللة.

الثاني: أنه ليس بلازم أن يسدوا مسامعهم فى تلك الحال بالسبابة، لأنهم فى حال حيرة ودهش واضطراب، حيث أحاطت بهم الظلمات والرعد والبرق، وصاروا يخشون الموت من الصواعق، فأى أصبع اتفق لهم أن يسدوا بها فعلوا، دون مراعاة المعتاد فى مثل هذا[2].

---

(١) سورة البقرة: ١٩.

(٢) انظر حاشية السيد على الكشاف ١/ ٣١٧.

وكذا القول فى سورة نوح، لقد أبوا إباء واستكبروا استكبارا وأعرضوا إعراضا وبلغ إعراضهم مبلغا جعلهم يسرعون بوضع أى أصبع اتفق لهم وضعها فى الأذن كلما دعاهم نوح ـ عليه السلام ـ حتى لا يسمعوا دعاءه.

٢- الجزيئة: والمراد بها إطلاق الجزء وإرادة الكل، وهذا الجزء الذى يطلق على الكل لابد أن يكون مهما وأساسيا فى الكل، ومتميزا بخصوصية توجب له هذا الإطلاق، وتجعله أدل على المعنى المراد وأوفى بالغرض.

تأمل قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ تجد أن المراد بالرقبة: العبد أو الأمة من الرقيق، أطلق الجزء وأريد الكل، وإيثار التعبير بهذا الجزء (الرقبة) فى مثل هذا المقام، مقام الحث على تحرير الرقيق، وإنقاذهم من ذل العبودية هو الملائم، لأنه ينبه ويشير إلى موضع وضع الأغلال وهو الرقاب، ولذا آثر النظم الكريم التعبير بالرقبة مرادا بها العبد أو الأمة، فى مقامات الحث على تحرير الرقيق وتخليصهم من قيد العبودية، ولنقرأ: ﴿ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾... ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾... ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾[1].

ولا يتأتى فى هذا المقام أن يعبر بالرأس أو العين أو الكف، لأن هذه الأجزاء ليس لها تلك الخصوصية التى تميزت بها الرقبة وجعلتها أدل على هذا المعنى، وهو الحث على تحرير الرقيق وإنقاذهم من ذل الرق وقيد العبودية.

ولذا لما اختلف المقام ولم يعد المراد التنبيه إلى ذل العبودية، عبر عن الرقيق بالفتيات والعبد والأمة، ولنقرأ: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ﴾... ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾... ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ

(١) الآيات بالترتيب: المائدة ٨٩، المجادلة ٣، البلد ١٢، ١٣.

مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٌ مِّن مُّشۡرِكٍ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡ ﴾[1] لا يتأتى هنا أن يعبر بالرقبة التى تذكر بذل الرق، لأن التعبير بها لا يتلاءم مع هذا السياق الذى يحث على تزوج الرقيق وتزويجهم، وينهى عن إكراه الأمة على البغاء، فهذا المقام يقتضى أن ينسى ذل الرق وأن يذكر بما يحبب الأمة والعبد ويقربهما من النفوس والقلوب، لذا كان ذكر الإيمان والفتيات (ولأمة مؤمنة .. ولعبد مؤمن .. فتياتكم المؤمنات) إننا نشعر هنا بحرص السياق على إبراز ما يحبب العبد والأمة ويقربهما من القلوب، لأن المعنى الذى ينشده يقتضى ذلك.

ويعبر النظم الكريم عن الإنسان بالوجه وبالعين والأذن والقدم فى سياقات تطلبت هذه الاجزاء، وكانت هى الأدل على المعنى، تأمل قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٌ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾[2] فقد عبر عن الذات هنا بالوجه، لأن الآية تحث على تفويض الأمر إلى الله، والتوجه والإقبال عليه، ومن يفعل ذلك فقد استمسك بالعروة الوثقى، والإقبال إنما يكون بالوجه فلاءم ذلك أن يعبر به عن الذات لمزيد اختصاصه بالمعنى المراد.

وفى قوله تعالى: ﴿ وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ ﴾[3] أوثر التعبير عن النبى ـ ﷺ ـ بالأذن، لأنهم أرادوا ذمه ووصفه بأنه كثير السماع، ولكنه لا يميز بين الصدق والكذب، والخطأ والصواب فيما يسمع، قاتلهم الله أنى يؤفكون، لقد بالغوا فى وصفه بذلك حتى جعلوه كله أذنا، يقول العلامة الجمل: " (هو أذن) أي: يسمع كل كلام من غير أن يتدبر فيه ويميز بين ما يليق سماعه وما لا يليق، فغرضهم الذم، وإنما قالوا ذلك فيه لأنه كان لا يواجههم بسوء صنيعهم، ويصفح عنهم، فحملوه على عدم التنبيه وعدم التفطن، وهو إنما كان يفعل ذلك معهم رفقا بهم، وتغافلا عن عيوبهم، وفى إطلاق الأذن عليه مجاز مرسل من إطلاقهم اسم الجزء على الكل للمبالغة فى استماعه حتى صار كأنه عين آلة الاستماع، وفى المفتاح أنه مجاز مرسل كما يراد بالعين الرجل إذا كان ربيئة، لأن العين هى المقصودة منه فصارت كأنها الشخص كله"[4].

---

(١) الآيات بالترتيب: النساء ٢٥، النور ٣٣، البقرة ٢٢١.

(٢) لقمان ٢٢.

(٣) التوبة: ٦١.

(٤) الفتوحات الإلهية ٢/ ٢٩٤.

وفى قوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾[1] أوثر التعبير عن الأنفس بالأيدى، لأنها جاءت فى سياق الأمر بالإنفاق فى سبيل الله، واليد هى آلة العطاء، ومظهر الجود والشح، والإنفاق والإمساك، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾[2] فلما كانت اليد مصدر الإنفاق والإمساك، وكان إنفاقها منجيا لصاحبها، وإمساكها موديا به إلى الهلاك، أوثرت بالتعبير عنه فى سياق الإنفاق، وصارت كأنها الشخص كله، لمزيد اختصاصها بالإنفاق.

وفى قوله تعالى: ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ﴾[3] عبر بالعين عن النفس والذات، إذ المراد بقوله (وقرى عينا) الدلالة على طيب نفسها وسرورها، وقد عبر عن النفس (الذات) بالعين، لأنها هى التى ترى ما يسر النفس فهى أدل على المعنى المراد، ولذا أوثرت بالتعبير فى هذا المقام، وصارت كأنها الذات كلها.

وكثر فى النظم الكريم التعبير عن الصلاة بجزء من أجزائها المهمة، كالقيام والركوع والسجود، ونجد الجزء الذى عبر به عن الصلاة مهما فى موضعه، وكأن معناه هو المراد تحقيقه، تأمل الآيات الكريمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾...﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ ... ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾... ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴾[4]، فقد عبر عن الصلاة بالقيام والسجود والركوع، وتلك أجزاء من أجزاء الصلاة، وأركان من أركانها، فهى أجزاء مهمة، وقد جاء التعبير بالقيام عن صلاة الليل (قم الليل) لأن القيام أشق الأركان فى صلاة الليل، إذ الليل مظنة النوم والتكاسل، ولما كان العرب يأنفون من الركوع والسجود عبر بكل منهما عن الصلاة (فاسجدوا لله ... وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون) حثا لهم على الخضوع لله، وامتثال

(١) البقرة: ١٩٥.

(٢) الإسراء: ٢٩.

(٣) مريم: ٢٥، ٢٦.

(٤) الآيات بالترتيب: المزمل ١، ٢، العلق ١٩، الحجر: ٩٧، ٩٨، النجم: ٦٢، المرسلات: ٤٨.

أمره .. وفى مقام تسلية الرسول - ﷺ - والتسرية عنه، حيث كان يضيق صدره بما يقولون، وكان يلقى الأذى والعنت من الكفار، يأتى فى هذا المقام التعبير عن الصلاة بالسجود (كلا لا تطعه واسجد واقترب ... فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين) لأن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، حيث المناجاة والتضرع إليه بالدعاء .. أرأيت كيف كان الجزء المعبر به عن الصلاة مهما فى موضعه ومقصودا بالمعنى وكأنه هو الصلاة كلها فى ذلك الموضع؟ ..

٣- السببية: والمراد بها إطلاق السبب وإرادة المسبب، ويأتى ذلك فى المقامات التى تظهر فيها أهمية السبب، ويقوى ارتباطه بالمسبب، تأمل قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾[1] تجده قد عبر عن جزاء الاعتداء بقوله: (فاعتدوا) أي: عبر بالسبب وأراد المسبب، والتعبير بالسبب هنا وهو (الاعتداء) يبرز أهمية مجازاة الظالم، ويؤكد ضرورة التصدى له، وعدم التهاون معه، لأنه ينتهك حرمات المسلمين، ويعتدى على حرمة الشهر الحرام، ولنقرأ: ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ ﴾ ففى مثل هذا السياق لا يتأتى عفو، ولا تكون مسامحة، بل ينبغى درء الظالم وردع المعتدى، ولذا جعل عقابه اعتداء عليه، حيث عبر عن مجازاته على عدوانه بالاعتداء (فاعتدوا عليه).

وانظر إلى عدالة الإسلام فى قوله تعالى: ﴿ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ فعندما أمر عز وجل أن يتصدى المسلمون للظالم ويضربوا على يديه، ولا يتهاونوا معه، قيد ذلك بالمثلية (بمثل ما اعتدى عليكم) وأمر بالتقوى (واتقوا الله) وذلك حتى لا يمتد الردع ويتجاوز فيه الحد.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾[2] حيث عبر عن جزاء السيئة بأنه (سيئة مثلها) حثا على ردع الباغى والضرب على يديه وعدم التهاون معه حتى يقلع عن بغيه، فإن أقلع عن بغيه وجاء نادما، فعندئذ يكون العفو، وهذا - والله أعلم - معنى قوله تعالى عقب الحث على جزاء السيئة بالسيئة (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) أما إذا ظل

(١) البقرة: ١٩٤.
(٢) الشورى: ٤٠.

الباغى على بغيه وأصر على عدوانه، فلا ينبغى التهاون معه، بل ينبغى ردعه وأخذه بالشدة، وكما قيد الاعتداء فى الآية السابقة بقوله (بمثل ما اعتدى عليكم) قيدت السيئة هنا بقوله (مثلها) حتى لا يتجاوز العقاب الحد فينقلب عدوانا وظلما.

وتأمل قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾(١) تجد أن المراد بقوله (قدم صدق) المنزلة العالية والفضل العظيم، فعبر عن ذلك بالقدم، لأنها السبب الموصل إلى تلك المنزلة وإلى هذا الفضل.

وفى إيثار التعبير عن الفضل وبعد المنزلة بسببه الموصل إليه وهو (القدم) ثم إضافتها إلى الصدق) ما يدل على تمكن الذين آمنوا من الفضل والمرتبة العالية، فهى قدم صدق قد ثبتها الله تعالى كما ثبت أقدام المؤمنين يوم بدر، قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾(*)، وليست قدما تزل بعد أن ثبتت على الإسلام كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾(*).

يقول ابو السعود: " (أن لهم قدم صدق)، أي: سابقة ومنزلة رفيعة عند ربهم، وإنما عبر عنها بها إذ بها يحصل السبق والوصول إلى المنازل الرفيعة، كما يعبر عن النعمة باليد لأنها تعطى بها، وقيل: مقام صدق والوجه أن الوصول إلى المقام إنما يحصل بالقدم، وإضافتها إلى الصدق للدلالة على تحققها وثباتها، وللتنبيه على أن مدار نيل ما نالوه من المراتب العلية هو صدقهم فإن التصديق لا ينفك عن الصدق"(٢).

٤- المسببية: والمراد بها إطلاق المسبب وإرادة السبب، كما فى قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾(٣) فالأنعام لا تنزل من السماء، وإنما ينزل الماء الذى يكون به وجودها، أطلق المسبب

(١) يونس: ٢.

(*) الأنفال: ١١.

(*) النحل: ٩٤

(٢) تفسير أبى السعود ٤/ ١١٧.

(٣) الزمر: ٦.

(الأنعام) وأراد السبب وهو الماء الذى ينزله الله فينمو به النبات ويكون سبب وجود تلك الأنعام، ويدل التعبير بالمسبب فى الآية الكريمة على قوة السبب وشدة ارتباطه بالمسبب، فالذى أنزله الله ليس ماء توجد به تلك الأنعام، بل الأنعام ذاتها، وفى هذا ما يطمئن المؤمن ويجعل نظره دائما إلى السماء، ففيها رزقه ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾[1].

وكذا القول فى الآية الكريمة ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾[2] حيث أطلق (الرزق) على الغيث، والرزق مسبب عنه، وذلك للإشعار بقوة السبب، والدلالة على أن الله تعالى بيده الأمر كله، فأرزاق العباد بيده يقسمها كيف يشاء، وينزلها كما قدر وأراد ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾[3] وليس هذا تقليلا من شأن الأسباب، بل تعميقا للإيمان فى قلب المؤمن، ليكون نظره إلى السماء دائما، واستعانته برب السموات والأرض، رب العرش العظيم، ومن أجل هذا كان التعبير عن السحاب فى الآية الكريمة بالسماء، مجازا مرسلا علاقته المجاورة.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾[4]، فقد أطلق (النار) وأراد: الأموال التى يكون أكلها سببا فى دخول النار، أي: عبر المسبب وأراد السبب، وفى هذا التعبير ما يدل على التنفير والتفظيع والتبشيع، وعليك أن تتصور امرأ يلقم النار فيأكلها فتندلع إلى أمعائه وتتقد فى أحشائه، ذاك هو آكل أموال اليتامى ظلما، هذا جزاؤه فى الدنيا، وفى الآخرة (سيصلون سعيرا) وفى التعبير بالبطون تصوير للنيران وهى تتلظى وتتقد فى أجوافهم فتحرقها، ووراء هذا التصوير من التبشيع والتنفير ما ترى.

وخذ قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[5] تجد أن المعنى: فإذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله، فعبر بالقراءة وهى مسببة عن الإرادة

---

(١) الذاريات: ٢٢.
(٢) غافر: ١٣.
(٣) الشورى: ٢٧.
(٤) النساء: ١٠
(٥) النحل: ٩٨.

وتابعة لها، والدليل على ذلك تلك الفاء فى قوله (فاستعذ) فهى تدل على الترتيب، والاستعاذة ليست مرتبة على القراءة، بل سابقة لها، والقراءة هى التى تترتب عليها، فوجب أن يكون المراد بالقراءة إرادتها والعزم عليها.

والتعبير عن السبب (الإرادة والعزم) بالمسبب (القراءة) فى الآية الكريمة وراءه معنى دقيق وهو الحث على تحقيق الإرادة ووقوع العزم، حتى كأن القراءة قد وقعت وتحققت فقرئ القرآن فعلا عند العزم على القراءة وإرادتها ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[1]، إن العمل ينبغى أن يتحقق فور إرادته والعزم عله، لأن الإسلام لا يعرف التقاعد والتقاعس وأحلام اليقظة والأمانى الكاذبة، وإنما ينشد العمل الجاد والسعى الدءوب وعمارة الأرض، وهذا ما نراه وراء التعبير بالمسبب عن السبب فى الآية الكريمة.

٥- اعتبار ما كان: والمراد بهذه العلاقة أن يعبر عن الشيء بصفته التى كان عليها من قبل للدلالة على غرض من الأغراض ترجع الدلالة عليه إلى خصوصية فى تلك الصفة التى كان عليها، من ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾[2]، فإن الوصف بالإجرام إنما هو باعتبار ما كان عليه فى الدنيا، إذ لا يوصف أحد بالإجرام بعد الموت، ويدل هذا الوصف على أن المجرم يوم القيامة تبدو عليه آثار الذلة والمهانة والندم والتحسر، حيث يستشعر الإجرام الذى ظل عليه طوال حياته، وكان سببا فى هذا المصير الذى صار إليه.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ﴾[3]، فإن وصف من تدفع إليهم أموالهم باليتم إنما هو باعتبار ما كانوا عليه من قبل، لأن اليتيم لا يدفع إليه الوصى ماله إلا إذا بلغ مبلغ الرجال وصار رشيدا، فهو عندئذ لا يسمى يتيما إلا باعتبار ما كان عليه فى الماضى.

وإيثار التعبير عنهم بتلك الصفة (اليتامى) مع أن اليتم قد زال، يثير فى النفس مشاعر العطف والرحمة بهؤلاء، ويذكر بحرمانهم من عطف وحنان الأبوة، فلا يطمع طامع فى أموالهم، كما يدل على وجوب المبادرة بدفع مال اليتيم إليه بمجرد أن يأنس

(١) آل عمران: ١٥٩.
(٢) طه: ٧٤.
(٣) النساء: ٢.

الوصى منه رشدا ﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾[1] انظر إلى الفاء والتعبير بإن فى قوله (فإن آنستم) إن ذلك يدل على وجوب دفع الأموال إليهم فور إيناس الرشد بلا تباطؤ ولا توان، فلا ينتظر الوصى ويتريث بحجة أن يتحقق من رشدهم، وكأن صفة اليتم ما تزال عالقة بهم وقت دفع الأموال، لأنها تدفع إليهم عقب زوالها مباشرة.

٦- اعتبار ما سيكون: وذلك بأن يعبر عن الشيء باعتبار ما سيئول إليه لتحقيق غرض من الأغراض، تأمل قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾[2] تجده قد أطلق لفظ (الخمر) على الثمر الذى يعصر، لأن هذا الثمر يئول إلى خمر، ولعل هذا الإطلاق ينبه المؤمن ويلفته إلى رزق الله الحسن، وما ينبغى على المؤمن إزاءه، إن الواجب عليه أن يأكل منه حلالا طيبا، وألا يصيره إلى سكر، ويحوله إلى خمر تؤذى، فلما كان العصر مغيرا الثمرات ومحولا لها إلى خمر، سكت النظم الكريم عن ذكر الثمر الذى يعصر، وأطلق عليه اسم ما سيصير إليه إسراعا بالإفصاح عن الضرر الناجم عن الفعل، ليدرك المؤمن أن هذا العصر يجب ألا يكون، ولذا لعن - ﷺ - الخمر وشاربها وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومبتاعها وحاملها والمحمولة إليه، وجاء فى بيان أضرارها العديد من الأخبار، فهى مفسدة للعقل متلفة للمال، وهى أم الخبائث، وقد أتى تحريمها فى القرآن تدريجيا مرتبطا بالأحداث التى كشفت عن أضرارها ومخاطرها[3].

---

(١) النساء: ٦.

(٢) يوسف: ٣٦.

(٣) كان أول ما نزل فى الخمر قوله تعالى ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ النحل: ٦٧. ولما نزلت هذه الآية سئل - ﷺ - عن الخمر فقيل له "أفتنا فى شأن الخمر فإنها مذهبة للعقل متلفة للمال" فنزل قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ البقرة: ٢١٩. ثم نزل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ النساء: ٤٣. وذلك عندما صلى أحدهم بالناس وقد شرب الخمر، فأخطأ فى قراءة القرآن، ثم يشرب بعض الصحابة الخمر ويتناشدون شعرا فيه هجاء مما كان بين الأوس والخزرج قبل الإسلام، ويضرب أحدهم فتسيل دماؤه، فيهرعون إلى رسول الله - ﷺ - ويدعو عمر - رضى الله عنه - قائلا: (اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا)، وعندئذ ينزل التحريم القاطع للخمر فى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ المائدة: ٩٠، ٩١. انظر أسباب النزول ٤٩، ١١٣، ١٥٤.

وخذ قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾[1] فقد أطلق (فاجرا كافرا) على ما يلده الكفرة، والمولود لا يولد كذلك، بل يولد على الفطرة، فتسميته (فاجرا كفارا) باعتبار ما سيصير إليه عند بلوغه مبلغ الرجال، وهذا يشعر بأن نوحا ـ عليه السلام ـ قد يئس من إيمان قومه وضاق بهم ذرعا، فقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الإيمان بالله وهم يسخرون منه، ولم يؤمن معه إلا قليل، ولذا صار على يقين بأن من يخرج من أصلابهم سيكون مآله الكفر والفجور، لأن من يلده لن يتركه على فطرته التى ولد عليها، بل سيضله وسيفسد تلك الفطرة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾[2]، وقوله عز وجل: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾[3] حيث وصف الغلام بصفتي: (العلم والحلم) حين مولده، وهو لا يكون كذلك إلا بعد حين، ووراء المجاز فى الآيتين طمأنة إبراهيم ـ عليه السلام ـ بأن الغلام سيبلغ مبلغ الرجال، وأنه سيؤتى الحكمة ويكون عليما حليما، وتلك بشارة أخرى كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى حاجة إليها، لأن شأن من يولد له فى الكبر أن يظل مشغولا على من ولده، خائفا على مصيره من بعده.

٧- الحالية: وهى أن يطلق اسم الحال ويراد المحل .. تأمل الآيات الكريمة: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾... ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾... ﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[4] تجد أن أولئك المتقين الذين ابيضت وجوههم قد أدخلوا الجنة وحلوا بها، وأخذوا يستمتعون بنعيمها، ويتقلبون فى الظلال والعيون والفواكه، تتنزل عليهم رحمة الله، ففى الآيات مجاز مرسل علاقته الحالية، حيث أطلق الحال وأريد المحل، فالرحمة والنعيم يحلان بالجنة، وينبئ هذا المجاز بأن أولئك المتقين الذين ابيضت وجههم فى ذلك اليوم، قد

---

(١) نوح: ٢٦، ٢٧.

(٢) الذاريات: ٢٨.

(٣) الصافات: ١٠٠، ١٠١.

(٤) الآيات بالترتيب: آل عمران: ١٠٧، المرسلات ٤١، ٤٢، الأنبياء: ٧٥.

رضى الله عنهم ورضوا عنه، فأحاطت بهم الرحمة كما يحيط الظرف بمظروفه، وغشيهم النعيم فصاروا يتقلبون فيه ويستمتعون به.

٨- المحلية: وهى أن يطلق المحل ويراد الحال به .. انظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾[١] فقد عبر بالقرية وأريد أهلها الذين يحلون بها ويقيمون فيها، والغرض من ذلك الدلالة على انتشار خبر السرقة وذيوعه، وكذلك أطلقت (العير) وأريد أصحابها الذين يمتطون ظهورها، وهذا مجاز آخر علاقته المجاورة، وكلا المجازين يؤكد انتشار خبر السرقة وذيوعه بين الناس جميعا، فقد بلغ فى الشهرة مبلغا لو سئلت عنه الجمادات والحيوانات لأجابت عنه ونطقت به.

ويشعر هذا المجاز بحال إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ وحرصهم على أن يؤكدوا لأبيهم خبر السرقة، فقد أرسل معهم (بنيامين) بعد أن أعطوه موثقا ليعودن به إليه إلا أن يحاط بهم، أما وقد سرق ـ حسبما رأوا حيث أخرجت صواع الملك من وعائه أمامهم ـ فقد حالت هذه السرقة بينهم وبين الرجوع به إلى أبيهم، لأن جزاء السارق فى شريعتهم أن يؤخذ بسرقته، ولذا فليس أمامهم إلا أن يؤكدوا لأبيهم وقوع السرقة واشتهارها وعلم الناس جميعا بها، وهذا ما ينبئ به المجاز المرسل فى موضعيه من الآية الكريمة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾[٢] حيث أطلقت (الأفواه) وأريد الألسنة التى تحل بها، كما أطلقت (الصدور) وأريد ما تحل بها وهى القلوب، وكلا المجازين يصور شدة الغيظ الذى يملأ قلوب الحاقدين ويفيض على ألسنتهم، فهذا الغيظ قد ضاقت به قلوبهم وفاض منها فامتلأت به صدورهم، ثم بدا على ألسنتهم، بل بدا من أفواههم، وكأن اللسان يعجز عن حمل هذا الغيظ وينوء بتلك البغضاء لشدتها وضخامة حجمها.

٩- المجاورة: وهى أن يعبر بالشيء عما يجاوره، وذلك إذا كثر اقترانهما وقوى ارتباطهما، وأصبح الذهن يستحضر أحدهما عند ذكر الآخر، كما رأينا فى إطلاق العير وإرادة أصحابها الذى يمتطون ظهورها فى قوله (والعير التى أقبلنا فيها) فإن الاقتران

(١) يوسف: ٨٢.

(٢) آل عمران: ١١٨.

بين العير وأصحابها من الكثرة بمكان، والمجاورة بينهما قوية والارتباط وثيق، ولذا ساغ التعبير بالعير وإرادة أصحابها، وكما رأينا فى إطلاق السماء وإرادة السحاب فى قوله: (وينزل لكم من السماء رزقا).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾[1] حيث أطلقت (السماء) وأريد السحاب لمجاورتهما فى مرأى العين، وحضور السحاب فى الذهن عند ذكر السماء، ويوحى التعبير بالسماء عن السحاب بكثرته، وكأن السماء كلها قد أرسلت عليهم مدرارا، كما يذكر برحمة الله وعظيم فضله الذى يفيض به على من يستغفره ويؤمن به ويتوكل عليه.

١٠ - الآلية: وهى أن يعبر عن الشيء باسم آلته التى يحصل بها، كما فى قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾[2] إذ المراد: فأتوا به على مرأى من الناس، فعبر عن الرؤية بآلتها وهى (الأعين) وهذا يدل على شدة تغيظهم ورغبتهم فى أن يبصر الناس جميعاً ما ينزل به ـ عليه السلام ـ ويرونه رأى العين، فيكون ذلك زاجرا لهم عن التفكير فى مثله.

والتعبير بالحرف (على) فى قوله (على أعين الناس) يدل على أنهم قد جعلوه بمرأى منهم، وصار فى مكان مرتفع لا يكاد يخفى على أحد، وهذا ينبئ بتمكنهم من رؤيته وثبات ما يحدث له فى الأعين كما يتمكن الراكب من دابته ويثبت عليها، ففى التعبير استعارة تبعية فى الحرف (على) حيث شبه تمكنهم من رؤيته وثبات ما يحدث له فى الأعين بتمكن الراكب من دابته وثباته عليها، ثم استعير الحرف (على) الدال على التمكن والاستعلاء من المشبه به للمشبه.

يقول الزمخشري: " فإن قلت: فما معنى الاستعلاء فى (على)؟ قلت: هو وارد على طريق المثل، أي: يثبت إتيانه فى الأعين ويتمكن فيها ثبات الراكب على المركوب وتمكنه منه"[3].

---

(١) نوح: ١٠، ١١.

(٢) الأنبياء: ٦١.

(٣) الكشاف ٢/ ٥٧٧ .. والمراد بقوله: (هو وارد على طريق المثل): الاستعارة التبعية فى الحرف كما بينا.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾[1] حيث أطلق (اللسان) وأريد اللغة التى تؤدى به، وهذا ينبئ بوضوح الرسالات وجلائها، إذ الرسول ينطق بلسان قومه، وأرسل بهذا اللسان، فلا غموض ولا لبس فيما يقول، ولا حجة عندئذ لمن أعرض ونأى، لأنه يعرض عنادا وينأى تكبرا، بعد أن أدرك ما جاءت به الرسل، ووضح له الأمر..

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾[2].

فقد عبر باللسان وأريد الذكر الحسن، لأن هذا الذكر يؤدى باللسان ويحصل به، فهو آلته، ويشعر التعبير عن الذكر الحسن باللسان بأن ذلك الذكر يدوم ويبقى بعد ذهاب صاحبه، حيث تلهج به الألسنة ويظل يجرى عليها ما بقى لسان ينطق.

الكناية

قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴾ الحج: ١، ٢.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ ﴾ المنافقون: ٥

﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُ ﴾ المائدة: ٦٤.

﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴾ الفرقان: ٢٧.

﴿ نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ ﴾ البقرة: ٢٢٣.

﴿ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ المائدة: ٧٥.

---

(١) إبراهيم: ٤.
(٢) الشعراء: ٨٤.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ المدثر: ١ ـ ٤.

﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴾ التحريم: ١٢.

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ الزخرف: ١٧، ١٨.

﴿ وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ القمر: ١٣.

﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ النساء: ٤٣.

﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴾ الفيل: ٤، ٥.

الكناية ضرب من إخفاء المعانى وتخبئتها وراء روادفها لتحقيق أغراض يقصد إليها المتكلم، حيث يترك التصريح بالمعنى الذى يريده ويعمد إلى روادفه وتوابعه فيومئ بها إليه، فهى كما عرفها الإمام عبد القاهر: "أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى، فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة، ولكن يجئ إلى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود فيومئ به إليه، ويجعله دليلا عليه .."[1].

من ذلك تكنيتهم عن السفينة بابنة اليم، وعن الحية بابنة الرمل، وعن الحرب بأم قسطل، وعن القلب بموطن الأسرار وموضع الحقد ومجامع الأضغان، وعن الكرم والجود بكثرة الرماد وجبن الكلب وهزال الفصيل وبسط اليد، وعن البخل بقبض اليد وغلها إلى العنق، وعن الندم بعض الأنامل والسقوط فى الأيدى وتقليب الكفين، إلى غير ذلك مما ورد عن العرب من كنايات.

وترجع بلاغة الكناية إلى أنها بمثابة إقامة الدعوى مشفوعة بدليلها، فالمعنى إذا جاء مصحوبا بدليله كان أقوى تأثيرا وأشد إقناعا، ولذا قالوا: الكناية أبلغ من التصريح، وفسر ذلك الإمام عبد القاهر بقوله: "ليس المعنى إذا قلنا: (إن الكناية أبلغ من التصريح) أنك لما كنيت عن المعنى زدت فى ذاته، بل المعنى أنك زدت فى إثباته فجعلته

(١) دلائل الإعجاز: ١٠٥.

أبلغ وآكد وأشد، فليست المزية فى قولهم: (جم الرماد) أنه دل على قرى أكثر، بل أنك أثبت له القرى الكثير من وجه هو أبلغ وأوجبته إيجابا هو أشد، وادعيته دعوى أنت بها أنطق وبصحتها أوثق"(١).

هذا وتختلف الكناية عن المجاز فى أن قرينتها لا تمنع إرادة المعنى الأصلى للفظ الذى كنى به، ففى قولنا: فلان كثير الرماد، كناية عن كرمه وجوده، لا تمنع القرينة إرادة المعنى الأصلى، وهو كثرة الرماد عند فلان هذا وحول بيته، وأما المجاز فالقرينة فيه قرينة مانعة.

وذكر علماء البيان أن الكناية ثلاثة أنواع: كناية عن صفة كما فى قولهم: فلان جبان الكلب، وعض فلان أنامله، وقبض يده ... وكناية عن موصوف كما فى تكنيتهم عن الحية بابنة الرمل وعن السفية بابنة اليم وعن القلب بموطن الأسرار .. وكناية عن نسبة كما فى قول زياد الأعجم:

إن السماحة والمروءة والندى ... فى قبة ضربت على ابن الحشرج

حيث كنى عن نسبة هذه الصفات إلى ابن الحشرج وهو عبد الله بن الحشرج أمير نيسابور بجعلها فى قبة مضروبة عليه.

وقد كثرت الكناية فى النظم القرآنى الكريم فجاءت فيه الكناية عن الندم والتحسر فى صور كثيرة، والكناية عن الكرب والأهوال، والكناية عن الاستكبار والإعراض، والكناية عن الفيض والعطاء، وعن الشح والإمساك، والكناية عما يستقبح ذكره كالعذرة والبول والروث وقضاء الحاجة، وعما يستحيى التصريح به كالجماع، وعن العفة والطهر، إلى غير ذلك من الكنايات القرآنية.

تأمل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾(٢) تجد الآية الثانية كناية عن الكرب وشدة أهوال القيامة، وقد صورت تلك الكناية ذهول الناس،

---

(١) دلائل الإعجاز ١٠٩، ١١٠.

(٢) الحج: ١، ٢.

وتمكن الفزع من قلوبهم وأخذه منهم كل مأخذ، فالمرضعة تذهل عن رضيعها الذى ألقمته ثديها(*)، والحامل تضع حملها من شدة الفزع، لقد فقد الناس إدراكهم وسيطر عليهم الصمت والسكون، فتراهم سكارى، وما هم بسكارى، ولكنه الهول الشديد الذى أفقدهم الوعى والإدراك.

وتأتى الكناية عن الكرب والهول فى قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾[1] فنجد صورة أخرى تختلف عما فى الآية السابقة، إنها صورة فرار وحركة لا صمت وذهول، كلتا الصورتين كناية عن الكرب والهول، ولكنهما مختلفتان، فالناس فى الأولى سكارى أصابهم الذهول من هول المفاجأة، ففقدوا الوعى والإدراك، وذاك عند زلزلة الأرض ومباغتة الساعة (إن زلزلة الساعة شيء عظيم) .. وأما الصورة الثانية فهى صورة الناس عند مجئ الصاخة، لقد جعلهم الهول يفرون، كل قد شغل بنفسه، لا يلتفت إلى غيره ولا يعبأ به، نشعر فى هذه الصورة بعدم فقدان الوعى والإدراك، الذى رأيناه فى الصورة الأولى، والذى كان سببه مفاجأة الساعة، لأن الصورة هنا ـ فى سورة عبس ـ تبرز جانبا آخر، هو جانب الفرار من الآخرين، وانشغال كل إنسان بشأنه.

وتأتى الكناية عن الاستكبار والإعراض فى الآيات الكريمة: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾... ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾... ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾[2] فنجد أن حركة الرأس (اللى والإنغاض وتصعير الخد) قد كنى بها عن التكبر والإعراض، فإنغاض الرأس تحريكها إلى أعلى وإلى أسفل تكذيبا وإعراضا، ولى الرأس إمالتها من جانب إلى جانب تكبرا وإعراضا، وتصعير الخد إمالته وليه كبرا وتعاليا مأخوذ من (الصعر) وهو داء يصيب البعير يلوى منه العنق..

(*) يقال (مرضع) بدون التاء لمن شأنها الإرضاع وإن لم تباشره، ويقال: (مرضعة) بالتاء لمن ألقمت الرضيع ثديها مباشرة الإرضاع. انظر الفتوحات الإلهية ٣/ ١٥١.

(١) عبس: ٢٤ ـ ٢٧.

(٢) الآيات بالترتيب: المنافقون ٥، الإسراء: ٥١، لقمان ١٨.

ولا يخفى علينا ما وراء لى الرأس من تصوير شدة الإعراض والنفور، وما وراء تصعير الخد من تذكير بالصعر الذى يصيب البعير، فلعل هذا التذكير يكون زجرا للمتكبر، ومنفرا له من حركة التعالى والتكبر، التى تصور صاحبها وكأنه قد أصيب بهذا الداء، كما لا يخفى علينا ما وراء حركة الإنغاض من سخرية وتهكم .. إن الحركات الثلاث ـ كما نرى ـ كناية عن التكبر والإعراض، ولكن كل حركة تنفرد بخصوصية تجعلها تبرز جانبا لا تنهض بإبرازه الحركتان الأخريان..

فوراء (إنغاض الرءوس) وهو تحريكها إلى أعلى وإلى أسفل تكمن السخرية والاستهزاء وعدم المبالاة .. ووراء (لى الرءوس) وهو إمالتها من جانب إلى جانب يكمن الاستكبار والنفور .. ووراء (تصعير الخد) نرى الإعراض والتعالى على الناس كبرا وخيلاء.

ويكنى النظم الكريم عن الندم والتحسر بالعض على اليدين، والسقوط فى الأيدى، وتقليب الكفين، ولنقرأ: ﴿ **وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا** ﴾... ﴿ **وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ** ﴾... ﴿ **وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا** ﴾[1] إن الظالم يوم القيامة يشتد ندمه، ويقوى تحسره، ولا يجد ما يفرغ فيه غيظ الندم والتحسر إلا العض بأسنانه على كلتا يديه، والفعل (عض) يتعدى بنفسه، ولكنه عدى بالحرف (على) وكأن اليدين قد صارتا بداخل الفم وتحت الأضراس، فالأضراس تطحنها طحنا .. إن النادم يعض أنامله غيظا، قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ** ﴾[2] ولكن هذا الظالم لا يعض أنامله فحسب، بل يعض كلتا يديه، وهو لا يعضهما بل يعض عليهما، وهذا يشعر بشدة الندم والتحسر.

وعبدة العجل لما رأوا أنهم قد ضلوا اشتد ندمهم، وقالوا: (**لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين**) وتكنى الآية عن ندمهم بتلك الصورة (سقط فى أيديهم) لا

(١) الآيات بالترتيب: الفرقان ٢٧، الأعراف: ١٤٩، الكهف: ٤٢.
(٢) آل عمران: ١١٩.

نرى هنا عضا للأيدى، وإنما نرى رءوسا قد سقطت فيها، تريد أن تتوارى وتختفى من شدة الخزى والندم، وانظر إلى حذف الفاعل (الرءوس) وبناء الفعل (سقط) للمفعول، إن هذا الحذف يؤذن بما يريده النادمون من إسقاط رءوسهم فى أيديهم، فهم يريدون إخفاء تلك الرءوس، بل يريدون أن يختفوا هم ويتواروا عن الأعين لشدة ما أصابهم من الخزى والندم.

وصاحب الجنتين الذى طغى وتكبر، وتعالى على صاحبه قائلا: **(ما أظن أن تبيد هذه أبدا)** أحيط بثمره، فأصبح لا يرى شيئًا مما استغنى به بالأمس فطغى، وإنما يرى جنة خاوية على عروشها فأصابته الدهشة واشتد به الندم، ويصور النظم الكريم ندمه بقوله. **(فأصبح يقلب كفيه)** لقد أصابه الذهول، وأخذ من هول المفاجأة يقلب كفيه، وتلك صورة الندمان الذى أفقدته المفاجأة صوابه، وذهبت بوعيه وإدراكه، إنه يتذكر عندئذ كفره وطغيانه فيقول متمنيا: **(يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا)**..

وتأمل الكناية فى الآيات الكريمة: ﴿ **وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ** ﴾... ﴿ **ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ** ﴾... ﴿ **وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ** ﴾[(١)] فقد كنى عن البخل والإمساك بقبض اليد وبغلها إلى العنق، وكأن الإنسان الشحيح الممسك مطبق على يديه قابض عليهما يخشى أن يتفلت منه شيء فيصيبه الغم والحزن، إن نفسه قد امتلكته فلم يعد حرا، بل غلت يداه إلى عنقه، وأنى لمغلول اليد أن ينفق ويعطي؟.

كما كنى فى الآيات الكريمة عن الفيض والعطاء ببسط اليدأ وهذا يدل على غاية العطاء ونهاية الجود، إن اليد ممدودة مبسوطة، فمن أراد شيئا لا يسأل ولا يطلب، بل يغترف كيف يشاء ومتى يشاء .. واليهود لعنهم الله بما قالوا قد كنوا بقولهم: (يد الله مغلولة) عن الشح والإمساك، فرد عليهم بهذا الدعاء (غلت أيديهم) ثم كنى عز وجل عن فيض عطائه بقوله: (بل يداه مبسوطتان) وأوثر لفظ التثنية (يداه) للمبالغة فى العطاء، فيداه عز وجل مبسوطتان دائما، لا يمنع أحدا عطاءه.

---

(١) الآيات بالترتيب: الإسراء ٢٩، التوبة ٦٧، المائدة: ٦٤.

ولا يصرح النظم الكريم بما يستقبح ذكره، ولا بما يستحيى التصريح به، بل يكنى عن ذلك، تهذيبا للنفس، وإرشادا وتعليما، فنجده يكنى عن الروث والبول والعذرة وعن قضاء الحاجة، كما يكنى عن (الجماع) فى مواطن كثيرة بما لا يجد الرجل حرجا من ذكره أمام النساء، ولا تجد المرأة حرجا من ذكره أمام الرجال، فقد كنى عنه بالسر والملامسة والمباشرة والإفضاء والمس والرفث والإتيان والتغشية والدخول ولاستمتاع والقرب، وغير ذلك مما لا يخدش ذكره حياء، ولا يجد الناطق به حرجا.

ففى الآيات الكريمة: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾... ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾... ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾(١)، كنى بالمأكول عن الروث، فإن المراد تشبيههم بالعصف المأكول وهو التبن وأوراق الزرع الذى أكلته الدواب وراثته، ولم يصرح بلفظ (الروث) استهجانا للتصريح به، وتلك طريقة القرآن يكنى عما يستقبح ذكره ويستهجن(٢).

وكنى بقوله: (يأكلان الطعام) عما لابد لآكل الطعام من فعله وهو التبول والتبرز، ولا تمنع الكناية من إرادة المعنى الأصلى ـ كما ذكرنا ـ وفى هذا ردع للنصارى الذين اتخذوا عيسى وأمه إلهين من دون الله، فليس هو ـ عليه السلام ـ وأمه سوى بشرين، تجرى عليهما أحكام البشر وصفاتهم التى تبعدهما عما نسب إليهما.

يقول الزمخشري: "فما منزلتهما إلا منزلة بشرين أحدهما نبى والآخر صحابى، فمن أين اشتبه عليكم أمرهما حتى وصفتموهما بما لم يوصف به سائر الأنبياء وصحابتهم، مع أنه لا تمييز ولا تفاوت بينهما وبينهم بوجه من الوجوه، ثم صرح ببعدهما عما نسب إليهما فى قوله: (كانا يأكلان الطعام) لأن من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام وما يتبعه من الهضم والنفض، لم يكن إلا جسما مركبا من عظم ولحم وعروق وأعصاب وأخلاط وأمزجة مع شهوة وقرم، وغير ذلك مما يدل على أنه مصنوع مؤلف مدبر كغيره من الأجسام"(٣).

---

(١) الآيات بالترتيب: الفيل ٥، المائدة ٧٥، النساء: ٤٣.

(٢) انظر روح المعاني: ٣٠/ ٢٢٧.

(٣) الكشاف ١/ ٦٣٥، والقرم بفتح فسكون: الأكل، وبفتحتين: شدة الشهوة إلى اللحم، يقال: قرم إلى اللحم بكسر الراء أي: اشتهاه ثم كثر استعماله فى غير اللحم حتى قالوا: قرمت إلى لقائك، انظر لسان العرب مادة: قرم.

وكنى بقوله: (**أو جاء أحد منكم من الغائط**) عن قضاء الحاجة، فإن الغائط أصله ما انخفض من الأرض، وجمعه: غيطان وأغواط، وكانت العرب تقصد إلى تلك الأماكن المنخفضة لقضاء حاجتها تسترا عن أعين الناس، ولذا كنوا عن قضاء الحاجة بقولهم: ذهب إلى الغائط، أو جاء من الغائط[1].

لقد كنى بالتعبيرين الكريمين: (كانا يأكلان الطاعام .. أو جاء أحد منكم من الغائط) عن قضاء الحاجة، ترفعا عن ذكر ما يستقبح ويستهجن، وتجد كل تعبير منسجما فى سياقه متلائما مع المعنى المراد، فالسياق فى آية المائدة يبرز بشرية عيسى وأمه، وهذا يلائمه (كانا يأكلان الطعام) والسياق فى آية النساء لبيان موجبات الغسل والوضوء، والذى يلائم ذلك (أو جاء أحد منكم من الغائط) ولو رمنا وضع أحد التعبيرين مكان الآخر لوجدنا تجافيا ونبوا، فلا يتأتى أن يقال فى آية المائدة: كانا يجيئان من الغائط، كما لا يتأتى أن يقال فى آية النساء: أو أكل أحدكم الطعام، لأن هذا يتناقض مع المعنى الذى يبرزه السياق فى كل آية، فأكل الطعام لا يوجب الوضوء، وإنما يوجبه المجئ من الغائط، والدلالة على بشرية عيسى ومريم يلائمها أكل الطعام وما يترتب عليه، لا المجئ من الغائط، أرأيت مدى دقة النظم القرآنى، وكيف تنسجم الألفاظ المعبر بها فى سياقاتها وتتلاءم؟ ذلك هو القرآن المعجز ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾[2].

وكنى بقوله: (أو لامستم النساء) عن (الجماع) وقد كثرت الكناية عن (الجماع) فى النظم القرآنى، وتجد الكناية عنه فى كل موضع منسجمة مع المعنى الذى يبرزه السياق، فلما كان السياق هنا عن الوضوء والطهارة، جاءت الكناية عنه بالملامسة (أو لامستم) لتومئ إلى وجوب الاحتياط والتحرز، وضرورة التطهر إذا خولطت المرأة، ولو كانت المخالطة ملامسة، هذا تصوير الكناية وذاك إيحاؤها.

ويكنى عنه النظم الكريم (بالرفث وبالمباشرة وإتيان الحرث وابتغاء ما كتب الله وبالإفضاء والمس والسر والدخول والاستمتاع والقرب والتغشية) وتجد وراء كل كناية مغزى يلائم السياق الذى وردت به، فقد كنى عنه بالرفث عند تحريمه فى الحج وعند

---

(١) انظر تفسير القرطبى ٥/ ١٤٣.

(٢) النساء: ٨٢.

الإشارة إلى ما وقع منهم ليلة الصيام من اختيانهم أنفسهم، إذ حرم الله عليهم الطعام والنساء بعد صلاة العشاء فى بادئ الأمر، ثم أحل لهم ذلك إلى الفجر، كما تخبر الآية الكريمة .. ولنقرأ: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾... ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾[١] كنى عنه بالرفث فى هذين الموضعين، لأن الرفث أصله: الفحش من القول، وهذا يتلاءم مع حظره فى الحج، ويومئ إلى استهجان ما وقع منهم ليلة الصيام قبل إباحته، ولذا سماه اختيانا لأنفسهم.

يقول الزمخشري: "فإن قلت: لم كنى عنه ههنا بلفظ الرفث الدال على معنى القبح بخلاف قوله: (وقد أفضى بعضكم إلى بعض ... فلما تغشاها .. باشروهن .. أو لامستم النساء .. دخلتم بهن .. فأتوا حرثكم .. من قبل أن تمسوهن .. فما استمتعتم به منهن .. ولا تقربوهن ..) قلت: استهجانا لما وجد منهن قبل الإباحة، كما سماه اختيانا لأنفسهم"[٢].

ولذا كنى عنه بعد ذلك فى نفس الآية الكريمة بالمباشرة، وابتغاء ما كتب الله (فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم) كما كنى عنه بإتيان الحرث فى قوله تعالى: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾[٣]، وفى هذه الكنايات إيماء إلى الغاية السامية من قضاء الشهوة، إنها الإنجاب وتعمير الكون وابتغاء ما كتب الله، ولذا جعلت المرأة حرثا تنبت كما تنبت الأرض..

ويكنى عن تركه بالاعتزال وعدم الاقتراب، وذلك فى أثناء الحيض، قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾[٤] لأن الاعتزال وعدم الاقتراب هما اللذان يتلاءم

(١) الآيتان بالترتيب: البقرة ١٩٧، ١٨٧.
(٢) الكشاف ١/ ٣٣٨.
(٣) البقرة: ٢٢٣.
(٤) البقرة: ٢٢٢.

التعبير بهما عن تركه في أثناء المحيض لما فيه من الأذى لكلا الزوجين وللولد[1].

أما تركه في غير المحيض فقد كنى عنه بنفي المباشرة، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ﴾[2] إذ ليس فيه الأذى المشار إليه هناك، فعند ترتب الأذى أمر بالاعتزال ونهى عن الاقتراب، للدلالة على الحظر والمبالغة في المنع، وهنا نهى عن المباشرة فحسب، لأن الذي يترتب عليه فقدان ثواب الاعتكاف وهو سنة، لا أذى يصيب الزوجين والولد.

ويكنى عنه بالإفضاء في قوله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾[3]، والإفضاء مأخوذ من (الفضاء) وهو المكان الواسع، وقد حذف مفعول الفعل (أفضى) لتذهب النفس كل مذهب في تصور الإفضاء الذي يفضي به كل من الزوجين للآخر، وفي إيثار التعبير بالإفضاء وحذف مفعوله زجر للزوج الذي يستبدل زوجا مكان زوج ويطمع في أخذ ما آتى التي رغب عنها من مال، ولو كثر هذا المال الذي أمهره إياها، إن وراء هذه الكناية وحذف المفعول والاستفهام (وكيف تأخذونه)؟ إنكار شديد وردع قوي لمن يطمع في أخذ ما أعطى زوجه بعد تلك العشرة التي كانت بينهما .. ولا يتأتى هنا أن يكنى بالمباشرة أو اللمس أو الإتيان ونحو ذلك، لأن الذي يدل على التشابك والتداخل وتغلغل العلاقات بينهما إنما هو الإفضاء المكنى به..

وكنى عنه بالدخول في قوله تعالى: ﴿ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾[4] لأن المراد بيان

---

(١) الأذى الذي يصيب الرجل أن دم المحيض قد يتسرب إلى شواره ثم يحتبس فيه ويتعفن فيسبب بثورا وقروحا وأمراضا معضلة، والأذى الذي يصيب المرأة زيادة هيجان في الرحم يترتب عليه الوهن والضعف، أما أذى الولد فإن النطفة تختلط بدم الحيض وبالبويضة قبل إبان صلاحها للتخلق النافع الذي وقته بعد الجفاف، وقد قرر الطب أن الجنين المتكون في وقت الحيض يولد مجذوما، أو يصاب بالجذام فيما بعد..

انظر التحرير والتنوير ٢/ ٣٦٦.

(٢) البقرة: ١٨٧.

(٣) النساء: ٢١.

(٤) النساء: ٢٣.

ما يحرم الربيبة وهى ابنة المرأة المدخول بها، فإنها تحرم بالدخول بأمها، والبناء عليها، وضرب الحجاب وإدخالها الستر .. وقريب من هذا التكنية عنه بالاستمتاع فى قوله تعالى: ﴿ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾[1] فإن المراد تذكير الأزواج بنعمة الاستمتاع حتى تجود أنفسهم بالأجور وهى المهور التى دفعوها لأزواجهم، ويطيبوا بها نفسا، ولا يخفى علينا أن مجرد ضرب الحجاب على المرأة وإدخالها الستر يعد دخولا بها، وأم الاستمتاع فيمتد وقته ويطول زمنه، حتى تتحقق المتعة التى يدل عليها اللفظ (استمتعتم) وقد أوثر التعبير بالدخول فى الآية الأولى للدلالة على تحريم الربيبة بمجرد إدخال أمها الستر وإن قصر أمد هذا الدخول، وأوثر التعبير بالاستمتاع فى الآية الثانية ليهون على الرجل أمر المال الذى دفعه فتجود به نفسه، إلا أن تعفو أو يعفو الذى بيده عقد النكاح أي: وليها.

وجاءت الكناية عنه بالمس فى الآيات الكريمة: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ ... ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾... ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾... ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾[2] لقد كنى عنه بالمس فى هذه الآيات الكريمة، لأن المس أدنى درجات الاستمتاع بالمرأة، فهو ملائم لما ذكرته مريم، حيث استبعدت أن يكون لها ولد ولم يصبها من بشر أدنى درجاته وهو المس، وهو الملائم كذلك لبيان ما يجب للمرأة المطلقة وما يجب عليها، إن أدنى درجاته وهو (المس) يوجب لها الصداق كاملا، ويوجب عليها العدة، أما إذا انتفى هذا القدر منه، فلا عدة عليها، ولا صداق لها غير مفروض، فإن فرض فلها نصفه فقط، إلا أن تعفو أو يعفو وليها.

وكنى عنه بالسر فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَـٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾[3].

(١) النساء: ٢٤.
(٢) الآيات بالترتيب: البقرة ٢٣٦، ٢٣٧، الأحزاب: ٤٩، آل عمران: ٤٧.
(٣) البقرة: ٢٣٥.

يقول الزمخشري: "والسر وقع كناية عن النكاح الذى هو الوطء، لأنه مما يسر، قال الأعشى:

ولا تقربن جارة إن سرها   عليك حرام فانكحن أو تأبدا

ثم عبر به عن النكاح الذى هو العقد لأنه سبب فيه.."[1].

والكناية بالسر هنا تشعر بوجوب الإخفاء والكتمان، والابتعاد عن مواعدة المعتدة بالنكاح، فإنه لا يجوز إلا التعريض بالخطبة أو الإكنان فى النفس كما جاء فى الآية الكريمة.

وكنى عنه بالتغشية فى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ﴾[2] لأن الآية تخبر عن الالتقاء الأول بين الزوجين، فعبر عنه بالتغشية ليذكر بالملاطفة التى ينبغى أن تكون بين الزوجين عند التقائهما حتى ليبدو الالتقاء وكأنه ـ كما يقول صاحب الظلال ـ امتزاج طائفين لا التقاء جسدين، إيحاء للإنسان بالصورة الإنسانية فى المباشرة، وافتراقها عن الصورة الحيوانية الغليظة[3].

وبهذا يتجلى لنا أن النظم القرآنى قد كنى عما يستقبح ذكره ويستهجن، وعما يستحيى أن يصرح به، وقد جاءت التكنية عن ذلك متلائمة فى سياقها، منسجمة مع المعنى الذى يبرزه السياق، ولذا فإن قول من قال: إن المراد بالفرج فى قوله تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾[4] شوارها، أي: الفرج الحقيقى، قول ساقط، لأن القرآن قد تنزه عن ذكر ما يستقبح ويستهجن، وعن التصريح بما يستحيى أن يصرح به، فكنى عن ذلك ـ كما رينا ـ وانظر إلى تكنيته عن طلب الفاحشة فى قوله تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾[5] وإلى تكنيته عن السبابة بالأصبع فى قوله تعالى: ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ

---

(١) الكشاف ١/ ٣٧٣.

(٢) الأعراف: ١٨٩.

(٣) انظر فى ظلال القرآن ٣/ ١٤١٢.

(٤) التحريم: ١٢.

(٥) يوسف: ٢٣.

﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾[1] تحاشيا للتصريح بالفاحشة، وتجنبا لما تحمله السبابة من معنى السب والشتم.

أيتأتى بعد ذلك أن يقال: إن المراد بالفرج فى الآية الكريمة شوار مريم؟ ذاك قول ساقط وخطأ فاحش .. إن المراد بالفرج فى الآية: فرج القميص، وهى أربعة: الكمان والأعلى والأسفل، وقد كنى بقوله تعالى: (أحصنت فرجها) عن عفتها وطهارتها.

يقول الزركشي: (فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾[2] فصرح بالفرج؟ قلنا: أخطأ من توهم هنا الفرج الحقيقى، وإنما هو من لطيف الكنايات وأحسنها، وهى كناية عن فرج القميص، أي: لم يعلق ثوبها ريبة، فهى طاهرة الأثواب، وفروج القميص أربعة: الكمان والأعلى والأسفل، وليس المراد غير هذا، فإن القرآن أنزه معنى وألطف إشارة وأملح عبارة من أن يريد ما ذهب إليه وهم الجاهل، لا سيما والنفخ من روح القدس بأمر القدوس، فأضيف القدس إلى القدوس، ونزهت القانتة المطهرة عن الظن الكاذب والحدس"[3].

ومثله فى الكناية عن العفة والطهارة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[4] حيث كنى بقوله: (وثيابك فطهر) عن العفة وطهارة النفس، لأن من طهر باطنه وعفت نفسه عنى بتطهير ظاهره.

يقول الزمخشري: "يقال: فلان طاهر الثياب وطاهر الجيب والذيل والأرادن: إذا وصفوه بالنقاء من المعايب ومدانس الأخلاق، وفلان دنس الثياب للغادر، وذلك لأن الثوب يلابس الإنسان ويشتمل عليه، فكنى به عنه، ألا ترى إلى قولهم: أعجبنى زيد ثوبه كما يقولون: أعجبنى زيد عقله وخلقه، ويقولون: المجد فى ثوبه والكرم تحت حلته، ولأن الغالب أن من طهر باطنه ونقاه، عنى بتطهير الظاهر وتنقيته، وأبى إلا اجتناب الخبث وإيثار الطهر فى كل شيء"[5].

---

(١) البقرة: ١٩.

(٢) الأنبياء: ٩١.

(٣) البرهان ٢/ ٣٠٥، ٣٠٦ ز. وانظر القرطبى ١١/ ٢٢٤.

(٤) المدثر: ١ ـ ٤.

(٥) الكشاف ٤/ ١٨١.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾[1] كنى عن السفينة التي نجى الله بها نوحا بحمله عليها هو ومن آمن معه، بذات الألواح والدسر، وتشعر هذه الكناية بعظم النعمة، وكمال قدرة الله تعالى، فسفينة ضعيفة كهذه (ذات ألواح ودسر) لا تقوى على مقاومة الطوفان لولا قدرة الله وعنايته (تجرى بأعيننا) فهي التي أجرتها، ونجا نوح ومن آمن معه بفضل الله وقدرته.

ومثله فيما دلت فيه الكناية على ضعف المكنى عنه قوله تعالى: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾[2] حيث كنى عن الإناث بالتنشئة في الحلية، وعدم الإبانة في الخصام، وقد جعل المشركون الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا، ونسبوهم إلى الله ـ تعالى عما يقولون علوا كبيرا، وقاتلهم الله أنى يؤفكون ـ لقد تجرأوا على عباد الرحمن، ونسبوا إلى الله تعالى ما يحقرونه لأنفسهم، إن أحدهم إذا بشر بالأنثى ظل وجهه مسودا، وأصابه الهم والحزن، وأخذ يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، هذا الذي حقروه، واعتقدوا ضعفه، وكرهوا أن ينسب إليهم نسبوه إلى الله تعالى، وجعلوا الملائكة إياه، وتوحي تلك الكناية بإنكار ما وصفوا واستبشاع ما اعتقدوا، ولذا جاء توبيخهم وتوعدهم في مواطن كثيرة .. ولنقرأ: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾... ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾[3].

فالاستفهام في هذه الآيات الكريمة للتبكيت والإنكار التكذيبي، وفيه وعيد شديد لأولئك الكفار حيث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ونسبوهم إلى الله تعالى، وذلك تجرؤ على الله وعلى ملائكته، قاتلهم الله أنى يؤفكون، ولهم الويل مما يصفون.

بين الكناية والتعريض

التعريض معنى يفهم من عرض اكلام وجانبه، ومنه التعريض بالخطبة، قال تعالى: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ ﴾[4] وذلك بأن يقول لها: إنك

(١) القمر: ١٣.
(٢) الزخرف: ١٨.
(٣) الآيات بالترتيب: الصافات ١٤٩، ١٥٠، الزخرف ١٩.
(٤) البقرة: ٢٣٥.

لجميلة وصالحة، ولعل الله يرزقك زوجا صالحا، وإني لفي حاجة إلى امرأة صالحة، ونحو ذلك.

وأما الكناية فيدل عليها اللفظ، حيث يعبر عن المعنى بردفه وتابعه، يقول الزمخشري: "فإن قلت: أي فرق بين الكناية والتعريض؟ قلت: الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له، كقولك: طويل النجاد والحمائل لطول القامة، وكثير الرماد للمضياف، والتعريض أن تذكر شيئا تدل به على شيء لم تذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتك لأسلم عليك ولأنظر إلى وجهك الكريم، ولذا قالوا: (وحسبك بالتسليم مني تقاضيا)، وكأنه إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض، ويسمى التلويح، لأنه يلوح منه ما يريده"[١].

ففي قوله تعالى: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾[٢] تعريض بعدم عبادة قومه لله الذي فطرهم، بدليل قوله تعالى: (وإليه ترجعون) فهو يريد نصح قومه، ولكنه تعجب من حاله وعدم عبادته، وأبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه تلطفا بهم ومداراة، حيث أسمعهم الحق على وجه يمنع غضبهم، ولم يصرح بنسبتهم إلى الضلال والباطل، وفي هذا ما يعين على قبول الحق، لأنه أدخل في إمحاض النصح، إذ لم يرد لهم إلا ما أراده لنفسه[٣].

ومثله قوله تعالى: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾[٤] حيث عرض بضلالهم واتخاذهم تلك الآلهة التي لا تغني عنهم شيئًا، وقد نسب الضلال إلى نفسه والاتخاذ، واستفهم عن الاتخاذ منكرا وقوعه منه، تلطفا بهم - كما بينا في الآية السابقة - واستمالة لهم وترغيبا في الحق.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾[٥] حيث

(١) الكشاف ١/ ٣٧٢.
(٢) يس: ٢٢.
(٣) انظر الإتقان ٣/ ١٤٧.
(٤) يس: ٢٣، ٢٤.
(٥) سبأ: ٢٤.

عرض بضلال الكفار ولم يصرح بأى الفريقين على هدى وأيهما فى ضلال مبين، وفى هذا التعريض ترغيب لهم فى الهدى، وتلطف بهم، فهو كما قالوا ضرب من إنصاف الخصم، حيث لم يواجه بضلاله، ولكنه إذا رجع إلى عقله وتدبر، أدرك أنه الفريق الضال، وعلم أنه ألزم الحجة، ولذا كان التعريض أوقع من التصريح وأبلغ.

يقول الزمخشري: "وهذا من الكلام المنصف الذى كل من سمعه من موال أو مناف قال لمن خوطب به، قد أنصفك صاحبك، وفى درجه بعد تقدمه ما قدم من التقرير البليغ دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على هدى ومن هو فى الضلال المبين، ولكن التعريض والتورية أفضل بالمجادل إلى الغرض وأهجم به على الغلبة مع قلة شغب الخصم وفل شوكته بالهوينا ، ونحوه قول الرجل لصاحبه: علم الله الصادق منى ومنك ، وأن أحدنا لكاذب، ومنه بيت حسان:

أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء"[1]

ومنه قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[2] حيث أثبت التذكر لأولى الألباب وقصر عليهم، وهذا من الوضوح بمكان، فهو لا يخفى على أحد، ولكن وراءه التعريض بأولئك الذين لم يستجيبوا للحق، لأنهم لو كانوا من الذين يعلقون ما ترددوا فى قبول الحق والاستجابة له، فمن يطمع فى استجابتهم وتذكرهم يكون كمن يطمع فى ذلك من غير أولى الألباب.

وقد مر بنا فى باب القصر أن أجمل مواقع (إنما) عندما تأتى للتعريض، كما فى الآية الكريمة، وذلك لأنها تستعمل فى المعانى الواضحة التى لا يجهلها المخاطب، وهذا هو سبب حسن التعريض بها.

انظر إلى الآيات الكريمة: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ﴾... ﴿ إِنَّمَا

(١) الكشاف ٣/ ٢٨٩، والبيت لحسان بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ يرد به على من هجا النبى صلى الله عليه وسلم، وقبله:

هجوت محمدا فأجبت عنه وعند الله فى ذاك الجزاء.

(٢) الرعد: ١٩.

﴿ يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾... ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾[1] فإن وراء قصر الإنذار على من يخشون، والاستجابة على من يسمعون، تعريض بأن الذين لا يخشون ربهم ولا يخافون الساعة لا يستحقون الإنذار، لأن إنذارهم لا يجدى ولا يثمر، فهم قوم لا يسمعون، وإنما يستجيب من يسمع ويعقل، ووراء ذلك من الذم والتوبيخ لهم ما لا يخفى.

وفى قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾[2] الراجح من أقوال المفسرين أن هذا من كلام يوسف ـ عليه السلام ـ وأنه تعريض بامرأة العزيز فى خيانتها أمانة زوجها، وبالعزيز فى خيانته أمانة الله تعالى، حين ساعدها بعد ظهور الآيات ورؤية الشواهد التى تشهد ببراءته ـ عليه السلام ـ على حبسه وإيداعه السجن حتى حين[3].

وانظر فى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[4]، تجد فى ختام الآية الكريمة بقوله تعالى: (والله لا يهدى القوم الكافرين) تعريضا بالذين ينفقون أموالهم منا وأذى، ويراءون الناس فى إنفاقهم، فإن كلا من المن والأذى والرياء من صفات الكفار، وفى هذا التعريض حث للمؤمنين وتنبيه لهم إلى وجوب تجنب هذه الصفات التى تبطل صدقاتهم، وأن يكونوا عنها بمنأى ومعزل[5].

وخذ قوله تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾[6] إنه تعريض بالكفرة حيث عبدوا أصناما لا تنفع ولا تضر، بل لا تستطيع أن تدفع عن نفسها شيئا، ولا تجيب

---

(١) الآيات بالترتيب: فاطر ١٨، الأنعام: ٣٦، النازعات: ٤٥.

(٢) يوسف: ٥٢.

(٣) انظر الكشاف ٢/ ٣٢٧.

(٤) البقرة: ٢٦٤.

(٥) انظر روح المعانى ٣/ ٣٥.

(٦) الأنبياء: ٦٣.

أحدا، ولذا أعقب التعريض بتلك السخرية (فاسألوهم إن كانوا ينطقون) ولا يخفى علينا ما وراء ذلك من تهكم وتسفيه لعقولهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾[1] ففيه تعريض بالوائدين الذين قتلوا البنات بلا موجب لقتلهن، وفى ذلك ما لا يخفى من التبكيت والإهانة.

ومثله قوله تعالى: ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[2] ففيه تعريض بالنصارى الذين اتخذوا عيسى ـ عليه السلام ـ وأمه إلهين من دون الله، ولا يخفى علينا ما وراء هذا التعريض من الإهانة والتوبيخ لهم..

واقرأ قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾[3]، وقوله عز وجل: ﴿ قَدْ جِئْنَـٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾[4] تجد فى الآيتين تعريضا بأن اللعن والعذاب على الكفار وأعداء الله، وبيان ذلك أن اللام فى قوله: (والسلام) للاستغراق، فإذا قال عيسى ـ عليه السلام ـ (والسلام على) فكأنه قال: وكل السلام على وعلى أتباعى خاصة، وفى هذا تعريض بأن ضد السلام وهو اللعن والعذاب على من اتهموا مريم بالبغاء.

وكذا القول فى الآية الثانية، ففيها تعريض بأن اللعنة والعذاب على من كذب وتولى، ولم يتبع هدى الله الذى جاءت به الرسل، ولا يخفى علينا عند النظر فى سياق الآية الكريمة أن المقام مقام لجاج وعناد، وإنكار للحق، وإعراض عن الهدى والبينات، فهو مقام يليق به مثل هذا التعريض[5].

وبهذا يتجلى لنا أن وراء التعريض فى النظم القرآنى معانى كثيرة، كالذم والإهانة

---

(١) التكوير: ٨، ٩.

(٢) المائدة: ١١٦.

(٣) مريم: ٣٣.

(٤) طه: ٤٧.

(٥) انظر الكشاف ٢/٥٠٨، وتفسير الفخر الرازى ٢١/٢١٧ .. وقد مر بنا عند الحديث عن الآية الأولى (والسلام على) فى الباب الأول (لكل مقام مقال) جواز أن تكون (أل) فى الآية الكريمة للعهد، وأوضحنا المعنى على ذلك هناك، وقلنا إن الأرجح أنها للاستغراق .. ارجع إلى ص ١٥.

والتوبيخ والتبكيت واستدراج الخصم وإنصافه والتطلف به واستمالة الضال وترغيبه فى الحق .. إلى غير ذلك من المعانى الكامنة وراء التعريض فى النظم الكريم.

ألوان من البديع

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤].

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [القصص: ٧٣].

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ [النجم: ٤٣-٤٦].

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ١٢].

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩].

﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ [الأعلى: ٩-١٣].

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [الزمر: ٩].

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ

أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ [الإسراء: ٢٣].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الحج: ٥].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ٨-٩].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ [فاطر: ٢٧].

﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة: ٨٢].

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٥-١٠].

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن: ١-٦].

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٠٩].

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨].

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٨-٢٩].

﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٨-٢٩].

﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [يونس: ١٩].

﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ [يونس: ١٠٢].

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٨٧].

﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٢٧].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٠].

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٤٦].

﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشورى: ٤٠].

﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٤].

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ [سبأ: ١٥-١٦].

﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٧-١٣٨].

﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت: ٢٨].

﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٧-١٤٨].

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ [المائدة: ٣٣].

﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١].

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٢].

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ [الرعد: ١٢].

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠].

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٤-٦].

﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢].

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ۝١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٥-١٠٨].

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٧-١٨].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧].

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦].

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ

مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ۝٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ [البروج: ٤-٨].

﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ﴾ [النبأ: ٢٤-٢٥].

﴿ فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ﴾ [الحاقة: ٣٥-٣٦].

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ۝٢١ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢١-٢٢].

﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ﴾ [الروم: ٥٥].

﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ﴾ [الهمزة: ١-٢].

﴿ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴾ [النمل: ٢٢].

﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ﴾ [غافر: ٧٥].

﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات: ٦-٨].

﴿ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴾ [القيامة: ٢٩-٣٠].

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ۝٧٢ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴾ [الصافات: ٧٢].

﴿ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴾ [طه: ٩٤].

﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

﴿ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ

لِيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء: ٧٥-٨١].

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧].

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧].

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨-٨٩].

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧-١٨٨].

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣١].

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ [العاديات: ١-٣].

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١-٢].

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣-١٤].

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣-١٤].

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ [الغاشية: ١٣-١٦].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ۝٨٣ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ [مريم: ٨٣-٨٤].

﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [نوح: ١٠].

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ [الضحى: ٩-١٠].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١-٢٠٢].

* * *

"علم البديع": هو العلم الثالث من علوم البلاغة، فهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال ووضوح الدلالة[١].. والمطابقة لمقتضى الحال تكفل بها علم المعانى، فهو علم يعرف به أحوال اللفظ العربى التى يطابق بها مقتضى الحال[٢].. ووضوح الدلالة تكفل بها علم البيان، فهو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه[٣]..

(١) انظر تلخيص المفتاح ٣١٥.
(٢) انظر الإيضاح ١/ ٣٥.
(٣) نفس المصدر ٣/ ٢.

هذا ما استقرت عليه مسائل البلاغة، أصابها هذا التقسيم لدى المتأخرين[1]، وكانت نظرتهم لألوان البديع أنها ألوان تأتى لمجرد الزينة وتحسين الكلام، وقد قسموها إلى محسنات معنوية يصيب التحسين فيها المعنى أولا وأصالة، ثم يتبعه تحسين اللفظ عرضا، ومحسنات لفظية يصيب التحسين فيها اللفظ أولا وبالأصالة، ثم يتبعه تحسين المعنى عرضا، ووضعوا علامة يميزون بها بين القسمين، وهى أنه إذا استبدل باللفظ مرادفه بقى المحسن المعنوى، فبين "أقبل وأدبر" طباق وهو محسن معنوى، لو استبدنا "بأقبل": جاء، أو "بأدبر": ذهب، فقلنا "جاء وأدبر" أو "أقبل وذهب" ظل الطباق باقيا، ولكنَّ المحسن اللفظى لا يبقى عند هذا الاستبدال فبين: "قال" و"قال" فى نحو قولنا: "قال فلان عندنا فقال لنا" محسن لفظى هو "الجناس" إذ "قال" الأولى من القيلولة، و"قال" الثانية من القول، ولو استبدنا بأحد اللفظين مرادفه، فقلنا "استراح فلان عندنا فقال لنا"، أو "قال فلان عندنا فحدثنا" فإن الجناس لا يبقى عند هذا الاستبدال بل يزول.

ونظرة المتأخرين هذه نظرة غير سديد للأسباب الآتية:

أولًا: أنه لا يمكن الفصل بين اللفظ والمعنى فى مناط المزايا، فما حسن لفظه حسن معناه، وما حسن معناه حسن لفظه، وإذا ساء أحدهما ساء الآخر، وقد يكون المعنى جيدا ولا يلتفت لجودته حيث عبر عنه بلفظ سيء، فسوء أحدهما ينعكس على الآخر، وحسنه كذلك، ولا يتأتى الفصل بينهما.

ثانيا: هذه النظرة لا نجدها عند المتقدمين، فقد كانت نظرتهم إلى مسائل البلاغة وألوانها نظرة لا تعرف تقسيما ولا تفرقة، فالبلاغة تأتى عندهم مرادفة للفصاحة والبراعة والبيان والبديع، مناط المزايا وأسباب الحسن لا تعرف عندهم تقسيما، فهذا التقسيم لا نجده إلا لدى المتأخرين الذين قسموا البلاغة إلى معان وبيان وبديع.

ثالثًا: أن ألوان البديع لا تأتى لمجرد الزينة وتحسين الكلام فحسب، بل إن تحسينها الكلام تحسين ذاتى يقتضيه المقام ويدعو إليه الحال، وليس تحسينا عرضيا يأتى بعد تمام

(١) المراد بالمتأخرين: السكاكى رحمه الله وتبعه الخطيب القزوينى وشراح التلخيص.

المطابقة ووضوح الدلالة، وقد رأى هذا الرأى كثير من علماء البلاغة المتأخرين والمحدثين، يقول بهاء الدين السبكى صاحب عروس الأفراح: "والحق الذى لا ينازع فيه منصف أن البديع لا يشترط فيه التطبيق، ولا وضوح الدلالة، وأن كل واحد من تطبيق الكلام على مقتضى الحال، ومن الإيراد بطرق مختلفة ومن وجوه التحسين قد يوجد دون الآخرين"[(١)].

ويقول الدكتور أحمد موسى صاحب الصبغ البديعي: "إن تعريف بلاغة الكلام الذى ذكره الخطيب بقوله: "هى مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، شامل لهذه الأصباغ ـ يقصد ألوان البديع ـ مع التوسع فى مفهوم الحال بجعله أعم مما ذكروه، حتى ينطبق على أحوال البديع، فإذا اقتضى الحال طباقا أو تقسيما أو مزاوجة أو غير ذلك، كان الكلام المشتمل عليها مطابقا لمقتضى الحال، وخلوه منها غير مطابق، فيكون فى الأول بليغا وفى الثانى على خلافة، وذلك أمر تقره الفطرة"[(٢)].

وسيتجلى لنا من خلال النظر فى آيات الذكر الحكيم ودراسة ألوان بديعية متنوعة فى الآيات الكريمة التى سنعرض لها ـ سيتجلى لنا ـ أن الحسن البديعى فى تلك الآيات حسن ذاتى، اقتضاه المقام واستدعاه الحال، وأن هذه الألوان لها أثر بالغ وواضح فى تثبيت المعانى وتقريرها وإيضاحها.

وهذا يجعلنا نقول ونرى أنه لا يتأتى الفصل بين مسائل البلاغة، وتمييزها إلى مسائل تدرس فى علم المعانى وأخرى فى علم البيان وثالثة فى علم البديع، فالاستعارة وهى من مسائل البيان لا تحسن إلا إذا اقتضاها المقام، وكذا التشبيه والكناية والتعريض، والطباق لون من ألوان البديع لا يحسن إلا إذا اقتضاه المقام، وكذا الجناس والتورية والتقسيم واللف والنشر وغيرها من ألوان البديع، فشأن مسائل البيان وألوان البديع شأن مسائل المعانى من حذف وذكر وتقديم وتأخير وتنكير وتعريف وقصر وغيرها.. يقتضيها المقام فتحسن وتلطف، لا تحسن فى التراكيب إلا إذا اقتضاها المقام واستدعاها الحال.

(١) عروس الأفراح جـ٤ ص٢٨٤.

(٢) الصبغ البديع ٥٠٧.

ومن يدرس لونا من ألوان البلاغة، وليكن هذا اللون الاستعارة مثلا من مسائل البيان، أو الطباق من ألوان البديع ـ من يدرس هذه الألوان دراسة تطبيقية مستقصية ـ لا يقف عند اللون يشخصه ويبين كيفية تصويره فحسب، بل يتجاوز ذلك إلى ما فى السياق من خصائص للتراكيب ودلالات للمعانى، ومزايا للألوان البلاغية الأخرى، هذا الذى يكمن فى السياق، لابد من تجليته وإبرازه، لأن بتجليته تتجلى الاستعارة التى يدرسها الدارس، ويتجلى الطباق الذى يتتبعه، يبرز ما وراء الاستعارة من حسن تصوير ومن أغراض يقصدها المصور، ويبرز ما وراء الطباق من جمال وحسن اقتضاء المقام، من خلال الوقوف على ما فى التراكيب وسياقاتها من خصائص وأسرار بلاغية، ولذا نقرر بأنه لا يتأتى التمييز والفصل بين ألوان البلاغة ومسائلها، فلا يمكن أن تكون مسائل البيان بمعزل عن مسائل المعانى ، ولا يمكن أن تكون ألوان البديع بمنأى عن مسائل البيان ومسائل المعانى، وكل يقتضيه المقام، ويستدعيه الحال، ويكون له من الأسرار والمزايا والأغراض، ما لا يخفى على المتأمل، الذى ينعم النظر، فيدرك ما وراء مسائل البلاغة فى علومها الثلاثة من وشائج وروابط وصلات لا يمكن تقطيعها.

الطباق

يقوم الطباق على الجمع بين المعانى المتقابلة بالتضاد، كالتقابل بين البياض والسواد، أو بالتناقض كالتقابل بين الحياة والموت، فالمتناقضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، والمتضادان لا يجتمعان وقد يرتفعان.. وعندما يجمع بين المعنى وما يقابله بالتضاد أو التناقض، يكون الحسن، وتبرز الأشياء، وتتأكد المعانى، وتجد لها إلى الوجدان،سبيلًا، فتثبت ويقر قرارها، فالضد يظهر حسنه الضد، وبضدها تتميز الأشياء، ويبدو تأثيرها، على نحو ما سنرى فى الآيات الكريمة.

قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾(١).

نجد فى الآية الكريمة التضاد بين "الكسب" و"الاكتساب" فالكسب ينفع النفس

(١) سورة البقرة آية ٢٨٦.

وينجيها فهو لها، والاكتساب يضرها ويشقيها فهو عليها، وكل منهما فى وسع النفس وطاقتها، لأن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها.. ولما كان الكسب نفعا للنفس والاكتساب ضارًا لها، عبر مع الكسب باللام: "لها" ففى اللام معنى المنفعة، وعبر مع الاكتساب بعلى: "وعليها" ففى "على" معنى المضرة، إن الجمع بين الضدين قد أظهر ما يفيد النفس وما يضرها، وأكده لديها، وحثها على أن تحرص على ما يفيدها وينفعها، فالله لا يكلف نفسا إلا وسعها، وإذا كان ما ينفع النفس فى وسعها، فلتحرص عليه، ولتنأ عما يضرها ويوردها موارد الهلاك.

يتجلى لنا بهذا أن الطباق لا يتأتى لمجرد الزينة، والزخرفة الشكلية العرضية، فقد اقتضاه المقام فى الآية الكريمة ليثبت المعنى ويقرره ويؤكده، وهذا شأن سائر ألوان البديع، يقتضيها المقام ويستدعيها الحال، وينادى عليها معنى السياق، وليست لمجرد الزينة الشكلية.

ولنقرأ الآيات الكريمة: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾... ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾... ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾[(١)].. نجد فى آية سبأ الطباق بين السموات والأرض، وهما موطن رزق العباد، فى السماء الرزق، وفى الأرض المسعى، والمشى فى مناكبها أخذا بالأسباب، قال تعالى: ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾[(٢)]، وقال عز قائلا: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾[(٣)]. وقد أبرز الطباق بين السموات والأرض أن ما فيهما ومن فيهما لله الرازق الوهاب، يرزق من السماء ومن الأرض، فى السماء الرزق، والأرض مذللة، وفى هذا حث على شكر النعمة وعدم كفرها، ففى الشكر الزيادة وفى الكفر والجحود العذاب الشديد، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ

(١) الآيات بالترتيب: سبأ ٢٤، والقصص ٧٣، والنجم ٤٣-٤٦.
(٢) الذاريات ٢٢.
(٣) الملك ١٥.

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾[1] ومن يشكر نعمة ربه يقبل هداه، ويرقى به ويعلو، ومن يكفر نعمته يهوى فى الضلال، وينغمس فيه، فلا يبصر شيئا، ولا يعرف لنفسه غاية، وهذا ما نجده فى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ فبين "الهدى" و"الضلال" طباق، وبين "على" و"في" طباق، وقد أبرز الطباقان مكانة كل وأكداها، وصرنا بهما نرى الشاكر المهتدى وقد اعتلى، فصار ينظر إلى الأشياء من علٍ فيبصرها، ويمضى مهتديا على منهج الله، بينما الكافر الجاحد نراه قد ضل وهوى، وانغمس فى الضلال، فصار لا يبصر خيرا، ولا يرى نورا، ولا يدرى لنفسه غاية، ولا يعرف طريقا.

وفى آية سورة القصص تتجلى رحمه الله تعالى فى أن جعل الزمان ليلا ونهارا، ونجد هذا الطباق بين الليل والنهار، يتلوه الطباق بين السكن والابتغاء من فضل الله، وتلك هى الحكمة من جعل الزمان ليلا ونهارا، ليسكن المرء ليلا، ويبتغى من فضل ربه نهارا، ويلاحظ أن السكون لم يقابل بالحركة وإنما قوبل بما يتعلق بها وهو الابتغاء من فضل الله، ويسمى هذا بالطباق الخفى وهو أن يجمع بين أمر، وما يتعلق بمقابله[2].

والسر البلاغى وراء العدول عن الحركة إلى ما يتعلق بها: الإيحاء بأن حركة الإنسان ينبغى أن تكون حركة إصلاح وخير، فالحركة نوعان: حركة إفساد يفسد بها المتحرك فى الأرض، ويهلك الحرث والنسل، وحركة إصلاح يبتغى فيها العبد من فضل الله ويشرى نفسه ابتغاء مرضاته.

وقد جاءت الآية فى سياق تجلى فيه أن الزمان لا يستقيم إلا بأن يكون ليلا ونهارًا قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[3]. وبعد أن وقف القارئ على ذلك وأدرك أن الزمان قد استقام بأن

(١) إبراهيم ٧.
(٢) انظر الإيضاح جـ٤ ص١١، ١٢.
(٣) القصص ٧١، ٧٢.

جعله الله ليلا ونهارًا، تأتى الآية موضع الدراسة لتبين أن رحمة الله تعالى قد تجلت فى جعله الزمان ليلا ونهارًا، ولتبين ما ينبغى أن يكون عليه الناس إزاء تلك الرحمة، من التحرك نحو الخير دائما، ابتغاء من فضل الله، وهذا يكون نهارا، ومن السكون والراحة، وذا يكون ليلا.

وفى آيات سورة النجم تأتى هذه المعانى المتضادة: أضحك وأبكى، أمات وأحيا، خلق الزوجين الذكر والأنثى، تأتى مسندة إلى الله عز وجل دالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، فهو وحده العزيز القهار الذى إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، ومن ذا الذى يستطيع الإضحاك والإبكاء، والإماتة والإحياء، وخلق الزوجين الذكر والأنثى إلا هو سبحانه وتعالى، مالك الملك، وخالق الخلق، ومدبر كل أمر، بديع السموات والأرض.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(1).. حيث جمعت الآيتان بين هذه الأفعال المتضادة: "تؤتى الملك وتنزع الملك.. تعز من تشاء وتذل من تشاء" كما جمعت بين هذه الأسماء المتضادة: "الليل والنهار" و"الحى والميت".. جمعت بين هذه المعانى المتضادة مسندة إلى الله تعالى، ويبرز هذا الجمع كمال قدرة الله تعالى وعظيم سلطانه، فهو الذى يستطيع أن يؤتى الملك من يشاء من عباده وينزعه ممن يشاء لا راد لمشيئته، وهو الذى يستطيع أن يعز من يشاء وأن يذل من شاء، دون ما اعتبار لمقاييس البشر.. ونلاحظ فى الآيتين التدرج فى إبراز القدرة، فإذا كان فى البشر من يستطيع بما له وجاهه أن يعطى ويمنع وأن يعز ويذل على وجه من الوجوه فقد جاءت الآية الثانية بهذه المعانى المتضادة، التى ينفرد بها المولى عز وجل، وهى إيلاج الليل فى النهار، وإيلاج النهار فى الليل، وإخراج الحى من الميت، وإخراج الميت من الحى، جاءت هذه الأمور المتضادة بهذه الطريقة، طريقة "العكس والتبديل" وهو لون بديعى سيأتى بيانه،

(1) سورة آل عمران الآيتان: ٢٦، ٢٧.

جاءت بطريقة "العكس والتبديل" لتتجلى قدرة الله تعالى، وعظيم سلطانه، وهيمنته على الأشياء، فمن ذا الذى يدعى قدرة على ذلك؟ إنها أمور ينفرد بها الله المهيمن جل شأنه.

وهكذا يتجلى لنا من خلال الآيات الكريمة أن هذا اللون من ألوان البديع، وهو الطباق، ليس قاصرًا على الزينة والزخرفة الشكلية، بل يتجاوز ذلك إلى أهداف أسمى وغايات لا تنتهى، اقتضى المقام تحقيقها، واستدعى الحال تقريرها وتوكيدها.. وذا ـ كما قلت ـ شأن ألوان البديع كلها.

هذا ونلاحظ أن الطباق يأتى فى صور مختلفة، فهو يأتى بين اسمين أو فعلين أو حرفين، كما رأينا فى الآيات الكريمة، ويأتى بين فعل واسم على نحو ما نرى فى قوله تعالى: ﴿ **أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾[1]، وقوله عز وجل: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ** ﴾[2].. حيث جاء الطباق فى الآية الأولى بين "مَيْتًا" و"أَحْيَيْنَاهُ" وجاء فى الثانية بين "نحيي" و"الموتى" وهما مختلفان ـ كما نرى ـ أحد اللفظين فعل والآخر اسم، وقد أبرز الطباق فى الآية الأولى منزلة المؤمن الذى قبل هدى الله، والتزم نهجه، فهو على نور، جعل الله له نورا يمشى به فى الناس، كما أبرز تخبط الكافر الضال، فهو فى ظلمات ليس بخارج منها، لقد أبرز ذلك الطباق بين "ميتا وأحيينا" والطباق بين: "نورًا" و"الظلمات" وكذا: استعارة الموت للضلال والحياة للهداية، فهما استعارتان تبعيتان جعلتا المهتدى حيًّا يحيا بنور الله ويدرك الخبر الذى فى هذا النور، وينعم به، وجعلتا الضال ميتا، قد فقد الإدراك، لبعده عن الهدى ودين الحق عنادا ومكابرة.

كما أبرز الطباق فى الآية الثانية: "**إنا نحن نحيى الموتى...**" كمال قدرة الله الذى تفرد بصفات الجلال والكمال، فهو يحيى الموتى، وقد جاء هذا التوكيد "إنا نحن" ردعا

(١) الأنعام ١٢٢.

(٢) يس ١٢.

وزجرا لمنكرى البعث، كما تأكد إحياء الله ـ جل وعلا ـ الموتى كذلك بما جاء فى سياق الآية الكريمة: ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾.

* * *

والطباق أنواع مختلفة منها: طباق الإيجاب وطباق السلب والطباق الخفى أو المعنوى وإيهام التضاد وطباق التدبيج والمقابلة... ونورد فيما يلى نماذج وشواهد لهذه الأنواع من الطباق.

طباق الإيجاب: تكون المعانى المتضادة فيه مثبتة أو منفية، وما مر من شواهد الطباق، المعانى المتضادة فيها مثبتة.. ومما جاء فيه المعنيان المتضادان منفيين معًا قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾[1] فقد طابق بين: "لا يموت ولا يحيا" والمعنيان منفيان كما هو واضح.

وطباق السلب: ما كان المعنى فيه واحدًا يثبت وينفى، أو يؤمر به وينهى عنه، وقد عرفه الخطيب القزوينى بأنه: "الجمع بين فعلى مصدر واحد مثبت ومنفى أو أمر ونهي"[2]. فجعله بهذا التعريف خاصًا بالأفعال، وهو ليس خاصًا بها، بل يقع فى الأفعال والأسماء، كما نرى فى الآيات الكريمة: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾... ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾... ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾... ﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾... ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[3] فقد وقع طباق السلب فى الآيات الكريمة بين: "يَعْلَمُونَ وَلَا يَعْلَمُونَ" وبين: "رَمَيْتَ وَمَا رَمَيْتَ" أحد الفعلين مثبت والآخر منفى، كما وقع بين: "فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ.. وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا" الأول نهى والثانى أمر، ووقع بين: "مخلقة وغير مخلقة" وهما صفتان للمضغة إحداهما مثبتة

(١) الأعلى ١٣.

(٢) الإيضاح ٤/ ٧.

(٣) الآيات بالترتيب: الزمر ٩، الأنفال ١٧، الإسراء ٢٣، الحج ٥، البقرة ٨، ٩.

والأخرى منفية، ووقع بين الفعل المثبت "آمنا" والجملة المنفية: "وما هم بمؤمنين" وبين: "يخادعون" و"ما يخدعون".

وما من ريب فى أن طباق السلب فيه توكيد وتقرير للمعانى، وتثبيتها فى النفوس، لأن المعنى الواحد عندما ينفى ثم يثبت، أو يؤمر به ثم ينهى عنه، يبعث ذلك النفس ويوقظها وينبهها فتنشط باحثة عن انفكاك الجهة حيث أثبت المعنى ونفى، أو أمر به ونهى عنه، وعندما تدرك النفس تلك الجهات يتأكد لديها المعنى ويثبت بوجدانها.

والطباق الخفى أو المعنوي: ما كان الجمع فيه بين معنى وما يتعلق بمقابله، كما رأينا فى الآية الكريمة: ﴿ **وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ** ﴾[1] حيث طوبق بين "السكون" وما يتعلق بالحركة التى تقابله وهو "الابتغاء من فضل الله".. ومنه قوله تعالى: ﴿ **مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ** ﴾[2] حيث طوبق بين "الشدة" وما يتعلق باللين الذى يقابلها وهو الرحمة.. وفى إيثار التعبير بهذا المتعلق دون المقابل معنى بلاغى جليل، وهو التنبيه إلى أن الحركة ينبغى أن تكون للإصلاح دون الإفساد، وأن العبد عندما ينعم بالسكون ثم يتحرك، ينبغى أن يكون فى حركته مبتغيا من فضل الله، وبمنأى ومعزل عن الإفساد فى الأرض، وكذا فى الآية الثانية يوحى إيثار التعبير بالرحمة عن اللين بما ينبغى أن يسود بين المسلمين من الرحمة والمودة والتآلف والتعاطف والتراحم، فلا ينبغى أن يقف ما يكون بينهم عند حد اللين، بل يجب أن يتجاوزه إلى تحقيق هذه المعاني: "الرحمة والمودة والتآلف والتراحم والتعاطف" فيسود ذلك بينهم فضلا عن اللين وخفض الجناح.

وطباق التدبيج: يختص بالألوان التى تذكر بقصد الكناية أو التورية، ومعنى التدبيج فى اللغة: التزيين، يقال: دبج الأرض، أي: زينها[3].. ومن شواهده قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ**

(١) القصص ٧٣.

(٢) الفتح ٢٩.

(٣) انظر لسان العرب مادة: دبج.

﴿جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾(1) حيث ذكر ثلاثة ألوان من الجبال: "جُدُدٌ بِيضٌ" و"حُمُرٌ مختلف ألوانُهَا" و"غَرَابِيبُ سُودٌ" وهذه الألوان كناية عن المشتبه والواضح من الطرق، لأنَّ الجادة البيضاء هى الطريق الواضح الذى كثر سلوكه والسير فيه، ولذا قيل ركب بهم المحجة البيضاء، ودون البيضاء الحمراء، ودون الحمراء السوداء، فهى فى الخفاء والالتباس ضد البيضاء فى الظهور والوضوح.

ولا يعنى التكنية بألوان هذه الجبال عن الطرق الواضحة وغير الواضحة أنَّ ألوانها لا توجد على الحقيقة، لأن القرينة فى الكناية غير مانعة، فيصح إرادة المعنى المكنى به مع المعنى المكنى عنه، أى إرادة اللازم مع الملزوم، فألوان هذه الجبال موجودة على الحقيقة مع إرادة المعنى الكنائى، ولذا كان تشبيهها عند نسفها وتسييرها يوم القيامة بالعهن وهو الصوف ذو الألوان، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾(2).

وأما المقابلة: فهى الجمع بين أكثر من معنيين متقابلين، أو بتعبير أدق أن يؤتى بمعنيين متوافقين وما يقابلهما، أو بمعان متوافقة وما يقابلها على الترتيب.. كما نرى فى الآيات الكريمة: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾... ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾... ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾(3) فقد قوبل "الضحك والقلة" "بالبكاء والكثرة" فى الآية الأولى، وقوبلت "الإرادة واليسر بعدم الإرادة وبالعسر" فى الآية الثانية، وقوبل "العطاء والتقوى والتصديق بالحسنى والتيسير لليسرى" قوبلت هذه الأمور "بالبخل والاستغناء والتكذيب بالحسنى والتيسير للعسرى".

وقد مرت بنا الآيتان: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾... ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(4) ووقفنا على التقابل فيهما بين: "لها والكسب،

(1) فاطر ٢٧.
(2) القارعة ٤، ٥.
(3) الآيات بالترتيب: التوبة ٨٢، البقرة ١٨٥، الليل ٥-١٠.
(4) الآيتان بالترتيب: البقرة ٢٨٦، وسبأ ٢٤.

وعليها والاكتساب" والتقابل بين: "على هدى" و"فى ضلال".. وفى المقابلة فضلًا عن تزيين الكلام وتحسينه، مزيد من تأكيد المعانى وتثبيتها، حيث يجمع أولا بين المعنيين أو المعانى المتوافقة، ثم يؤتى بما يقابل المعنيين أو المعانى، فتتقرر بذلك تلك المعانى وتثبت ويزداد توكيدها.

مراعاة النظير

الكلام العربى يأتى نظمه متآلفًا متسقًا، كلماته ينادى بعضها على بعض ويأخذ بعضها بتلابيب بعض(١)، ويعرف هذا بمراعاة النظير، وبالتآلف والتلاؤم، والمؤاخاة بين المعانى، وقد عرفه البلاغيون بأنه: "الجمع بين أمرين متناسبين أو أمور متناسبة بغير التضاد"(٢). وهو بهذا يختلف عن الطباق، إذ الطباق يقوم على أساس الجمع بين الأمور المتضادة، أما مراعاة النظير فيقوم على أساس الجمع بين الأمور المتناسبة.

وإذا اقتضى المقام التناسب والتلاؤم والمؤاخاة بين المعانى، وغفل المتكلم عن ذلك، فلم يراع ما اقتضاه المقام، عيب كلامه وعُد خطأ، كما خطأ نصيب الكميت فى قوله:

أَمْ هَــلْ ظَعــائنُ بالعَلْــياءِ يافعــةٌ ... وإنْ تكامَــلَ فــيها الأُنْــسُ والــشَّنَبُ

قائلًا له: باعدت فى القول، أين الأنس من الشنب، ألا قلت كما قال ذو الرمة:

لَمْــيَاءُ فــى شَــفَتَيْهَا حُــوَّةٌ لَعَــسٌ ... وفــى اللِّــثاتِ وفــى أســنانها شَــنَبٌ

فواضح أن الأنس والشنب فى بيت الكميت لفظان متباعدان، لأن "الشنب": ماء ورقة وبرد وعذوبة فى الأسنان، وهذا وصف حسى بينه وبين "الأنس" تباعد، لأن الأنس وصف معنوى، أما بيت ذى الرمة فألفاظه من وادٍ واحد، إذ هى أوصاف حسية للمرأة، اللمي: سمرة فى الشفة، والحوة: حمرة مشوية بسمرة، واللعس: سواد مستحب فى الشفة، فهذه الألفاظ تتآلف وتتآخى بعضها مع بعض، وتتناسب أيضًا مع ألفاظ الشطر الثاني: اللثات والأسنان والشنب، ولذا عاب نصيب بيت الكميت،

---

(١) يقال: "أخذ فلان بتلبيب فلان وبتلابيبه": إذا جمع ثيابه عند نحره وصدره، وأخذ يجره إليه.. انظر لسان العرب مادة: لبب.

(٢) انظر الإيضاح ٤/ ١٦.

وأحاله إلى بيت ذى الرمة، ليرى ما فيه من تآخٍ وتلاؤم بين الألفاظ فيما تحمله من معان.

ومن مراعاة النظير فى آيات الذكر الحكيم فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾... ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾... ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ... كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾[1].. حيث جاءت الألفاظ فى هذه الآيات الكريمة متناسبة متلائمة فيما تحمله من معان، ففى آية سورة الحج، نجد الذهب واللؤلؤ والحرير، حلى أصحاب الجنة ولباسهم، وبينها من التناسب والتلاؤم ما لا يخفى، وفى آية سورة التوبة نجد التآخى بين الذهب والفضة فى المعنى الذى سيقا من أجله، وهو كنزهما وعدم إنفاقهما فى سبيل الله، ولذا كان جزاء من يفعل ذلك التبشير بالعذاب الأليم، وفى آيتى سورة الرحمن نجد التلاؤم بين ما يخرج من البحرين من معادن نفيسة وهما اللؤلؤ والمرجان، كما نجد التلاؤم بين ما شبهت به الحور العين "قاصرات الطرف" حيث شبهن بالياقوت والمرجان حسنا وجمالا.

لقد جاءت الألفاظ متآخية متلائمة فيما تحمله من معان فى الآيات الكريمة، مطابقة لمقتضى الحال فى كل آية، فى وصف الحور العين وتشبيههن بالياقوت والمرجان، فى وصف ما يخرج من البحرين من معادن نفيسة، فى بيان أهم ما يكنز ويمنع من الإنفاق فى سبيل الله، فى وصف حلى أصحاب الجنة ولباسهم، جاءت الألفاظ بمعانيها متلائمة متآخية مطابقة للمقام، وهذا ما يعرف بمراعاة النظير، وهو ليس لمجرد الزينة والزخرفة الشكلية، بل اقتضاه المقام، واستدعاه الحال، وتطلبه السياق - كما أوضحنا - فى الآيات الكريمة.

ومن مراعاة النظير ما سماه البلاغيون "إيهام التناسب" وهو أن يكون اللفظ له معنيان قريب يتبادر إلى الذهن عند ذكر ما بصحبته من ألفاظ، وهو غير مراد، وبعيد

---

(١) الآيات بالترتيب: الحج٢٣، والتوبة ٣٤، والرحمن ٢٣، ٥٨.

مراد، وهذا اللفظ ذو المعنيين يتناسب مع الألفاظ المذكورة، بمعناه القريب المتبادر إلى الذهن - غير المراد - ولا يتناسب معها بمعناه البعيد المراد.

من ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾(١).. فبين الشمس والقمر تناسب، و"النجم" فى الآية له معنيان: بعيد مراد وهو النبت الصغير الذى لا ساق له، وهو بهذا المعنى يتناسب مع "الشجر" ولا يتناسب مع "الشمس والقمر" ولكنه يتناسب معهما بمعناه الآخر القريب المتبادر إلى الذهن وهو الكوكب، أي: نجم السماء، فبين: الشمس والقمر والنجم إيهام تناسب بهذا المعنى المتبادر إلى الذهن للنجم عند ذكره بصحبة الشمس والقمر.

ومن مراعاة النظير أيضًا: "تشابه الأطراف" وهو أن يختتم الكلام بما يتناسب مع أوله فى المعنى، كما فى الآيات الكريمة: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾... ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾... ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾... ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾(٢).. فختام آية الأنعام بقوله: ﴿ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ يتناسب مع أولها: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ لأن "اللطف" يناسب ما لا يدرك بالبصر، و"الخبرة" تناسب من يدرك الأشياء، فإن من يدرك شئا يكون خبيرًا به، والمراد باللطف فى الآية الكريمة: ما لا تدركه الأبصار مطلقا، لأن اللطف فى الأصل: دقة الشيء، وهذا مستحيل على الله تعالى(٣). وختام الآية الأولى من سورة الحج بالغنى الحميد يتناسب مع أولها ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ وختام الآية الثانية بالرأفة والرحمة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ يتناسب مع أولها من التسخير والفلك التى تجرى، وإمساك السموات

(١) الرحمن ٥، ٦.

(٢) الآيات بالترتيب: الأنعام ١٠٣، والحج ٦٤، ٦٥، والبقرة ٢٠٩، والمؤمنون ١٢-١٤.

(٣) انظر الإيضاح ٤/ ١٨.

والأرض، وختام آية سورة البقرة بالعزة والحكمة: ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ يتناسب مع أولها: ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾.. وورد أن أعرابيا سمع قارئًا يقرأ هذه الآية الكريمة فختمها قائلًا: ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ استبدل ـ خطأً ـ المغفرة والرحمة بالعزة والحكمة، فقال الأعرابى وكان لا يحفظ القرآن: "إن كان هذا كلام الله فلا، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل، لأنه إغراء عليه" فختام الآية بالعزة والحكمة هو الذى يتناسب مع ذكر الزلل بعد وضوح الحق وتبينه.

وختام آيات سورة "المؤمنون" بقوله تعالى: (فتبارك الله أحسن الخالقين) يتناسب مع ما ذكر فى الآيات الكريمة من بديع خلق الله تعالى ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾[1].. لقد روى أن النبى ﷺ وهو يملى هذه الآيات على كاتب الوحى نطق الكاتب بختام الآية قبل أن يمليها عليه النبى ﷺ، فيبتسم عليه الصلاة والسلام قائلا: "هكذا نزلت أو بها ختمت".

هذا وقد يكون التناسب بين ختام الآية وما ذكر فى أولها دقيقا خفيا يحتاج إلى إنعام النظر فى سياق الآية الكريمة، ومراجعة هذا السياق وتدبره، حتى يتجلى التناسب، على نحو ما نرى فى الآيات الكريمة: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾... ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾... ﴿ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2].. فإن النظرة العاجلة قد توهم أن ختام آية سورة "المائدة" بالمغفرة والرحمة يتناسب مع ما ذكر قبلها مباشرة من قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ ولكن النظرة المتأنية إلى سياق الآية الكريمة حيث بدأت بقوله تعالى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ ثم ذكرت: ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ هذه النظرة تبين لصاحبها أن ختام الآية بالعزة والحكمة هو الملائم للسياق الكريم، إذ العزيز الحكيم هو الذى يقدر على أن يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء، فهو العزيز، وفى تعذيبه من يشاء وغفرانه لمن يشاء الحكمة البالغة، فهو الحكيم فى أفعاله عز وجل.

ومن يتعجل أيضا ولا ينعم النظر فى سياق آيتى سورة البقرة وسورة آل عمران، قد

---

(١) سورة السجدة آية ٧.

(٢) الآيات بالترتيب: المائدة ١١٨، والبقرة ٢٩، وآل عمران ٢٩.

يتوهم أنه ينبغى أن تتبادل الآيتان ختامهما، فيكون ختام آية سورة البقرة: ﴿ **وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ حيث ذكر فى الآية خلق ما فى الأرض جميعه، والاستواء إلى السماء، وتسويتها سبع سموات، وهذا يلائمه القدرة.. ويكون ختام آية آل عمران: (والله بكل شيء عليم) حيث ذكر فيها علم ما فى الصدور، وعلم ما فى السموات والأرض.

هذا التوهم أوحى به التعجل، وعند التأنى ومراجعة السياق وامتداد النظر والتدبر إلى ما قبل الآيتين فى كل سورة نجد أن ما ختمت به كل آية هو الذى يتناسب مع السياق الكريم، إذ قبل آية سورة البقرة قوله تعالى: ﴿ **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾(1). إن النظر فى سياق الآيتين معا يوجب أن يكون ختام ثانيتهما بالعلم وليس بالقدرة، لأن هذه الأفعال المذكورة فى الآيتين: "الإحياء ثم الإماتة ثم الإحياء" فى الآية الأولى، و(**خلق ما فى الأرض وما فى السموات**) فى الآية الثانية، هذه الأفعال إنما تصدر عن العلم الكامل التام المحيط بكل شيء.

وكذا القول فى آية سورة "آل عمران" إذ نجد قبلها قوله تعالى: ﴿ **لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ** ﴾(2). والمؤمن عندما يتخذ الكافر وليًّا له من دون المؤمنين، فهو يعتقد خطأ أن الكافر يملك ما لا يملكه المؤمن ويقدر على ما لا يقدر عليه، هذا المتخذ يخشى الدوائر: ﴿ **يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ** ﴾(3) ويعتقد أن الكافر الذى يتخذه وليا له من دون المؤمنين، سيدفع عنه هذه الدوائر، لأنه يملك ما لا يملكه المؤمن ويقدر على ما لا يقدر عليه ـ فى زعم المتخذ ـ ولذا حذر الله تعالى من يفعل ذلك بأن المصير إلى الله القادر، وأن الله تعالى خبير، عليم بما فى الصدور، عليم بما فى السموات والأرض، وهو وحده القادر على أن يدفع الدوائر، فلا ينبغى للمؤمن أن ينسى ذلك ويغفل عنه، فيلجأ إلى كافر يتخذه وليا له من دون المؤمنين، إن هذا الكافر لا قدرة له على نصره ودفع الدوائر عنه، لأن القادر

(1) البقرة ٢٨.
(2) آل عمران ٢٨.
(3) المائدة ٥٢.

هو الله وحده، وهكذا يتجلى لنا أن ختام الآيتين من سورة: "آل عمران" بالقدرة: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ هو الذى يتناسب مع ما ذكر فيهما، أفضى إلى ذلك النظرة المتأنية المتدبرة للسياق الكريم، أما النظرة العاجلة فتوهم غير المراد.

الإرصاد ورد الأعجاز على الصدور

الإرصاد ومنه ورد الأعجاز على الصدور، ومراعاة النظير ومنه تشابه الأطراف، هذه الألوان البديعية تعالج التآلف والترابط والتآخى بين أجزاء الكلام، وأخذ بعضه بتلابيب بعض، ومناداة أوله على آخره ودلالته عليه، وخضوع آخره لأوله وارتباطه به.

وقد مر بنا مراعاة النظير وتشابه الأطراف، ووقفنا من خلالها على التناسب والتآلف والتلاؤم بين أجزاء الكلام وارتباط أوله بآخرة، وأما الإرصاد فقد عرفه البلاغيون بأن يكون فى صدر الكلام وأوله ما يدل على عجزه وآخره، إذا عرفت الفاصلة وعرف الروى، وهذا يقتضى أن يكون بين صدر الكلام وعجزه صلة قوية وترابط وتآلف، فأوله ـ كما قلنا ـ ينادى على آخره ويرشد إليه، وآخره يرنو لأوله ويرتبط به[1].. فإذا كان بين العجز، وما دل عليه مما هو موجود فى صدر الكلام تجانس، أو ما يشبه التجانس مما هو لاحق به، أو كان العجز مكررًا، سمى ذلك ردًّا للأعجاز على الصدور، فالإرصاد أعم ورد العجز على الصدر أخص.

ويتجلى لنا ذلك فى الشواهد الآتية:

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾... ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾... ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾... ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟

(١) يرنو: مصدره: "رُنُوٌّ" يقال: رنا يرنو رُنُوًّا أي: أدام النظر مع سكون الطرف.. انظر لسان العرب مادة: رنا.. ومرادنا: برنو آخر الكلام لأوله، ورنو أوله لآخره: شدة ارتباطه به، وحنوه إليه وخضوعه، فقد سكن طرفه إليه، وأدام نظره، وأبى أن ينظر لغيره.. وعندما نقول: "المعنى الذى يرنو إليه السياق" فإن مرادنا بذلك: المعنى الذى طغى فى السياق وبرز وظهر، وجذب السياق إليه فتعلق به، وأخلص له، وسخر كل ما يجول فيه من وسائل لإبرازه وإظهاره.

رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾... ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾... ﴿ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴾... ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].. نجد فى صدور هذه الآيات الكريمة ما يدل على العجز، فقد دل قوله تعالى: (فاختلفوا) على الفاصلة (يختلفون).. ودل قوله تعالى: (فهل ينتظرون .. قل فانتظروا) على الفاصلة: (من المنتظرين) ودل قوله: (وتخشى الناس) على عجز الجملة: (أحق أن تخشاه) فالفاصلة أو العجز فى تلك الآيات الكريمة لفظ مكرر، إذ هى نفس ما ذكر فى صدور الآيات الكريمة.

ودل قوله تعالى: (استغفروا ربكم) على الفاصلة: (غفارا).. كما دل قوله: (هب لنا) على الفاصلة: (أنت الوهاب).. ودل قوله: (قال) على الفاصلة (من القالين).. ودل قوله (فنادى فى الظلمات) على الفاصلة: (من الظالمين).. وبين الفاصلة وما دل عليها فى هذه الآيات الكريمة جناس الاشتقاق بين: (استغفروا وغفارا) وبين: (هب والوهاب) وشبه جناس الاشتقاق بين: (قال والقالين) وبين: (الظلمات والظالمين).

وتردع بلاغة هذا اللون البديعي: (الإرصاد أورد الأعجاز على الصدور) إلى الترابط والتآلف والتآخى بين أجزاء الكلام، فمن البلاغة أن يكون الكلام متشابكا، يدل أوله على آخره، ويرتبط آخره بأوله، وما من ريب فى أن الكلام إذا كان على هذا النحو، وذاك النمط، تأكدت معانيه وتقررت بالأذهان، وهذا من شأنه أن يقبل المخاطب على تلبية وإجابة ما تقرر وتأكد لديه.

العكس والتبديل

هذا اللون البديعى قائم على التقديم والتأخير بين أجزاء الكلام، ما ذكر أولًا يؤخر، وما كان مؤخرا يقدم، أي: يقع استبدال بين أجزاء الكلام، وتعكس أجزاؤه، ولذلك سمى هذا اللون بالعكس والتبديل.

(١) الآيات بالترتيب: يونس ١٩، ١٠٢، والأحزاب ٣٧، نوح: ١٠، وآل عمران ٨، والشعراء ١٦٨، والأنبياء ٨.

من ذلك قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾(١).. فقد عكس طرفا جملة: (هن لباس لكم) واستبدل أحدهما بالآخر فجاءت الجملة الثانية بعد العكس والتبديل: ﴿وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ ومثله قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾(٢).. حيث عكس طرفا جملة: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ وبدل أحدهما بالآخر فصارت الجملة الثانية بعد العكس والتبديل: ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ وكذا القول فى قوله عز قائلًا: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾(٣).

فقد عكس طرفا جملة: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ واستبدل أحدهما بالآخر فجاءت الجملة الثانية بعد العكس والتبديل: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾.

ومنه قوله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٤).. فقد عكس متعلق الفعل (تولج) فى الجملة الأولى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ واستبدل أحدهما بالآخر فجاءت الجملة الثانية بعد العكس والتبديل: ﴿وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ وكذا عكس متعلق الفعل "تخرج" فى الجملة الأولى: ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ فجاءت الثانية بعد العكس والتبديل: ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾.

هذا ولا يخفى علينا ما وراء العكس والتبديل من تأكيد للمعانى وتقريرها، فقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ أفاد هذا التشبيه أن المرأة تحفظ زوجها وتصونه من الوقوع فى الفاحشة كما يحفظ اللباس صاحبه ويستره، ثم جاءت الجملة الثانية: ﴿وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ فأفادت أن الرجل يحفظ امرأته ويصونها كما حفظته هى وصانته، وبهذا يتأكد المعنى ويتقرر.. وكذا القول فى الآيات الكريمة: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾

---

(١) البقرة ١٨٧.

(٢) الممتحنة ١٠.

(٣) الأنعام ٥٢.

(٤) آل عمران ٢٧.

.. ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ .. ﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ .. إن إعادة الجمل بعد تبديل أجزائها وعكس أطرافها فيه تنبيه للمخاطب وتأكد وتقرير للمعانى التى تحملها هذه الجمل.

التورية والتوجيه والاستخدام

هذه الألوان الثلاثة: "التورية والتوجيه والاستخدام" بينها وشائج وصلات قربى، فهى قائمة على انبعاث معنيين من التعبير، ولكنها تختلف فى انبعاث المعنيين، فالتورية: إيراد لفظ له معنيان، قريب وبعيد، ويراد المعنى البعيد منهما اعتمادًا على قرينة خفية، والاستخدام: ذكر لفظ له معنيان مرادان معًا حيث يراد باللفظ أحد المعنيين ويعود عليه ضمير بالمعنى الآخر، والتوجيه: إيراد الكلام محتملا لوجهين متضادين كالمدح والهجاء أو الذم والثناء، ولا يكون أحدهما متبادرًا إلى الذهن، بل يكون احتمالهما على حد سواء، والمتكلم هو الذى يوجه الكلام إلى أحد المعنيين.

ويتجلى لنا ذلك فى الشواهد الآتية:

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾.. ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾... ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾... ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ﴾[1].. ففى آية سورة الأنعام نجد لفظ: "جرحتم" له معنيان، حيث يتبادر إلى الذهن عند سماعه ما يصيب الإنسان من تمزق فى الجلد وأنسجة الجسد، وهذا هو المعنى القريب، وهو ليس بمراد، ولكن المراد هو المعنى البعيد، وهو ارتكاب الذنوب واقتراف المعاصى، وفى آيات سورة الرحمن نجد أن لفظ "النجم" له معنيان، إذ يتبادر إلى الذهن عند سماعه بعد سماع لفظي: "الشمس والقمر": الكوكب أي: نجم السماء، وهذا هو المعنى القريب، وقد تناسب اللفظ بهذا المعنى مع لفظي: "الشمس والقمر" فبينها - كما ذكرنا فى مراعاة النظير - إيهام تناسب، ولكن هذا المعنى

(١) الآيات بالترتيب: الأنعام ٦٠، والرحمن ٥، ٦، والبقرة ١٨٥، والنساء ٤٦.

القريب ليس مرادًا، فالمراد بالنجم فى الآية الكريمة: النبات الصغير الذى لا ساق له، وهو بهذا المعنى المراد البعيد، يتناسب مع "الشجر" المذكور بعده، فبين النجم والشجر مراعاة نظير، وبينه وبين كل من "الشمس والقمر" إيهام تناسب، وقد أوضحنا ذلك عند حديثنا عن مراعاة النظير.

وفى آية سورة البقرة نجد أن لفظ "الشهر" قد أريد به "الهلال" إذ المعنى: من رأى منكم الهلال وأبصره، ثم عاد عليه الضمير فى قوله: "فليصمه" بمعنى الزمن، أى مدة الشهر، ثلاثين يومًا، أو تسعة وعشرين يوما، فقد ذكر اللفظ بمعنى وعاد عليه الضمير بمعنى آخر، هذا هو الاستخدام، وقد فسر فيه لفظ "شهد" بمعنى: "رأى وأبصر" أما إذا فسر بمعنى حضر وأقام، أى من كان منكم حاضرًا مقيمًا، ليس مسافرًا فليصم، ومن كان مسافرا فعدة من أيام أخر، فعندئذ لا استخدام فى الآية الكريمة[1].

---

(١) ومن هذا اللون قول الشاعر:

إذا نزل السماءُ بأرض قوم ... رَعَيْناهُ وإن كانُوا غِضَابًا

فالمراد بالسماء: "الغيث" مجازا مرسلًا علاقته المجاورة، وقد عاد عليه الضمير فى "رعيناه" بمعنى: النبات.. هذا وللاستخدام صور كثيرة منها: أن يعود إلى اللفظ ضميران، كل ضمير منهما بمعنى، كما فى قول الشاعر:

تَاللهِ ما ذُكِرَ الْعَقِيقُ وأهلُه ... إلا وأجراهُ الغَرامُ بمحْجَرِى

فالعقيق اسم لمكان بظاهر المدينة، ويطلق على الدم الأحمر الشبيه بالعقيق، وهو خرز أحمر، تتخذ منه الفصوص، واحدته: عقيقة، وقد عاد الضمير فى "أهله" على العقيق بالمعنى الأول، وعاد عليه الضمير فى "أجراه" بالمعنى الثانى ومثله قول البحتري:

فسقا الغَضَا والساكنيه وإن هُمُ ... شَبُّوهُ بين جوانحٍ وقلوبِ

ومن صوره: أن يذكر اللفظ بمعنى ويشار إليه بمعنى آخر.. كما فى قول الشاعر:

رأى العقيقَ فأجرى ذاك ناظِرُهُ ... مُتَيَّمٌ لجَّ فى الأشواق خاطره

ومنها أن يذكر اللفظ وبعده تمييزان كل تمييز بمعنى.. كما فى قول الشاعر:

حكى الغزال طلعةً ولفتةً ... من ذا رآه مُقبلاً وَلاَ افْتَتَنَ

فطلعةً تمييز للغزال بمعنى "الشمس"، ولفتةً تمييز له بمعنى "الظبي".

ومنها أن يقع الاستخدام بأسلوب الاستثناء.. كما فى قول الشاعر:

أبدًا حديثى ليس بالمنسوخ إلا فى الدفاتر

فالنسخ له معنيان: "الإزالة والمحو" و"إعادة الكتابة" يقال: نسخ الكتاب: أعاد كتابته، وقد أريد بالنسخ فى قوله: "حديثى ليس بالمنسوخ" المعنى الأول: "الإزالة والمحو" وأريد بالنسخ الواقع فى المستثنى: "فى الدفاتر": النقل وإعادة الكتابة، ومراد الشاعر الإشادة بحديثه وبيان أهميته، فهو لا يمحى ولا يزال، ولكنه ينقل وتعاد كتابته لعظمه وأهميته.

وفى آية سورة "النساء" نجد أن لفظي: "غير مسمع" و"راعنا" قد ذكرا وكل منهما يحتمل معنيين، أولهما: ذم، وثانيهما: مدح، فلفظ: "غير مسمع" يحتمل الذم ويكون المعنى عندئذ: اسمع مدعوا عليك بلا سمعت، أو اسمع غير مجاب ما تدعو إليه، أي: غير مسمع جوابا يرضيك، فكأنك لم تسمع شيئا، ويحتمل المدح ويكون المعنى عندئذ: اسمع غير مسمع مكروها، كما فى قولهم: أسمع فلان فلانا أي: سبه وشتمه، "فغير مسمع" على هذا معناه: غير مسمع ما تكرهه من سب أو شتم أو سوء.

وكذا قوله تعالى: "راعنا" يحتمل اللفظ المدح فيكون المعنى: ارقبنا وانظرنا من المراعاة، ويحتمل الذم فيكون المعنى على السب والشتم، والحط من شأن النبى ﷺ، إذ كانوا يشبعون كسرة العين من اللفظ فتصير إلى "راعينا" وهى كلمة عبرية كانوا يتسابون بها، أو تكون مكونة من مضاف "راعي" أضيف إلى "نا" ضمير المتكلمين، ويقصدون بهذا: الحط من شأنه ﷺ، أي: أنت كمن يرعى لنا، فمنزلتك منزلة الرعاة، ولذا نهى الله عز وجل المؤمنين عن هذه اللفظة فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١).

لقد كان هذا شأن اليهود ـ لعنهم الله ـ تحريف الكلم عن مواضعه، عند مخاطبة النبى ﷺ يوردون الكلام محتملا وجهين، ويريدون به الذم، أو يحرفون فيه، كما كانوا يحرفون التحية فيقولون: السام عليك يا محمد، والسام هو الموت والعذاب، يحيونه بغير ما حياه الله به، فالله عز وجل حياة بالسلام، وهم يحرفون ويحيون بالسام، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾(٢).

وترجع بلاغة هذه الألوان إلى ما فيها من تنبيه للمخاطب وتحريك لمشاعره وأحاسيسه حيث يكون اللفظ له معنيان أو يحتمل معنيين ويراد أحدهما دون الآخر، أو يراد معنياه معًا باللفظ معنىً ثم بالضمير العائد عليه المعنى الآخر، وفى هذا من التنبيه ما لا يخفى.

وكذا يتمكن المتكلم من خلال التورية والتوجيه أن يخفى ما يريد إخفاءه من معنى

(١) سورة البقرة آية ١٠٤.

(٢) سورة المجادلة آية ٨.

لا يود أن يعرفه المخاطب، أو أن يوجه الكلام الوجهة التى يريدها، وبهذا يتجلى لنا أن هذه الألوان ـ وكذا سائر ألوان البديع ـ ليست لمجرد الزينة، والزخرفة الشكلية، ولكنها تحقق أغراضًا بلاغية يقصد إليها المتكلم، يقتضيها المقام ويستدعيها الحال.

المشاكلة والمبالغة والتجريد

هذه الألوان البديعية الثلاثة: "المشاكلة والمبالغة والتجريد" وإن اختلفت فى مفهومها، إلا أن الغاية منها واحدة، فهى تهدف إلى تحقيق المبالغة فى المعنى، وتلك المبالغة المقصود تحقيقها بهذه الألوان، قد اقتضاها المقام واستدعاها الحال، إذ المشاكلة مفهومها: أن يذكر المعنى بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقا أو تقديرًا، ومفهوم المبالغة: أن يدعى بلوغ الوصف فى الشدة أو الضعف حدا بعيدًا أو محالًا، ومفهوم التجريد: أن ينتزع من أمر ذى صفة أمر آخر مثله فى تلك الصفة مبالغة فى كمالها فى الأمر الأول المنتزع منه.

وعندما يذكر المعنى بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته ـ فى المشاكلة ـ فإن الغرض البلاغى من وراء ذلك: المبالغة فى هذا المعنى الذى ذكر بلفظ غيره ويتجلى ذلك فى هذه الآيات الكريمة.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾... ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾... ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾... ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾[1].

(١) الآيات بالترتيب: سبأ ١٥، ١٦، والبقرة ١٩٤، والشورى ٤٠، والبقرة ١٣٧، ١٣٨.

ففى آية سورة "سبأ" ذكر جزاء المعرضين بلفظ: "جنتين" لوقوعه فى صحبة: "جنتيهم" فقد كان هؤلاء ـ أهل سبأ ـ فى نعمة من الله وفضل، بلدة طيبة، وجنتان عن يمين وشمال، فيهما من خيرات الله، ورزق ربهم، وكان عليهم أن يشكروا هذه النعمة: ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ ولكنهم كفروا وأعرضوا، فكان جزاؤهم أن أرسل الله عز وجل عليهم سيل العرمن وبدلهم بجنتيهم هذا البدل، لقد سماه ـ عز وجل ـ جنتين ووصفها بهذا الوصف: ﴿ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾.

فهما ليسا بجنتين، ولكنهما جزاء إعراضهم وكفرهم بنعمة الله تعالى، أرسل عليهم سيل العرم، وأبيدت جنتاهم، وبدلوا بهما هذه النباتات: "خمط" وهو كل نبت أخذ طعمًا من المرارة، و"أثل" وهو شجر طويل يعمر لا ثمر له، وإنما يستخدم خشبه، وشيء قليل من السدر هو شجر النبق، لقد سمى الله عز وجل هذا التبديل جنتين لوقوعه فى صحبة "جنتيهم" وشتان ما بين الجنتين، إن جنتيهم كانتا آية فى الحسن والجمال، وفيهما خيرات من رزق ربهم، أما هاتان الجنتان، فهما جنتان ﴿ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ وتسميتهما جنتين إنما هو من قبيل المشاكلة مبالغة فى الردع والزجر، فهذا جزاء من كفر بنعمة الله ولم يشكر ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾.

وفى آية سورة "البقرة" الأولى ذكر عقاب المعتدى بلفظ الاعتداء ﴿فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ﴾ لوقوعه فى صحبة قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، وكذا فى آية سورة "الشورى" ذكر جزاء السيئة بلفظ "سيئة" لوقوعه فى صحبة السيئة: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ والغرض البلاغى فى الموضعين المبالغة فى ردع المعتدى حيث جعل عقابه اعتداء، وكذا المسيء حيث جعل جزاء إساءته إساءة. والمشاكلة فى هذه الآيات الكريمة مشاكلة تحقيقية، حيث ذكر المعنى بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقا، أي: أن اللفظ المصاحب محقق مذكور، أما المشاكلة فى آية سورة البقرة الثانية فهى مشاكلة تقديرية، حيث ذكر "التطهير" بلفظ "الصبغة" لوقوعه فى صحبة صبغة النصارى المقدرة المفهومة من السياق، فقد كانوا يغمسون أولادهم فى ماء أصفر يسمونه: "ماء

المعمودية" معتقدين أن الولد بهذا الغمس يصبغ ويصير نصرانيا حقا، فأمر الله عز وجل المؤمنين أن يقولوا: صبغنا الله صبغته ولم نصبغ صبغتكم، فذكر "التطهير" تطهير الله المؤمنين بالإيمان، الذى أمرهم به فى قوله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ ﴾ ذكر هذا التطهير بالإيمان، بلفظ الصبغة فى قوله تعالى: ﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗ ﴾ وذلك لوقوعه فى صحبة صبغة النصارى المقدرة المفهومة من سياق الآيات الكريمة.

ومن شواهد المبالغة قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴾... ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞ... أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَا ﴾[1].

فى هذه الآيات الكريمة نرى المبالغة فى أوصاف يوم القيامة حيث تذهل المرضعة عما أرضعت، والمرضعة هى من تباشر الإرضاع فهى تذهل عن طفلها الذى ترضعه، وتجد الناس من شدة الأهوال سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد... إن الغاية من الآية الكريمة أن يقف الناس على ما فى هذا اليوم من شدائد وأهوال فيتقوه ويتزودوا بالخير والعمل الصالح.

وفى آيتى سورة النور نجد المبالغة فى وصف منهج الله ونوره الذى أنزله لعباده، فهو بهذه الأوصاف، قد تضاعف نوره وعم ضياؤه، وهذه الشجرة الزيتونة يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، إنه منهج الله: ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾.. كما نجد المبالغة فى وصف ظلام الكفر، فهو ظلمات فى بحر لجى، تضاعفت أمواجه، ومدت بأمواج السحاب، ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها من

(١) الآيات بالترتيب: الحج ١، ٢، والنور ٣٥، ٤٠.

شدة الظلام وتكاثفه... والغاية من الآيتين الكريمتين أن يقف المتدبر على هذه الأوصاف، فيقبل على منهج الله ونوره، وينأى عن الكفر والضلال، فمنهج الله نور على نور، والكفر ظلمات بعضها فوق بعض، والله جل وعلا يهدى لنوره من يشاء، ويضل الظالمين ضلالا بعيدًا، ويفعل الله ما يشاء.

لقد توقف كثير من العلماء أمام المبالغة فى آيات الذكر الحكيم قائلين: أَنَّى لنا أن نصف كلام الله بالمبالغة؟.. والرأى أن المبالغة فى الآيات الكريمة، ليست مقصودة لذاتها، بل لما وراءها من أغراض تحققها. على نحو ما رأينا فى الآية الكريمة. ومعظم ألوان البلاغة كالحذف والتقديم والتنكير والتشبيه والاستعارة والكناية وغيرها، نجد المبالغة وراءها غرضًا بلاغيا تحققه هذه الألوان، ووراء تحقيقه أغراض عليا وأهداف سامية يقصد إلى تحقيقها.

فالمبالغة فى آيات الذكر الحكيم ـ كما رأينا فى الآيات ـ المراد بها: إظهار البعد فى الوصف، وإبراز ما يراد إبرازه من أهوال وشدائد، وفزع ورعب، فيحذر ويتقى، وإظهار ما يراد إظهاره من كمال المنهج وإشراقه فيمتثل ويلتزم[1].

أما المبالغة التى تصل إلى حد الغلو والإحالة، فهذه كلام الله تعالى منزه عنها، ولا نراها إلا فى كلام الشعراء وهى مردودة عليهم ولا تقبل...

ومن أمثلتها قول أبى نواس:

وَأَخَفْتَ أَهْلَ الشِّرْكِ حَتَّى إِنَّهُ ... لَتَخَافُكَ النُّطَفُ الَّتِى لَمْ تُخْلَقِ

وقول المتنبى:

يَرْتَشِفْنَ مِنْ فَمِى رَشَفَاتٍ ... هُنَّ فِيهِ أَحْلَى مِنَ التَّوْحِيدِ

وقول ابن هانئ الأندلسى:

مَا شِئْتَ لا مَا شَاءَتِ الأَقْدَارُ ... فَاحْكُمْ فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

(١) إبراز منهج الله بهذه القوة فى الإشراق والضياء، وهذا البعد فى الوصف، وتلك الأهوال والشدائد، إنما هى بمقياس البشر، وما ألفوه من عادات، وما تتسع له عقولهم من أوصاف، فهى حقائق يبرزها المولى جل فى علاه بهذه الصورة لتتحقق ـ كما أشرنا ـ الغاية المنشودة من ورائها.

لقد رد العلماء هذه المبالغة التى جاءت فى مثل هذه الأبيات وسموها غلوًّا، حيث وصلت المبالغة إلى حد الإحالة، وقبلوا من المبالغة ما ظل فى دائرة البعد، فلم يبلغ هذا المبلغ المفرط وسموه: تبليغا أو إغراقًا[1].

ومن شواهد التجريد قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِۖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾[2].. فقد انتزع من جهنم دارًا سميت "دار الخلد" لأن النار هى دار الخلد، فجردت منها دار أخرى سميت "دار الخلد" للمبالغة فى اتصاف جهنم بشدة العذاب والأهوال، فلقد بلغت مبلغا صح معه أن ينتزع منها موصوف آخر متصف بتلك الشدائد والأهوال التى اتصفت بها، وكأن جهنم لشدة ما فيها من أهوال وعذاب، صارت تفيض بدور أخرى تتصف بما تتصف هى به من شدائد وأهوال.

وهكذا يتجلى لنا أن هذه الألوان الثلاثة لم تأت لمجرد الزينة والزخرفة الشكلية، بل جاءت لأغراض بلاغية اقتضاها المقام وفاض بها السياق، فهى تفيد ما رأيناه من التوكيد والتقرير والمبالغة فى الأوصاف والمعانى، ووراء تلك المبالغة التى تفيدها الكثير من الأغراض والمزايا البلاغية التى اقتضى الحال إفادتها والدلالة عليها، والتى استدعاها السياق الكريم.

* * *

اللف والنشر

مدار اللف والنشر على تحريك المخاطب، وتنشيط ذهنه، وإيقاظ حسه، فيقع المعنى فى نفسه ألطف موقع، ويدرك مراميه ومغزاه، إذ اللف والنشر معناه: أن يذكر متعدد

(١) التبليغ: ما كان الوصف المبالغ فيه ممكنا عقلا وعادة، والإغراق: ما كان الوصف المبالغ فيه ممكنا عقلا ممتنعا عادة، أما الغلو فهو ما كان الوصف المبالغ فيه ممتنعا عقلا وعادة، كما فى الأبيات المذكورة، وهو مردود، ولا يقبل منها إلا ما تضمن تخييلا حسنا، أو دخل عليه لفظ يقربه من الصحة والإمكان، أو لم يخرج مخرج الجد، بل أريد به المزاح والمداعبة.. ارجع إلى كتابنا علم البديع ص١٦٦، ص١٦٧.

(٢) فصلت ٢٨.

على جهة التفصيل أو الإجمال، ثم يذكر ما لكل من آحاده من غير تعيين، ثقة بأن السامع يرد إلى كل ما يليق به.

ويتجلى لنا هذه اللون البديعى فى الشواهد الآتية:

قال تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾... ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾... ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَـٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾... ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾(١).

ففى الآيات الكريمة ذكر المتعدد فى أول الآيات ثم جاء بعد ذلك ذكر ما لكل من آحاده، وقد جاء المتعدد على جهة التفصيل فى آية سورة القصص: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾.. المتعدد هنا: "الليل والنهار" فهما آية من آيات الله تعالى، وهما من رحمته جل وعلا بعباده، وتتجلى هذه الرحمة فى النشر الذى جاء بعده: ﴿ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ فالسكون يكون ليلا وابتغاء الفضل يكون نهارا، لم يعين ذلك اعتمادًا على أن السامع يرد لكل ما يكون له، ويلاحظ أن النشر قد جاء فى هذه الآية الكريمة على ترتيب اللف، كما يلاحظ أنه قد أوثر التعبير بابتغاء الفضل المتعلق بالحركة التى تكون نهارا، وهذا يوحى - كما أوضحنا فى الطباق الخفى - بأن الحركة ينبغى أن تكون خيرًا وإصلاحًا فى الأرض وابتغاء من فضل الله، ولا ينبغى أن تكون شرًا وإفسادًا فى الأرض.

وجاء المتعدد على جهة التفصيل أيضا فى آيتى سورة آل عمران حيث دعا المحسنون لأخراهم ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا ﴾ ثم دعوا لدنياهم: ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ هذا هو المتعدد "اللف" ويسمى أيضا

(١) الآيات بالترتيب: القصص ٧٣، آل عمران ١٤٧، ١٤٨، المائدة ٣٣، البقرة ١١١.

بالطى، لأن النشر المذكور بعد، قد انطوى فيه، ولم يصرح به، فلما جاء بعد ذلك، فكأنه قد نشر، ولذا سمى "نشرًا" وهو فى الآيتين قوله تعالى: ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ ويلاحظ أن الله تعالى قد عجل لهم ثواب الدنيا الذى أخروه فى دعائهم، لأن المقام مقام جهاد وتعجيل إجابة النصر مترقب ومطلوب، وأخر ثواب الآخرة، فجاء النشر بهذا على غير ترتيب اللف.. كما يلاحظ أن ثواب الآخرة قد وصف بالحسن، وخص به دون ثواب الدنيا، لأن ثواب الآخرة هو المعتد به، وهو الدائم، دون ثواب الدنيا، فهو إلى زوال.

وفى آيتى سورة المائدة وسورة البقرة، جاء اللف على جهة الإجمال، فهو فى آية المائدة: ﴿ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ وفى آية البقرة الضمير فى (قَالُوا) الذى يرجع إلى اليهود والنصارى، وجاء النشر فى الآية الأولى: ﴿ أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾، لأن المحاربة تكون قتلا أو أخذا للمال أو إخافة أو جمعا بين القتل وأخذ المال أو بين أخذ المال والإخافة، وقد أجمل كل ذلك وطوى فى قوله تعالى: ﴿ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ فإذا كانت المحاربة قتلاً فقط فجزاؤها: ﴿ أَن يُقَتَّلُوٓاْ ﴾ وإذا جمعت بين القتل وأخذ المال فجزاؤهم: ﴿ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ ﴾ أي: مع التقتيل، يقتلوا ثم يصلبوا، وإذا كانت المحاربة جمعا بين أخذ المال والإخافة فجزاؤهم ﴿ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾ وإذا كانت إخافة فقط فجزاؤهم ﴿ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾.

وجاء النشر فى الآية الثانية: ﴿ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ والمعنى: وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودا، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، فلف القولان وجمعا فى الضمير من قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ﴾ على جهة الإجمال، ثم جاء النشر فى قوله: ﴿ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ بدون تعيين ثقة بأن السامع يرد إلى كل فريق قوله، لما هو معلوم من المعاداة بين الفريقين، وتضليل كل فريق لصاحبه، قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾[1].

(١) البقرة ١١٣.

وهكذا يتجلى لنا أن "اللف والنشر" قوامه: تحريك المخاطب وتنبيهه، حتى يدرك ما انطوى فى اللف، ولم يصرح به، ثم يقف على تفصيله الذى جاء فى النشر ويرد إلى كل ما يليق به، وهذا من شأنه أن يقر المعنى فى نفسه ويثبت فى وجدانه ويتحقق المغزى الذى قصد إليه.

* * *

التقسيم

التقسيم يرد على ثلاثة أنواع:

أولها: استيفاء أقسام المعنى المتحدث عنه بحيث لا يترك من أقسامه قسم محتمل.

ثانيها: ذكر أحوال الشيء، مضافا إلى كل حال ما يلائمها، ويليق بها.

ثالثها: ذكر متعدد ثم إضافة ما لكل إليه على وجه التعيين، وهذا النوع يختلف عن اللف والنشر فى أن ما يضاف إلى المتعدد معين، أما فى اللف والنشر فهو غير معين، والمخاطب هو الذى يرد إلى كل ما يليق به.

فمن النوع الأول قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾... ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾... ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾... ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾... ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾[(١)].

فى هذه الآيات الكريمة تم استيفاء أقسام المعنى المتحدث عنه فى كل آية، ففى آية سورة "الرعد" تم استيفاء قسمى رؤية البرق: "خوفا وطمعا" فليس فى رؤية البرق

---

(١) الآيات بالترتيب: الرعد ١٢، وفاطر ٣٢، وآل عمران ١٩٠-١٩١، ويونس ١٢، والشورى ٤٩-٥٠.

إلا الخوف من الصواعق، والطمع فى الغيث، ولا ثالث لهذين القسمين، وقدم الخوف على الطمع لأن الصواعق تقع من أول برقة أما الغيث فلا يكون إلا بعد توفر البرق، ولذا كان العربى يعد سبعين برقة ثم ينتجع فلا يخطئ الغيث والكلأ، وإلى هذا يشير المتنبى بقوله:

وَقَـــدْ أَرِدُ المـــياهَ بغـــير هـــادٍ سـوى عــدِّى لهـا بَـرْقَ الغمـامِ

وفى آية سورة "فاطر" تم استيفاء جميع الأقسام، التى يمكن أن يكون عليها العباد، الذين أورثهم الله عز وجل الكتاب، فهم إما ظالم لنفسه أو مقتصد أو سابق بالخيرات بإذن الله، وليس هنالك قسم رابع يضاف إلى هذه الأقسام، ويلاحظ أنه قد قدم الظالم لنفسه لكثرة هذا القسم، وأخر السابق بالخيرات لقلته، وليتأتى وصفه بما جاء بعده، وهو قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ۝٣٢ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[1].

وفى آيات سورتى "آل عمران" و"يونس" تم استيفاء جميع أقسام الهيئات التى يكون عليها الذاكر الداعى ربه، فهو يذكره ويدعوه قائمًا أو قاعدًا أو وهو على جنبه، ويلاحظ أنه فى سورة "يونس" قد قدم الاضطجاع "لجنبه" ووليه القعود "أو قاعدا" ثم ختم بالقسم الثالث: "أو قائمًا" ويرجع هذا الترتيب إلى أن الحديث عن الإنسان الذى مسه الضر، فهذا الترتيب قد اقتضاه المعنى، واستدعاه الحال، أما فى سورة "آل عمران" فلم يرد فى السياق مس ضر أصاب الذاكر الداعى، فاقتضى ذلك تقديم القيام ثم القعود ثم الاضطجاع: ﴿قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

وفى آيتى سورة "الشورى" تم استيفاء جميع أقسام الهبة، فالله عز وجل يهب لمن يشاء من عباده إما الإناث فقط: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ أو الذكور فقط ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ أو الإناث والذكور: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ أو لا يهب شيئًا: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾، وليس هنالك قسم خامس محتمل، وقد جاءت الهبة فى الآيتين مرتبة من الأدنى إلى الأعلى، حيث بدأت بهبة الإناث ثم تلتها هبة الذكور ثم

(١) سورة فاطر ٣٢، ٣٣.

هبة النوعين معًا الذكور والإناث، ثم جاء ما ليس بهبة بلفظ الجعل: ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾ لأنه حرمان وليس بهبة، وقد أخر هذا القسم وقدمت الأقسام الثلاثة عليه، لأن إنعام الله تعالى وتفضله على عباده أولى بالتقديم.

ومن النوع الثاني قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ۝٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَـٰغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾... ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴾... ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَـٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝٢٤ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ۝٢٩ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾[1].

ففى هذه الآيات الكريمة ذكرت أحوال الناس يوم الغاشية، ويوم الصاخة، ويوم العرض مضافًا إلى كل حال ما يليق بها، فالناس يوم الغاشية لهم حالان، حال الكفرة، وقد ذكرت هذه الحال فى قوله: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ﴾ ثم أضيف إليها ما يليق بها وهى الأوصاف المذكورة، وحال المؤمنين، وقد ذكرت هذه الحال فى قوله تعالى (وجوه يومئذ ناعمة) ثم أضيف إليها ما يليق بها من أوصاف.

وكذا القول فى آيات سورة "عبس" فقد ذكر أحوال الناس فى هذا اليوم، وهما حالان، حال المؤمنين التى ذكرت فى قوله: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾ ثم أضيف إليها ما

---

(١) الآيات بالترتيب: الغاشية ١-١٦، وعبس ٣٨-٤٢، والحاقة ١٨-٣١.

يليق بها، وهو الضحك والاستبشار ﴿ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ وحال الكفرة الفجرة وقد ذكرت فى قوله تعلى: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ ثم أضيف إليها ما يليق بها من أوصاف ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾.

وفى آيات سورة الحاقة ذكر حال الناس يوم العرض على الله ـ عز وجل ـ لا تخفى منهم خافية، وهما حالان: حال من أوتى كتابه بيمينه، وحال من أوتى كتابه بشماله: وقد ذكرت الحال الأولى مضافا إليها ما يليق بها من فرح المؤمن بكتابه حيث يقرؤه ويقرئه غيره، ويكون مصيره إلى تلك العيشة الراضية، فى جنة عالية، يتمتعون فيها ويهنؤون، ثم ذكرت الحال الثانية مضافا إليها ما يليق بها من الندم والتحسر وأمر الزبانية أن يغلوه فى تلك السلاسل ويجروه بعنف إلى سواء الجحيم ليطعم هذا الغسلين ويصطلى الجحيم.

ومن النوع الثالث قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾[1] حيث ذكر متعدد وهو تكذيب عاد وثمود، ثم ذكر ما لكل منهما على وجه التعيين، فعاد قد أهكلوا بريح صرصر عاتية، وثمود قد أهلكوا بالطاغية، عين الهلاك الذى أهلك به كل فريق، وأضيف إليه، وهذا النوع يختلف عن اللف والنشر ـ كما ذكرنا ـ حيث يعين فيه ما لكل من المتعدد، أما فى اللف والنشر فلا يعين ذلك، بل يعتمد على المخاطب فى رد إلى كل ما يليق به.

* * *

الجمع

الجمع هو أن يجمع أمران مختلفان أو أكثر فى حكم واحد، كما فى الآيات الكريمة: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾... ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾... ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ

(١) الحاقة: ٤-٦.

﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾[1].. فقد جمع المال والبنون فى كونهما زينة الحياة الدنيا، وجمعت الخمر والميسر والأنصاب والأزلام فى كونها رجس من عمل الشيطان، وجمع الشمس والقمر فى الحسبان، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾[2]. كما جمع النجم والشجر فى السجود والانقياد لله جل وعلا. وفى جمع أمرين مختلفين، أو أمور مختلفة فى حكم واحد، حث للمخاطب على التدبر والتأمل، ويزداد ذلك عندما يضم إلى هذا الجمع التفريق، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾[3].. حيث جمع الليل والنهار فى حكم واحد، وهو كونهما آيتين من آيات الله تعالى، ودليلين على قدرته وحكمته فى خلقه، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾[4] ثم فرق بين جهتى الجمع، فالليل يكون مظلما: (فمحونا آية الليل) والنهار يكون مضيئا: (وجعلنا آية النهار مبصرة) وعندئذ يكون الابتغاء من فضل الله نهارًا، ويكون السكن ليلًا، ونعلم من جعل الليل والنهار آيتين، ثم محو إحداهما وهى آية الليل، وجعل الأخرى مبصرة وهى آية النهار، نعلم من خلال ذلك، وهو الجمع والتفريق، عدد السنين والحساب.

ويزداد التأمل والتدبر عندما يضم إلى كل من الجمع والتفريق: التقسيم، كما فى قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾[5]. فقد جمع النفوس فى قوله تعالى: (لا تكلم نفس) لأن النكرة فى سياق النفى تعم، ثم فرق

---

(١) الآيات بالترتيب: الكهف ٤٦، والمائدة ٩٠، والرحمن ٥، ٦.

(٢) يونس ٥.

(٣) الإسراء آية ١٢.

(٤) فصلت آية ٣٧.

(٥) سورة هود الآيات: ١٠٥-١٠٨.

فجعل من النفوس التى جمعها فى حكم واحد وهو نفى التكلم عنها إلا بإذن الله تعالى، فرق فجعل منها شقيا وسعيدا، ثم قسم بأن أضاف إلى الأشقياء ما لهم من عذاب النار (لهم فيها زفير وشهيق) وأضاف إلى السعداء ما لهم من نعيم الجنة (عطاء غير مجذوذ) وبهذا الجمع مع التفريق ثم التقسيم يقبل المخاطب على تأمل المعانى وتدبرها.

وهكذا يتجلى لنا أن وراء هذه الألوان: الجمع، ثم الجمع من التفريق، ثم الجمع من التفريق والتقسيم أغراضا بلاغية يقتضيها المقام، ويستدعيها الحال، حيث تجمع الأمور المختلفة فى حكم واحد، ويستدعى هذا الجمع تدبر تلك الأمور المختلفة، وتدبر الحكم الذى جمعت فيه، ثم يفرق بين هذه الأمور المجتمعة فى حكم واحد، يفرق بين جهات جمعها، فيزداد التأمل، والحث على التدبر، وبعد الجمع والتفريق يأتى التقسيم، فيكون فى ذلك المزيد من الحث على التأمل وتدبر تلك الآيات الكريمة التى جاء فيها الجمع مع كل من التفريق والتقسيم، والوقوف على الأسرار والمزايا البلاغية الكامنة وراء هذه الألوان البديعية.

❊ ❊ ❊

تجاهل العارف

رحم الله الإمام السكاكى فقد سمى هذا اللون البديعي: "سوق المعلوم مساق غيره" تنزيها لله عز وجل، وتأدبا مع أساليب القرآن، فإن من شواهده قوله تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾[1]، وقوله عز قائلا: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[2]، لا يليق أن يقال إن الاستفهام فى الآيتين الكريمتين من قبيل تجاهل العارف، بل ينبغى أن ينزه الله عز وجل عن هذه التسمية فيقال إنه من قبيل سوق المعلوم مساق غيره لنكتة بلاغية، والنكتة فى الآية الأولى: التنبيه إلى حقيقة ما بيد موسى ـ عليه السلام ـ ورفع الهيبة والخوف، فهى الآن عصا بيده، وستصبح حية تسعى، ثم ثعبانا مبينا، سيكون لها شأن عظيم، وستلقف ما

(١) سورة طه آية ١٧.

(٢) سورة المائدة آية ١١٦.

يصنعه السحرة، وفى الآية الثانية جاء الاستفهام مرادًا به التقرير بالقول، وقد ولى الهمزة غير الفعل لمزيد من الإنكار، فهذا قول لم يقل، لم يقله عيسى ـ عليه السلام ـ وقد أخرج الكلام فخرج ما إذا كان هنالك قول قيل ويراد التقرير بقائله لمزيد من الإنكار والتوبيخ.

فقد سيق المعلوم مساق غيره فى الآيتين الكريمتين لنكتة بلاغية، وقد عرف البلاغيون هذا اللون بذلك: "سوق المعلوم مساق غيره لنكتة" وكان السكاكى رحمه الله دقيقا، عندما أطلق هذه التسمية على هذا اللون البديعى، ولم يستسغ تسميته "تجاهل العارف".. وهذه النظرة ينبغى أن تعمم على كل المصطلحات البلاغية، وما يأباه الذوق السليم منها ينبغى أن يعدل عنه إلى ما هو مقبول ومستساغ، فمثلا: الاستفهام الإنكارى التوبيخى، يكون لما هو واقع، وإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾... ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾[1] وجدنا استفهامًا من هذا النوع، فالفعل واقع، وموسى ينكر خرق السفينة وقتل الغلام، ولا يليق أن يقال: إن موسى ـ عليه السلام ـ يوبخ العبد الصالح "استفهام إنكارى توبيخي" وإنما يقال: إنه يلومه ويعاتبه، وهذا هو نفس المعنى البلاغى للاستفهام، لكن فيه تأدبا وتحاشيا للفظة "توبيخي" التى لا يليق إطلاقها على العبد الصالح، فيعدل عنها إلى: يعاتبه ويلومه.

ومن شواهد هذا اللون البديعى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾... ﴿ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾... ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[2]. ففى الآية الأولى سبق المعلوم مساق غيره؛ إذ المشركون يعلمون من هو محمد ﷺ يعرفون صدقه وأمانه وأخلاقه، وهم الذين سموه قبل البعثة: الصادق الأمين، ولكنهم فى هذه الآية الكريمة، يكتمون ما يعرفون، ويعدلون عنه إلى: (هل ندلكم على رجل) وكأنهم لا يعرفون عنه ﷺ سوى أنه رجل ما، إن

---

(١) سورة الكهف الآية ٧١ والآية ٧٤.

(٢) الآيات بالترتيب: سبأ ٧، والأنبياء ٦١ـ٦٣، وسبأ ٢٤.

النكرة هنا "رجل" المراد بها: التحقير والحط من شأن النبى ﷺ هذا مراد الكفرة، وهذا هو السر البلاغى لسوق المعلوم مساق غيره فى الآية الكريمة، إنه يصور مدى عناد الكفرة ومكابرتهم، وبعدهم عن الحق والهدى.

وفى الآية الثانية يعلم الكفار أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو الذى يذكر الأصنام وهو الذى حطمها، وجاءوا به على أعين الناس، ليشهد الجميع ما يكون منهم، وما يكون منه، ثم كان هذا السؤال: (أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم)؟ سيق المعلوم لهم مساق غيره للتقرير بالفاعل، لأنه إذا أقر بفعل ذلك بآلهتهم حل به العقاب، وهذا ما يريدونه ويتطلعون إليه.

وفى الآية الثالثة لا يخفى من المهتدى من الفريقين، ومن الضال منهما، الله عز وجل ورسوله يعلم من المهتدى ومن الضال، ولكن الكلام سيق مساق غيره: "وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين" تعريضًا بالكفرة وبضلالهم، وبعدهم عن الهدى، وبتدبر النظم الكريم نرى المبالغة فى هدى المهتدين، وضلال المضلين، حيث صورت الآية المهتدى وقد اعتلى الهدى كما يعتلى الفارس جواده، فينظر إلى الأشياء من علٍ، فتتضح أمامه، ولا تخفى عليه، ذلك هو المؤمن المهتدى، صار المنهج أمامه واضحًا، وصراط الله المستقيم منيرًا ساطعًا، أما الضال فقد انغمس فى ضلاله، وهوى به كفره، فصار يتخبط فى الظلمات، لا يبصر خيرا، ولا يجد لنفسه سبيلا، ولا يعرف له غاية، ونكتة أخرى نجدها وراء سوق المعلوم مساق غيره فى الآية الكريمة وهى ترغيب هؤلاء الكفرة واستمالتهم نحو الهدى، لأن عدم مواجتهم بضلالهم فيه حث لهم على النظر والتأمل ليدركوا من المهتدى ومن الضال، حتى إذا ما تجلى لهم ذلك من خلال النظر والتدبر كان أدعى للقبول الهداية.

❊ ❊ ❊

تأكيد المدح بما يشبه الذم.. والذم بما يشبه المدح

هذان اللونان قائمان على مفاجأة السامع بغير ما يترقب، فالمراد باللون الأول، كما عرفه البلاغيون: أن يستثنى من صفة ذم منفية صفة مدح، كأن يقال: لا عيب فى فلان

سوى أنه كريم، والذى ألفه الناس فى مثل هذا أن يكون بعد أداة الاستثناء ذم، ولكنه جاء مدحا على غير ما ألف الناس سماعه.

والمراد بالثانى "تأكيد الذم بما يشبه المدح": أن يستثنى من صفة مدح منفيه صفة ذم، كأن يقال: لا خير فى فلان سوى أنه لئيم، وهذا أيضا جار على غير ما ألف الناس، إذ ينتظرون أن يكون بعد أداة الاستثناء مدح، فإذا بهم يفاجأون بأنه ذم، وبهذا يتأكد الذم بما يشبه المدح، كما تأكد المدح بما يشبه الذم فى اللون الأول.

ومن شواهد هذين اللونين، قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾... ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾... ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾... ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾... ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾... ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا﴾... ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾[(١)].

يتجلى فى هذه الآيات الكريمة هذان اللونان، حيث نفى فى الآية الأولى سماع اللغو والتأثيم، وهذا مدح، ثم استثنى منه قول السلام: (إلا قيلا سلاما سلاما).. ونفى فى الآية الثانية سماع اللغو: (لا يسمعون فيها لغوا) وهذا مدح، ثم استثنى منه "السلام": (إلا سلاما) والذى استثنى فى الآيتين مدح تأكد به المدح الأول، ويلاحظ فى آية سورة "مريم" أنه قد عطف على الجملة التى تأكد فيها المدح جملة: (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) وهذه الجملة تضاعف بها تأكيد المدح كما هو واضح.

---

(١) الآيات بالترتيب: الواقعة ٢٥، ٢٦، ومريم ٦٢، والأعراف ١٢٦، والمائدة ٥٩، والبروج ٤ـ٨، والنبأ ٢١ـ٢٦، والحاقة ٣٠ـ٣٦.

وفى آيات سور: (الأعراف والمائدة والبروج) نفى النقم وهو العيب، ونفيه مدح: (**وما تنقم منا.. هل تنقمون منا.. وما نقموا منهم**) ثم جاء بعد هذا المدح مدح آخر بعد أداة الاستثناء: "**آمنا بآيات ربنا.. آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل.. أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد**) فما قبل الاستثناء مدح وهو نفى النقم بمعنى العيب والطعن، وما بعد أداة الاستثناء مدح أيضا وهو الإيمان بالله وآياته وما أنزل.

وفى آيات سورتي: "**النبأ والحاقة**" نفيت صفتان كلتاهما مدح، وهما: "ذوق البرد والشراب" و"الطعام": (**لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا**).. (**فليس له اليوم ههنا حميم ولا طعام**) ونفى المدح ذم، ثم استثنى من هذا الذم ذم آخر، وقد كان المألوف والمتوقع سماعه بعد أداة الاستثناء أن يكون مدحا ولكنه جاء ذما فتأكد به الذم الأول: (**إلا حميما وغساقا**).. (**إلا من غسلين**) وقوله تعالى: (**جزاء وفاقا**) بعد تأكيد الذم بما يشبه المدح فى سورة "النبأ" فيه مزيد من تأكيد الذم وبيان لوجه استحقاقهم إياه.

وهكذا يتجلى لنا أن مجيء المدح أو الذم مؤكدا بهذه الطريقة ترجع بلاغته إلى أنه بمثابة الدعوى التى أقيم عليها الدليل، إذ ينفى الذم ويستدل على نفيه بإثبات مدح آخر، وينفى المدح ويستدل على نفيه بإثبات ذم آخر، كما أن تأكيد المدح أو الذم بهذه الطريقة فيه مفاجأة ومباغتة لمن يسمعه، حيث جاء تأكيد المدح بأسلوب ألف الناس سماعه فى الذم، وجاء تأكيد الذم بأسلوب ألفوا سماعه فى المدح.

* * *

المذهب الكلامى

المذهب الكلامى هو: إيراد الحجج والبراهين لصحة الدعاوى التى يدعيها المتكلم، وهذا اللون وإن جاء الكثير منه متكلفا ـ كما قال عبد الله بن المعتز ـ إلا أنه فى آيات الذكر الحكيم جاء مستساغا، وله مزاياه البلاغية، حيث تثبت أسس الدين وأصوله بالبراهين والحجج العقلية القاطعة، على نحو ما نرى فى هذه الآيات الكريمة:

قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ

لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾... ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾... ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ ... ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾... ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾(١).

ففى آيتى سورة: "الأنبياء" نرى هذا الاستفهام الإنكارى فى الآية الأولى، حيث أنكر أن يكون هؤلاء الكفرة قد اتخذوا آلهة من الأرض ينشرون الموتى، وإذا كانوا لا يستطيعون إحياء الموتى، فهم ليسوا بآلهة، إذ لا يكون إلها إلا من يقدر أن يحيى الموتى، فقد استدل فى هذه الآية الكريمة على نفى أن يكون ما اتخذوه من دون الله آلهة ـ استدل على ذلك ـ بأنهم لا يستطيعون إحياء الموتى.

ثم جاءت الآية الثانية مؤكدة نفى تعدد الآلهة، مثبتة أن الله إله واحد، مستدلة على ذلك بعدم فساد السموات والأرض، إذ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، أي: لخرجتا عن نظامهما المشاهد المرئى، لوجود التمانع بينهم على وفق العادة عند تعدد الحاكم من التمانع فى الشيء وعدم الاتفاق عليه، ولكن السموات والأرض لم تفسدا، فدل ذلك على أن الله إله واحد سبحانه وتعالى عما يصفون.

وفى آية سورة: "المؤمنون" استدل على نفى الولد، وتعدد الآلهة، بأن الإله يذهب بما خلق ويستأثر به، وعندئذ يعلو بعضهم على بعض لو تعددوا، ويكون التنازع، ويفسد الكون، ولكن شيئا من ذلك لم يكن فدل ذلك على أن الله إله واحد سبحانه وتعالى، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا.

وفى آية سورة "الروم" استدل على البعث وإعادة الخلق، بأن الله تعالى هو الذى بدأ

---

(١) الآيات بالترتيب: الأنبياء ٢١، ٢٢، والمؤمنون ٩١، والروم ٢٧، والمائدة ١٨، والأنعام ٧٥، ٧٦.

الخلق، والإعادة أهون من البدء، فالذى يقدر على الخلق ابتداء يقدر على إعادة الخلق، لأن الإعادة أدخل فى الإمكان من البدء.

وفى آية سورة: "المائدة" يستدل على إبطال مزاعم اليهود والنصارى من ادعائهم بأنهم أبناء الله وأحباؤه، بأن الأبناء والأحبة لا يعذبون، فالوالد لا يعذب ولده، والحبيب لا يعذب حبيبه، ولكن اليهود والنصارى يعذبون بذنوبهم، وهذا يدل على أنهم بشر ممن خلق ـ سبحانه وتعالى ـ يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء.

وفى آيات سورة: "الأنعام" يرى الله عز وجل إبراهيم ـ عليه السلام ـ ملكوت السموات والأرض، ويفكر إبراهيم عليه السلام فى هذا الملكوت، ويرى كوكبا عندما جن عليه الليل، فيقول: (**هذا ربي**) ويظل يرقبه، فلما أفل أيقن أنه ليس برب، لأن الرب لا يغيب، ولذا قال ـ عليه السلام ـ عندما غاب الكوكب: (**لا أحب الآفلين**).

ويرقب إبراهيم الكون، فلما بزغ القمر ورأى نوره، قال: "**هذا ربي**" فلما أفل علم أنه ليس برب لأن الرب لا يأفل، وقال: ﴿ **لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ** ﴾[1]... ويرقب ـ عليه السلام ـ الملكوت، فلما بزغ ضوء الشمس ورآها مشرقة قال: ﴿ **هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ** ﴾[2] وظل يرقبها، فلما أفلت علم أنها ليست برب، لأن الرب لا يأفل، وعندئذ تبرأ من الشرك وأهله، ووجه وجهه للذى فطر السموات والأرض، ﴿ **فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ** ﴾[3].

وبهذا يتجلى لنا أن "المذهب الكلامي" تحريك للعقول كى تتدبر وتتأمل، فتصل من خلال تلك الأدلة والبراهين، إلى المعانى التى يراد تأصيلها وإثباتها، وما من ريب

---

(١) سورة الأنعام الآية ٧٧.

(٢) سورة الأنعام الآية ٧٨.

(٣) سورة الأنعام: الآيتان: ٧٨، ٧٩.

فى أن تلك المعانى التى تثبت وتتحقق بالبراهين والأدلة، تكون أوقع فى النفس وأرسخ بالوجدان، فتثمر وتؤتى أكلها.

* * *

الجناس

الجناس فى عرف البلاغيين هو: "تشابه اللفظين نطقا واختلافهما معنى" كما فى قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾[1]. فقد اتحد لفظا: "الساعة" و"ساعة" نطقا واختلفتا معنى، إذ المراد بالساعة الأولى: القيامة، والمراد بالساعة الثانية: المدة المعروفة من الزمن.

وترجع بلاغة الجناس إلى حسن الإفادة، مع أن الصورة صورة التكرير والإعادة، فهو يعيد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة ويوهمك عدم وجودها، وقد أوجدها وأعطاها، ويوهمك بالتكرار وبعدم الزيادة وقد أحسن الزيادة ووفاها[2].

هذا والجناس نوعان: (١) جناس تام. (٢) وجناس غير تام.

فالجناس التام: ما اتفق فيه اللفظان المتجانسان فى أربعة أمور: فى نوع الحروف، وفى عددها وهيآتها وترتيبها، والجناس غير التام: ما اختلف فيه اللفظان المتجانسان فى واحد أو أكثر من الأمور المذكورة.

ومن شواهد الجناس التام قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾... ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[3]، حيث وقع الجناس فى الآية الأولى بين "الساعة" و"الساعة" واللفظان قد اتفقا فى عدد الأحرف ونوعها وهيآتها وترتيبها، ووقع الجناس فى آيتى سورة النور بين: "الأبصار" فى الآية الأولى، فهى جمع "بصر" ومعناه: "النظر" وبين "الأبصار" فى الآية الثانية، إذ معناها:

---

(١) سورة الروم آية ٥٥.

(٢) انظر أسرار البلاغة ٨، ١٧أ

(٣) الآيات بالترتيب: الروم ٥٥، والنور ٤٣، ٤٤.

"العقول" فالكلمتان اتفقتا لفظا، واختلفتا معنى، وقد اتفقتا فى الأمور الأربعة المذكورة، نوع الحروف وعددها وهيآتها وترتيبها[1].

والجناس غير التام: ما اختلف فيه اللفظان المتجانسان فى واحد أو أكثر من الأمور الأربعة المذكورة، فإن كان الاختلاف فى نوع الأحرف، سمى الجناس: "الجناس المضارع أو اللاحق" يسمى "مضارعًا" إن تقارب المختلفان فى المخرج كما فى قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾[2]، فبين: "ينهون" و"ينأون" جناس غير تام، مضارع، حيث اختلفت الكلمتان فى حرف واحد، وتقارب مخرجا الحرفين، فهو فى الأولى: حرف الهاء، وفى الثانية: حرف الهمزة، ومخرجهما الحلق.

فإن تباعد المختلفان فى المخرج سمى الجناس "لاحقًا" كما فى الآيات الكريمة:

---

(١) ويلاحظ أن الكلمتين المتجانستين فى الآيات الكريمة، قد اتفقتا فى نوع الكلمة فهما فى آية سورة "الروم": "الساعة" و"ساعة" اسمان، وفى آيتى سورة "النور" "بالأبصار" و"الأبصار" اسمان أيضا.. اتفقت الكلمتان فى نوع الكلمة فضلا عن اتفاقهما فى الأمور الأربعة المذكورة، ويسمى هذا الجناس التام الذى اتفقت فيه الكلمتان فى نوع الكلمة: الجناس المماثل.
فإذا اتفقت الكلمتان فى الأمور الأربعة المذكورة واختلفتا فى نوع الكلمة بأن جاءت إحداهما اسما والأخرى فعلا أو حرفا سمى الجناس عندئذ: الجناس المستوفي، كما فى قول الشاعر:

وسميته يحيى ليحيا فلم يكن ... إلى رد أمـر الله فيه سبيـل

وكما فى قول الآخر:

ولـو أنَّ وصـلًا علَّلُوه بقـربـه ... لما أنَّ من حمل الصَّبابةِ والجَوى

"فأنَّ" الأولى حرف، و"أنَّ" الثانية فعل ماض، مصدره: "أنين".
وإذا اتفقت الكلمتان فى الأمور الأربعة، وكانتا مركبتين، أو إحداهما مركبة والأخرى مفردة، سمى هذا الجناس التام: جناس التركيب، أو الجناس المركب، كما فى قول البستي:

إلى حَتْفِى سَعَى قَدَمِى ... أَرَى قَدَمِى أَرَاقَ دَمِى

وقوله:

إذا ملك لم يكن ذاهبة ... فدعـه فدولـته ذاهبـة

وقول الآخر:

وكم لجباه الراغبين إليه من ... مجال سجود فى مجالس جود

(٢) سورة الأنعام آية ٢٦.

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ ﴾... ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾... ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾... ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ﴾... ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾(١)، ففى هذه الآيات الكريمة جناس غير تام "لاحق" بين: "همزة ولمزة" وبين: "سبأ ونبأ" وبين: "تفرحون وتمرحون" وبين "أمر وأمن" وبين: "شهيد وشديد" حيث اختلفت كل كلمتين فى حرف واحد ـ كما هو واضح ـ وتباعد الحرفان المختلفان مخرجا.

وإن كان الاختلاف فى عدد الأحرف، سمى الجناس: "الجناس الناقص" كما فى قوله تعالى: ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾(٢)، حيث جاء الجناس بين: "الساق" و"المساق" وقد اختلفت الكلمتان فى عدد الأحرف، فزادت الكلمة الثانية عن الأولى حرفا(٣).

---

(١) الآيات بالترتيب: الهمزة ١، ٢، والنمر ٢٢، وغافر ٧٥، والنساء ٨٣، والعاديات ٦ـ٨.

(٢) سورة القيامة الآيتان: ٢٩، ٣٠.

(٣) إحدى الكلمتين زادت عن الأخرى حرفا واحدا، ومن ذلك قول أبى تمام:

يمدون من أيد عواصٍ عواصـمٍ ... تصول بأسياف قواضٍ قواضـبِ

حيث وقع الجناس بين "عواص" و"عواصم" وبين: "قواض" و"قواضب"، وإحدى الكلمتين المتجانستين قد زادت عن الأخرى حرفا واحدا، وأقصى ما تصل إليه الزيادة بين الكلمتين حرفان، كما فى قول حسان بن ثابت رضى الله عنه:

وكنا متى يغزُ النبى قبيلةً ... نَصِلْ جانبيه بالقَنَا والقَنَابِلِ

حيث وقع الجناس بين "القنا" وهى الرماح، و"القنابل" جمع قنبلة وقنبل بفتح القاف، وهى الجماعة من الناس أو الخيل، وقد زادت الكلمة الثانية عن الأولى حرفين، ومنه قول الخنساء:

إن البكـاءَ هـو الشِّفَـا ... ءُ من الجَوَى بين الجَوَانِحِ

وترجع بلاغة هذا اللون من الجناس إلى حصول الفائدة بعد أن يخالطك اليأس، لأنك ـ كما يقول عبد القاهر ـ تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة، كالميم من "عواصم" والباء من "قواضب" والباء واللام من "القنابل" والنون والحاء من "الجوانح" تتوهم أنها هى الكلمة التى مضت، وقد جيء بها للتوكيد، حتى إذا تمكن آخرها فى نفسك، ووعاه سمعك، انصرف عنك ذلك التوهم، وفى ذلك حصول لفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها.. انظر أسرار البلاغة ص ٢٠.

وإن كان الاختلاف فى هيآت الأحرف، سمى الجناس: "الجناس المحرف" كما فى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾... ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾(١).. فبين: "منذرين والمنذرين" جناس محرف، "فمنذرين" اسم فاعل، و"المنذرين" اسم مفعول، وقد اختلفت الكلمتان فى هيئة الأحرف، وكذا بين (اتبعوا) المبنى للمفعول و(اتبعوا) المبنى للفاعل جناس محرف، فالاختلاف بينهما فى هيئة الأحرف، أي: فى ضبطها كما هو واضح.

وإن اختلفت الكلمتان فى ترتيب الأحرف سمي الجناس: "جناس القلب" كما فى قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾(٢).. حيث وقع الجناس بين كلمتي: "بين وبني" وهو جناس قلب، لأن الكلمتين قد اختلفتا فى ترتيب الأحرف، فكل كلمة منهما تتكون من ثلاثة أحرف: "الباء والياء والنون" وقد بدأت أولاهما بالباء ووليتها الياء ثم النون: "بين" وبدأت الثانية بالباء ووليتها النون ثم الياء: "بني" فالاختلاف بينهما ـ كما نرى ـ فى ترتيب الأحرف.. ومن ذلك قول النبى ﷺ: "اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا"(٣).. ومنه: "رَحِمَ اللهُ امْرَأً أَمْسَكَ مَا بَيْنَ فَكَّيْهِ وأَطْلَقَ مَا بَيْنَ كَفَّيْهِ" فبين: "عوراتنا وروعاتنا" جناس قلب، وكذا بين "فكيه وكفيه" حيث اختلفت كل كلمتين فى ترتيب الأحرف.(٤).

---

(١) الآيات بالترتيب: الصافات ٧٢ـ٧٤ والبقرة ١٦٦.

(٢) سورة طه آية ٩٤.

(٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده برقم (٤٧٨٥) وابن ماجة فى سننه برقم (٣٨٧١) ولفظه فيهما: "اللهم استر عوراتى وآمن روعاتي).

(٤) ويلاحظ أن القلب بين الكلمتين فى الآية الكريمة، وفى الحديث الشريف، والقول المذكور، قلب لبعض الأحرف: "بين بني" و"عوراتنا وروعاتنا" و"فكيه وكفيه" وقد يكون القلب قلبا لكل أحرف الكلمة، كما فى قولهم: "فلان حسامه فتح لأوليائه حتف لأعدائه".. وإذا وقعت إحدى الكلمتين فى أول الكلام والأخرى فى آخره سمي: "بالجناس المقلوب المجنح كما فى قول الشاعر:

لاح أنوار الهدى ... فى كفه من كل حال

هذا ومما اختلفت فيه الكلمتان فى أكثر من واحد من الأمور الأربعة المذكورة: "نوع الأحرف وعددها وهيآتها وترتيبها".. قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[1]، حيث اختلفت الكلمتان فى نوع الأحرف، اختلفتا فى حرف، إذ الباء فى "يحسبون" تقابل النون فى "يحسنون" كما اختلفتا فى هيئة الأحرف، أي: فى ضبطها، فالياء في: "يحسبون" مفتوحة، وفى "يحسنون" مضمومة، والسين فى الأولى مفتوحة، وفى الثانية مكسورة، وقد سمى البلاغيون مثل هذا الجناس: "الجناس المصحف" أو الجناس المرسوم، وهو أن تتماثل الكلمتان المتجانستان: خطًا ورسمًا، وتختلفان نقطا وضبطا، كما أطلقوا هذه التسمية أيضا ـ الجناس المصحف أو المرسوم ـ على المتماثلين رسما وخطا، المختلفين نقطا فقط، ففى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾[2].. اختلفت الكلمتان: "يسقين ويشفين" نقطا، وتماثلتا رسما وخطا، فهو جناس مصحف أو جناس مرسوم، أو مضارع، حيث اختلفتا فى نوع الحرف ـ كما هو واضح ـ وتقارب الحرفان المختلفان: "السين والشين" مخرجا.

ويلحق البلاغيون بالجناس أمرين:

أولهما: أن يجمع اللفظين "الاشتقاق" بأن يرجعا إلى أصل واحد فى اللغة، ويسمى هذا: "جناس الاشتقاق" كما نرى فى الآيات الكريمة: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾.. ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾... ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾... ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾... ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ

(١) سورة الكهف الآيتان: ١٠٣، ١٠٤.

(٢) سورة الشعراء الآيتان: ٧٩، ٨٠.

وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾[1]. ففى هذه الآيات الكريمة جمع الاشتقاق بين لفظي: "انصرفوا وصرف" فالأصل فيهما واحد، وهو الذهاب عن الشيء، أما هم فقد انصرفوا عن الذكر، وأما قلوبهم فقد صرفها الله تعالى عن الخير.. كما جمع الاشتقاق بين: "تتقلب والقلوب" فى آية سورة "النور"، وبين: "أقم والقيم" فى آية سورة "الروم" وبين "الربا ويربي" فى آية سورة "البقرة" وبين: "روح وريحان" فى آية سورة "الواقعة" فكل كلمتين من هذه الكلمات ترجعان إلى أصل واحد، فبينهما: "جناس الاشتقاق".

ثانيهما: أن يجمع اللفظين ما شابه الاشتقاق، ومعنى: مشابهة الاشتقاق: أن يوجد فى اللفظ جميع فى ما فى الآخر من الحروف أو أكثرها، ولكن لا يرجعان إلى أصل واحد، كما فى الاشتقاق، ولهذا كان شبيها بالاشتقاق وليس إياه، ويتجلى لنا ذلك فى هذه الآيات الكريمة: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَارِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾... ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأَخِرَةِ ﴾... ﴿ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴾ ... ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾[2].فبين: "يرى ويواري" فى آية سورة "المائدة" شبه جناس الاشتقاق، لأن "يرى" مصدره: "إراءة" و"يواري" مصدره: "مواراة" فهما لا يرجعان إلى أصل واحد.

وكذا القول في: "الأرض ورضيتم" و"قال والقالين" وجنى والجنتين" فالأرض والرضا، لا يرجعان لأصل واحد، و"قال" من القول، و"قالين" من القلى وهو البغض والكراهية، و"الجنى": الثمار، فهو غير معنى "الجنة"، فكل كلمتين من هذه الكلمات ـ وإن تشابهت حروفهما ـ مختلفتان، لا يرجعان إلى أصل واحد، فبينهما شبه جناس الاشتقاق.

* * *

(١) الآيات بالترتيب: التوبة ١٢٧، والنور ٣٧، والروم ٤٣، والبقرة ٢٧٦، والواقعة ٨٨، ٨٩.

(٢) الآيات بالترتيب: المائدة ٣١، والتوبة ٣٨، والشعراء ١٦٨، والرحمن ٥٤.

السجع

إطلالة تاريخية:

عرف السجع منذ العصر الجاهلى، وقبل أن توضع مصطلحات العلوم، وكان معظمه يصدر عفوا بلا تكلف، وإلى جانب هذا السجع الفطرى، وجد نوع آخر من السجع، عرف بسجع الكهان، وهو سجع متكلف، يعمد إليه الكهان ويتكلفونه، ويقصدون به تقرير ما يخبرون به من غيب، كما فى قول سطيح بن مازن فى تعبير رؤيا ربيعة بن نصر اللخمى أحد ملوك اليمن: "أحلف بما بين الحرتين من حنش، ليهبطن أرضكم الحبش، وليملكن ما بين أبين إلى جرش".

نهى النبى ﷺ عن سجع الكهان:

ويستمر السجع الفطرى العفوى فنجده فى عصر صدر الإسلام، وفى مختلف العصور الأدبية بعد ذلك، شأنه شأن سائر ألوان البديع، ظلت قوية عفوية، حتى أواسط القرن الرابع الهجرى، حيث دب الفساد فى اللغة، حين امتزج العرب بالعجم، فكان الإسراف والإفراط، وظهرت الصنعة والتكلف، ليس فى السجع فحسب، بل فى مختلف الفنون البلاغية.

أما سجع الكهان، فقد اختفى منذ صدر الإسلام، حيث نهى عنه النبى ﷺ، حين قضى فى جنين امرأة، ضربتها أخرى، فسقط ميتا، بغرة، أى: بعبد أو أمة على عاقلة الضاربة، فقال رجل منهم: "كيف ندى من لا شرب ولا أكل، ولا صاح فاستهل، ومثل ذلك دمه يطل"(١) فقال ﷺ: "أَسَجْعًا كَسَجْعِ الكُهَّانِ؟.. إياكم وسَجْعَ الكُهَّانِ"(٢). وسبب نهى النبى ﷺ عن سجع الكهان، يرجع إلى ما فيه من التكلف والتصنع، وما يتضمنه من أحكام تخالف تعاليم الإسلام، وما يقصد إليه الكاهن من التزييف وتزيين الباطل كى يعلو على الحق، فهو ﷺ لم ينه عن السجع مطلقا، بل نهى عن سجع الكهان.

(١) دمه يطل أى: يهدر، فلا دية له.

(٢) رواه أبو داود فى الديات باب "دية الجنين" رقم ٤٥٧٤ ولفظه: "أَسَجْعَ الجاهليةِ وكَهَانَتَهَا".

آراء العلماء فى السجع وفى جواز إطلاقه على ما فى القرآن من فواصل:

السجع كغيره من ألوان البديع، يحسن ويستجاد إذا جاء عفوا وبلا تكلف، ويعاب إذا طغت عليه الصنعة وجاء متكلفا، لأنه عندئذ يشبه سجع الكهان، وقد جاء السجع العفوى فى كلام النبى ﷺ من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: "يقول ابْنُ آدم: مالى مالى، وهل لك يا ابْنَ آدم من مالك إِلَّا ما أكلْتَ فأفْنَيْتَ أو لَبِسْتَ فأبْلَيْتَ أو تَصَدَّقْت فَأَمْضَيْتَ؟"(١).

وقوله ﷺ: "أيها الناس، أَفْشُوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وصَلُّوا بالليل والنَّاسُ نيامٌ، تدخلوا الجنة بسلام"(٢) كما جاء فى أقوال الصحابة رضوان الله عليهم، يقول عبد الله بن عباس فى وصف أبى بكر ـ رضى الله عنهم ـ: "رحم الله أبا بكر كان والله للقرآن تاليا، وعن المنكر ناهيا، وبذنبه عارفا، ومن الله خائفا، وعن الشبهات زاجرا، وبالمعروف آمرا، وبالليل قائما، وبالنهار صائما، فاق أصحابه ورعا وكفافا، وسادهم زهدا وعفافا".

واختفى سجع الكهان بمجيء الإسلام، حيث نهى عنه النبى ﷺ وإذا كان سجع الكهان قد اختفى، فقد ظهر بعد وفاة النبى ﷺ سجع مدعى النبوة، وكان هذا السجع أكثر سماجة فى التركيب وأشد اضطرابًا فى النظم، وأبعد فى التكلف من سجع الكهان، ولكنه لم يدم طويلا، إذ سرعان ما قضى على المرتدين ومدعى النبوة.

أما عن إطلاق "السجع" على ما جاء منه فى القرآن، فقد اضطربت فى ذلك آراء العلماء، فمنهم من منع إطلاق مصطلح "السجع" على ما جاء منه فى القرآن، تأدبا حيث شاع إطلاق هذا المصطلح على أقوال الكهان، ولأن السجع فى الأصل هديل الحمام ونحوه، ومنهم من إطلق عليه اسم "الفواصل" بدل "السجع"، ومنهم من أجاز إطلاق "السجع" على ما فى القرآن الكريم، لأنه قد كثر فيه، فلا تكاد سورة من سوره تخلو منه، بل إن من سور القرآن ما جاءت جميعها مسجوعة، كسورة "القمر" وسورة "الرحمن" وغيرهما، ولأن النبى ﷺ لم ينه عنه مطلقا، بل نهى ـ كما بينا ـ عن سجع الكهان.

---

(١) رواه مسلم فى الزهد ٣ (٢٩٥٨) والترمذى فى الزهد أيضًا ٣١ (٢٣٤٢).

(٢) رواه الترمذى فى الأطعمة ١ (٣٢٥١) وفى الإقامة ١٧٤ (١٣٣٤).

والذى نراه أن هذا اللون البديعى موجود فى آيات الذكر الحكيم، بل كثر فيه ولا يتأتى السكوت عنه والتغافل عن دراسته، خاصة وأن ما فى القرآن منه قد بلغ الغاية فى الحسن، وله أسراره ومزاياه البلاغية، وأما ما نهى عنه النبى ﷺ فهو عن سجع الكهان، والقرآن بمنأى عن ذلك ومعزل، وإذا كان لفظ "السجع" فى الأصل يطلق على هديل الحمام ورجعه، فإن هذا الإطلاق لا يلتفت إليه عند دراسة هذا اللون فى القرآن الكريم أو فى كلام البشر.

ولذا لا نرى ما يمنع من إطلاق مصطلح "السجع" على ما جاء من أساليبه فى القرآن الكريم، وسواء سمى ما جاء منه فى القرآن "فواصل" كما يرى بعض العلماء، أو سمى "سجعا" كما يرى آخرون، فإن الذى يعنينا الآن أن ندرس هذا اللون فى آيات الذكر الحكيم، ونعرف أنواعه ونقف على أسراره ومزاياه البلاغية.

عرف البلاغيون السجع بأنه: "تواطؤ الفاصلتين أو الفواصل على حرف واحد أو حرفين متقاربين، أو حروف متقاربة" وذكروا أنه يقع فى الشعر كما يقع فى النثر، وبعضهم يرى أنه لا يكون إلا فى النثر، وبعضهم يرى أن تواطؤ الفاصلتين أو الفواصل ينبغى أن يكون على حرف واحد، فليس من السجع التواطؤ على حروف متقاربة.. وذكروا له أنواعا مختلفة باعتبارات مختلفة، وسيتجلى لنا ذلك من خلال النظر فى آيات الذكر الحكيم.

قال تعالى: ﴿ وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴾ ... ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾... ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾... ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾[1].

فى هذه الآيات الكريمة تواطأت الفواصل على حرف واحد، هو حرف "الراء" فى

(١) الآيات بالترتيب: الطور ١-٤، والعاديات ١-٣، وق ١، ٢، وص ٤-٧.

سورة "الطور" وحرف "الحاء" فى سورة "العاديات" وتواطأت على حروف متقاربة فى آيات سورتى "ق وص" ففى آيتى سورة "ق" تواطأت الفاصلتان على حرفى "الدال" و"الباء" وفى سورة "ص" تواطأت الفواصل على حروف "الباء والدال والقاف" وهى حروف متقاربة.

فما فى سورتى: "الطور والعاديات" سجع باتفاق العلماء، حيث تواطأت الفواصل على حرف واحد، وما فى سورتى: "ق وص" سجع عند بعض العلماء دون بعض، حيث جاءت الفواصل فى آيات السورتين متواطئة على حروف متقاربة، والتواطؤ على حروف متقاربة، يراه بعض العلماء سجعا، ولا يراه البعض الآخر كذلك.

وتتردد كثيرا فى باب السجع هذه الكلمات: "الفقرة والقرينة والفاصلة" فما المراد بكل منها؟: إن الفاصلة هى الكلمة الأخيرة من الفقرة أو القرينة، والفقرة والقرينة بمعنى واحد، وهى الجملة التى تنتهى بالفاصلة، ففى قوله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾[1] القرينة أو الفقرة الآية كلها، كل آية فقرة، أو قرينة، والفاصلة الكلمة الأخيرة فى كل آية، فالفاصلة فى الآية الأولى كلمة "الْقَمَرُ" وفى الآية الثانية كلمة "مُسْتَمِرٌّ".

ونجد السجع باعتبار وزن وتقفية كل من: "القرينة أو الفقرة" والفاصلة، يتنوع إلى: مطرف ومرصع ومتوازٍ، على نحو ما يتجلى فى الآيات الكريمة الآتية:

قال تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾... ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾... ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ ... ﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾... ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾... ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ۝٨٣ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾... ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ۝١١٧ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[2].

---

(١) سورة القمر الآيتان ١، ٢.

(٢) الآيات بالترتيب: نوح ١٣، ١٤ والانفطار ١٣، ١٤، والغاشية، ٢٥، ٢٦، والعاديات ١ـ٥، والغاشية ١٣ـ١٦، ومريم ٨٣، ٨٤، والصافات ١١٧، ١١٨.

نجد فى آيتى سورة "نوح" أن الفاصلتين وهما: "وقارًا وأطوارً" قد اختلفتا وزنًا، واتفقتا رؤيًّا، فوزن "وقارا" يختلف عن وزن "أطوارا" والروى واحد وهو حرف "الراء" ويسمى السجع عندئذ بالسجع "المطرف" وهو ما اختلفت فيه الفاصلتان أو الفواصل وزنا، واتفقتا أو اتفقت رويا.

وفى آيتى سورة "الانفطار" وآيتى سورة "الغاشية" تساوت الفقرتان أو القرينتان وزنًا وتقفية، "فالأبرار" تماثل "الفجار" وزنا وتقفية، و"نعيم" تماثل "جحيم" وزنا وتقفية، وكذا فى آيتى سورة "الغاشية".. "إلينا" تماثل "علينا" وزنا وتقفية، و"إيابهم" تماثل "حسابهم" ويسمى السجع عندئذ سجعًا "مرصعًا" وهو أن يكون ما فى إحدى الفقرتين أو القرينتين من الألفاظ أو أكثره مثل ما يقابله من الأخرى وزنا وتقفية.

وكذا القول فى آيات سورة "العاديات" فالقرائن فى الآيات الثلاث الأولى قد تساوت وتماثلت وزنا وتقفية: ﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾. وفى آيات سورة "الغاشية" نجد أن الفاصلتين فى الآيتين الأولى والثانية، الفاصلتين فقط دون الفقرتين، قد اتفقتا وزنا وتقفية: "مرفوعة" و"موضوعة" ويسمى السجع عندئذ بالسجع "المتوازي" وهو ما اتفقت فيه الفاصلتان فقط وزنا وتقفية، وننظر فى الآية الثالثة مع الرابعة والخامسة، فنجد أن الفاصلة فى هذه الآيات: "موضوعة" و"مصفوفة" و"مبثوثة" قد اتفقت فى الوزن فقط دون القافية، فالأولى على العين، والثانية على الفاء، والثالثة على الثاء، وهى حروف متقاربة وليست متفقة، ويسمى السجع عندئذ بالسجع "الموازن" أو سجع: "الموازنة" وهو ما اتفقت فاصلتاه أو فواصله فى الوزن دون القافية.

ومن هذا الوادى آيتا سورة "مريم" فإن الفاصلتين فيهما "أزًّا" وعدًّا" قد اتفقتا فى الوزن دون القافية، فالأولى على "الزاي" والثانية على "الدال" وهذا هو سجع "الموازنة" أو السجع "الموازن".

وفى آيتى سورة "الصافات" نجد أن الاتفاق فى الوزن، لم يقف عند حد الفاصلة، بل تجاوزها إلى الفقرة أو القرينة، فجاء معظم ما فى القرينتين مُتَّفِقًا فى الوزن دون القافية: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ۝١١٧ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ "فالكتاب" يتفق مع "الصراط" فى الوزن دون القافية، والفاصلة الأولى: "المستبين"

تتفق مع الفاصلة الثانية "المستقيم" وزنا لا قافية، ويسمى السجع عندئذ، سجع "المماثلة" وهو أن يتفق معظم ما فى القرينتين أو الفقرتين فى الوزن دون القافية[1].

وينظر إلى قرائن السجع أو فقره، من حيث طول الفقرة أو قصرها، فنجد السجع بهذا الاعتبار يتنوع نوعين: (١) سجع قصير. (٢) سجع طويل.

فالقصير ما تألف من ألفاظ قليلة، إذ يبدأ بكلمتين، وينتهى إلى تسع كلمات أو عشر كلمات، والطويل ما تألف من ألفاظ طويلة، وتتفاوت درجاته فى الطول، إذ يبدأ بإحدى عشرة كلمة، وينتهى إلى عشرين كلمة فما فوقها، فمن القصير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾... ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾

---

(١) وهذه الأنواع توجد فى الشعر أيضا، كما هى فى النثر ـ وقد عرفنا أن السجع يأتى فى الشعر كما جاء فى النثر عند كثير من البلاغيين. فمن المطرف فى الشعر، قول أبى تمام:

تجلَّى به رُشْدى وأَثْرَت به يدي ... وفاض به ثَمْدِى وأَوْرَى به زَنْدِي

"فرشدى ويدي" مختلفان وزنا، متفقان رويا، أما "رشدى وثمدى وزندي" فمتفقة فى الوزن والروى معا. ومن المرصع قول أبى فراس الحمدانى:

وأفعالُنا للراغبين كرامةٌ ... وأموالُنا للطالبين نهابُ

فقد اتفقت الفقرتان وزنا وتقفية: "أفعالنا للراغبين" و"أموالنا للطالبين" ومن المتوازى قول المتنبى:

فنحن فى جَذَل والروم فى وجَل ... والبر فى شُغل والبحر فى خَجَل

فالشطر الأول مسجوع سجعا متوازيا، والشطر الثانى من السجع المرصع، حيث اتفقت الفاصلتان فقط فى الشطر الأول وزنا وتقفية، أما الشطر الثانى فقد اتفقت قرينتاه فى الوزن والقافية.

ويختص الشعر دون النثر بأنواع السجع الآتية:

١ـ التشطير: وهو أن يجعل كل شطر من شطرى البيت سجعتين بحيث تختلف سجعتا كل شطر عن سجعتى الشطر الآخر فى القافية.. كما فى قول أبى تمام:

تدبيرُ مُعتصمٍ بالله مُنتقمٍ ... لله مُرتقبٍ فى الله مُرتغبِ

٢ـ التصريع: وهو أن يجعل كل شطر من شطرى البيت فقرة، فتكون العروض مقفاة تقفية الضرب.. كما فى قول امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزلِ ... بِسِقْطِ اللِّوَى بين الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

٣ـ أن يكون غير مصرع ولا مشطر... كما فى قول الخنساء:

حامى الحقيقةِ محمودُ الخليقةِ ... سَدِيُّ الطريقةِ نَفَّاعٌ وَضَرَّارُ

وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾(١).

ومن الطويل قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾... ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًاۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾(٢).

ويرى بعض العلماء أن السجع من حيث طول فقره وقصرها ثلاثة أنواع: قصير ووسط وطويل، فالقصير يبدأ بكلمتين وينتهى إلى أربع كلمات، والوسط يبدأ من خمس كلمات وينتهى إلى عشر كلمات، والطويل ما كان فوق ذلك، وعلى الجملة فإن السجع يبدأ بكلمتين وينتهى إلى عشرين أو ما قاربها.

وينظر إلى السجع من حيث تساوى فقره وعدم تساويها فنجده كالآتى:

١ـ ما تساوت فقره أو قرائنه، كما فى قوله تعالى: ﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾... ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾(٣).

٢ـ ما طالت فقرته الثانية طولا لا يخرج بها عن حد الاعتدال، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾(٤).

٣ـ ما تساوت فقرتاه الأولى والثانية، وطالت الثالثة طولا معتدلا، كما فى قوله تعالى: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾(٥).

---

(١) الآيات بالترتيب: المدثر ١ـ٣، والقمر ١ـ٣.

(٢) الآيات بالترتيب: هود ٩، ١٠، والأنفال: ٤٣، ٤٤.

(٣) الآيات بالترتيب: الواقعة ٢٨ـ٣٠، والضحى ٩، ١٠.

(٤) النجم ١، ٢.

(٥) الحاقة ٣٠ـ٣٢.

٤ـ ما قصرت فقرته الثانية عن الأولى قصرا يسيرا، كما فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾[١].

وقد تتواطأ الفاصلتان على أكثر من حرف، وتتفقان فى ذلك، ويعرف هذا بلزوم ما لا يلزم، كما فى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾... ﴿وَالطُّورِ ۝ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾... ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ۝ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾... ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ۝ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾[٢]. فقد تواطأت الفواصل فى الآيات الكريمة على حرفين فى آيتى سورة "الضحى" وعلى أكثر من حرفين فى بقية الآيات الكريمة، ويعرف هذا ـ كما قلنا ـ بلزوم ما لا يلزم.

هذا وترجع بلاغة السجع إلى ما يحدثه من النغمة المؤثرة، والموسيقى القوية التى تطرب لها الأذن، وتهش لها النفس، فتقبل على السماع من غير أن يداخلها ملل، أو يخالطها فتور، فيتمكن المعنى من الأذهان ويقر بالوجدان ويعز لدى العقول[٣].

وإنَّ من مزايا السجع فى النظم الكريمة شدة ارتباط الفاصلة بما قبلها من الكلام بحيث تنحدر على الأسماع انحدارا، وكأن ما سبقها لم يكن إلا تمهيدًا لها، وبحيث لو حذفت لا ختل المعنى، ولو سكت عنها لاستطاع السامع أن يدركها.. ولننظر إلى تلك الفاصلة: "ضِيزَى" فى الآيات الكريمة: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ۝ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ۝ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾[٤] نجد أنها تتسق مع المعنى، وتنحدر على الأسماع وتنساق مع السياق انسياقا تاما، فهى لفظة غريبة، اقتضتها واستدعتها تلك القسمة الغريبة التى أنكرها النظم الكريم[٥].

والسجع كغيره من ألوان البديع إنما يستجاد ويستحسن إذا صدر عن طبع وجاء

---

(١) الفيل ١، ٢.
(٢) الآيات بالترتيب: الضحى ٩، ١٠. والطور ١، ٢، والقيامة ٢٩، ٣٠، والأعراف ٢٠١، ٢٠٢.
(٣) انظر الصبغ البديعى ٤٩٧.
(٤) النجم ١٩ـ٢٢.
(٥) انظر إعجاز القرآن للرافعى ٢٦١.

عفوا فطريا، وقاد إليه المعنى، أما إذا جاء متكلفا مصطنعا، وصار هو الذى يقود إلى المعنى، فإنه يستقبح ويعاب، ويرد على قائله فلا يقبل منه.

يقول الإمام عبد القاهر: "ولن تجد أيمن طائرا، ولا أحسن أولا وآخرا، وأهدى إلى الإحسان، وأجلب إلى الاستحسان، من أن ترسل المعانى على سجيتها، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ، فإنها إذا تركت وما تريد، لم تكتس منها إلا ما يليق بها، ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها، فأما أن تضع فى نفسك أنك لابد من أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين، فهو الذى أنت منه بعرض الاستكراه، وعلى خطر من الخطأ، والوقوع فى الذم"[١].

وما من ريب فى أن الجناس والسجع والطباق وسائر ألوان البديع فى آيات الذكر الحكيم، قد اقتضاها المعنى، وقاد إليها، فجاءت عفوية فطرية، تحقق أغراضا ومزايا بلاغية، وتتسق فى سياقها اتساقا، وترتبط بمعانيه ارتباطًا، فلا نجد طباقا ينبو به السياق، ولا جناسا قلقا، ولا سجعا مضطربا، وإنما نجد السياق ينادى على تلك الألوان ويعانقها، ونجدها وقد انقادت للمعانى، تحقق ما تقتضيه وتتطلبه.

لا نجد لونا بديعيا قد جاء فى آيات الذكر الحكيم لمجرد الزينة والزخرفة، بل جاءت تلك الألوان فى سياق اقتضاها ودعا إليها، فشأنها شأن مسائل المعانى ومسائل البيان، لها مقامات تقتضيها، ولكل مقام مقال، ولكل لون من ألوان البلاغة مقامات، فللطباق مقاماته، وللاستعارات مقامات وللجناس مقامات، وللسجع مقامات... وعندما تأتى هذه الألوان البلاغية فى مقاماتها، فإنها تحقق الأغراض التى تقتضيها، والمزايا البلاغية التى تتطلبها.

---

(١) أسرار البلاغة ١٤.

خـاتمة

عند دراسة مسائل البلاغة، من معان وبيان وبديع، دراسة تطبيقية تحليلية، تكون الغاية من الدراسة، تجلية هذه المسائل، وإبراز ما وراءها وما يحيط بها من أسرار ولطائف، ومن مزايا بلاغية، وهذه الدراسات التطبيقية، تتطلب من الدارس بذل المزيد من الجهد، وتتطلب إنعام النظر فى النصوص المدروسة، وفى المفاهيم البلاغية المقررة، فتلك المفاهيم قد يحرر بعض منها فى ضوء تلك الدراسات، وقد يصحح بعض، وقد يضاف إليها أو يحذف منها، وفضلا عن ذلك فإن هذه المفاهيم تجلى وتنكشف بتلك الدراسات التطبيقية التحليلية.

وفى هذا الكتاب جهد مبذول لتجلية مسائل المعانى والبيان والبديع فى آيات الذكر الحكيم، فهو دراسة متأنية، تتدبر الآيات الكريمة، وتتتبع فيها هذه المسائل البلاغية، بدءا من الكلمة المفردة، كيف أديرت واستعملت، وما وراء إدارتها واستعمالاتها من أسرار ومزايا، إلى التراكيب وخصائصها، إلى التصوير ومنازعه وغاياته، إلى ألوان البديع وإيحاءاتها وآثارها ومقاصدها.

ففى دائرة الكلمة المفردة، جلَّى البحث والتتبع، كيف تؤثر الكلمة بالتعبير دون غيرها، وما يكمن وراء هذا الإيثار من أغراض بلاغية يفيدها اللفظ المؤثر، وقد تجلى فى ذلك على سبيل المثال: الفرق بين: "النصيب" و"الكفل" وبين "الإعصار و"الصر" وبين: "الفجر" و"التفجير" وبين: "النخل المنقعر" و"النخل الخاوي" إلى غير ذلك من ألفاظ أوثرت بالتعبير لاقتضاء المقام إياها، وأوثر غيرها فى مقام آخر اقتضاها دون الأولى، ولكل مقام مقال.

وفى دائرة الكلمة أيضا، كانت دراسة للإفراد والتثنية والجمع، فتجلى بالبحث والتدبر أن هنالك ألفاظًا لم ترد إلا مفردة وأخرى لم ترد إلا جمعا، وألفاظًا أفردت وثنيت وجمعت، ووراء هذه الألفاظ واستعمالاتها أسرار وأغراض تجلت لنا عند حديثنا عن الإفراد والتثنية والجمع.

وكانت دراسة أخرى لتعريف الكلمة وتنكيرها، تدبرت استعمالات الكلمة نكرة فى آيات الذكر الحكيم، واستعمالاتها معرفة بالضمائر والعلمية والإشارة والموصولية والألف واللام والإضافة، وجلت ما وراء تلك الاستعمالات من أغراض بلاغية، أفادتها النكرة، ودلت عليها تلك المعارف.

وفى ميدان التراكيب: كانت دراسات متعددة، دراسة للتوابع والقيود، تناولت التقييد بالصفة، والتقييد بالحال، والتقييد بالمفعول، والتقييد "بإن وإذا" وبالجار والمجرور، كما تناولت البدل وأغراضه، وعطف البيان، وعطف النسق، والتوكيد اللفظى والمعنوى، وجلت هذه الدراسة ما وراء التقييد والتوابع المذكورة من دقائق ولطائف.

وجاءت دراسة أخرى "للتقديم" تناولت التقديم فى نطاق الجملة القرآنية والتقديم فى نطاق الآية والآيات، وجلت هذه الدراسة السر البلاغى الكامن وراء أهمية المقدم فى كل تقديم تعرضت له، فلا يكفى أن يقال: قدم هذا اللفظ لأهميته والعناية به، ولكن ينبغى بيان وجه الأهمية وسبب العناية، هكذا قال الإمام عبد القاهر رحمه الله، لذا أبرزت دراسة التقديم هنا، السر البلاغى الكامن وراء اللفظ المقدم، كاشفة عن سبب العناية وعن وجه الأهمية، وجلت أسرارا أخرى للتقديم غير العناية والاهتمام بالمقدم.

ودراسة ثالثة "للحذف" كشفت عن أسراره ودقائقه، وبينت أنواعه، ورابعة تناولت التجوز فى الإسناد، وجلت ملابساته وأغراضه، وخامسة درست خروج الكلام عن مقتضى الظاهر فجلت الأسلوب الحكيم، والمخالفة فى صيغ الأفعال ـ التعبير بالمضارع فى موضع الماضى، وبالماضى فى موضع المضارع وبالإنشاء فى موضع

الخبر - ووضع الضمير فى موضع الظاهر، والظاهر فى موضع الضمير، كما أبرزت صور الالتفات وأسراره، والتغليب وأغراضه.

ودراسة سادسة "للقصر" جلت طرقه، وما بين تلك الطرق من فروق، وبينت أنواعه باعتبارات مختلفة، وسابعة تناولت "الإنشاء" وأنواعه وأغراضه، وثامنة تعرضت للعلاقات بين الجمل، فبينت مواضع الفصل، ومواضع الوصل، وجلت معانى "الواو" وتاسعة تناولت الإيجاز والإطناب، فأبرزت الفرق بين إيجاز الحذف، وإيجاز القصر، وجلت أنواع الإطناب، والأسرار البلاغية الكامنة وراء كل نوع.

وفى هذه الدراسات تجلية للمفاهيم البلاغية، ومناقشات لآراء العلماء، كان القصد منها الوصول إلى الراجح منها، فى ضوء ما كشفت عنه التحليلات البلاغية لآيات الذكر الحكيم، وفيها إضافات لتلك المفاهيم، وإيضاحات لها، وتحرير وتنقية وتصحيح لبعضها، فى ضوء ما تجلى لنا من خلال الآيات الكريمة، والتحليلات البلاغية لتراكيبها.

وفى ميدان التصوير البيانى كانت الدراسات الآتية:

١- دراسة التشبيه فى الآيات الكريمة، وقد جلت هذه الدراسة عناصر التشبيهات القرآنية، وأبرزت منازع الصور التشبيهية المفردة والمركبة، وجلت أثر القيود فى التشبيهات المقيدة، وكشفت عن دقائق ولطائف وراء تشبيهات غلمان الجنة وتشبيهات الحور العين، وأفاضت فى تحليل تلك التشبيهات، وتتبعت ما شبه فى آيات الذكر الحكيم، من: القلوب والجبال والجوارى المنشآت فى البحر والقمر والموج، وأحوال الجبال يوم القيامة، وأحوال الناس، وأمر الساعة، وتصوير هلاك الأمم الكافرة ومصارعهم، وتشبيه المنافقين وأحوالهم فى الدنيا، وتشبيه المقاتلين فى سبيل الله وتصوير ما يعبد من دون الله، وتصوير حال اليهود، وتشبيه القمر، وتمثيل الحياة الدنيا، وتمثيل مؤازرة الصحابة النبى ﷺ وتمثيل أعمال الكفار إلى غير ذلك مما أبرزته تلك الدراسة.

وجلت هذه الدراسة أن الشبه لهذه الصور، قد انتزع من البيئة، وما يعرفه الناس، أو يتخيلونه، فجاء المشبه به: العرجون القديم والحجارة والجبال والأعلام والظلة

والظلل، والكثيب المهيل، والعهن، والعهن المنفوش، والفراش المبثوث، والهباء المنبث والسراب وأعجاز النخل المنقعر، والخاوية وهشيم المحتظر، والعصف المأكول، والبنيان المرصوص، والحمر المستنفرة، ولمح البصر، واللؤلؤ المنثور، والمكنون، والياقوت والمرجان، والبيض المكنون، والجان ورءوس الشياطين.

وانتزعت الصور المركبة من: الزروع والثمار والنباتات، ومن الرماد الذى اشتدت به الريح فى يوم عاصف، ومن السراب يحسبه الظمآن ماء، ومن صفوان عليه تراب أصابه وابل، ومن جنة بربوة أصابها وابل أو طل، ومن جنة من نخيل وأعناب، وانتزعت الصورة لحال اليهود من الحمار يحمل أسفارًا وللمنافقين من حال من استوقد نارا، ولعباد الأصنام من العنكبوت اتخذت بيتا، إلى غير ذلك من المنازع التى انتزعت منها الصورة التشبيهية المركبة.

هذا وقد جلت الدراسة أن التشبيهات القرآنية فى سياقاتها نسيج واحد، إذ تنبسق أنسجتها اللغوية من السياق، لا تنفصم عنه، بل تمضى مع السياق نسيجا واحدا، يخرج من مشكاة لغوية واحدة، كما أبرزت الدراسة أن التشبيهات القرآنية الملتقية فى سياق واحد، تتضافر على تجلية الأهداف والمقاصد التى يرنو السياق إلى تحقيقها.

٢- دراسة الاستعارة فى الآيات القرآنية، وقد تتبعت هذه الدراسة الاستعارة فى آيات الذكر الحكيم، وجلت أنواعها، وأبرزت منازعها، فقد انتزعت من النور، ومن الحياة والبصر، ومن الحبال، ومن البعث والمضجع، ومن المرقد وزيارة القبور، ومن السلخ والصدع، ومن الموج والإفاضة... إلى غير ذلك من المنازع، وناقشت هذه الدراسة كثيرا من آراء العلماء، ناقشت رأيهم فى النقل الذى يكون فى الاستعارة، أهو نقل للألفاظ أم للمعانى، وناقشت آراءهم فى تشخيص الاستعارة المكنية، وجلت الترشيح والتجريد الذى يصاحب الاستعارة، وأوضحت أن التجريد قد يكون أبلغ من الترشيح عندما يقتضيه المقام، ويتطلبه السياق، والمعنى الذى يفيض فيه، وكانت هذه المناقشات من خلال تحليل دقيق متأن للاستعارات بأنواعها المختلفة فى الآيات الكريمة.

٣- دراسة للمجاز المرسل فى الآيات القرآنية، جلت علاقات هذا المجاز وما يكمن

وراء كل علاقة من دقائق وأسرار بلاغية، وناقشت ما ينبغى أن يكون فى كل علاقة، وما يجب توفره فى اللفظ الذى وقع به التجوز، وتجلى فى هذه الدراسة ما بين المجاز المرسل والاستعارة والمجاز العقلى من فروق، والخصائص التى يتميز بها كل لون من هذه الألوان.

٤ـ دراسة للكناية فى الآيات الكريمة، تجلى فيها جمال التعبير بالأسلوب الكنائى فى القرآن الكريم، وكشفت الدراسة عن أنواع الكناية فى القرآن، وأوضحت أنها قد كثرت فى النظم القرآنى، حيث كنى فيه عن أهوال يوم القيامة، وعما يصيب الناس فى هذا اليوم، يوم الفزع الأكبر، وكنى فيه عن الندم والتحسر، وعن الإعراض والاستكبار، وعن البخل والإمساك، وعن الكرم والعطاء، وعن العفة والطهارة، وعن سفينة نوح، وعن الأنثى التى تنشأ فى الحلية.

ومن الكنايات الدقيقة فى القرآن الكريم، الكناية عما يستقبح ذكره، كالنكاية عن قضاء الحاجة بأكل الطعام، والكناية عما يستحيى التصريح به، كالكناية عن الجماع، حيث كنى عنه بما لا يجد الرجال حرجا من ذكره أمام النساء، ولا تجد النساء حرجا من ذكره أمام الرجال، فقد كنى عنه بالإفضاء والتغشية والملامسة والمباشرة وإتيان الحرث والسر، والرفث، وتلك تعبيرات لا يستحيى من ذكرها.

ونجد الكناية فى التعبير القرآنى متسقة فى سياقها، حيث يكنى عن المعنى الواحد بعدة كنايات تنسجم كل كناية فى سياقها، وتمضى مع المعنى الذى يفيض به السياق، فقد كنى عن "الندم والتحسر" بالعض على الأنامل، وبالعض على اليدين وبالسقوط فى الأيدى، وبتقليب الكفين، وكل كناية من هذه الكنايات نراها منسجمة فى سياقاتها، متلائمة مع المعنى الذى يفيض به السياق.

وقد نهضت هذه الدراسة أيضا بتجلية الفروق بين المجاز والكناية، وبين الكناية والتعريض، وحللت كثيرا من مواطن التعريض فى آيات الذكر الحكيم، كاشفة عن المغزى البلاغى للتعريض فى كل موضع من هذه المواضع، مبرزة ما بين التعبيرات الكنائية والتعبيرات التعريضية من فروق فى الآيات القرآنية الكريمة.

* * *

وفى ميدان الدراسة البديعية

تناول الكتاب ألوانا بديعية مختلفة، تناول الطباق والمقابلة ومراعاة النظير وتشابه الأطراف وإيهام التناسب، والإرصاد ورد الأعجاز على الصدور، والعكس والتبديل، والتورية والاستخدام والتوجيه، والمشاكلة والمبالغة والتجريد، واللف والنشر، والتقسيم، والجمع والتفريق، والجمع مع التفريق، والجمع مع التفريق والتقسيم، وسوق المعلوم مساق غيره، وتأكيد المدح بما يشبه الذم، وتأكيد الذم بما يشبه المدح، والمذهب الكلامى، والجناس والسجع، ولزوم ما لا يلزم.

وقد ناقشت هذه الدراسة آراء العلماء فى الألوان البديعية، وجلت من خلال تحليل الآيات الكريمة أنها ليست لمجرد الزينة والزخرفة الشكلية، بل يقتضيها المقام، ويستدعيها المعنى الذى يفيض به السياق، وتحقق أغراضا بلاغية ومزايا وأسرارا لا تتحقق بدونها، وكانت الجهود فى هذه الدراسة متجهة إلى تجلية هذه الأسرار والكشف عن تلك الأغراض.

تجلى ذلك عند دراسة الألوان المذكورة فى آيات الذكر الحكيم، ففى "الطباق" رأينا ألوانا مختلفة، كالطباق الخفى، وطباق التدبيج، وطباق السلب، ويستدعى المعنى فى السياق اللون من هذه الألوان، فيأتى متلائما منسجما محققا الغرض الذى استدعاه من أجله المعنى، واقتضاه المقام.

وفى اللف والنشر، نجد المعنى يطوى فى اللف ويجمل، ثم يأتى النشر كاشفا عنه، موضحا إياه، فيقع فى النفس موقعه، لقد تطلب المقام تأكيد المعنى وتثبيته فى النفس، ويتحقق هذا التثبيت عن طريق هذا اللون، الذى يخفى المعنى فى أوله ويطوى، ثم يظهر فى آخره وينشر، فيثبت بذلك فى النفس، ويتأكد لديها.

وفى "مراعاة النظير وتشابه الأطراف ورد الأعجاز على الصدور" تتلاءم المعانى وتتلاحم وتترابط، ويشد بعضها أزر بعض، حيث يضم النظير إلى نظيره، ويرد آخر الكلام إلى أوله، وتترابط بذلك أجزاء الكلام، وتتأكد معانيه، وتثبت لدى المتلقى، فيقبل على امتثال المعنى الذى يفيض به السياق، ويدعو إليه المقام.

وفى كل من التورية والاستخدام والتوجيه تنشيط للأذهان، وتحريك للنفوس، حيث يأتى اللفظ محتملا معنيين، ويراد أحدهما أو كلاهما أو يوجه الوجهة التى يريدها الكلام ذما أو مدحا.

وفى التقسيم إحاطة بأقسام المعنى، وفى الجمع تلتقى الأمور فى معنى واحد يجمعها، وفى التفريق بث لما هو مجموع، وفى المشاكلة يذكر المعنى بلفظ غيره لتحقيق غرض بلاغى، وكذا فى سوق المعلوم مساق غيره تحقيق لأغراض يقتضيها المقام، يساق الكلام هذا المساق من أجل تحقيقها.

وفى الجناس يأتى اللفظ موهما التكرير والإعادة، فتتحقق به فى المعانى زيادة، وفى السجع طرب، وموسيقى تحرك الأذهان وتؤثر فى الوجدان، وتجذب نحو المعانى... وهكذا نرى وراء ألوان البديع مزايا وأغراضا بلاغية تتحقق، والمقام قد اقتضاها ودعا إليها، وأن تلك الألوان ليست لمجرد الزينة والزخرفة الشكلية.

هذا وأمام الدراسات التطبيقية تتضاءل تلك التقسيمات لمسائل البلاغة، بحيث تلتقى ألوان منها فى التعبير الواحد ليتحقق المعنى المنشود، تلتقى ألوان من البديع فى التعبير، وتلتقى ألوان من المعانى أو البيان مع ألوان من البديع، وتتضافر هذه الألوان ـ عند التقائها ـ على تحقيق الغرض والمعنى الذى يرنو إليه السياق.

ففى قوله تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص ٧٣] التقى فى الآية ثلاثة ألوان بديعية، الطباق بين "الليل والنهار" والطباق الخفى بين: ﴿ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ و﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ واللف والنشر حيث ذكر متعدد ﴿ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ وهذا هو اللف، ويسمى أيضا "طبا" لأن المعنى لف فيه وطوى، ثم جاء النشر فى قوله: ﴿ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ حيث يرد السامع إلى كل واحد من المتعدد ما يليق به، فيرد السكن إلى الليل، ويرد ابتغاء الفضل إلى النهار، وهذه الألوان البديعية الثلاثة قد تضافرت على تجلية المعنى الذى يفيض به السياق، وهو الحث على تدبر هذه النعمة، نعمة الليل والنهار، وحسن شكرها، فهى رحمة من الله بعباده، أن جعل سبحانه وتعالى الزمن ليلا ونهارا، فينبغى أن نحسن السير عليهما إلى الآخرة شكرًا للنعمة.

وفى قوله تعالى: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى: ١-٣]، يلتقى فى الآيات الكريمة، مراعاة النظير بين: **"الضحى والليل"** وبين "ما ودعك" و"ما قلى"، والقسم بهذين الوقتين: "الضحى والليل" وجواب القسم: "ما ودعك ربك وما قلى" والحذف، حذف مفعول "قلى" إذ الأصل: وما قلاك، والسجع الذى أدى هذا الحذف إلى استمراره ووصوله إلى "قلى" ومن ثم امتداده إلى ما بعده.

لقد تضافرت هذه الألوان البلاغية على تحقيق المعنى الذى ينادى به السياق، وهو الإشادة بمنزلة النبى ﷺ وبيان مكانته، تضافر الحذف مع السجع فحقق امتداده، ليستمر هذا النغم الموسيقى المؤثر، فيهز العقل وتطرب له النفس، ثم تضافر الحذف والسجع، مع بقية الألوان المذكورة، فتجلت مكانة النبى ﷺ وسمت، وتمكنت بالوجدان.

وفى كثير من الآيات الكريمة، يأتى الحذف أو التقديم ليعينا السجع، ويدفعا به ويؤديا إلى امتداده واستمراره، ففى سورة "الرعد" نجد السجع مقفى بحرف الباء ابتداء من الآية (٢٧): ﴿ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾... ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾(٢٨)... ﴿ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾(٢٩)... ولكى يستمر هذا السجع ويمتد تأثيره فى تحريك النفوس وهز العقول، يأتى الحذف فى قوله: ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾(٣٠) فقد حذف المضاف إليه وهو ضمير المتكلم، إذ الأصل: وإليه متابى، وأدى هذا الحذف إلى امتداد النغم الموسيقى المؤثر الذى حققه السجع.

وفى قوله تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝٦٩ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٦٧-٧٠] نجد فى الآية تقديم المفعول "خيفة" والجار والمجرور "فى نفسه" على الفاعل "موسى" لتستمر الفاصلة ويمتد السجع، كما نرى فى الآية الأخيرة تقديم "هارون" على "موسى" من أجل هذا الغرض.

بينما نجد فى سورة الأعراف تقديم "موسى" على "هارون" فى قوله تعالى: ﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ۝١٢٠ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾ [١٢٠- ١٢٢]، وكذا فى سورة الشعراء فى قوله تعالى: ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾ [٤٦- ٤٨] تقدم "موسى" على "هارون" فى سورتى الأعراف والشعراء، لأن الفاصلة على حرف النون، وقدم "هارون" على "موسى" فى سورة "طه" لأن الفاصلة على حرف الألف، فالتقديم فى تلك المواضع أدى إلى بقاء السجع، واستمرار هذا النغم الصوتى المؤثر، المؤدى بدوره إلى تمكين المعنى وتثبيته فى النفس والوجدان.

فأمام الدراسات التطبيقية - كما قلت - تتضاءل تلك التقسيمات لمسائل البلاغة، ويطغى ما فى النص من ألوان بلاغية، فلا يلتفت عندئذ إلى تقسيمات، بل ينعم النظر فى النص، ويحاط بما فيه من ألوان، تعاونت على تجلية المعنى الذى يفيض به السياق، ويقتضيه المقام.

وفى الختام أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا العمل، وأن تتحقق الثمرة المرجوة منه، وأن يجزينا به خير الجزاء، وأن يرحم والدينا، ويصلح شأننا، وأن يعفو عنا، فلا يؤاخذنا بما يكون قد جرى به القلم فى غفلة منا، فكتب حول كتابه تعالى معنى لا يليق بجلاله وعظيم سلطانه، إنه سبحانه وتعالى خير مسئول وهو مولانا، نعم المولى ونعم النصير، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

- الإتقان فى علوم القرآن للسيوطي: ط. دار التراث بالقاهرة.
- أسباب النزول للنيسابوري: مكتبة الدعوة بالقاهرة.
- أسرار البلاغة لعبد القاهر: ط. دار الطباعة المحمدية ١٣٩٢هـ.
- الإعجاز البلاغى، د/ محمد أبو موسى: مكتبة وهبة، ١٤٠٥هـ.
- إعجاء القرآن للبلاقاني: ط. دار المعارف، ١٩٧٧م.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي: ط. دار الكتب العلمية ببيروت، ١٤٠٨هـ.
- الإيضاح للخطيب القزويني: ط. صبيح، ١٣٩٢هـ.
- البحر المحيط لأبى حيان: ط. دار الفكر، ١٤٠٣هـ.
- البرهان فى علوم القرآن للزركشي: ط. دار التراث بالقاهرة.
- بصائر ذوى التمييز، للفيروز بادي: ط. نهضة مصر، ١٤٠٦هـ.
- البيان والتبيين للجاحظ: ط. الخانجى بالقاهرة، ١٩٧٥م.
- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة: ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠١هـ.
- تحرير التحبير لابن أبى الإصبع: طبع فى القاهرة، ١٣٨٣هـ.
- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشرو: ط. الدار التونسية ١٩٨٤م.
- التصوير البيانى، د/ محمد أبو موسى: ط. دار التضامن ١٤٠٠هـ.
- تفسير أبى السعود: ط. دار إحياء التراث العربى ببيروت ١٤١١هـ.
- تفسير ابن كثير: ط. الحلبى.

- تفسير الجلالين: ط. دار التراث بالقاهرة.
- تفسير الطبري: ط. دار المعارف بمصر، ١٩٦٩م.
- تفسير الفخر الرازي: ط. دار الفكر، ١٤٠٥هـ.
- تلخيص البيان فى مجازات القرآن للشريف الرضي: ط. عالم الكتب، ١٤٠٦هـ.
- ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن للرمانى والخطابى والجرجاني: ط. دار المعارف، ١٩٧٦م.
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ.
- الجمان فى تشبيهات القرآن لابن ناقيا: ط. منشأة المعارف بالأسكندرية، ١٩٧٤م.
- خصائص التراكيب، د/ محمد أبو موسى: ط. دار التضامن، ١٩٨٠م.
- الخصائص لابن جنى: ط. دار الهدى ببيروت، الطبعة الثانية.
- دلائل الإعجاز لعبد القاهر: ط. الفجالة، ١٩٨٩م.
- روح المعانى للألوسي: ط. دار إحياء التراث العربى ببيروت.
- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي: ط. دار الكتب العلمية ببيروت، ١٤٠٢هـ.
- شروح التلخيص: ط. الحلبى، ١٩٣٧م.
- الصبغ البديعى للدكتور أحمد موسى. ط: دار الكتاب العربى سنة ١٣٨٨هـ.
- الصاحبى لابن فارس: ط. الحلبى، ١٩٧٧م.
- الصناعتين لأبى هلال العسكري: ط. الحلبى، ١٩٧١م.
- الطراز للعلوي: ط. دار الكتب العلمية ببيروت، ١٤٠٠هـ.
- العقد الفريد لابن عبد ربه: ط. دار الكتب العلمية ببيروت، ١٤٠٤هـ.
- العمدة لابن رشيق: ط. دار الجبل ببيروت، ١٩٧٢م.
- فتح القدير للشوكاني: ط. دار المعرفة ببيروت.
- الفتوحات الإلهية للعلامة الجمل: ط. الحلبى.
- فى ظلال القرآن لسيد قطب: ط. دار الشروق، ١٤١٢هـ.
- القاموس المحيط للفيروز أبادي: ط. الحلبى، ١٣٧١هـ.

- الكتاب لسيبويه: ط. الهيئة المصرية، ١٣٩١هـ.
- الكشاف للزمخشري: ط. الحلبى، ١٣٩٢هـ.
- لسان العرب لابن منظور: ط. دار المعارف، ١٩٧٩م.
- المثل السائر لضياء الدين بن الأثير: ط. دار نهضة مصر، ١٩٧٣م.
- مجاز القرآن لأبى عبيدة: ط. الخانجى.
- المجازات النبوية للشريف الرضي: ط. الحلبى، ١٣٥٦هـ.
- مجمع الأمثال للميداني: ط. دار الجيل ببيروت، ١٤٠٧هـ.
- محاسن التأويل للقاسمي: ط. الحلبى، ١٣٧٦هـ.
- المطول لسعد الدين التفتازي: مطبعة أحمد كامل، ١٣٣٠هـ.
- معانى القرآن للفراء: ط. الهيئة المصرية، ١٩٨٠م.
- مغنى اللبيب لابن هشام: ط. المدنى.
- مفتاح العلوم للسكاكي: ط. الحلبى، ١٣٥٦هـ.
- من بلاغة القرآن، د/ أحمد بدوي: ط. دار نهضة مصر، ١٩٧٧.
- الموازنة للآمدي: ط. المكتبة العلمية ببيروت.
- النبأ العظيم، د/ محمد عبد الله دراز: ط. السعادة، ١٣٨٩هـ.
- نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز للرازي: ط. الآداب، ١٣٧١هـ.
- النهاية فى غريب الحديث والأثر لمجد الدين بن الأثير: ط. دار الفكر ببيروت.
- الوساطة لعلى بن عبد العزيز الجرجاني: ط. الحلبى، ١٣٨٦هـ.

محتويات الكتاب

المقدمة: ٧

لكل مقام مقال: ٩ ـ ٢١

بين النصيب والكفل (١٠) بين الفجر والتفجير (١٢) عطف تذبيح الأبناء على سوم العذاب فى سورة إبراهيم وترك العطف فى سورة البقرة (١٣) إفراد سبيل الحق وجمع سبل الضلال (١٤) تنكير "السلام" الملقى على "يحيي" وتعريف "السلام" الملقى على "عيسى" فى سورة مريم (١٥) أضرب الخبر (١٧) بين تشبيه صرعى عاد بأعجاز النخل المنقعر وبأعجاز النخل الخاوية (٢٠). مفهوم البلاغة. (٢١)

الإفراد والتثنية والجمع: (٢٢ ـ ٣٠)

إفراد السمع وجمع القلوب والأبصار (٢٣) جمع الشفيع وإفراد الصديق (٢٤) إيضاح المثل "أعز من بيض الأنوق" (٢٥) إفراد الريح وجمعها (٢٥) إفراد الولى وجمعها .. إفراد النور وجمع الظلمات (٢٦) إفراد السماء وجمعها (٢٨) ملازمة الأرض والنار الإفراد (٢٨) جمع الألباب (٢٨) إفراد الجنة وتثنيتها وجمعها (٢٩) إفراد المشرق والمغرب وتثنيتهما وجمعهما (٢٩) إفراد الكرة وتثنيتها (٣٠).

التعريب والتنكير: (٣٠-٤٤)

التعريف بضمير المتكلم (٣٢) التعريف بضمير المخاطب (٣٣) التعريف بضمير الغائب (٣٣) التعريف بالعلمية (٣٤) التعريف بالأسماء

الموصولة (٣٥) التعريف بأسماء الإشارة (٣٧) التعريف بالألـف واللام (٣٩) التعريف بالإضافة (٤٠) أغراض التنكير (٤١).

التوابع والقيود: (٤٤ ـ ٦٤)

التقييـد بالصفة (٤٦) البدل وأغراضه (٤٨) عطـف البـيان وأغـراضـه (٥٠) التـوكيد اللفظى والمعنوى (٥٠) التأكيد بكل وإفـادتها التأسيـس (٥٢) دخول النفى على "كل" واستدراك سعد الدين على عبد القاهر ورد هذا الاستدراك (٥٣) التقييد بالحال (٥٤) التقييد بالمفعـول لأجـله (٥٥) عطف النسق (٥٦) التقييد بإن وإذا (٥٨) التقييد بالجار والمجرور (٥٩).

التقديم: (٦٤ ـ ٨٣)

التقديم من شجاعة العربية (٦٦) تقديم "الشفاعة" على "العدل" فى الآية (٤٨) و"العدل على "الشفـاعة" فى الآية (١٢٣) من سـورة البقرة (٦٧) تقديم الضمير "نحن" على اسم الإشارة "هذا" فى الآية (٨٣) من سورة "المؤمنون" وعكس ذلك فى الآية (٦٨) من سورة "النمل" (٦٩) تقديم ضمير المخاطبين على ضمير الأبناء فى قوله "نحن نرزقكم وإياهم" وعكس ذلك فى قوله " نحن نرزقهم وإياكم" (٧٠) التقديم لدفع توهم غير المراد (٧٠) أغراض أخرى للتقديم (٧١) التقديم فى نطاق الآية الكريمة (٧٢) التقديم فى نطاق الجملة القرآنية (٧٥) دلالة التقديم على الاختصاص (٧٥) بين قوله "إن الله معنا" وقوله "إن معى ربى سيهدين" (٧٦) أغراض أخرى للتقديم فى نطـاق الجمـلة القـرآنية (٧٨) دلالة التقديم مرتبطة بالسياق وقرائن أحواله (٧٩) تقديم المسند إليه على خبره الفعلى (٧٩) المقامات التى تقتضى التقديم للدلالةعلى التوكيد (٨١).

الاسمية والفعلية: (٨٤ ـ ٨٩)

بين دلالة الاسم ودلالة الفعل (٨٥) . آية الكهف "وتحسبهم أيقاظا وهم رقود" (٨٦). آية الملك "صافات ويقبضن" (٨٦). آية الأعراف

"أدعوتموهم أم أنتم صامتون" (٨٧). آية يس "لا يسألكم أجراوهم مهتدون" (٨٧). آية التوبة "حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين" (٨٨). آية الأنبياء "أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين" (٨٨). آية البقرة "قالوا آمنا .. قالوا إنا معكم" (٨٨). آية هود "قالوا سلاما قال سلام" (٨٩). آية يوسف "يمرون عليها وهم عنها معرضون" (٨٩).

الحذف: (٨٩ ـ ١١٢)

دقة مسلكه (٩١). حذف جزء الكلمة "الاقتطاع" (٩٢). حذف الحرف (٩٧). حذف المضاف (٩٨). حذف المسند إليه (٩٩). بناء الفعل للمفعول (١٠٠). حذف الفعل (١٠٢). الاكتفاء (١٠٥). حذف الخبر (١٠٧). ما يحتمل حذف المسند أو المسند إليه (١٠٧). الاحتباك (١٠٨) حذف الأجوبة (١٠٨). حذف المفعول (١١٠). حذف الجملة (١١١). حذف الجمل (١١٢).

التجوز فى الإسناد: (١١٣ ـ ١٢٥)

معنى الإسناد (١١٤) بين تعريفى عبد القاهر والخطيب للتجوز فى الإسناد (١١٥). بين المجاز اللغوى والمجاز العقلى (١١٥) ملابسات المجاز العقلى فى النظم القرآنى (١١٦) قرينة المجاز (١٢٥).

خروج الكلام عن مقتضى الظاهر: (١٢٥ ـ ١٤٩)

معنى مخالفة الظاهر (١٢٧) صور الخروج عن مقتضى الظاهر (١٢٧) الالتفات (١٢٨) أسلوب الحكيم (١٣٥) وضع المضمر موضع المظهر (١٣٧) وضع المظهر موضع المضمر (١٣٩) التغليب (١٤١) المخالفة فى صيغ الأفعال (١٤٤).

القصر: (١٤٩ ـ ١٧١)

لمحة موجزة عن أسس القصر وضوابطه (١٥١). تفاوت طرق القصر فى الدلالة (١٥٣). طريق التقديم ومقاماته (١٥٤). بين إنما والنفى والاستثناء (١٥٦) معان تنزيلية (١٥٧). القصر بالتعريف وبضمير

الفصل (١٦٢). المقصور عليه فى التعريف (١٦٣) المقررات البلاغية وما يقتضيه السياق (١٦٤) نوعا القصر الحقيقى (١٦٧) العطف بلا وبل ولكن (١٦٩) التعريض بإنما (١٧٠).

الإنشاء: (١٧١ ـ ٢٠٢)

لمحة موجزة عن الخبر والإنشاء (١٧٢) الأمر والنهى، صيغهما (١٧٤) ما تستعمل فيه صيغ الأمر وصيغة النهى (١٧٦) المعانى البلاغية للأمر والنهى (١٧٧) التمنى (١٧٩) الأداة الموضوعة له (١٧٩) التمنى بغير "ليت" (١٨٠) الاستفهام: معناه وأدواته (١٨١) بناء جملة الاستفهام بعد الهمزة وهل (١٨٢) المعانى البلاغية للاستفهام (١٨٣). النداء (١٨٧) معناه وأدواته (١٨٧) الغاية من النداءات القرآنية (١٨٨) سر نداء القريب "بيا" (١٨٨) نداء "الرب" فى القرآن (١٩٠) نداء الجبال والأرض والسماء (١٩٠) نداء الويل والحسرة والبشرى (١٩١) صيغة "اللهم" (١٩١). القسم ـ أصل معناه ـ حروفه (١٩٢) المقسم به فى القرآن (١٩٣) المقسم عليه (١٩٥) حذف القسم (١٩٦) حذف جواب القسم (١٩٧) التناسب بين القسم وجوابه (١٩٨). وضع الخبر موضع الإنشاء (١٩٩) وضع الإنشاء موضع الخبر (٢٠٠).

الفصل والوصل: (٢٠٢ ـ ٢١٨)

لمحة موجزة عن أهمية الفصل والوصل (٢٠٤) الربط بين المفردات (٢٠٥) مجئ الواو بين الصفة وموصوفها وبين الحال وصاحبها (٢٠٦) الربط بين الجمل (٢٠٨) الجمل التى يجب وصلها بالواو (٢٠٩) التناسب بين الجمل: معناه ـ دقته ـ مراد البلاغيين به (٢١١) الجمل التى يجب فصلها (٢١٢) مرجع الوصل والفصل بين الجمل إلى السياق وما يقتضيه المقام (٢١٥) واو الاستئناف أو القصة والفرق بينها وبين واو العطف (٢١٧).

الإيجاز والإطناب: (٢١٨ ـ ٢٢٨)

نوعا الإيجار (٢١٩) إيجاز الحذف وأسراره (٢١٩) إيجاز القصر ـ نماذج

من النظم القرآنى يتجلى فيها إيجاز القصر (٢٢٠) الإطناب (٢٢٤) أنواع الإطناب: الإيضاح بعد الإبهام ـ ذكر الخاص بعد العام (٢٢٤) ذكر العام بعد الخاص ـ التكرار (٢٢٥) الإيغال ـ التذييل ـ التكميل (٢٢٦) الاعتراض ـ حروف الزيادة (٢٢٧).

التشبيه: (٢٢٨ ـ ٢٦٩)

الغاية من دراسة التشبيه فى النظم الكريم (٢٣٠) عناصر التشبيهات القرآنية (٢٣٠) تشبيه القلوب بالحجارة (٢٣١) تشبيه الموج بالجبال (٢٣٢) تشبيه الجوارى بالأعلام (٢٣٣) تشبيه الموج بالظلل (٢٣٣) تشبيه الجبل بالظلة (٢٣٣) تشبيهات سورة النبأ (٢٣٤) تشبيه الجبال بالكثيب المهيل وبالعهن والعهن المنفوش والهباء المنبث وبالسراب (٢٣٥) أحوال الجبال يوم القيامة (٢٣٥) أحوال الناس يوم القيامة (٢٣٦) التشبيه بأعجاز النخل المنقعر وأعجاز النخل الخاوية (٢٤١) التشبيه بهشيم المحتظر وبالعصف المأكول (٢٤٢) تشبيه أمر الساعة بلمح البصر وبلمح بالبصر (٢٤٢) فى التشبيهات المقيدة (٢٤٣) تشبيه المنافقين بالخشب المسندة (٢٤٣) تشبيه المقاتلين فى سبيل الله صفا بالبنيان المرصوص (٢٤٤) تشبيه انحصار الماء بالطود العظيم (٢٤٤) تشبيه القمر بالعرجون القديم (٢٤٤) تشبيه إعراض المنافقين بالحمر المستنفرة (٢٤٥) تشبيهات نساء الجنة (٢٤٦) تشبيهات غلمان الجنة (٢٤٦) التشبيه بالجان وبرءوس الشياطين (٢٤٧) التشبيهات المركبة (٢٤٨) تصوير حال المنافقين بحال من استوقد نارا (٢٤٨) تمثيل حال عبدة الأصنام بالعنكبوت اتخذت بيتا (٢٤٩) تمثيل ما يعبد من دون الله فى عدم إجابته من يدعوه بحال من بسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه (٢٥٠) تمثيل حال اليهود فى حملهم التوراة وعدم العمل بمقتضاها بحال الحمار يحمل أسفارا (٢٥١) تصوير النظم القرآنى للإنفاق (٢٥٢) كثرة التمثيل بالزروع والثمار والنباتات فى النظم الكريم (٢٥٧) تمثيل الحياة الدنيا (٢٥٨) تمثيل مؤازة الصحابة للنبى صلى الله عليه وسلم (٢٦١) تمثيل إشراق شرع الله فى قلب المؤمن (٢٦٢) تمثيل أعمال الكفار (٢٦٣)

تضافر التشبيهات الملتقية على تجلية مقاصد السياق الكريم وانبساق أنسجتها اللغوية من مشكاة واحدة (٢٦٦).

الاستعارة: (٢٦٩ ـ ٢٨٨)

معناها ـ أنواعها (٢٧١) النقل فى الاستعارة (٢٧١) استعارة الاشتراء للاستبدال (٢٧٢) استعارة "النور والبصر والحياة" للإيمان و "الظلمات والعمى والموت" للكفر (٢٧٣) استعارة الحبل للعهد (٢٧٤) الاستعارة المكنية (٢٧٤) انفكاك الاستعارة المكنية عن التخييلية (٢٧٦) الاستعارة التبعية فى الأفعال والمشتقات (٢٧٧) تجريد الاستعارة وترشيحها (٢٧٩) الاستعارة المطلقة (٢٨٠) استعارة الوفاة للنوم والبعث للإيقاظ (٢٨١) استعارة "المضجع والمرقد وزيارة القبور" للموت (٢٨١) شهيق جهنم وزفيرها وتغيظها (٢٨٢) استعارة "الصدع" للجهر بالدعوة و "السلخ" لإزالة الضوء (٢٨٣) الاستعارة العنادية التهكمية (٢٨٣) إيضاح المثل "فلان لا يبض حجره" (٢٨٤) الاستعارة التبعية فى الحروف (٢٨٥) الاستعارة التمثيلية (٢٨٦).

المجاز المرسل: (٢٨٨ ـ ٣٠٢)

بين الاستعارة والمجاز المرسل (٢٨٩) علاقات المجاز المرسل (٢٨٩) الكلية (٢٨٩) الجزئية (٢٩١) السببية (٢٩٤) المسببية (٢٩٥) اعتبار ما كان (٢٩٧) اعتبار ما سيكون (٢٩٨) الحالية (٢٩٩) المحلية (٣٠٠) المجاورة (٣٠٠) الآلية (٣٠١).

الكناية: (٣٠٢ ـ ٣٢٠)

معناها ـ بلاغة التعبير بها (٣٠٢) بين الكناية والمجاز (٣٠٤) أنواع الكناية (٣٠٤) كثرة الكناية فى النظم القرآنى (٣٠٤) الكناية عن الكرب وشدة الأهوال (٣٠٤) الكناية عن الاستكبار والإعراض (٣٠٥) الكناية عن الندم والتحسر (٣٠٦) الكناية عن البخل والشح وعن الكرم والعطاء (٣٠٧) الكناية عما يستقبح ذكره (٣٠٨) الكناية عما يستحيى التصريح به (٣٠٨) الكناية عن العفة والطهارة (٣١٣) الكناية عن

السفينة (٣١٥) الكناية عن الأنثى (٣١٥) بين الكناية والتعريض (٣١٥).

ألوان من البديع: (٣٢٠-٣٨٢)

نبذة عن علوم البلاغة الثلاثة: (المعانى والبيان والبديع): (٣٢٧)

الطباق وأنواعه: (٣٣٠) مراعاة النظير: (٣٣٨)

إيهام التناسب: (٣٣٩) تشابه الأطراف (٣٤٠)

الإرصاد ورد الأعجاز على الصدور: (٣٤٣) العكس والتبديل: (٣٤٤)

التورية والتوجيه والاستخدام: (٣٤٦)

المشاكلة والمبالغة والتجريد: (٣٤٩)

اللف والنشر: (٣٥٣) الجمع مع التفريق والتقسيم: (٣٦٠)

تجاهل العارف: (٣٦٠) تأكيد المدح بما يشبه الذم.. والذم بما يشبه المدح (٣٦٣)

المذهب الكلامى: (٣٦٥) الجناس: معناه ـ أنواعه ـ بلاغته: (٣٦٨)

السجع: آراء العلماء فى جواز إطلاقه على ما جاء فى القرآن ـ أقسامه ـ بلاغته ـ نهى النبى ﷺ عن سجع الكهان: (٣٧٢)

خاتمة: (٣٨٣)

المصادر والمراجع: (٣٩٣)

محتويات الكتاب: (٣٩٧)

كتب للمؤلف

١- من هدى القرآن الكريم

تفسير بلاغى لسورة (المؤمنون)

٢- علم المعانى الجزء الأول

دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعانى

٣- علم المعانى الجزء الثانى

دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعانى

٤- علم البيان

دراسة تحليلية لمسائل البيان

٥- علم البديع الجزء الأول

دراسة تاريخية لأصول البلاغة

٦- علم البديع الجزء الثانى

دراسة فنية لمسائل البديع

٧- دراسات بلاغية

بحوث بلاغية متنوعة

٨- بلاغة تطبيقية

دراسة لمسائل البلاغة من خلال النصوص

٩ ـ التشويق فى الحديث النبوى

طرقه وأغراضه

١٠ ـ بين المكنية والتبعية والمجاز العقلى

عرض وتحليل وموازنة

١١ ـ من بلاغة النظم القرآنى

دراسات بلاغية تحليلية لمسائل المعانى والبيان والبديع فى آيات الذكر الحكيم

١٢ ـ روافد من نهر الإعجاز البلاغى للقرآن الكريم

١٣ ـ من الهدى النبوى

دراسات بلاغية تطبيقية فى الحديث النبوى

١٤ ـ كتب أخرى تحت الطبع